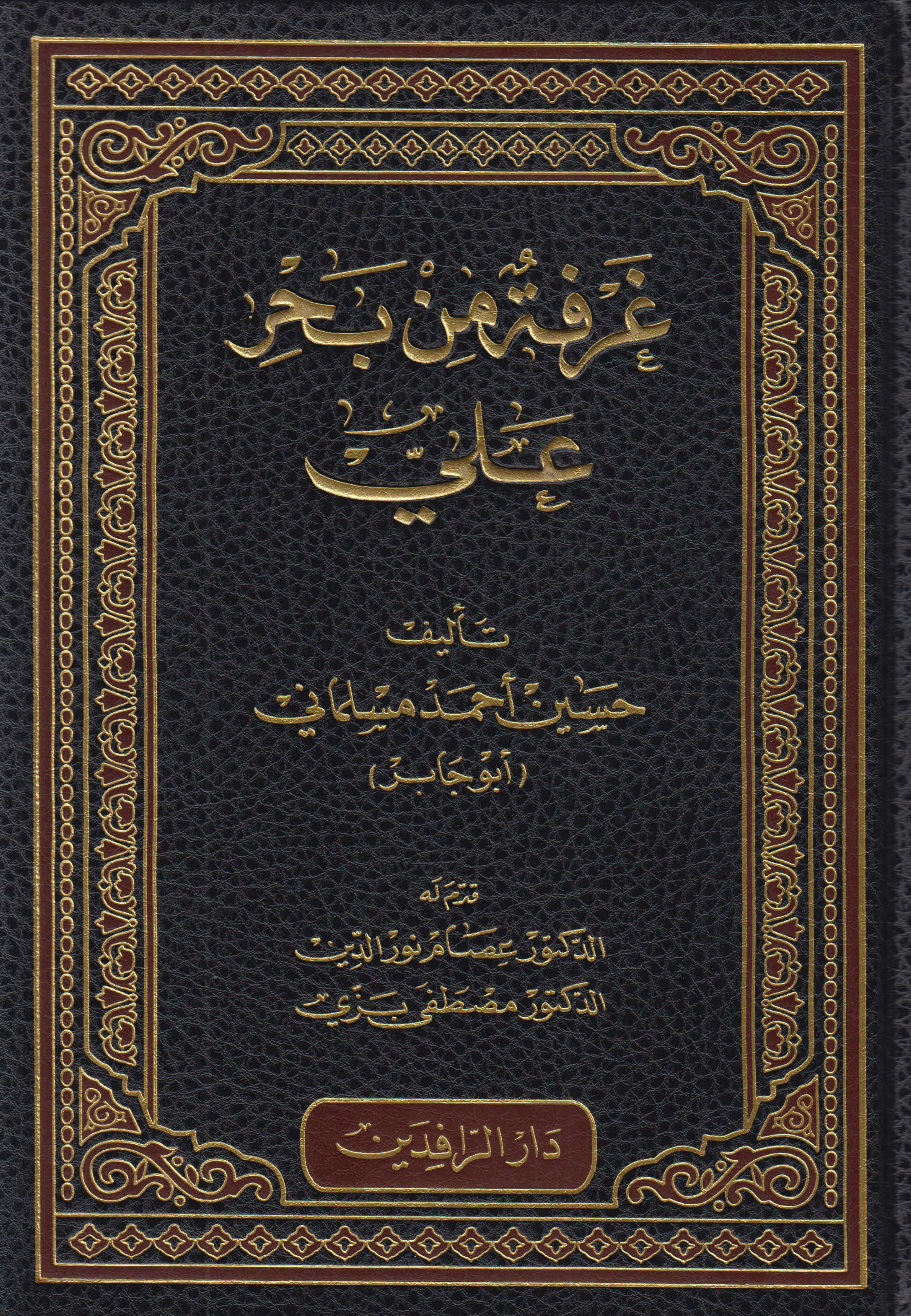
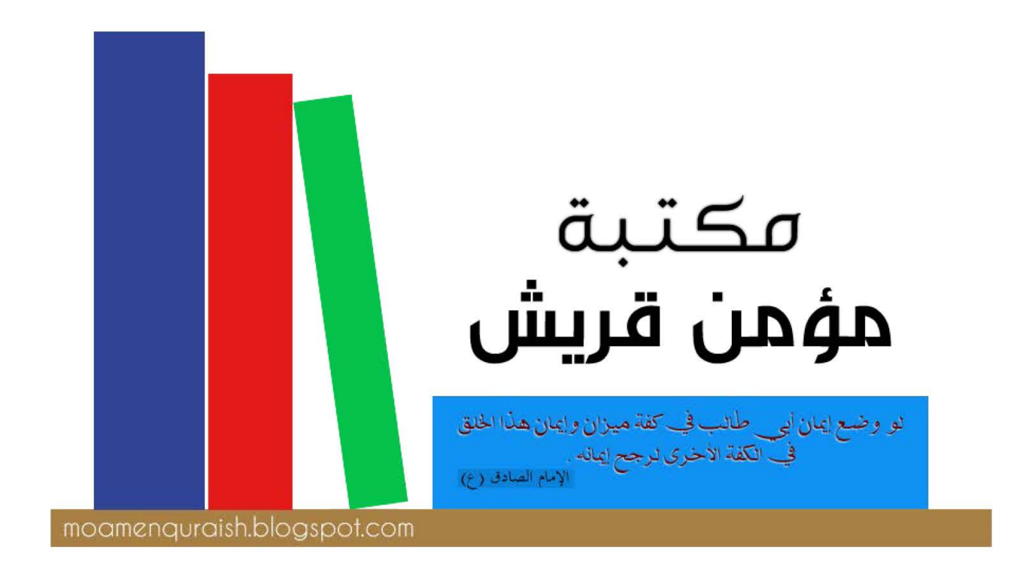

غرفة من بحر علي
تأليف
حسين أحمد مسلماني
(أبو جابر)
قدم له
الدكتور عصام نور الدين
الدكتور مصطفى بزي
دار الرافدين


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

غَرْفَةٌ مِنْ بَحْرِ عَلي

غرفة من بحر علي (ع)

تأليف: حسين أحمد مسلماني

الطبعة الأولى : ٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ

الناشر:

القياس : 17 × 24

عدد الصفحات : ٥٦٠ صفحة



طباعة ونشر وتوزيع:

بيروت ـ لبنان
00961 1 541980
العراق ـ بغداد
00964 7810001005
Email: daralrafidain@yahoo.com

Printed in Lebanon

غَرْفَةٌ مِنْ بَحْرِ عَلي

حسين أحمد مسلماني

قدّم له

الدكتور عصام نور الدين

الدكتـور مصطفـى بزي

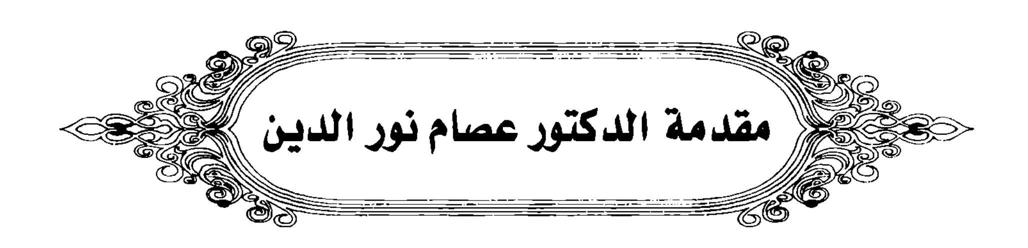




قال رسول اللہ صلی اللہ علیہ وآلہ وسلم

مَن کُنتُ مولاہُ فهذا علیٌ مولاہ

اللّٰهم والِ من والاہ وعادِ من عاداہ



مقدمة الدكتور عصام نور الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

«أبو جابر» البنّاء ـ أو العَمّار ـ فاجأني مرتين؛ ـ الأولى كانت سنة ٢٠٠٤م عندما التقيت به في «بئر السلاسل»، وقدّم نفسَه «عَمّارَ حيطان»، أو باني جُدُرٍ... فلاحظتُ أنّه يتكلّمُ بـ«لغةٍ» تختلفُ مفرداتُها وتراكيبُها عن لغةِ أبناءِ مهنتِهِ. وما هي إلّا دقائق معدودات حتّى اكتشفتُ أنّي أمامَ مهنيّ/أديب، أو أديب/ مهنيّ، يختزنُ في قلبِهِ وعقلِهِ لغةَ الإمام عليّ بنِ أبي طالب عليه السلام ـ. وما زلتُ أذكرُ تلذّذَهُ وترديدَه عبارة «**مجلت يداه**»، فقارنتُ ـ وقتها ـ مقارنةً سريعة بين المهنيّ/الأديب «أبي جابر» العمّار أو البنّاء ـ من جهةِ النسبةِ إلى المهنة التي يَمْتَهِنُها ـ والكسائيّ أو الفرّاء وآخرين من اللغويين العرب المسلمين، الذين قدّموا للعرب وللمسلمين مؤلفات لغوية ما زالت حيّةً تنبضُ في مكتبات الدارسين وعقولهم.... على الرّغم من عدم تفرّغهم لهذا العلم أو لذاك... ولكني ـ والحقّ يُقال ـ قلتُ في نفسي إنَّ «ثقافةَ» أبي جابر، قد تُنْتِجُ أدباً وقد لا تنتج... ثم افترقنا.

وثانية المفاجأتين حدثت سنة ٢٠١٤، عندما اتصل بي «أبو جابر» هاتفيّاً، وطلبَ منّي أن أصنع له مُقدّمة لكتابه الثالث عن الإمام عليّ... فَظَنَنْتُهُ يمازحني.. لكنَّا اتَّفقنا على موعدٍ في «بئر السلاسل» في ١٠/٨/٢٠١٤، فالتقينا الساعةَ العاشرة والنصف صباحاً، وامتدَّ اللقاءُ أربع

ساعاتٍ ونصف، لم يَسْكت فيها «أبو جابر»، كان متدفقاً علماً وأدباً كنبع معطاء... ولكنَّه قدّم لي، في نهاية اللقاء، مخطوط كتابه عن الإمام عليّ، والموسوم بـ «**غرفة من بحر عليّ**»، فأدركتُ من خلال كلامه المتواصل ومن خلال عنوان كتابه، أنّه يتلذّذُ، هذه المرّة، باستعمال مفردات القرآن الكريم وتراكيبه، في الكلام على عليّ ومناقبه ومآثره وآثاره.

عنوانُ الكتاب: «**غُرفة من بحرِ عليٍّ**» ـ بضمّ الغين من «غرفة» حسب نطق «أبي جابر»... وواضحٌ أنّه أَخَذَ عنوان كتابه ـ أو اقتبس شيئاً منه من قوله تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ؛

ـ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

ـ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ...

إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ...﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩].

نطق «أبو جابر»: «غُرفة» ـ بضم الغين ـ حسب النصّ القرآني عن حفص عن عاصم... فأحببتُ أنْ أوسّعَ نطاق الكلام فقلتُ: «غَرفة» من بحر عليّ... بفتح الغين... وانتظرتُ رَدَّ فعل «أبي جابر»، فقال: غُرفة وغَرفة، قُرئت بفتح الغين وبضمها؛

ـ فـ:«غُرفة» ـ بضم الغين ـ هي قراءة: عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائيّ.

ـ و«غَرْفة» ـ بفتح الغين ـ هي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو.

قال أبو عليّ الفارسيّ:

ـ مَنْ فتح الغين من «غَرفة» عَدّى الفعل إلى المصدر، والمفعول في قوله محذوف، والتقدير: إلّا مَنْ اغترفَ ماءً غَرفةً.

ـ ومَن قال «غُرفة» ـ بضم الغين ـ عَدّى الفعل إلى المفعول به، ولم

يُعدّه إلى المصدر كما عَدّاه الآخرون إليه، وإنما جعلت هذا مفعولاً به؛ لأنَّ «الغُرفة» ـ بضم الغين ـ هي العينُ المُغْتَرَفة، والتقدير: إلَّا مَنْ اغترف ماءً.

فالغُرفةُ ـ بضم الغين ـ اسمٌ لِلْقَدْرِ المُغْتَرَفِ من الماءِ؛ لأنها هي المُغْتَرفة.

وأمّا علماءُ بغدادَ فجعلوا هذه الأسماء المشتقة من المصادرِ بمنزلةِ المصادر، وأعملوها كما أعملوا المصادرِ[1].

أرأيتَ، أيّها القارىء الكريم، كيف أنَّ الكلمةَ الأُولى من عنوان كتاب «أبي جابر» قد أثارت كلَّ هذا النقاش العلميّ بين علماء القراءات القرآنية والنحاة واللغويين. . . فكيف يكون الحال عندما نتوغّل في قراءة الكتاب كلّه؟

تَفَيّأَ السيّد حسين أحمد مسلمانيّ (أبو جابر) بفيء الدوحة العلوية، فاغترف بيده غُرفةً ـ أو غَرفةً ـ من بحر عليٍّ العذب؛ وهي غرفةٌ ترويه، فلا يحتاجُ بعدها إلّا الغوص الدائم في نعيم بحر عليّ، وكماله، وعبقريته، وأوّليّته.

عَرّشَ «أبو جابر» على شجرةِ الإمام عليّ، المأروزةِ عميقاً في نفوس كلِّ الأحرار والمبدعين، الذين وصلوا إلى درجةِ الإيمان واليقين. .

عَرَّشْتَ، يا حسينُ، على هذه الشجرة المباركة المتسامية إلى أعلى عِلّيين؛ لأنَّ الإمامَ عليّاً هو المقصود بفرع الشجرة الطيّبة، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

---

(١) أبو علي الفارسي (الحسن بن عبد الغفّار، المتوفى سنة ٣٧٧هـ، **الحجة في علل القراءات السبع**، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، بيروت: دار الكتب العلمية (٢٠٠٧م، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

أخي حسين. . .

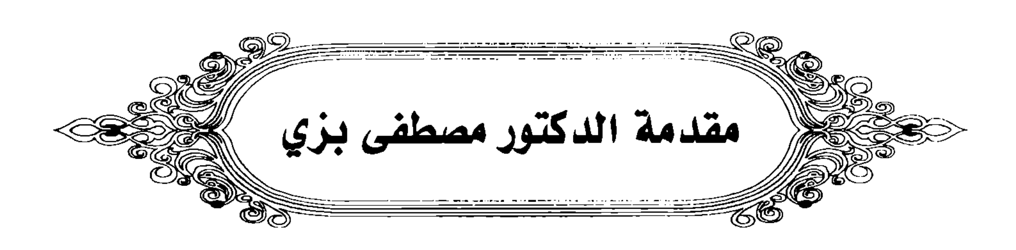
ليس العجبُ فيمن جهلَ مِمَّن يَدّعون أنّهم يحملون علم الدنيا أو علم الآخرة. . . ليس العجبُ أنَّهم لم يقرأوا ولم يكتبوا. . . وإنّما العجبُ كلّ العجب من رجلٍ مجلت يداه من تطويع الصخر والبناء كيف ثَقَّفَ نفسَه؟ وكيف بناها فأعلى بناءها على أحسن صورة؟ وكيف كتب ما كتب، وهو غارقٌ في العملِ الشريف؟!

لعلّك، يا أخي، اقتديت بالإمام عليّ، الذي عمل كدحاً، ولم يمدد يداً. . . إنَّما كانت يده، دائماً، هي القويّة؛ لأنَّ اليد القويةَ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من اليدِ الضعيفة. .

الإمامُ عليٌّ بن أبي طالب هو بطلُ العرب والمسلمين، بل بطلُ الإنسانيةِ المنشود في تطورها وتقدّمها، وفي نشر رايات العلم والمحبّة والسلام في كلّ زمان ومكان. .

وأنت، يا أبا جابر، حاولت الاقتداء بالإمام؛ ومن اقتدى بالبطل اهتدى، وتفتّحت في نفسه ينابيعُ الحكمة والمعرفة والمحبة والإنسانية والتسامح فضلاً عن البيان والفصاحة؛ أوليس الإمامُ عليّ هو القرآن الناطق؟!

أ. د. عصام نور الدين
أستاذ العلوم اللغوية (المتقاعد)
في الجامعة اللبنانية
بشرالهلال في ٢٢/٨/٢٠١٤م



مقدمة الدكتور مصطفى بزي

في حضرة الكتاب، أشعر بالسعادة والغبطة الحقيقية، وأنا أرى أمامي كاتباً عصامياً، ملهماً، ينجز مخطوطاً جديداً، وكأن مولوداً حديثاً قد فتح عينيه، وأطلّ على هذه الحياة، لينطلق في رحلة يرعاها الله، إلى النقطة التي يشاء.

قال أحد الشعراء الفرنسيين: «الصديق الصدوق الذي لا يخون أحداً هو الكتاب، ففيه غذاء للعقول، وطبّ للنفوس»، فكيف إذا كان هذا الكتاب هو «غرفة من بحر علي» لمؤلفه الموهوب بامتياز، حسين أحمد مسلماني (أبو جابر)، بعد أن كان قد أنتج كتابين، أولهما كان بعنوان «مرور» (أدبي)؛ وثانيهما بعنوان: «رسول الشمس». كتاب أبو جابر معبرنا إلى ثقافة من نوع متميز، راق، رفيع وإبداعي، ومرشدنا إلى ناحية من نواحي العلم والمعرفة، وهو يقدّم لنا عرضاً شاملاً عن واحد من أهم رجالات التاريخ، ألا وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، هذا العرض الذي من شأنه بالفعل أن يغني الفكر والروح.

أبو جابر، هو من الرجال العامليين، الذين حباهم الله عزّ وجلّ موهبة فطرية، وذكاء وقّاداً، ونلاحظ أن الشهادات لم تشكل أبداً عائقاً أمامه لإظهار إبداعاته، وتقديم عطاءاته المتميزة الرائعة، وإبراز مكنونات فكره.

لا أجافي الحقيقة إذا قلت إنني كنت منشداً بشكل كامل لقراءة موضوعات كتاب أبي جابر، فقد أذهلني هذا الإنسان لسعة إطلاعه، وأسلوبه، وقدرته المتميزة في التأثير على القارىء وجذبه إليه.

أبو جابر لن يترك الغبار يغطي أي ورقة من أوراقه، ولن يقبل أبداً أن يهمل النسيان هذه الأوراق والمعلومات.

أبو جابر إنسان متمرّد على الجهل والتخلّف والتجهيل، واثق من نفسه كل الثقة، مبدع، يريد أن يقدّم لمجتمعه وللأجيال نتاجاً لا أجمل ولا أحلى ولا أروع، خاصة وأن مواضيع الكتاب تُقرأ بشغف، وتحرّك في النفس كوامن وأحاسيس ومشاعر وتاريخ، يُضاف إلى ذلك غنى بالمفردات الجميلة، وصدق في السرد والتأليف والتعابير، وقد أحسن أبو جابر جداً في اعتماده على القرآن الكريم وعلى نهج البلاغة.

لقد أجاد الكاتب وهو يتحدث عن الإمام علي عليه السلام، الذي نقف في رحاب ذكراه، متطلعين بإعجاب شديد لصفاته التي ليس لها حدود، لمميزاته التي جعلته واحداً من أهم عظماء التاريخ، وكلامه الذي هو دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق، ولبحره الزاخر، وعطائه الدافق، وتفكيره الصائب، ونصحه الدائم، ألم يقل الرسول صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها..» في محفل كتاب أبي جابر، نفتح صفحات التاريخ لنرى شخصية، قال عنها الكاتب كارلين: «أما علي، فلا يسعنا إلّا أن نحبّه ونتعشقه...»؛ كيف لا وهو الذي يتحفنا بقوله: «أأقنع من نفسي بأن يُقال هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خُلقت ليشغلَني أكْلُ الطيّبات، كالبهيمة المربوطة، همُّها عَلَفُها».

مأ أروع الكاتب أبا جابر، وهو يتحدث عن هذه الشخصية العملاقة الكبيرة، ونحن نسمع الإمام يقول: «طوبى لنفس أدّت إلى ربّها فرضَها، وعرَكت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غَمْضها».

يكفي الإمام أنه نشأ وترعرع وتعلّم في مدرسة النبي صلى الله عليه وآله، وهو الذي يقول في ذلك: «أنا من رسول الله كالصنو من الصنو وكالذراع من

العَضُدْ، والله لو تظاهرت العُرْب على قتالي لما ولّيت عنها، ولو أمكنتِ الفُرَصُ من رقابها لسارعت إليها...».

ولأن الإمام علي متكأ الكتّاب والمبدعين، ومشتهى ريشة الأدباء والشعراء، فإن كاتبنا أبا جابر خاض هو الآخر في غمار بحر الإمام، غرف من نبعه الدافق، من معجمه المليء بالعلم والصفاء والطهر والعطاء والشجاعة والبلاغة والنهج القويم، والإقدام والإيثار. مع كتاب أبي جابر نقول: «إنَّ أبواب المجد مشرعة دوماً لأهل العلم والكتّاب والمبدعين، وموصدة أمام الجاهلين ومقفلي العقول...».

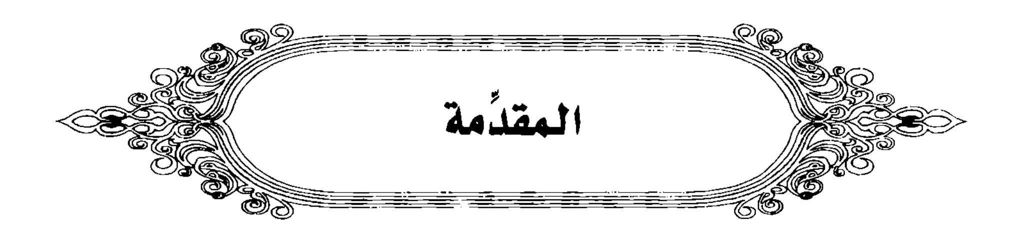
في الختام، أنا على ثقة تامة، وعلى يقين مؤكد، أنَّ المبدع والملهَم أبا جابر لن يتوقف عن الكتابة والعطاء والتأليف، فلديه الإمكانيات الذاتية للاستمرار، ولديه أصدقاء كُثر وأحبة ومعجبون، يقدّرون عمله ونتاجه وذكاءه، هؤلاء، وأنا منهم، يشدّون على أياديه، ويباركون نتاجه الجديد، ويحثونه على المتابعة وعدم التوقف، متمنين له دوام الصحة والتوفيق، إلى الأمام.

(أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية)

د. مصطفى بزي

بنت جبيل

١٥/٨/٢٠١٤



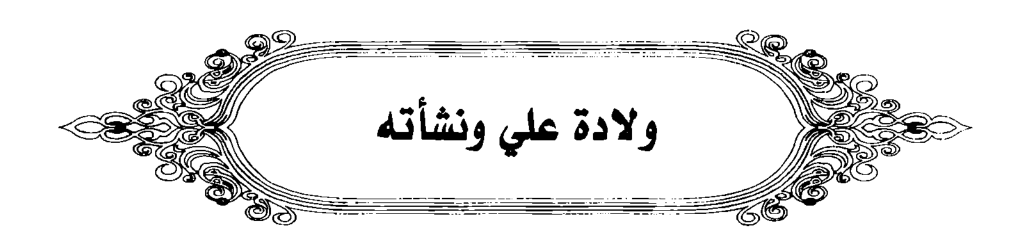
المقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأوَّل قبل كُلّ شيء، والباقي بعد فناء كُلّ شيء، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وخاتم النَّبيِّين محمَّد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، **أمَّا بعد**:

قيل لها: ادخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها، قال: إنَّه صرحٌ مُمردٌ من قوارير، قالت: كأنَّه غرفة من بحر علي، فتبسَّم ضاحكاً، وقال مُستبشراً، في فخر وسرور: «**إنَّه لغرفة من بحر علي**»، وهذه جنانه العالية، وقطوفها الدانية، تسقى من فيض فراته الروي، وتغذو من معين سلسبيله النقي، أُكلها دائم، وظلها فلنعم القرار والنعيم، ولنعم الورد المورود، الناقع لغليل المستقرئين، والمرفد المغني للباحثين المحققين، لا يصيبهم ظمأ، ولا نصب، ولا مخمصة، ولا يمسهم من لغوب، فيما هم قائمون، وبه قائلون، والحمد لله ربّ العالمين.

«حسين أحمد مسلماني»
«أبو جابر»



ولادة علي ونشأته

الله الملك وعلي عبده، اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، فزاده بسطة في العلم، وقوَّة في الجسم، في أي صورة ما شاء ركبه، فكان من رسول الله كالصنو من الصنو، وكالذراع من العضد.

فهو ابن أبي طالب شيخ الأبطح، وسيِّد قريش صاحب القول الفصل، والقرار المبرم، في السلم وفي الحرب، كافل النبي ومانعه لأربعة عقود أو تزيد، حتى رحل إلى ربّه مجاهداً صابراً، على صراع قريش في غلظتها وجبروتها الشديد الدائب.

يتصل نسبُ علي بن أبي طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم، بالتسلسل إلى صلب النبي إسماعيل ابن نبي الله إبراهيم الخليل؛ وزوجه هاجر، تناقلته الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة، إلى صلب العظيم أبي طالب رضوان الله عليه فحملت به أُمّه فاطمة بنتُ أسد بن هاشم، فأجاءها المخاض إلى البيت العتيق على قدر، فخشعت لله وقالت:

«اللَّهمَّ ربّ السَّموات والأرض، ربِّ إبراهيم الخليل، وإسماعيل الذبيح، سهِّل عليَّ ولادتي يا ربّ العالمين» فانشق لها الجدار إكباراً وكرامة، فدخلت والملائكة تلتفّ بها،

وتهتف في روعها، أن لا تخافي ولا تحزني، وأبشري بما تلدين.

فولدت عليّاً أمير الكلام، وفارس الرِّجال، فمسحت به الملائكة أجنحتها تبركاً بقدسه وعظمته، تقرباً إلى الله تعالى تقول:

بخٍ بخٍ لك يا علي، أن ولدت في الكعبة قبلة المسلمين، في صلاتهم وحجّهم، ومطافهم، فأرضعته أُمّه لبن الكعبة لثلاثة أيَّام، ثمَّ خرجت به تحمله وعلى جبينه نورٌ ساطع، يسعى بين يدي أُمّه، وملامح تبشر بالنصر المبين.

فأضاء لنور ولادته الحرم، فهلَّل وكبَّر الركن، وزمزم، والمقام، وكذلك الصفا، والمروة، وملائكة الأرض والسَّماء فتصدعت قلوب الشياطين، وتزعزعت الأوثان والأصنام، وتوعَّدت ميادين القتال أشرس الفرسان، وأكفأ الأبطال، الزاحفة إلى ساحها، أنَّهم إلى أهلهم لا يرجعون، إلَّا من شهد أن لا إلَه إلَّا الله محمَّداً رسول الله.

أو من أبطن الكفر والنفاق، فراغ عن سيف عليٍّ بشهادة الإسلام، ليحقن بما نطق به دمه، ويتربص بالإمام الدوائر، وما تفاجيء به الأيَّام.

هذا وخفَّت به أُمّه تحمله إلى بني هاشم، تُشْفِعُ خطوها بشكرٍ لله، وفخرٍ واعتزاز.

فوثب والده الليث إلى لبؤته، يعانقها طويلاً، ويُقبِّلها طويلاً، تُبلِّلُ دمعات الفرحة لحيته، وهو يقول: بخٍ بخٍ لك يا ابنة الكرام، بخٍ بخٍ يا ابنة الأسد.

فقالت أُمّ علي: بل بخٍ بخٍ لك يا سيِّد قريش، أيُّها الشامخ في هام الكرامة، وذرى المجدِ، ما بقي الدهر، وكرَّ اللَّيل والنهار.

ثمَّ مال ببصره يتصفح صفحة شبله، فشرب منه البذل والسخاء، وشجاعة الميدان تتوقد عيناه، كأنَّها الجحيم، ترتعد لها فرائس الفرسان.

ثمَّ ما لبث أن جاء إليه بنو هاشم، يزفون ما سخت به أنفسهم كرماً، ففاض يقودهم الفخر ويحدو بهم السرور.

فما أن دخلوا دار شيخهم وسيِّدهِم فما راعهم، وإذا به يقابلهم بوجه علي، فغشيتهم السكينة وأمواج السرور، وقد بزغت وأشرقت منه ملايين الأقمار والشموس.

فأخذوه رجلاً رجلاً، يتنقل على راحهم، والكل يُقبِّله ويضمّه ويقول: هذا سيفنا ودرعنا، به نصول، وبه نجول.

فأخذه الأمين محمَّد وقال: بل هو سيف الله ودرعي، وحامل هموم المعذبين والمضطهدين في الأرض، إلى أن يلقى الله ربّه.

فتناولته صفية بنت عبد المطَّلب، فقبَّلته وضمَّته إلى صدرها وقالت: يا علي، يا ابن أخي وحبيبي، يا حبيب الله، وحبيب الأرض والسَّماء.

ثمَّ أخذ بيمينه عمّهُ الحمزة بن عبد المطَّلب، فقبَّلها وتصفح وجهه فقال: وأيّ ميدانٍ يتسع لوثباتك يا علي، وأيّ فرائسٍ لا ترتعد لزئيرك يا علي، وأي جيشٍ لا ينتصر تحت لوائك يا علي، وأي أُمَّة تضلّ باتباعك يا علي يابن أبي طالب.

فانبعثت صيحةٌ متوجدة من صلب محمَّد بن عبد الله، صغت

لها بنو هاشم، وأقرت بها السَّموات والأرض تقول: إنَّه وزير أبي النَّبي، وبعلي وصالح المؤمنين إنَّه والد وَلداي الحسن والحسين، سيِّدي شباب أهل الجنَّة، إنَّه قسيم الجنَّة والنار، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، تلك هي صيحة فاطمة بنت رسول الله، لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

فقالت بنو هاشم: صدقت إلَّا أبا لهبٍ فإنَّه من أصحاب الجحيم، تمرَّد على صيحة فاطمة، في جمعٍ من الشياطين.

هذا، ثمَّ دفعوا به إلى أُمِّه وقالوا: خذيه وأرضعيه لبن الأُسد يا ابنة الأسد، فهو ابن مكَّة والحرم، ثمَّ أولموا وانصرفوا.

فقام أبو طالب وزوجه وبنوه، بحفظ عليٍّ ورعايته، فما أن درج إلى عقده الأوَّل لطفولته، وإذا بالأمين محمَّد أُلهم، فأراد أن يرد لعمّه أبي طالب، الفضل بالفضل، والإحسان بالإحسان، فجمع إليه عمومته في دار زوجه خديجة، منزل الوحي ومهبط جبرئيل فقال:

ما أكثر عيال عمِّي أبي طالب، فلو أخذ كُلّ واحدٍ منَّا ولداً فخففنا عنه رحمةً به، فقالوا له: سمعاً وطاعة يا محمَّد، فهو كما قد رأيت، فانطلق بهم إلى عمّه أبي طالب، فعرضوا عليه ما قد جاؤوا به إليه، فقال لهم: خذوا من شئتم لكرم الأخلاق وشجاعة الميدان، فاختار محمَّدٌ عليّاً، وضمَّه إلى كنفه، واقتسم الباقي عمومتُهُ وانصرفوا.

ولنستمع لكلام الإمام علي بلسانه قال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى

صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي إِلَى فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ، أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ، فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ»[١].

ثم استمع لما قاله واصفوا الإمام علي في التركيبة الجسمانية، ما يلي:

فقد جاء عن صاحب ذخائر العقبى يقول: إنَّه كان وهو في تمام الرجولة، ربعة القامة، أسمر شديد السمرة، أبيض اللحية طويلها، أدعج العينين في سعة، حسن الوجه، واضح البشاشة،

---

(١) نهج البلاغة: القاصعة.

كثير التبسم، أغيد، كأنَّما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين، لهما مشاش كمشاش السبع الضاري، لا تبين عضده من ساعده، بل أُدمجا إدماجاً، شثن الكفين، أبجر يميل إلى السمنة، في غير إفراط، ضخم عضلة، الساق دقيق مستدقها، ضخم عضلة الذراع، دقيق مستدقها، يتكفأ في مشيته على نحوٍ، يُقارب مشية النَّبي، ويقدم في الحرب مهرولاً لا يلوي على شيء.

ثمَّ إنَّه كان له من القوَّة الجسدية على ما يدهش العقول، فربَّما رفع الفارس بيد، فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، كأنَّه يرفع طفلاً وليداً، وربَّما أمسك بذراع البطل، فكأنَّه أمسك نفسه، فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنَّه لم يبارز فارساً إلَّا صرعه، مهما كانت قواه بالغة، ومهما كان شأنه عظيماً، وقد يحمل الباب الضخم بيدٍ واحدة، ويتترس به كأنَّه ترس عادي، وقد يُزحزح بيدٍ واحدة الصخر الضخم، لا يزحزحه رجال مجتمعون، ثمَّ قد يصيح الصيحة في ميدان القتال، فتتخلع لها قلوب الشجعان، أفراداً وجماعات.

وكان له من التركيب صلابةً على الطوارىء الجوية، فلا يبالي ألبس ثياب الشتاء في الصيف، أو ثياب الصيف في الشتاء انتهى.

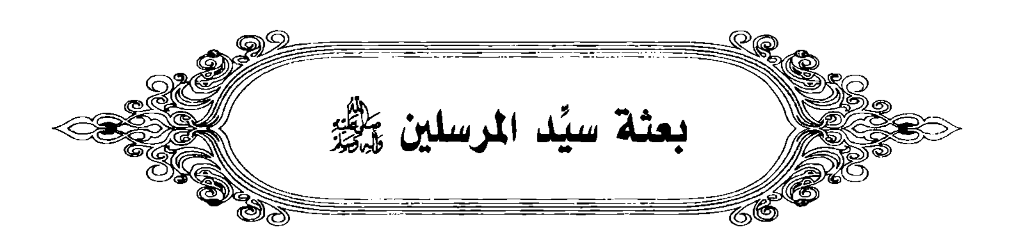
وكفاه فخراً، وهو الأبرز في كل مضمار، قول النَّبي صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها».

وقال صلى الله عليه وآله: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، يدور معه حيثما دار».

ورحم الله الشاعر عبد الباقي العمري، حيث يقول في مدح علي بن أبي طالب عليه السلام:

أنت العليُّ الذي فوق العلى رفعا ببطن مكَّة وسط البيت إذ وُضِعا
وأنت حيدرة الغاب الذي أسدُ البرج السماويَّ عنه خاسئاً رجَعا
وأنت بابٌ تعالى شأن حارسه بغير راحة روحُ القدس ما قرعا
وأنت ذاك البطينُ الممتلي حكماً معشارُها فلكُ الأفلاك ما وسِعا
وأنت نقطة باءٍ مع توحُّدِها بها جميعُ الذي في الذِّكرِ قد جُمعا
وأنت والحقُّ يا أقضى الأنامِ به غداً على الحوضِ حقّاً تحشران معا
وأنت صنوُ نبيٍّ غير شرعتِه للأنبياءِ إلَهُ العرشِ ما شَرعا
وأنت زوجُ ابنة الهادي إلى سُننٍ ما حادَ عنه عداه الرشدُ فانخزعا
وأنت عين يقينٍ لم يزدْه به كشفُ الغطاءِ يقيناً آيهُ انقشعا
وأنت أنت الذي للقبلتين مع النـ ـبيِّ أوّلُ من صلَّى ومَنْ ركعا
حكَّمت في الكفرِ سيفاً لو هويتَ به يوماً على كبدِ الأفلاكِ لانخلعا
وبابُ خيبرَ لو كانت مسامره كل الثوابتِ حتَّى القطبَ لانقلعا
باريتَ شمسَ الضحى في جنةٍ بزغتْ في يوم بدرٍ بزوغَ البدر إذ سطعا
ربيبُ طَهَ حبيبِ اللَّه أنت ومَنْ كان المُربِّي له طَه فقد برعا
أخاك مَنْ عزَّ قدراً أن يكون له أخاً سواك إذا داعي الإخاءِ دعا
سمتك أُمُّك بنتُ الليثِ حيدرةً أكرمْ بلبوةِ ليثٍ أنجبَتْ سبُعا
نهجُ البلاغةِ نهجٌ منك بلَّغنا رشداً به اجتثَّ عرقَ الغيِّ فانقمعا
ما فرَّق اللَّه شيئاً في خليقتِه من الفضائِل إلَّا عندَك اجتمعا

اختصرت هذه الأبيات من قصيدته، التي تزيد على الستين بيتاً من الشعر القويم، الصادق البليغ.



بعثة سيِّد المرسلين صلى الله عليه وآله

وشاء الله أن تُستكمل الرسالات بوحي القرآن، وأن تُختتم النبوات بنبوَّة سيِّد المرسلين محمَّد، فأوحى الله إلى السَّماء أن تراسل الأرض بما استحفظت عليه من الوحي، فأذنت لربِّها وحُقَّت، فباشر الملك جبريل مهمَّته، فاستأنف رحلاته إلى الأرض، في هبوطٍ وعروج، على حين فترةٍ من الرُّسل، وانقطاعٍ من الوحي، في لفيفٍ من الملائكة المسومين، هم حرس الوحي والنُّور المبين، فكان مهبطه الأوَّل غار حرَّاء مكَّة المكرَّمة، أرض البيت والحرم، مقام إبراهيم الخليل.

فالتقى الأمين على التنزيل بالأمين على التبليغ محمَّداً، فأخذه جبريل فغطه، حتى بلغ منه الجهد، ثمَّ أرسله فقال له: إقرأ.

فقال له: ما أنا بقارىء.

ثمَّ أخذه الثانية فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثمَّ أرسله فقال له: إقرأ.

قال له: ما أنا بقارىء.

ثمَّ أخذه الثالثة، فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثمَّ أرسله، فقال له: إقرأ.

قال: ما أنا بقارىء.

فقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١].

هذا وسكت الوحي، فوعته أُذُن النَّبي، واحتفظ به قلبه، فبزغ به نوراً على نور، يهدي به من صدق وآمن إلى صراطٍ مستقيم.

خرج به من غار حرَّاء، وفؤاده يرجف لمعاينة الملك، وغطته حتى بلغ منزله منزل الوحي والنُّبوَّة، فاستقبلته زوجه خديجة بنت خويلد المرأة الطاهرة، فقالت له: ما خطبك يا محمَّد؟

فقال لها: زملوني يا خديجة، زملوني زملوني، دثروني دثروني.

فزملته أُمّ الزَّهراء ودثرته، فلما ذهب عنه الروع وقصَّ عليها الخبر، قالت له: كلا ما يُخزيك الله أبداً، إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثمَّ انطلقت به إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم إسمع من إبن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

---

(١) سورة العَلق: ١–٥.

فأخبره رسول الله خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً، يا ليتني أكون فيها حيّاً، إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله: أو مخرجي هم؟

قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلّا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثمَّ لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي، وما أن لبث النبي غير بعيدٍ يُفكّر في أمره، حتى نزل عليه الوحي يأمره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1].

فقام النَّبي ليلهُ، أو شطراً من ليله، يُعد نفسه إعداداً رسالياً كريماً، ليكون مشكاةً مباركة لنور الوحي، وما تفيض به السَّماء، ليكون للعالمين بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً.

ثمَّ نزل عليه الوحي يأمره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[2].

فنهض النَّبي يبلِّغ وينذر، كما نهضت أولوا العزم من الرُّسل برسالات ربِّها، لا تقصر بهم قلَّة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم،

---

(١) سورة المُزّمل: ١-٥.

(٢) سورة المدَّثِّر: ١-٧.

فهم هداةٌ يهدي بهم الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام، ويبشرهم بجنَّةٍ عرضها كعرض السَّموات والأرض أُعدت للمتقين.

قالوا: فخرج من بيته يسعى، حتى صعد على الصفا فنادى: يا صباحاه.

فقالوا: من هذا الذي يهتف؟

قالوا: محمَّداً، فاجتمعت له قريش، وفيهم أبو لهب، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم، أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصدقي؟

قالوا: ما جربنا عليك إلَّا صدقاً.

قال: فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا.

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

هذا فكذبوه وانصرفوا عنه، ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[2].

كانت تلك هي الجرعة الأُولى من التبليغ الرسالي المحمَّديْ، لقوم اتخذوا أصنامهم وأوثانهم آلهة تعبد من دون الله، يا ويلهم: فقد نُحتت بأيديهم، فأنَّى يؤفكون أم أنَّى يصرفون.

---

(١) سورة المَسَد: ١.

(٢) سورة التّوبَة: ١٢٧.

هذا ويروي لنا الطبرسي في: مجمعه، عن تفسير الثعلبي، بإسناده عن البراء بن عازب قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١) جمع رسول الله بني عبد المطَّلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المسنة؛ ويشرب العس.

فأمر عليّاً برجْلِ شاة، فأدمها ثمَّ قال: إدنوا بسم الله، فدنا القوم عشرة عشرة، فأكلوا حتى صدروا.

ثمَّ دعا بعقبٍ من لبن، فجرع منه جرعاً، ثمَّ قال لهم: اشربوا بسم الله، فشربوا حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل، فسكت ولم يتكلَّم.

ثمَّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب، ثمَّ أنذرهم رسول الله فقال: يا بني عبد المطَّلب إنِّي أنا النذير إليكم من الله عزَّ وجلَّ، فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ثمَّ قال: من يوآخيني ويوآزرني، ويكون وليِّي ووصيِّي بعدي، وخليفتي في أهلي، ويقضي ديني، فسكت القوم، فأعادها ثلاثاً، كل ذلك يسكت القوم، ويقول علي: أنا.

فقال في المرَّة الثالثة: أنت.

فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أُمر عليك.

ثمَّ يضيف الطبرسي في مجمع البيان، أنَّه روي عن أبي رافع

---

(١) سورة الشُّعَراء: ٢١٤.

هذه القصة، فقد جمعهم في الشعب، فصنع لهم رِجْل شاة، فأكلوا حتى تضلَّعوا، وسقاهم عساً فشربواحتى رووا، ثم قال: إنَّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي ورهطي، وإنَّ الله لم يبعث نبيّاً، إلّا جعل له من أهله أخاً، ووزيراً، ووارثاً، وخليفةً في أهله، فأيّكم يقوم فيبايعني على أنَّه أخي، ووارثي، ووزيري، ووصيِّي، ويكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟

فقال عليٌّ: أنا.

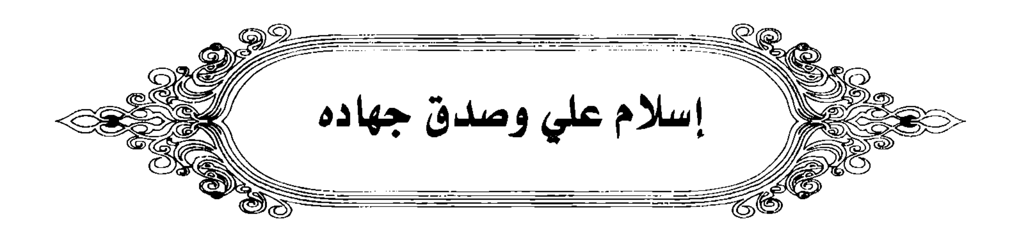
فقال: إدنُ منِّي، ففتح فاهُ ومجَّ فيه من ريقه، وتفل بين كتفيه وثدييه.

فقال أبو لهب: بئس ما حبوت به ابن عمّك، أن أجابك فملأت فاهُ، ووجهه بزاقاً.

فقال النبي: ملأته حكمةً وعلماً.

أقول: بخٍ بخٍ لك ياعليّ، يا باب مدينة علم النَّبي، والحمد لله ربّ العالمين...





إسلام علي وصدق جهاده

وقام النَّبي يؤذن في الناس بالإسلام، فأسلم من صدق وآمن، وكذب من جحد وكفر، فإذا هم فريقان فريق في الجنَّة، وفريق في السعير، كل امرىء بما كسب رهين.

والناس فيمن سبق إلى الإسلام طرائق شتى.

قال قائل منهم: فأسلم علي بن أبي طالب.

وقال الآخر: وأسلم عليّ بن أبي طالب.

فقال أمثلهم طريقة: بل الذي أسلم عليّ بن أبي طالب، بقيلٍ ثلاث، رجماً بالغيب، ذلك مبلغهم من العلم، إن يقولون إلَّاً شططاً.

وأمَّا أنا فأقول: لقد أسلم عليّ بن أبي طالب، يوم أسلم أولوا العزم من الرُّسل، يوم ابتدأ الله الخلق ابتداءً، وأنشأه إنشاءً.

فعليّ مسلم في المعلوم، من قبلِ أن يبرأ الله الخلق، إسلاماً مُطهراً، قد خطَّه القلم.

ولد عليٌّ على ما فُطر عليه، فكرَّم الله وجهه، من أن يهوي لوثنٍ، أو أن يسجد لصنمٍ، أو أن يفرّ من الزحف، عند اللقاءات المزلزلة، في ميادين الحربٍ، وساحات القتال.

لقد كان إسلام عليّ، قوَّة نورانية في ذاته المقدَّسة، روحاً، ونفساً، وجسماً مباركاً.

فلا ريب في ذلك، ولا مراء، ولا غرابة جاحدة.

فهو نفس رسول الله محمَّد ﷺ في آية المباهلة، إلَّا أنَّه وزير وليس بنبي.

فما أن دعاه رسول الله إلى الإسلام، انبعث إسلامه من القوَّة إلى الفعل، يتدفق من مشكاته المقدَّسة، فأشرق من فمه الطاهر، ينطق به لسانه الفصيح البليغ، كأنَّه كوكب دُرِّي، يُضيء العصور والأزمنة، ما كرَّ الجديدان، وما بثَّ الله من الزوجين، الذَّكر والأُنثى، رجالاً كثيراً، ونساء لتسعد به الشعوب والأُمم، أفراداً وجماعات، ما لم تجحد نعمة الله رادة عليه وعلى رسوله، ما أُنزل إليهم من ربّهم، فإذا هم الخاسرون.

فلا تظنَّن أنَّ إسلام عليّ، قد ولج سمعه فاستقر في ذاته المقدَّسة، بعد صراع مقاوم، بين النفس الأمَّارة بالسوء، وبين النفس اللوامة، التي قسم الله بها.

كلا، فإنَّ إسلام عليّ لم تفسده ذرَّة من كفر، أو فساد منذ أن فُطر، إلى أن استشهد في مسجد الكوفة، بسيف السقيفة، على يدِ الخارجي عبد الرَّحمن بن ملجم المرادي (لعنه الله).

أيُّها الناس: إنَّ إسلام علي، إسلام علم وهدى، وسيفٍ يفرق به الله بين الحقّ والباطل، بين الظُّلمة والنُّور، إنَّه صراط مستقيم، فهو عبد الله وأخو رسول الله.

أوليس هو القائل: «سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنَّا بطرق السَّموات أعلم بها منِّي بطرق الأرض.

فقام إليه رجل في مسجد الكوفة، يسأله وقد خرس الناس فقال: يا أبا الحسن: فكم من شعرةٍ في رأسي؟

فقال له الإمام (الغريب حتى يومنا هذا):

ويحك ثكلتك أُمّك، لقد نفث الشيطان على لسانك، أفإن أخبرتك بها فما تصنع بها، وهل تعلم أنِّي قد صدقت أم لا.

يقول أحد المستشرقين الباحثين في العلوم الفلكية والجزء والكلّ: فلو أنَّ أحد المعاصرين لعلي بن أبي طالب كان قد سأله عن العلوم الفلكية، لأراحنا عن الكثير من البحوث عن تلك العلوم، ولكان قد اختصر لنا الزمن.

ولكن هيهات، فأنَّى لجاهل أن يعي قول علي، وأنَّى لحاقد حاسد، أن يستمع لعلي، أو أن يذكر له فضيلة فتنشر.

بل وأنَّى لواعية مؤمن مسلم، أن ينطق بما قال علي، أو أن يخطّ ما قال علي، هذا والسيف فوق رأسه، والرمح على صدره، والقبر يطلب جسده، والأهل والولد رهينة الضنك والهلاك.

لقد دفن علم علي، في زمن الدولتين الأموية والعبَّاسية، إلَّا إشعاعةً له، ساقها لنا الشريف الرضي رضوان الله عليه «نهج البلاغة»، فإذا بها بحرٌ عذب، فرات سائغ، شرابه لذَّة للشاربين.

فمن اغترف منه غرفة، أو مجَّ منه مجَّة، فقد روى وأروى، هذا ولم يزل منذ عامه الأوَّل، يصنع المفكرين من أهل المنطق، وعلم الكلام، والفلاسفة، والخطباء، والأُدباء، والشعراء،

وجهابذة الفقه، والنظريات، ويهب للطبع السليم، قلباً حيّاً، ولساناً فصيحاً، وقولاً بليغاً، وسلوكاً صحيحاً، يلازم التقوى، فيجمع بين الدارين: دار الدُّنيا، ودار الآخرة.

هذا ولم يستسيغوا من عذبه الفيض، إلّا نزراً قليلاً، فإنَّ البحر لجيٌّ، عميق عميق.

وقبل أن أُوثق وجزات على هذه الورق، ممّا قد سنح لي من صدق جهاد علي، من الرواة، والمصادر المُؤرخة، أُوثق له قولاً ينْسبُ به الإسلام، قال:

«**لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي: الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْأَدَاءُ، وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ**»(١).

وبعد لقد جُمعت لشخصية علي بن أبي طالب في صفاته، وجوه مختلفة مؤتلفة، في كل وجه من وجوهها، كلية شاملة، للخير والعطاء.

فلا ريب، ولا غلو، فهو صنو سيِّد المرسلين محمَّد بن عبد الله ﷺ.

فمن سيرته الجامعة لخصال الخير، كان يأكل قرص الشعير، وإدامه الملح، فإذا فرغ حمد الله، ومسح بيده على بطنه، وهو يقول: «تعساً لبطن أدخل صاحبه النار».

---

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة ١٢٦.

هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة، ولعلَّ بالحجاز، أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً، وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ   وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إلى الْقِدِّ

أأقنع من نفسي بأن يُقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أُشاركهم في مكاره الدهر، أوأكون أُسوةً لهم في جشوبة العيش.

ثمَّ إنَّك تراه في غذائه هذا: إذا حمي وطيس الحرب، وقد اشتد كلب الكفر، ولجب الشرك على الإسلام وجنده، إعزازاً للوثن والجبت، وإطفاءً لنور الله يبرز في الميدان، بزئيرٍ كالرعد القاصف، تتوقد عيناه غضباً لله ورسوله، فتقذف بالشرر كنار الجحيم.

حتى إذا أخذتِ السيوفُ مآخذها، وعلت الرماح الصدور، فقُرعت القنا بالقنا، على عزف الدف، وقرع الطبل، وغناء القِينةِ، ورجيز شعر الحماسةِ، في انبعاث الصافنات الجياد، والخيل المسومة.

فهي تكرُّ، وتفرُّ، وتقبل، وتدبر بصهيلٍ، يطلب الحرب، والنصر يتطاير شرر قَدْحِها، فيضيء تحت ستار النقع.

وثب الإمام عليٌّ بقوَّة بأسه، يصول ويجول، على الكفر وجنده، بضربته البكر، فإن علا قَد، وإن اعترض قط، فإذا هو كإعصار شديدٍ، يُدمِّر الكفر والشِّرك بإذن ربّه، فلا يمرُّ بجندٍ، إلَّا جعله كأعجاز نخلٍ خاوية.

هذا ولسانه يُردِّد الله أكبر: «قاتلوا أئمَّة الكفر إنَّهم لا أيمان لهم»، قاتلوهم وليجدوا فيكم غلظة، وما النصر إلَّا من عند الله القوي العزيز، والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً.

هذا: وقد شدَّ على ناجذيه، ورمى ببصره أقصى القوم، وأعار جمجمته إلى الله، بضربٍ يطير منه فراش الهام، وطعنٍ يخرج منه النسيم.

ويا لجواده الأصيل القويم.

تراه ينظم ويغرد، إذا انهزمت جياد الكفر وفرسانها هيبة ذي الفقار، ويغضب إذا أقبلت فرسان الإباء والبأس، فيطأ بيديه كرابيس ونواصي خيلها بفخرٍ واعتزاز، فيبسم له الأمير، ويُلاطفه بقسطٍ من الحنان، فيجرجر ويمسح بيده بين رأسه وكتفه، ليهبه السعادة والحياة، رفقاً بالحيوان تحت لواء الإسلام.

إنَّه عليٌّ، وصي النبي، وباب مدينة علمه، سيف الله، ودرع الإسلام، الذي يكرُّ ولا يفر، شديد على الكفر وأهله، بالمؤمنين رؤوف رحيم.

حتى إذا انتزع النُّفوس، وفرش الأرض بالرؤوس، وقد أسلم من أسلم، وفرَّ من قد فر، فخمدت نار الحرب، وخفتت الأصوات، فلا تسمع إلَّا همساً، سجد الإمام عليٌّ لله شاكراً له نعمة النصر.

وما أن وضعتِ الحرب أوزارها، قام الإمام يقسم مغنم الحرب، على ما شرع الله ورسوله بين جنده، فإنَّه جلَبة سيوفهم ورماحهم، فهو محرم على أفواهِ غير أفواه أبنائهم، حتى إذا فرغ

من القسمة بالعدل، نفض يده بيده وقال بزهدٍ ووقار: «صفراء بيضاء، غري غيري».

ثمَّ قام فصلَّى لله ركعتين، وانصرف يدبِّرُ أمْرَ، ما قد خلفته الحرب، من فقدٍ للآباء، والأخوة، والأبناء، وما قد أرملت من النِّساء، وأوتمت من الولدان، وما قد أوقدته من نار الحقد في الصدور، بين القبائل التي قد فقدت الأحبة، وبين من فقد النصر ومن أحرزه.

وثمة أمرٍ أخطر وأشق، وذلك: ما تقذف به ألسنة الزنادقة، من نِفاقٍ، وشقاقٍ، فتنة وتفرقة بين المسلمين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل».

ومن صفاته المختلفة المؤتلفة: أنَّه كان يلبس الصوف الخشن في الصيف، حمَّارَّة القيض، ويرقعه كل مُرقع، حتى يستحي من راقعه، ويلبس رقيق الثوب، في الشتاء، صبارة القرِّ.

ومن صفاته المختلفة المؤتلفة: فقد كان ينام المضمضة خلال، قيام ليله في عبادة ربّه حباً بلقائه، في مناجاته وتهجده.

وكان ينام المضمضة في ليل حربه ونهاره، لئلَّا يُفتتن جيشه، المؤلف من قبائلٍ وطوائف، قد قُدحت بينها، نار الحقد والثارات، وهي مختلفة الأهواء، والانتماءات.

هذا ولم يُمح شعار الجاهلية، من صفْحةِ قلوبهم النار ولا العار، إلَّا من امتحن الله قلوبهم للتقوى وهم قليل.

ثمَّ إنَّ ثمة طوَّافون على الناس في جيشه، هم للكفر أقرب منهم للإسلام، يثبطون الجند، قد خرجوا لهم بلبوس الصدق والإيمان، وفي أهل النجدة والقتال سمَّاعون لهم، قاتلهم الله في كُلِّ زمان ومكان، فهم الضالون المضلون، لهم في كل طريق صريع، قد أعدوا لكل ليلٍ مصباحاً، ولكل بابٍ مفتاحاً.

لقد عشعش الشيطان في صدورهم، فباض وفرخ، فهو ينطقُ على ألسنتهم، ويسمع في آذانهم، ويقومُ ويجلس في محرابهم، فبهم يصول، وبهم يجول، ومن غرسهم يقطف الثمر.

واعلم أنَّ الرجل المحراب، والقائد السياسي الكبير الأوحد، الذي استطاع أن يقبض على جيشٍ مختلف الانتماءات، متفرق متشتت الأهواء، فيُقاتل به عدوّه اللدود، المفرط في كرهه وخصومته، هو الإمام علي بن أبي طالب.

وذلك: أنَّ فريقاً من جيشهِ كان يقول بخلافته، ولا يقول بخلافة أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان بن عفان.

وفريق آخر، وهم الأكثر عدداً كان يقول بخلافة أبي بكر، وعمر، ولا يقول بخلافة علي، قبل خلافةِ عثمان بن عفان.

ثمَّ إنَّ ثمة طائفة تُقرُّ مقتل عثمان بن عفان، وأنَّ قتله كان حقّاً ومشروعاً، فقد آثر قومه بني معيط على الناس، فأغدق فيهم مال بيت المسلمين، ولم ير في ذلك حرجاً في الله ورسوله، في حفظ أُمَّة محمَّد، وفي العدل بينهم، وهذه الطائفة في جيشه قائمة.

وطائفة أُخرى، تُنكر مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وترى أنَّه قد قُتل مظلوماً، ويجب أن يطالب بدمه، ويؤخذ بثأره، وهذهِ

الأُخرى في جيشه، وتحت لوائه، كغيرها في التخلخل والتقلقل، وفي هذا الانضباط المضطرب.

قام زنديقٌ زنيمٌ في معركة الجمل، قبل أن يبدأ القتال، يُنادي من على بعيرهِ، بصوت صيتٍ جهوري: يا أبا الحسن أأبو بكر، وعمر بن الخطاب، كانا على حق.

فقال الإمام علي: أراك يا هذا قلق الوضين[1]، فإنَّ الحق لا يُعرف بالرجال، بل الرجال تعرف بالحق، أعرف الحق تعرف أهله، فقطع عليه وصرفه عن الفتنة.

ثمَّ قامت قتلة عثمان فقالت له: يا أبا الحسن، نريد أن تُفصح في مقتل عثمان بن عفان، لنسمع منك فيه.

ثم قامت الأُخرى فقالت له: يا أبا الحسن فهل لك أن تُفصح في مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، نريد أن نسمع منك، وفي هذه وتلك فتنة كبرى.

فقام الإمام خطيباً، واعظاً، مُحذِّراً، وقد صغى له الجيش فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[2]، لقد قتل عثمان بن عفَّان، وأنا معه، فرضيت لهذا الطائفتان، وانصرفوا.

وذلك أنَّ الطائفة قتلة عثمان، فهمت من قوله هذا، أنَّ الله قتل عثمان، وعليٌّ معه في قتله.

---

(١) الوضين: حزام الدابة المضطرب.

(٢) سورة الزُّمَر: ٤٢.

وكذلك الطائفة التي أنكرت مقتله، فقد أولت كلام الإمام هذا، أنَّ عليّاً سيُقتل مظلوماً كما قتل عثمان ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1].

هذا وقد وعده رسول الله أنَّه سيُقتل غيلةً، وأنَّه ستُخضَّب لحيته من رأسه، ثمَّ إنَّه كان في طلب الغيلة، منذ أن كان وليداً.

فقد كان أبوه أبو طالب كافل النبي ومانعه، يُضجعهُ في فراش النبي، في جوف اللَّيل في الشعب ليقتل علي وينجو ابن أخيه رسول الله، في طلب قريشٍ له.

ثمَّ إنَّه بعد الهجرة قتل صناديد قريش وفرسانها، في بدرٍ الكبرى، وكذلك في أُحُد، وما كان قد فعله ببني عبد الدار، فقد قتل حَمَلةَ الألويةِ، من أبطالهم الشجعان الطغاة.

وكذلك في معركة الأحزاب، وقد بلغت القلوب الحناجر بنصِّ القرآن، من شدَّة الخوف، وقد ظنَّ المسلمون بالله الظُّنون، فَرقاً من سيف فارس الجزيرة العربية عمرو بن عبد وُد، الذي كان يُعدُّ بألف فارس، وقد اجتاز الخندق، الذي خندقه المسلمون من حولهم وهم قلَّة، فبرز له الإمام علي فقتله، ورمى برأسه تحت قدم رسول الله.

وكذلك في حرب خيبر، فقد قَتَلَ مرْحَبَ اليهود وفرسانه الأقوياء الأشداء، بعد أن رجع أبو بكرٍ بالراية مهزوماً في اليوم

(١) سورة الزُّمَر: ٤٢.

الأوَّل من المعركة، وبعد أن هُزم عمر بن الخطاب براية الإسلام في اليوم الثاني، فساء ذلك النبي فقال:

لأعطين الراية غداً رجلاً كراراً غير فرار، يُحبّ الله ورسوله، ويُحبّه الله ورسوله، يفتح الله على يديه.

وكان الإمام علي يوم ذاك، أرمد العينين، وصَدِع الرأس، فبات المسلمون، والكلّ يرجو أن يكون صاحب الراية، وبعد صلاة الفجر، دعا بعلي، فمثُل بين يديه، يقوده رجلان، فقال له النبي: ما بك يا علي.

قال: رمد في عيني، وصدع في رأسي.

فأخذ النبي من ريقه الدواء، ومسح على عيْنيهِ، ومرَّ بها على رأسه، فبرأ بإذن الله تعالى.

فقال له: يا علي إذهب بهذه الراية، وافتح حصون خيبر بإذن الله.

فقال له الإمام الكرَّار: لبَّيك يا رسول الله.

فذهب الإمام علي، وفتح الحصون، وقد قلع باب خيبر، الذي كان يفتحه ويغلقه أربعون رجلاً من اليهود، وكان من أمره ما قد كان، وهذا بنصِّ الإمام البخاري في صحيحه.

ثمَّ يوم حنين مع هوازن، وكانت خمسة عشر ألفاً، ففرَّ المسلمون في الحملة الأُولى، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وثبت الإمام علي والفضل بن العبَّاس هذا، والعبَّاس عم

النبي، آخذ بزمام بغلة النبي، في قلَّةٍ من بني هاشم دون العشرة قائمة تحرسه.

ثمَّ في غزوة ذات السلاسل، وقد فرَّ بالراية عمرو بن العاص، وكان تحت رايته أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وغيرهم من المهاجرين والأنصار.

فأرسل رسول الله عليّاً في جماعةٍ من المسلمين، وفيهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، فخرج رسول الله فودَّعهم خارج المدينة، فلما نزل عليٌّ بساحتهم، دعاهم إلى الله ورسوله، وقد أنذرهم، فساء صباح المشركين، فحسم المعركة، وجاء برجالهم، وفرسانهم، مقرَّنين بالسلاسل.

ولذلك سمية: «**غزوة ذات السلاسل**».

فأنزل الله في ذلك سورة العاديات، على رسوله محمَّد، فبشر الناس بالنصر المبين، وخرج بمن بقي من المسلمين خارج المدينة، يستقبل راية الإسلام.

فلما أقبل علي، ومعه الغنائم والأسرى، وقد رأى النبي مقبلاً عليه ومعه المسلمون، ترجل عن جواده، فقال له رسول الله: إركب، فإنَّ الله ورسوله عنك راضيان.

فبكى علي فرحاً، فقال له النبي: يا علي، لولا أنِّي أُشفقُ، أن تقول فيك طوائف من أُمَّتي ما قالت النصارى في المسيح، لقلت فيك مقالةً، لا تمرُّ على ملأٍ من الناس إلَّا أخذوا التُّراب من تحت قدميك.

نعم: وما هذه إلَّا وجائز من سيرة علي وشجاعته، في مواقفهِ وحروبه، التي عصفت بفرسان الكفر والشرك، فسحقت شجعانهم، وأذلَّت أشرافهم وسادتهم، في طغيانها المتغطرس الأَشِرْ.

وهذا نزر قليل، من صفات علي المختلفة المؤتلفة، فكيف لرجلٍ أن تسهر عينه فلا تكتحل بنومٍ، وهو أخو الحرب الأرِق، أن يلقى أشرس الأبطال في كُلِّ ساحٍ، فيسحقهم صاغرين، من غير أن يهلوس، فاقِداً لفطنته وتوازنه.

إنَّها رعاية الله وحفظه، فهو عبدهُ المُخْلَصِ له، ووزير نبيّه ووصيّه.

إنَّ علي بن أبي طالب، منذ أن ولد إلى أن استشهد، لم ينبسط، ولم ينقبض، في حركةٍ من حركاته، ولا سكنةٍ من سكناته، في علمه، ونطقه، في حربه، وسلمه، في رضاه، وسخطه، إلَّا كانت كاملة متكاملة في سبيل الله، وطاعته وطاعة رسوله، هذا ولم يَلْبِسْ إيمانه بظلم قط.

فيا ليت أُمَّة محمَّد، بل الناس جميعاً، تنهج نهج علي، فإذا بها المُفلحة الرائدة، ففي اتباع علي، سعادة الدُّنيا والآخرة.

وهنا أقول لقارئي المحترم، وإنَّما أوجزت بعضاً من جهاد عليٍّ، المفلح تحت لواء الإسلام، في حروب النَّبي، وقيادته المباركة، موجزاً سريعاً في مؤلفي هذا، الذي سميته: «**غرفة من بحر علي**» ليكون توطئة لما سأختاره من رحلته المباركة في حياة النبي، وبعد رحيله إلى ربِّه، الذي أرسله رحمةً للعالمين.

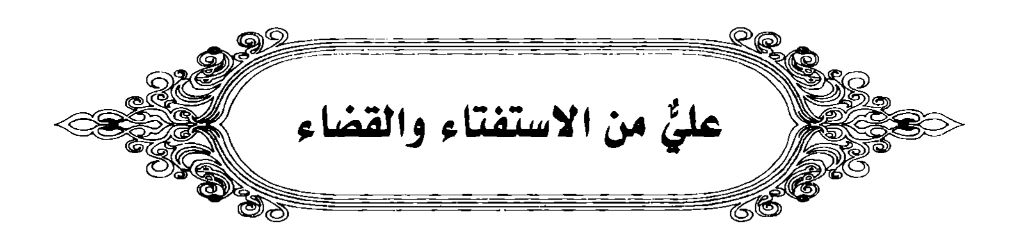
وأشير إلى أنَّني قد فَصَّلتُ سيرة رسول الله، وجهاد عليٍّ، والصحابة، في كتابي السابق: «**رسول الشَّمس**»، كُلَّ مُفصلٍ مُوثَّق، فمن أراده، فإلى هناك بحفظ الله تعالى.

ولعشَّاقِ شجاعة الإمام علي بن أبي طالب، أوثق أبياتاً، قد نظمها المرحوم السيِّد جعفر الحلِّي، في الفدائي الفارس المتفاني، تحت لواء أخيه الحسين، سبط رسول الله، سيِّد شباب أهل الجنَّة أبي الفضل العبَّاس بن علي في كربلاء الجهاد والشهادة، قال ﷺ:

بطلٌ تورَّث من أبيه شجاعةً   فيها أُنوف بني الضلالة ترغمُ
عرف المواعظ لا تفيد بمعشرٍ   صموا عن النبأ العظيم كما عموا
فانصاع يخطب بالجماجم والكلى   فالسيف يضرب والمثقف ينظم
قسماً بصارمه الصقيل وإنَّني   بغير صاعقةِ السَّماء لا أُقسم
لولا القضاء لمحا الوجود بسيفه   واللَّه يقضي ما يشاء ويحكمُ

هذا: وأنا أسأل الله ربّ النملة، وربّ النخلة، ربّ الذرة، وربّ المجرة، أن يغفر لي ويرحمني، إنَّه هو الغفور الرحيم.





عليٌّ من الاستفتاء والقضاء

كلا فإنَّ الله لم يخلق الناس عبثاً، ولم يتركهم هملاً في أرضٍ قد جعلها لهم، فقدَّر فيها أقواتها، في فصولٍ ووصولٍ ذات غرسٍ وقطاف، وزرع وحصاد.

وجعل خلالها أنهاراً، لتحيي مواتها، ويسعد حيوانها، في انقباضٍ وانبساط، وبحاراً ذات مدٍّ وجزّرٍ، وعذْبٍ وأُجاج.

وسخَّر لهم الشَّمس والقمر دائبين، وسخَّر لهم اللَّيل والنهار، وأنزل من السَّماء ماءً مباركاً، فأخرج به نبات كُلِّ شيء رحمةً بالعباد، إنَّ الإنسان لظلومٌ كفَّار.

ثمَّ بعث أنبياءً ورُسُلاً، في أُممهم مبشِّرين، ومنذرين، تدعوهم لمعرفته وعبادته، وأنزل معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط.

فكذبوا رسلهم، وعتوا عن أمرِ ربّهم، إلَّا قليلاً منهم، فكان الصراع والنِّزاع، والحرب والقتال، بين المؤمنين والكافرين.

فبرز الاستكبار، وتملق أهل الكذب والنفاق، مناصرةً لأهل الجور والفساد، المتربيين في الأرض بغير الحق، الذين جعلوا الله من أهونِ الناظرين إليهم.

فاتخذوا ماله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، فبرزت

إليهم الأنبياء والرُّسل، بمن آمن ونصر، تكافح وتناضل، تقاتل وتجاهد، فمنها من قُتل، ومنها من هَزَمَ وانتصر.

فجعلوا الناس مربوبين لله وحده، وقد أنزلوهم منازلهم، فقسموا بينهم بالسوية، وأجزلوا لهم العطية.

وبعد: فإنَّ الدُّنيا دار صراع وامتحان، ذاتُ تحوُّلٍ، وتقلُّبٍ، وبلاءٍ، وابتلاء، توسوسُ فيها الشياطين في صدور الرِّجال، فتزيِّن لهم سوءَ عملهم، وتعِدُهم وتمنيِّهم، فتصدهم عن السبيل، وتقعد لهم كُلَّ مرْصد، فتذهب بهم في كُلِّ تيهٍ، وتهوي بهم في كُلِّ سحيقٍ، حسداً لهم، واستخفافاً بهم، واستعلاءً عليهم، إذْ خُلقت من نارٍ، وخُلقوا من طين.

فإذا هم طوع إرادتها، ومرمى نبلها، ورغيف خبزها، مستسلماتٍ فلا أيدٍ تدفع، ولا قلوب تجزع، فإذا بهم حصبُ جهنَّم، هم لها واردون.

ثمَّ كلا ولا: فما كانتِ الأنبياء والرُّسُل لترحل إلى ربِّها، وأُممها خلفها عرضةً للطغاة، ونهباً للمجرمين، تعصف بهم القواصف، وتدمِّرهم الأعاصير.

فإذا هم لقمةٌ لآكلٍ، وحديثٌ لِراوٍ، وضحكة لساخر، قد سُلبت أموالهم، وهتكت أعراضهم، وسُفكت دماؤُهم، أذلَّاء صاغرين.

لقد رحلت إلى ربِّها، وقد تركت في أُممها أوصياء، أشداء، صلحاء، مُخلصين، لا تأخذهم في حفظ الرِّسالةِ والأُمَّةِ والعدل فيهم لومة لائم.

فنهضوا بما أُوكل إليهم، مُبلِّغين، صادقين، صابرين، مُصابرين، مُرابطين، يقضون بالحقِّ، وبه يعدلون.

فخرج عليهم الطغاةُ، بلفيفٍ من الجهلاء والمنافقين، ممَّن يتربَّصُ بالرِّسالة وأهلها الدوائر.

فإذا بهم مُشرَّدين، مُعذبين، مقتَّلين بلا نصير، فقامَ مقامَ العلماءِ أئمَّةَ العدلِ، جهلاءُ الأُمَّةِ، فهم أدعياء مُترئسين، مُتسلْطنين.

فأباحوا المحرَّم، وعصفوا بكُلِّ حلالٍ، مُغيِّرين مُبدلين، وقد أدلوا بقسمٍ من مال المسلمين، إلى رواة الحديث، عن النَّبي، فصاغت من الرواية والحديث، ما تشتهيه الأنفس، زوراً وبهتاناً، افتراءً على الله ورسوله.

فأشيع الهرج، والمرج، والخفة، والطيش، وقد أُقصيَ الأخيار، وقُرِّب الفجَّار، فمني الناسُ بخبطٍ، وشماس، وتلونٍ، واعتراض، إذْ لُبِّس عليهم في دينهم، فاختلط الحقّ بالباطل، والجد باللعب، فلم يبق: من القرآن إلَّا رسمه، ومن الإسلام إلَّا اسمه.

فإذا الناس في الفتن، كالفلك في مهبِّ الأعاصير.

ويحضرني قول النبي محمَّدٍ ﷺ حيث قال: «أما والله لا أخاف على أُمَّتي مؤمناً ولا مشركاً.

فأمَّا المؤمن: فيمنعهُ الله بإيمانه.

وأمَّا المشرك: فيقمعه الله بشركه، وإنَّما أخاف عليهم: عالم اللِّسان، منافق الجنان، يقول ما يعلمون، ويفعل ما ينكرون».

نعم: لقد حُكِمتِ الأُمَّة، وقامت فيها مجالس الاستفتاء، والقضاء، فإذا المُسْتفْتي والمفتي في الجهل سواء، وإذا المواريث والدماء وغيرها، كرمادٍ في يومٍ عاصفٍ سواء.

ولنستمع في ذلك لبلاغة الإمام علي، وفصاحته في النهج: (ج١، ص٧٢) يقول:

إنَّ أَبْغَضَ الْخَلاَئِقِ إِلَى اللَّهِ رَجُلاَنِ: رَجُلٌ وَكَلهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ[١] **فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ مَشْغُوفٌ بِكَلاَمِ بِدْعَةٍ، وَدُعَاءِ ضَلاَلَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ**[٢].

وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً[٣] ....

---

(١) وكله الله إلى نفسه: تركه ونفسه. وهو كناية عن ذهابه خلف هواه فيما يعتقد لا يرجع إلى حقيقة من الدين، ولا يهتدي بدليل من الكتاب، فهذا جائر عن قصد السبيل، وعادل عن جادته، والمشغوف بشيء: المولع به. وكلام البدعة: ما اخترعته الأهواء ولم يعتمد على ركن من الحق ركين.

(٢) هذا الضالّ المولع بتنميق الكلام لتزيين البدعة، الداعي إلى الضلالة، قد غرر بنفسه وأوردها هلكتها. فهو رهن بخطيئته لا مخرج له منها وهو مع ذلك حامل لخطايا الذين أضلّهم وأفسد عقائدهم بدعائه كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العَنكبوت: ١٣].

(٣) قمش جهلاً: جَمَعَهُ والجهل هنا بمعنى المجهول وكما يسمى المعلوم علماً بل =

مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الْأُمَّةِ[(١)]، عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ[(٢)]، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ. بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ، مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ[(٣)]، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ مَاءٍ آجِنٍ، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ[(٤)]، جَلَسَ بَيْنَ

= قال قوم إنّ العلم هو صورة الشيء في العقل، وهو المعلوم حقيقة، كذلك يسمى المجهول جهلاً بل الصورة التي اعتبرت مثالاً لشيء، وليست بمنطبقة عليه، هي الجهل حقيقة بالمعنى المقابل للعلم بذلك التفسير السابق فالجهل المجموع هو المسائل والقضايا التي يظنها جامعها تحكي واقعاً ولا واقع لها.

(١) موضِعٌ في جُهَّال الأمة: مسرِعٌ فيهم بالغش والتغرير. وضع البعير: أسرع وأوضعه راكبه فهو موضع به أي مسرع به، وقوله: «عاد في أغباش الفتنة» الأغباش: الظلمات واحدها غَبَشٌ بالتحريك. واغباش الليل: بقايا ظلمته. وعاد بمعنى مسرع في مشيته أي أنّه ينتهز افتتان الناس بجهلهم وعماهم في فتنتهم فيعدو إلى غايته من التصدر فيهم والسيادة عليهم بما جمع مما يظنه الجهلة علماً وليس به. ويروى غار في أغباش الفتنة من غرَّهُ يغره إذا غشَّهُ وهو ظاهر.

(٢) عمٍ وَصْفٌ من العمى أي جاهل بما أودعه الله في السكون والإطمئنان من المَصالح، وقد يراد بالهدنة إمهال الله له في العقوبة، وإملاؤه في أخذه، ولو عقل ما هيأ الله له من العقاب لأخذ من العلم بحقائقه، وأوغل في النظر لفهم دقائقه، ونصح لله ولرسوله وللمؤمنين.

(٣) بكَّر: بادر إلى الجمع كالجاد في عمله يبكر إليه من أول النهار فاستكثر أي احتاز كثيراً من جمع بالتنوين أي مجموع قليله خير من كثيره، إن جعلت ما موصولة. فإن جعلتها مصدرية كان المعنى قلّته خير من كثرته، ويروى جمع بغير تنوين، ولا بد من حذف على تلك الرواية أي من جَمْعِ شيء قلّته خيرٌ من كَثْرتِه.

(٤) الماء الآجن: الفاسد المتغير الطعم واللون. شبه به تلك المجهولات التي ظنها معلومات وهي تشبه العلم في أنّها صور قائمة بالذهن فكأنّها من نوعه كما أنّ الآجن من نوع الماء، لكن الماء الصافي ينفع الغلة ويطفىء من الأوار، والآجن يجلب العلة ويفضي بشاربه إلى البوار. واكتنز أي عدّ ما جمعه كنزاً وهو غير طائل أي دوني خسيس.

النَّاسِ قَاضِياً، ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ[(١)]، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِهِ ثُمَّ قَطَعَ بِهِ[(٢)].

فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ[(٣)]، لاَ يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ، جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاَتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ[(٤)]، لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ[(٥)]،

---

(١) التخليص: التبيين، والتبس على غيره: اشتبه عليه.

(٢) المبهمات: المشكلات لأنّها أبهمت عن البيان كالصامت الذي لم يجعل على ما في نفسه دليلاً، ومنه قيل لما لا ينطق من الحيوان بهيمة. والحشو: الزائد لا فائدة فيه، والرثّ: الخلق البالي ضد الجديد أي أنّه يلاقي المبهمات برأي ضعيف لا يصيب من حقيقتها شيئاً، بل هو حشو لا فائدة له في تبينها ثم يزعم بذلك أنّه بينها.

(٣) الجاهل بشيء: ليس على بينة منه فإذا أثبته عرضت له الشبهة في نفيه، وإذا نفاه عرضت له الشبهة في إثباته فهو في ضعف حكمه في مثل نسج العنكبوت ضعفاً ولا بصيرة له في وجوه الخطأ والإصابة فإذا حكم لم يقطع بأنّه مصيب أو مخطىء وقد جاء الإمام في تمثيل حاله بأبلغ ما يمكن من التعبير عنه.

(٤) خبّاط: صيغة مبالغة من خبط الليل: إذا سار فيه على غير هدى، ومنه خَبْطَ عشواء، وشبه الجهالات بالظلمات التي يخبط فيها السائر وأشار إلى التشبيه بالخبط. والعاشي: الأعمى أو ضعيف البصر أو الخابط في الظلام فيكون كالتأكيد لما قبله، والعشوات جمع عشوة مثلثة الأول وهي ركوب الأمر على غير هدى.

(٥) من عادة عاجم العود أي مختبره ليعلم صلابته من لينه أن يعضه، فلهذا ضرب المثل في الخبرة، بالعض بضرس قاطع أي أنه لم يأخذ العلم اختباراً بل تناوله كما سول الوهم وصور الخيال ولم يعرض على محض الخبرة ليتبين أحق هو أم باطل.

يُذْرِي الْرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ[١]، لاَ مَلِيءٌ وَاللَّهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلاَ هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوِّضَ إِلَيْهِ[٢]. لاَ يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلاَ يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ[٣]، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ. تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعِجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ[٤]. إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً[٥]، وَيَمُوتُونَ ضُلاَّلاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ[٦]، وَلاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ

---

(١) الهشيم: ما يبس من النبت وتفتت. وأذرته الريح إذراء أطارته ففرقته ويروى يذرو الروايات كما تذرو الريح الهشيم وهي أفصح قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وكما أنّ الريح في حمل الهشيم وتبديده لا تبالي بتمزيقه واختلال نَسَقه كذلك هذا الجاهل يفعل في الروايات ما تفعل الريح بالهشيم.

(٢) المليء بالقضاء: من يحسنه ويجيد القيام عليه. وهذا لا مليء بإصدار القضايا التي ترد عليه وإرجاعها عنه مفصولاً فيها النزاع مقطوعاً فيها الحكم أي غير قيّم بذلك، ولا غناء فيه لهذا الأمر الذي تصدر له وروى (ابن قتيبة) بعد قوله لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه (ولا أهل لما قرظ به) أي مدح به بدل ولا هو أهل لما فوض إليه.

(٣) اكتتم به أي كتمه وستره.

(٤) العجّ: رفع الصوت. وصراخ الدماء وعج المواريث، تمثيل لحدة الظلم وشدة الجور.

(٥) إلى الله متعلق بأشكو. وفي رواية اسقاط لفظ أشكو فيكون إلى الله متعلقاً بتعج، وقوله «من معشر» يشير إلى أولئك الذين قمشوا جهلاً.

(٦) تُلي حق تلاوته: أخذ على وجهه وما يدل عليه جملته وفهم كما كان النبي وأصحابه ﷺ يفهمونه، وأبور: من بارت السلعة: كسدت، وأنفق: من النَّفاق بالفتح: وهو الرَّواج وما أشبه حال هذا المعشر بالمعاشر من أهل هذا الزمان.

بَيْعاً وَلاَ أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ.

ثمَّ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذَمِّ اختلاف العلماء في الفُتْيا:

«تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلاَفِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ[(١)]، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً، وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ.

أَفَأَمَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالاخْتِلاَفِ فَأَطَاعُوهُ؟ أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ؟ أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وآلِهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ؟ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[(٢)] وَ قَالَ فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً وَأَنَّهُ لاَ اخْتِلاَفَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[(٣)] وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ[(٤)]، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ

---

(١) الإمام الذي استقضاهم: الخليفة الذي ولاّهم القضاء.

(٢) سورة الأنعَام: ٣٨.

(٣) سورة النِّسَاء: ٨٢.

(٤) أنيق: حسن معجب، وانقني الشيء أعجبني.

تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ».

ثمَّ إنِّي أُوثق موقفاً مهماً للخليفةِ الثاني، الفاروق عمر بن الخطاب، وأنا لا أظن أنَّ أحداً ممَّن حكم الناس وساسها، قد تجرَّأ على نفسه فاعترف، بما قد عثر فيه فيمن عاصره، وفيمن قد بلغه الخبر.

وذلك أنَّه فكَّر ورأى فقال: سأنظرُ فيما أُمهِرتْ به نساء المسلمين، فما زاد على ما أُمهرت به نساء رسول الله، فسأرده في بيت مال المسلمين، فقالت له امرأة مثقفة تحفظ القرآن: مه يا عمر، فهذه عليك وليست لَكَ أن تفعل هذا.

فقال خليفة المسلمين: وكيف ذلك يا امرأة؟

فقالت: إنَّ الله يقول في مُحْكم كتابه: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[1][2].

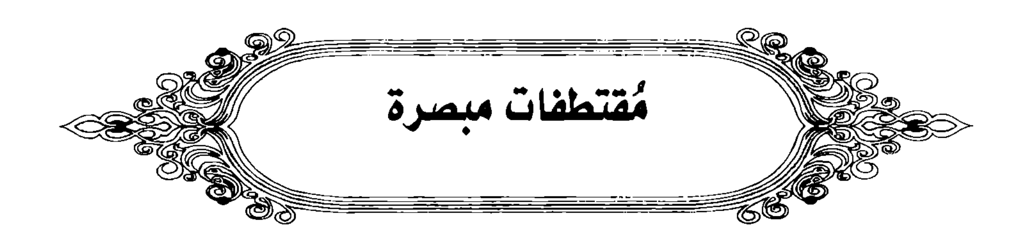
فيقفُ عمرُ ويقول: نعم لقد فقِهْتِ يا امرأة، وجهلت حكم الله يا عمر.

قالها ولم يغضب لنفسه، ولم يجلد المرأة في مقالتها تلك.

---

(١) سورة النِّسَاء: ٢٠.

(٢) «لقد ذكرها المؤرخون سُنَّةً وشيعة».



مُقتطفات مبصرة

للإمام علي بن أبي طالب صرخات، جسام عظام، ونداءات عالية مبصرة.

تستصرخ الناس في الغدوِّ والآصال، ليقرأوا أطيب الكلم، ويقطفوا أزكى الثمر.

لقد غرست لهم في كُلِّ حقلٍ من حقول الحياة، أكرم الغرس وأثمره.

فليبذلوا جُهدهم ما استطاعوا، مُقبلين عليه بصدقٍ وإخلاصٍ، كادِحين نشطين، ليهبهم جمال الحياة في عزَّةٍ لا تُضام، وليحملوا زاد الآخرة، وهم لا يُفرِّطون في طاعةِ الله، وطاعةِ رسوله إمام المرسلين، وخاتم النبيين محمَّد ﷺ، ذلك، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[1].

يقول الإمام علي عليه السلام: **«قيمة كُلِّ امرئٍ ما يحسنه»**[2].

---

(١) سورة النّجم: ٣٩-٤١.

(٢) باب الحكم، نهج البلاغة.

أقول: تلك الكلمة التي لا يعرف لها قدر، ولا يُصاب لها وزن، ولا يدرك لها غوص.

فلو أخذ الناس بها، على اختلاف مذاهبهم ومللهم، فدخلت دوائرهم، ومؤسساتهم الاجتماعية، الخاصة منها والعامة، رؤساء ومرؤوسين، لقامت بهم الحياة وازدهرت، ولطابت معيشتهم، فرغدوا في تقلبهم وسعادتهم، وهم آمنون وذلك.

فكيف لمريضٍ يطلب الشفاء، أن يشفى من دائهِ الموجع المرهق، وطبيبهُ يجهل الطبابة والطب والداء والدواء، وكيف لعالمٍ أن يجلس في الأُمَّةِ، قاضياً في الخصومةِ بين الخصم، وخصمهُ تحت نزاعٍ وشجارٍ، أن يفصل بالحقِّ قاضياً، وهو يجهلُ الحق والباطل، واللَّبْسَ والشُّبهة، والحكم والقضاء.

وكيف لأبٍ وأُمٍّ، أن يرسلا أولادهما مصابيح نورٍ وهدايةٍ، تستضيءُ بهم شوارع الناس، وهما أبلد من طفلهم الأوَّل، وأجهل من جنينهم الأخير، في التربية والإعداد.

وكيف لمعلِّمٍ، أن يُدرِّس الأجيال، فينشىءُ الطاقات الهائلة في الناس، وهو يجهل حركة الحرف، وسعي الكلمة في النفس إلى غايتها، في أن يُحسن الإعداد، والإبداع.

وكيف لعاملٍ في الغرس والزراعة، أن يُغرق الأسواق في التَّصدير والأرباح، وهو جاهل لا يُحسن الفن والمفاعلة، في غرسه وزرعه، وعلَّة الاستثمار.

بل وكيف لأُمَّةٍ، وشعبٍ مُعذَّبٍ، مُمزَّقٍ، فاقدٍ لقوتهِ، وكرامة

حياته، يتقلَّبُ صاغراً ذليلاً، تحت وطْأة الحُكمِ، وأقدامِ الحُكَّام، في غير عدلٍ وإنصافٍ، أن يُحْسن اختيار من ينوب عنه، رئيساً، وزعيماً، فيزاول في خدمته، وحفظه دائباً، وهو لا يعرف أخلاق الحكم، ونزاهة الحكَّام.

وقس على وجزاتِ شرح، تلك الحكمة غيره، وقد عَلِمتَ أنَّهُ لا يُحاط بها لأصالتها، فهي لإمام الكلام بعد الله ورسوله ﷺ.

وقال عليه السلام: إنَّ الله سبحانه وتعالى فرض في أموال الأغنياء، أقوات الفقراء، فما جاع فقيرٌ، إلَّا بما مُتِّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك.

وقال عليه السلام: لجابر بن عبد الله الأنصاري: يا جابر: قِوامُ الدِّين والدُّنيا بأربعة:

١ ـ عالمٍ مستعملٍ علمه.

٢ ـ وجاهلٍ لا يستنكفُ أن يتعلَّم.

٣ ـ وجواد لا يبخلُ بمعروفه.

٤ ـ وفقيرٍ لا يبيع آخرته بدُنياه.

فإذا ضيَّع العالمُ علمهُ: استنكف الجاهلُ أن يتعلَّم.

وإذا بخِل الغنيُّ بمعروفه: باع الفقيرُ آخرته بدُنياه.

يا جابر: من كثرت نعم الله عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله بها بما يجبُ، عرَّضها للدَّوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب، عرضها للزَّوال والفناء.

واستمع لقول الله تعالى، يُخاطب به من قد أقبلت عليه الدُّنيا، فيُبشِّرهُ ويحذِّره فتنتها، وتقلبها، وغدرها بأهلها: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

لقد غرَّ كثيراً من الأغنياء، المترفةِ أموالهم وأولادهم، وهي فتنة لهم، لقد جُمعت من حلالٍ ومن حرامٍ، وادخرت في معصية الله، وهم لأنفسهم ظالمون.

لقد امتحن الله الغني بماله، فابتلاه بالفقير، وامتحن الفقير بفقره، فابتلاه بالغني، لينظر كيف يفعلون.

وفي هذا فإليك فخذ: لقد تاه فريق من الأغنياء عن الصِّراط، فخرجوا على الفقراء بزينتهم، يلبسون الرياش، ويبنون، ويزخرفون، ويهدمون، ويفسدون، قد اقتطعوا قسماً من الناس ببعضٍ من مالهم، فاتخذوهم عبيداً وإماءً، فهم طوَّافون عليهم في خدمتهم، يرون ما يرون، وينكرون ما ينكرون.

فضلَّ بهؤلاء فريق من الفقراء، قد تبيغ بهم فقرهم، لما تنكرت لهم الدُّنيا، وظنُّوا أن قد أُحيط بهم، فانقلبوا على وجوههم يقولون: إنَّ الله يرى الأغنياء ولا يرانا، ويرزقهم ولا يرزقنا، فضل هؤلاء الفقراء بأُولئك الأغنياء، فعموا وصموا جميعاً.

---

(١) سورة القَصَص: ٧٧.

هذا، وإنَّ ثلَّة من الأثرياء، قد امتحن الله قلوبهم للتقوى، فأبلوا في أموالهم، وأولادهم، في سبيل الله، بلاءً حسناً، فأقبلوا على الله بكُلِّهم، فوضعوا ما قد خُوِّلَ إليهم، وما قد فُوِّضوا فيه، بكفِّ الله يريدون به وجهه، فأقبلوا بيد البذل والعون، على الفقراء، بما قد شرع الله لهم وزيادة، فرفعوا بذلك حوائجهم، ورمِّ معاشهم، فطابت بذلك حياتهم، ورغدت معيشتهم، فغفر الله لهم، وأجزل لهم الثواب في عاجلهم وآجلهم، وكانوا لله شاكرين.

ألا وإنَّ قلَّةً من الفقراء، قد صبروا على فقرهم وصابروا، لما علموا، أنَّ مرارة الدُّنيا، حلاوة الآخرة، وأنَّ الدُّنيا دار زوال وانتقال، تتصرف بأهلها حالاً بعد حال.

فالمغرور من غرَّته، والشقي من فتنته، فطووا عنها كشحاً، بصبرٍ، وجلدٍ، فرضوا بضيق مناخها، وضنك معاشها، فلبسوا الخشن، وأكلوا الجشب، في لين عريكةٍ، وخفض جانب، في سعة صدر، وتواضع للناس، وقد عبدوا الله، مُخلصين له الدِّين وحده، حتى أتاهم اليقين.

وهذا يُذكِّرنا بقول الإمام علي، يصف الدُّنيا فيقول عليه السلام: والشاخص منك لا يبالي، إن ضاق به مناخه، والدُّنيا عنده كيومٍ حان انسلاخه.

وقال عليه السلام: إنَّ مثل الدُّنيا، كمثل الحية، لين مسها، والسُّم الناقع في جوفها، يهوي إليها الغرُّ الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل.

وفي هذا كُلّه، فإنَّ الله لا يكره للإنسان أن يكون غنياً من الحلال الطيِّب، إن هو اتقى الله في ماله، فصرفه في وجهه، فيما قد شرَع الله له في قسْمته.

يقول الإمام علي عليه السلام: ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، بل الزهد أن لا يملكك الشيء.

يقول رسول الله محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، فيا له من قول مُنبِّهٍ، ناقعٍ، نافع قال: إذا كان يوم القيامة، فلا تزول قدم امرىء، حتى يُسألَ عن أربعة:

١ ـ عن عُمُره فيما أفناه.

٢ ـ وعن شبابه فيما أبلاه.

٣/ ٤ ـ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه.

وللخلاصة أقول: لقد أشرقت شمس الدُّنيا، وغابت بفصولها، بأيَّامها ولياليها، على الأغنياء في رخائهم، وهزلهم، ولعبهم، ساهون لاهون، في لذائذهم ونعيمهم الوهم السراب، وعلى الفقراء، في فقرهم المدقع، في سوء حالهم، وهم يتقلبون في طلب رغيفهم، ورث لباسهم، وضيق مناخهم، فلا يجدونه، إلَّا برهقٍ، وذلةٍ، وصغار.

وفي هذا تراهم حامدين، لله شاكرين، بصبرٍ واحتساب، إلَّا من ضعف منهم فجزع وكفر، وما أكثر الناس، ولو حرصت بمؤمنين.

فذا حال الأغنياء، والفقراء في دُنياهم، المتصرِّمة البائدة، حتى أناخ الموت بساحتهم، فتوفاهم ملك الموت، الذي وُكِّل بهم، فإذا هم جميعاً خامدون، ينتظرون صيحة القيامة، وحلول يوم الطامة، ليجزي الله الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: (ج١، ص٢٣٩):

فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً[١]، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ، وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا[٢]، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا[٣]، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا. فَيَكُونُ الْمَهْنأُ لِغَيْرِهِ[٤]، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ[٥]. وَالْمَرْءُ قَدْ

---

(١) ولوجاً: دخولاً.

(٢) أغمض: لم يفرق بين حلال وحرام، كأنّه أغمض عينيه فلا يميز. أو أغمض أي طلبها من أدق الوجوه وأخفاها فضلاً عن أظهرها وأجلاها.

(٣) تبعِاتها بفتح فكسر: ما يطالبه به الناس من حقوقهم فيها، وما يحاسبه به الله من منع حقّه منها وتخطي حدود شرعه في جمعها.

(٤) المهنأ: ما أتاك من خير بلا مشقة.

(٥) العبء: الحمل والثقل.

غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا[١]، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ[٢]، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ.

فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ[٣]، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ[٤]، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أُوحِشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الأَرْضِ، وَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ[٥].

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ،

---

(١) غلقت رهونه: استحقها مرتهنها، وأعوزته القدرة على تخليصها كناية عن تعذر الخلاص.

(٢) أصحر له: من أصحر إذا برز في الصحراء، أي على ما ظهر له وانكشف من أمره.

(٣) خالط لسانه سمعه: شارك السمع اللسان في العجز عن أداء وظيفته.

(٤) التياطاً: أي التصاقاً به.

(٥) زيارته.

أَمادَ السَّمَاءَ وَفطَرَهَا[١]، وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ أَخْلاَقِهِمْ[٢] وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ. ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ أَنْعَمَ عَلَى هؤُلاَءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هؤُلاَءِ.

فَأَمَّا أَهْلُ طَاعَتِهِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلاَ تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ[٣]، وَلاَ تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلاَ تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ[٤].

وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِي إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ[٥]، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ[٦] فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ،

---

(١) أماد: جواب إذا بلغ الكتاب الخ. وأمادها: حركها على غير انتظام. وفطرها: صدعها.

(٢) أخلاقهم بالفتح: من قولهم ثوب أخلاق إذا كانت الخلوقة شاملة له كله. والخلوقة: البلى.

(٣) لا تنوبهم الأفزاع: جمع فزع بمعنى الخوف.

(٤) أشخصه: أزعجه.

(٥) السربال: القميص. والقطران معروف.

(٦) المقطعات: كل ثوب يقطع كالقميص والجبة ونحوها، بخلاف ما لا يقطع كالأزار والرداء. والمقطعات أشمل للبدن وأشدّ استحكاماً في احتوائه.

وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ[(١)]، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ وَقَصِيفٌ هَائِلٌ[(٢)]، لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يُفَادَى أَسِيرُهَا وَلاَ تُفْصَمُ كُبُولُهَا[(٣)]. لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى.

كلام تشحذُ له الهمم، وتمتدُّ له الأعناق، وتُنشر له الآذان، ففي عذوبةِ فيضه وصفاءه، شِربٌ رويٌ لأولي الألباب.

فهذا حال أهل الدُّنيا، قد رجعوا إلى الله بما عملوا، فهم رهناء أعمالهم، كُلُّ نفس بما كسبت رهينة.

قال المتنبِّي:

نَبْكي على الدُّنْيا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ ... جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

أينَ الأكاسِرَةُ الجَبَابِرَةُ الأُلى ... كَنَزُوا الكُنُوزَ فَما بَقينَ ولا بَقوا

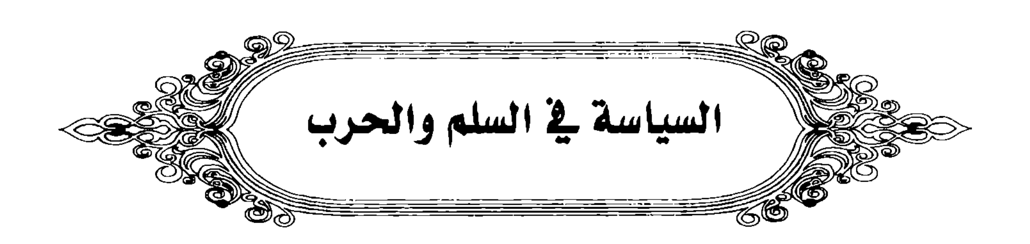
من كُلّ مَن ضاقَ الفضاءُ بجيْشِهِ ... حتَّى ثَوَى فحواهُ لحدٌ ضَيِّقُ

خُرْسٌ إذا نُودوا كأنْ لم يَعْلَمُوا ... أنَّ الكلامَ لَهُمْ حلالٌ مُطلَقُ

فَالموْتُ آتٍ والنُّفُوسُ نَفائِسُ ... والمُسْتَعزُّ بِمَا لَدَيْهِ الأحْمَقُ



(١) عبر بالكلَب محركاً عن هيجانها. واللجب: الصوت المرتفع.
(٢) القصيف: أشدّ الصوت.
(٣) جمع كبل بفتح فسكون: القيد. وتفصم: تنقطع.



السياسة في السلم والحرب

السياسة هي الأخلاق العظيمة، في الجامعة البشرية الفاضلة، تلك الخلاء من الكذب، والغش، والمكر، والخداع.

لقد اشتقّت السياسة، من المربّي للخيل، السائس المرن، الذي يخرج بالجواد الأصيل، مُدلَّلاً مذلَّلاً، يجيد السرعة والأناة، والكرَّ والفرّ في ميادين السلم والحرب، وقد سلخهُ من شكاسة الخُلقِ، فعصمه عن الجمح والشماس، سلس الانقياد، غير ممانعٍ ولا معاند، في ركوبٍ وترجل، لفارسه الفارس.

لقد ساسه خير سياسة، وراضه خير ترويض، كان يعلفه ويسقيه بقدر، ثم يكنس عنه ويغسله، فيزيل درنه، ويمشطه بمحسته، في كلامٍ رقيقٍ يفهمه، وكان يخرج به في الهواء الطلق، فيركضه ويُرِّقصهُ، بحبلٍ طويلٍ متين.

فإذا وقف يراوح صفر له، فإذا جاءه قدم له حبوب الحلوى وغيرها بطرف يديه، فيرُمرمُها بطرف شفتيه، فتراه يُحمحم ويصهل بفرح وسرور، في تلذذٍ وانشراح.

وكان يمتطيه لشوطٍ قريب، فبعيد حيناً بعد حين، حتى صرفه إلى ما قد خُلق له خير مصرفٍ، كريم مسوس، ليكون لابن آدم

جمالاً وزينةً، حين يسرحُ وحين يُريح، ورباطاً، ورهبةً لعدوِّه اللدود، في سلمه وحربه، فعليه يجول، وبه يصول، يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1].

هذا ومن السائسةِ من يسوس، ويدجن الوحش الأشد شراسة وفتكاً، كالأسد، والفهد، والنمر، وكالتمساح في الماء وغيره، كالنسر، والشاهين، والعقاب وغيرها من الجوارح، الفاتكة، القاتلة.

بيد أنَّ هذه الفصائلَ تلك، لا تهاجم فتقتل، إلَّا إذا جاعت لتأكل، أو في حالة الدفاع عن النفس، وهذا حق لها في شرعة الآكل والمأكول، وفي الدفاع عن نفسها، أن تهلك فتذهب.

إذاً فما بال هذا الإنسان، الذي انطوى فيه العالم الأكبر، قد أفسد فطرته، فكان أشرس الفاتكين على أخيه الإنسان، يلتهم كُلَّ ما في يده، فيسلبه وجوده وكينونته، ليمزِّقه كُلّ مُمزَّقٍ، قد عذرت فيه الوحوش الضارية، لظلمه وخسَّته.

فهل من سائسٍ أقدر، فيسوس هذه الوحوش البشرية اليوم، الناهبة، الشرهة، الشرسة، القاتلة التي لا تبقي ولا تذر، فكيف وكيف؟

وقد عجزت عن ترويضها، وتقويمها الأنبياء والمرسلون من قبل، أفأنت منقذ من في النار، إنَّهم وقودها وبئس المصير.

أقول: إنَّ أعظم صراع مثمرٍ، كريم في الفرد والجماعة،

---

(١) سورة الأنفَال: ٦٠.

صراع الذات مع النفس، وهو أقدس صراع وانتصار، ألا ومن انتصر على نفسه الأمَّارة بالسوء، فقد أوشك أن ينتصر على شياطين الجن والإنس. وكان أهلاً في أن يسوس ويقود في الله تعالى، ليُبلغ الناس مأمنهم في الدُّنيا والآخرة.

فقد قال رسول الله ﷺ لجيش الإسلام، وقد عاد من الحرب: «مرحباً بالعائدين من الجهاد الأصغر، وإليكم الجهاد الأكبر، جهاد النفس في طاعة الله، وقوت العيال».

وقال النَّبي ﷺ: «أيُّها الناس، كُلُّكم راعٍ، وكُلُّ راعٍ مسؤول عن رعيته».

وقال الإمام علي عليه السلام: «وإنَّما هي نفسي، أَروضها بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق».

ويقول في مُناجاته عليه السلام: «إلَهي لئن أعطيت نفسي سُؤلها، فها أنا في روضِ الندامةِ أرتعُ».

وقال الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإن ترد إلى قليلٍ تقنعُ

إنَّ خير سياسة مُروِّضةٍ باقيةٍ، أن يسوس المرء نفسه، فيحملها على طاعة الله ورسوله، فيما أحبت أو كرهت، وأن يَزَعَهَا عند الشُّبهات، في الشِّدَّة والرخاء.

ألا ترون إلى الدُّنيا، كيف فعلت بمن ركن إليها، وآثرها على آجاله، في معصية اللَّهِ، بطاعة الشيطان.

لقد شتتت شملهم، وفرقت جمعهم، وهدمت بنيانهم، وسلبت محاسنهم، بعد عزَّةٍ وإكبار، وكرامةٍ ووقار.

قال الإمام علي عليه السلام بعد تلاوته ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾(١)(٢):

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ(٣) وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ، وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ، لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ(٤)، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ؟ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ؟ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ(٥)، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ، وَلأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ(٦)، لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ(٧)، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ(٨)، وَالرُّبُوعِ

---

(١) سورة التكاثر: ١-٢.

(٢) ألهاه عن الشيء: صرفه عنه باللهو. أي صرفكم عن الله اللهو بمكاثرة بعضكم لبعض وتعديد كل منكم مزايا أسلافه حتى بعد زيارتكم المقابر.

(٣) المرام الطلب بمعنى المطلوب. والزَّوْر بالفتح الزائرون وهم يرومون نيل الشّرف بمن تقدمهم وتلك غفلة، فإنما ينالون الشرف بما يكون موجباته في ذواتهم فما أبعد ما يرومون بغفلتهم.

(٤) استخلوهم أي وجدوهم خالين. والمدَّكر: الإدكار بمعنى الاعتبار أي أخلوا أسلافهم من الاعتبار، ثم قلب المعنى في عبارة الإمام فكان أخلوا الإدكار من آبائهم مبالغة في تقريعهم حيث أخلوهم منه وهو محيط بهم، وأي صفة لمحذوف تقدير مدكراً. وتناوشوهم: تناولوهم بالمفاخرة من مكان بعيد عنها.

(٥) خوت: سقط بناؤها وخلت من أرواحها.

(٦) أحجى: أقرب للحجى أي العقل فإنَّ موت الآباء دليل الفناء، ومن عاقبته فناء كيف يفتخر؟

(٧) العشوة: ضعف البصر.

(٨) الخاوية: المنهدمة. والربوع: المساكن والضلال ـ كعشاق ـ جمع ضال.

الْخَالِيَةِ لَقَالَتْ ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً، تَطَؤُونَ فِي هَامِهِمْ[١]، وَتَسْتَثْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ[٢].

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ[٣] وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمُ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً، سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلاً[٤]، سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا

---

(١) جمع هامة: أعلى الرأس. وتستثبتون أي تحاولون إثبات ما تثبتون من الأعمدة والأوتاد والجدران في أجسادهم لذهابها تراباً وامتزاجها بالأرض التي تقيمون فيها ما تقيمون. ترتعون: تأكلون وتتلذذون بما لفظوه أي طرحوه وتركوه.

(٢) بواك: جمع باكية. ونوائح: جمع نائحة. وبكاء الأيام على السابقين واللاحقين. حفظها لما يكون من مصابهم.

(٣) سلف الغاية: السابق إليها، وغايتهم حد ما ينتهون إليه وهو الموت. والفراط: جمع فارط، وهو كالفرط ـ بالتحريك ـ متقدم القوم إلى الماء ليهيء لهم موضع الشرب. والمناهل مواضع ما تشرب الشاربة من النهر مثلاً. ومقاوم: جمع مقام. والحلبات: جمع حلبة ـ بالفتح ـ وهي الدفعة من الخيل في الرهان أو هي الخيل تجتمع للنصرة من كل أوب. والسوق: بضم ففتح ـ جمع سوقة بالضم ـ بمعنى الرعية.

(٤) البرزخ: القبر. والفجوات: جمع فجوة، وهي الفرجة والمراد منها شقّ القبر. ولا ينمون: من النمو وهو الزيادة من الغذاء. والضمار ـ ككتاب ـ المال لا يرجى رجوعه وخلاف العيان. ولا يحفلون ـ بكسر الفاء ـ لا يبالون. والرواجف: جمع راجفة: الزلزلة توجب الاضطراب. والقواصف من قصف الرعد: اشتدّت هدهدته. وأذن له: استمع.

يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ، لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ، غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا[١]، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ[٢]، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ[٣]، جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ، بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَى التَّعَارُفِ[٤]، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً، أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً[٥]، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى

---

(١) آلافاً: جمع أليف، أي مؤتلف مع غيره.

(٢) صم يصم ـ بالفتح فيهما ـ خرس عن الكلام. وخرس الديار عدم صعود الصوت من سكّانها.

(٣) ارتجال الصفة: وصف الحال بلا تأمّل، فالواصف لهم بأول النظر يظنهم صرعوا من السُّبات بالضم: أي النوم.

(٤) العرى: جمع عروة، وهي مقبض الدلو والكوز مثلاً، وبليت: رثت وفنيت. والمُراد زوال نسبة التعارف بينهم.

(٥) الجديدان: الليل والنهار فإن ذهبوا في نهار فلا يعرفون له ليلاً أو في ليل فلا يعرفون له نهاراً.

مَبَاءَةٍ[١]، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا، وَمَا عَايَنُوا[٢].

وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ. لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ[٣]، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ[٤]، وَخَوَتِ الْأَجْسَادُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ[٥]، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ[٦]، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ

---

(١) الغايتان: الجنة والنار. والمباءة: مكان التبوّء والاستقرار. والمُراد منها ما يرجعون إليه في الآخرة وقد مدت الغاية: أي أخرت عنه في الدنيا إلى مرجع يفوق في سعادته أو شقائه كل غاية سما إليها الخوف والرجاء.

(٢) عيوا: عجزوا.

(٣) رجعت فيهم أبصار العبر نظرت إليهم بعد الموت نظرة ثانية. والعبر: جمع عبرة.

(٤) كلح: كمنع ـ كلوحاً ـ تكشر في عبوس والنواضر الحسنة البواسم. وخوت: تهدمت بنيتها وتفرقت أعضاؤها.

(٥) الأهدام: جمع هدم ـ بكسر الهاء ـ الثوب البالي أو المرقع. وتكاءد الأمر أي شق عليه وتهكمت: تهدمت. والربوع: أماكن الإقامة. والصموت التي لا تنطق والمُراد بها القبور.

(٦) ارتسخ مبالغة. في رسخ، ورسخ الغدير: نش ماؤه: أي أخذ في النقصان =

فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا[١]، وَسَهَّلَ طُرُقَ الآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ، فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ[٢]، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي[٣].

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ[٤]، وَرَبِيبَ شَرَفٍ، يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ، إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ[٥]، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ، فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ، فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ إِذْ وَطِىءَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ[٦]، وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ

= ونضب: أي نضب مستودع قوة السماع، وذهبت مادته بامتصاص الهوام: وهي الديدان هنا واستكت الأذن: صمت. وخسف عين فلان: فقأها. وذلاقة الألسن: حدّتها في النطق.

(١) عاث: أفسد. والبلى: التحلل والفناء. وسمج الصورة تسميجاً: قبحها أي أفسد الفناء في كل عضو منهم فقبحه.

(٢) لرأيت: جواب لو مثلتهم. وأشجان القلوب: همومها. وأقذاء العيون: ما يسقط فيها فيؤلمها.

(٣) الغمرة: الشدّة.

(٤) الأنيق: رائق الحسن. والغدى اسم بمعنى المفعول أي مغذى بالنعيم، والربيب بمعنى المربي، ربَّه يُربِّهِ أي ربّاه.

(٥) يتشاغل بأسباب السرور ليتلهى بها عن حزنه. والسلوة: انصراف النفس عن الألم بتخيل اللذة. ضنّاً: أي بخلاً. وغضارة العيش: طيبه.

(٦) وصف العيش بالغفلة لأنّه إذا كان هنيئاً يوجبها. والحسك: نبات تعلق قشرته =

كَثَبٍ، فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ[١]، وَنَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ[٢]، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ[٣]، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ[٤] حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ[٥]، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ[٦]، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ، فَقَائِلٌ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ[٧]، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِينَ

بصوف الغنم ورقه كورق الرجلة أو أدق، وعند ورقه شوك ملزز صلب ذو ثلاث شعب تمثيل لمس الآلام.

(١) الحتوف: المهلكات. وأصل الحتف: الموت. من كثب ـ بالتحريك ـ أي قرب، أي توجهت إليه المهلكات على قرب منه. والبث: الحزن. والنجي: المناجي: وخالطه الحزن: مازج خواطره.

(٢) آنس حال من الضمير فيه. والفترات: جمع فترة: انحطاط القوة أي تولد فيه الضعف بسبب العلل حال كونه أشدّ أنساً بصحته من جميع الأوقات السابقة.

(٣) القار: هنا البارد.

(٤) أي ما طلب تعديل مزاجه بدواء يمازج ما فيه من الطبائع ليعدلها إلَّا وساعد كل طبيعة على تولد الداء.

(٥) معلل المريض: من يسليه عن مرضه بترجية الشفاء كما أن ممرضه: من يتولى خدمته في مرضه لمرضه.

(٦) تعايا أهله: أي اشتركوا في العجز عن وصف دائه. واختلف الحاضرون بين يدي المريض في الخبر المحزن يكتمونه عنه.

(٧) هو لما به: أي هو مملوك لعلّته فهو هالك. والممني: مخيل الأمنية. والإياب: الرجوع.

مِنْ قَبْلِهِ[(١)]، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ[(٢)]، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ، فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ[(٣)] وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ لِقَلْبِهِ، سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ، وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا[(٤)].

ألا وهو القائل عليه السلام: من أبصر إلى الدُّنيا أعمته، ومن أبصر بها بصرته.

يقول الله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[(٥)].

دخل ضرار بن حمزة الضبابي، على معاوية بن أبي سفيان، فقال له: أي ضرار صف لي عليّاً فقال: فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى اللَّيل سدوله، وهو قائم في محرابه، قابضٌ على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول:

«يا دُنيا إليك عنِّي، أبي تعرَّضت، أم إليَّ تشوقت، لا حان

---

(١) أسى جمع أسوة.

(٢) نوافذ الفطنة: ما كان من أفكار نافذة أي مصيبة للحقيقة.

(٣) عيّ: عجز لضعف القوة المحركة للسان.

(٤) تعتدل: أي تستقيم عليها بالقبول والإدراك، أي لغفلتهم عنها لا تتناسب عند عقولهم فيدركوها.

(٥) سورة إبراهيم: ٤٥.

حينك، هيهات، غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلَّقتك ثلاثاً، لا رجعة فيها، فعيشك قصيرٌ، وخطرك يسير، وأملك حقير، آهٍ من قلَّة الزَّاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد»[١].

فاعلم إنَّما عليٌّ في رياضته تلك لنفسه وللناس، فلا يدعو للبطالة، والشلل، والقعود عن العمل، والجهاد في سبيل الأُسرة والمجتمع، فإنَّ ذلك يعدم حركة الحياة والازدهار، ويوقف نهضة البناء.

إنَّما يريد لنفسه، وللأُمَّة في سياسته، وترويضه البديع القائم، أن لا ينصرف الناس، عمَّا خلقوا ووجدوا له.

ألا وهو القائل عليه السلام: «إعمل لدُنياك كأنَّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً».

إنَّ أكل الطيِّبات، وشرب الماء البارد العذب، ولباس الرياش، وبناء المنزل الجميل، وركوب السيارة الفخمة المميَّزة، كُلُّ ذلك مباح للإنسان من ماله الحلال، الذي لا شبهة فيه، ولا حرام في الإسلام، إلَّا أن يكون في تخمةٍ، من تجويع الفقراء، والاستعلاء عليهم وقد مر.

يقول الله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٢].

وممَّا ساس به عليٌّ عليه السلام الولاة، في خلافته وحكمه، رسائل

---

(١) مروج الذهب: للمسعودي، ج٢، ص٤٣٣.

(٢) سورة الأعراف: ٢٦.

اجتماعية، كريمة مُبرمة، لا نظير لها في علم السياسة، والاجتماع، وذلك فقد بلغهُ أنَّ عامله على البصرة، عثمان بن حنيف الأنصاريّ، قد دُعي إلى وليمة قومٍ فمضى إليها، فكتب إليه يقول:

أَمَّا بَعْدُ: يَا ابْنَ حُنَيْفٍ! فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ[١] فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ[٢]، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ[٣]، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ، فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هذا الْمَقْضَمِ[٤]، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ[٥]، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ[٦] فَنَلْ مِنْهُ.

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ[٧]، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ[٨]، فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً،

---

(١) المأدبة ـ بفتح الدال وضمها ـ : الطعام يصنع لدعوة أو عرس.

(٢) تستطاب يطلب لك طيبها. والألوان: أصناف الطعام والجفان ـ بكسر الجيم ـ: جمع جفنة القصعة.

(٣) سائلهم: محتاجهم، مجفو: أي مطرود من الجفاء.

(٤) قضم ـ كسمع ـ أكل بطرف أسنانه والمراد الأكل مطلقاً، والمقضم كمقعد: المأكل.

(٥) إطرحه حيث اشتبه عليك حلّه من حرمته.

(٦) بطيب وجوهه بالحلّ في طرق كسبه.

(٧) الطمر ـ بالكسر ـ : الثوب الخلق.

(٨) إن ورع الولاة وعفتهم يعين الخليفة على إصلاح شؤون الرعية.

وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً[١]، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً[٢]، وَلاَ حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً[٣].

أقول: يا سيِّدي يا علي، يا حبيب الله ورسوله، والمؤمنين.

فلو أنَّك ترى ساستنا، وحكَّامنا فيماهم فيه اليوم، من ادِّخارٍ للمال، وغسله، وحيازةٍ للعقارات في سعتها، ومن نصبٍ للمآدب والولائم، في ترفٍ، وإسرافٍ، وتبذيرٍ لا حدّ له، قد أُعدَّت للطغاة البغاة، شياطين الإنس وفسقة الأُمَّة، لأقمت عليهم الحدّ، تقرُّباً إلى الله، رحمةً بأُمَّة محمَّدٍ، وتقديساً للقصاص، والعدل في محكم التنزيل.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ في العدل والقصاص: والله لو أنَّ فاطمة بنتُ محمَّدٍ سرقت، لأقمت عليها الحدّ، ولقطعت يدها، نعم هذا هو العدل في الإسلام.

ومن رسائل علي عليه السلام السائسة، ما قد كتبه لواليه على مصر القائد الكبير الأشتر النخعي، وهو عهد طويل قويم، جديرٌ في أن تقوم عليه الحكومات والدول، وأن تُحكم به الشعوب والأُمم، في

---

(١) التبر ـ بكسر فسكون ـ : فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ. والوفر: المال.

(٢) أي ما كان يهيء لنفسه طمراً آخر بدلاً عن الثوب الذي يبلى، بل كان ينتظر حتى يبلى ثم يعمل الطمر، والثوب هنا عبارة عن الطمرين فإنّ مجموع الرداء والإزار يعد ثوباً واحداً فبهما يكسو البدن لا بأحدهما.

(٣) نهج البلاغة: ج٣، ص٥٥٨.

(٤) سورة المَائدة: ٣٨.

سعادةٍ ورخاء، لما فيه من حرية الفرد والجماعة، القائمة على الجهاد، والعطاء، والبذل المتبادل، والعدلِ والمواساة.

فسأُدرج لك منه قطعة مباركة، فخذها بقوَّةٍ وتدبَّر أمرها ما استطعت.

قال علي عليه السلام: **وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ، بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبُّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا، فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ، وَالْخَطَإِ فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ، وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ، وَصَفْحِهِ فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ، وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدَ لَكَ بِنَقِمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ، وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ، وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ، مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً، أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ، فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ، عَلَى**

مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ، إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ، كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، فَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً، حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ، مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ[1].

وقال عليه السلام، في سياسة الحرب، وجهاد العدو الغازي:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْأَسْدَادِ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيمَ الْخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ، أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلَاناً، وَقُلْتُ لَكُمْ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ،

---

(١) نهج البلاغة: ج٣، ص٥٧٢.

فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ، وَتَخَاذَلْتُمْ، حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ... إلخ(١)

فهذه الخطبة الحربية، البليغة، الفصيحة، جليلة الشأن، فيها ما قد عرفت من التعبئةِ، وشحذ الهمم، في الفداء، والذَّودِ، والكفاح، والتضحية، في حفظ الأهل، والولد، والعرض، والمال، والوطن، فهي تستصرخ الرِّجال الرِّجال، التي تأتي من دعا واستغاث مُسرعة، كأرميةِ الحميم، ولم ترغب بنفسها عمَّا قد دُعيت إليه في سبيل الله، ونصرة المظلومين والمضطهدين.

وقال علي عليه السلام يسوس الناس، وقد سمع قوماً من أصحابه، يسبون أهل الشام أيَّام حربهم بصفين:

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ فَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ:

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ، مَنْ لَهِجَ بِهِ.

ومن سياسته عليه السلام في التوجيه والإرشاد، التي تجمع بين الدُّنيا والآخرة، أنَّه قد دخل على العلاء بن زياد الحارثيّ، يعوده في

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص٨٩.

البصرة، وهو من أصحابه، فلما رأى سِعة داره، قال عليه السلام: ما كنت تصنع بسعةِ هذه الدار في الدُّنيا، وأنت إليها في الآخرةِ كُنت أحوج وبلى، إن شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة.

قال له العلاء: يا أمير المؤمنين: أشكو إليك أخي عاصم بن زياد: قال وماله؟

قال: لبس العباءة، وتخلَّى عن الدُّنيا.

قال: عليَّ به: فلما جاء قال: يا عديَّ نفسه، لقد استهام بك الخبيثُ، أما رحمت أهلك وولدك، أترى الله أحلَّ لك الطيِّبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك.

قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك.

قال: ويحك إنِّي لستُ كأنت، إنَّ الله فرض على أئمَّة العدل، أن يُقدِّروا أنفسهم بضعفةِ الناس، كيلا يتبيغ بالفقير فقره[١].

قال علي عليه السلام: للمؤمن ثلاث ساعات:

١ ـ فساعةٌ يُناجي فيها ربّه.

٢ ـ وساعةٌ يرمُّ معاشه.

٣ ـ وساعة يُخلِّي بين نفسه وبين لذَّتها، في ما يحلُّ ويجمل.

وليس للعاقل أن يكون شاخصاً، إلَّا في ثلاث:

---

(١) العقد الفريد: للأندلسي، ج١، ص٣٢٩.

١ ـ مرمَّة لمعاشٍ.
٢ ـ أو خطوة في معادٍ.
٣ ـ أو لذةٍ في غير محرم.

قال علي عليه السلام، يوصي ولده الإمام الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وآله:

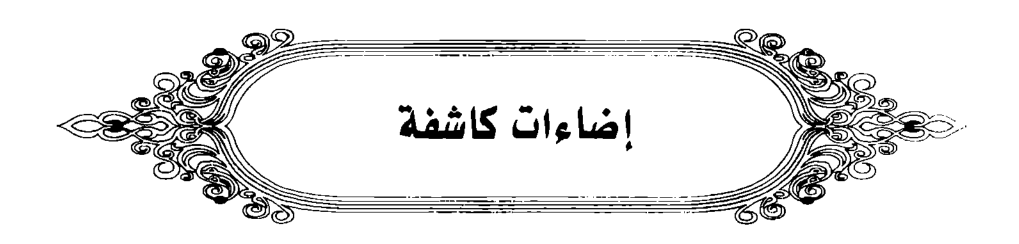
يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ، وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ[١].

قال علي عليه السلام: هلك فيَّ رجلان: محبٌّ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ.

وقال الإمام علي عليه السلام:

صُنِ النَّفسَ واحمِلها عَلى ما يزينُها تَعِش سالماً وَالقَولُ فيكَ جَميلُ
وإن ضاق رزقُ اليَومِ فاصبِر إلى غدٍ عسى نكباتِ الدَّهرِ عَنكَ تزولُ
ولا ترين الناسَ إلَّا تَجَمُّلاً نبا بك دهر أو جَفاك خليلُ
فما أكثَر الإخوان حين تَعدُّهم ولَكنَّهُم في النائباتِ قليلُ

(١) نهج البلاغة: ج٣، ص٥٣٣.



إضاءات كاشفة

أخي المسلم، أو نظيري في الخلق، حذاري حذاري، أن تضل أو تُضل، في طلب المعرفة إلى الله ورسوله، فتكون من الهالكين.

فإنَّ الضلال والضياع عن الله ورسوله، وجنَّة الخلد يوم القيامة، هو اتباع الهوى، والأخذ بوساوس الشيطان، والنفس في حبٍّ مفرطٍ للباطل والأشرار، أو رشوةٍ، أو جهلٍ، أو حقدٍ دفين.

فذلك هو الصمم والعمى، عن الحق والهدى، وذلك هو القعود عن الفوز والفلاح، ألا إنَّه الهلاك المُدمِّر للناس، في عاجلهم وآجلهم، ألا ذلك هو الخسران المبين.

قال عليٌّ عليه السلام:

وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا.

قال الشافعي:

عين الرِّضا عنْ كلِّ عَيْب كليلة   وعين السخْط تبدي المساويا!!

ولننظر فيما قد اختلفت فيه الأُمَّة، في الأخذ عن الله ورسوله، فذهبت فيه مذاهب، متفرقة مُتشتتة.

فكُلٌّ يُغني فيه على ليلاه، فإذا بأكثرهم عن الصراط هم ناكبون.

هذا: والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٢).

وبعد فقد كانت دعوة النبي، أوَّل البعثة تأسيساً، فلما انتشرت منتصرة، وقد ألقت بظلالها على الجزيرة وبلاد الشام، وقد تنهنه الإسلام، وضرب الأرض بجرانه، بعد المشقة والفتوحات المتتابعة، التي كان لسيف علي بن أبي طالب الباع الأطول، والنَّصر الأوجع، والأمْثل فيها.

الذي شقَّ للناس إلى الله ورسوله طريق الهدى، فأنقذهم من عبادة الطاغوت والوثن، لو أنَّهم شكروا لله واستقاموا.

ثمَّ أخذت بالتَّصحيح والقصاص وذلك.

فقد كان فريق من الناس يطوفون بالبيت في حجّهم، وهم عُراة «ذكراناً وإناثاً» هذا: ولم يمنع المشركين دخول الحرم والطواف بالبيت، ولم يؤمر بقتلهم.

---

(١) سورة الأنعَام: ١٥٣.

(٢) سورة الأنعَام: ١٥٩.

فكان رسول الله لا يُقاتل أحداً قد تنحَّى عنه واعتزله، حتى نزلت سورة براءة، وأمره الله بقتل المشركين، من اعتزله ومن لم يعتزله، إلَّا الذين قد عاهدهم رسول الله، يوم فتح مكَّة إلى مدةٍ منهم: صفوان بن أُمية، وسهيل بن عمرو، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[1] ثم يقتلون حيثما وجدوا، بعد هذهِ أشهر السياحة: عشرون من ذي الحجَّة، والمحرَّم، وصفر، وشهر ربيع الأوَّل، وعشر من ربيع الآخر.

فلما نزلت الآيات من سورة براءة، دفعها رسول الله إلى أبي بكرٍ، وأمره أن يخرج إلى مكَّة، ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر، فلما خرج أبو بكر، نزل جبرئيل على رسول الله فقال: يا محمَّد لا يُؤدِّي عنك إلَّا رجل منك.

فبعث رسول الله أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام في طلب أبي بكرٍ، فلحقه بالروحاء، وأخذ منه الآيات، فرجع أبو بكر إلى رسول الله فقال: يا رسول الله أنزل الله فيَّ شيئاً.

فقال: لا، إنَّ الله أمرني أن لا يُؤدِّي عنِّي إلَّا أنا أو رجل منِّي، رُوي عن أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام.

وفي تفسير العياشي، والمجمع عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب علي عليه السلام بالناس، واخترط سيفه وقال: لا يطوفنَّ بالبيت عريان، ولا يحجنَّ بالبيت مشرك، ومن كانت له مدة فهو إلى مدته، ومن لم يكن له مدة، فمدته أربعة أشهر.

---

(١) سورة التّوبَة: ١-٢.

وكان خطب يوم النحر، وكانت عشرون من ذي الحجَّة، والمحرَّم، وصفر، وشهر ربيع الأوَّل، وعشر من شهر ربيع الآخر.

وقال: يوم النحر يوم الحج الأكبر.

وفي الدّر المنثور، أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل، في زوائد المسند، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ، دعا أبا بكر رضي الله عنه، ليقرأها على أهل مكَّة، ثم دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه.

ورجع أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله نزل فيَّ شيء؟

قال: لا، ولكن جبرئيل جاءني فقال: لا يُؤدِّي عنك إلَّا أنت، أو رجل منك.

وأخرج ابن مردويه، عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا بكر رضي الله عنه ببراءة إلى أهل مكَّة، ثم بعث عليّاً رضي الله عنه على أثره، فأخذها منه، فكان أبا بكر وجد في نفسه، فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر، إنَّه لا يؤدِّي عنِّي، إلَّا أنا أو رجل منِّي.

واعلم أنَّ الروايات، في تبليغ تلك الآيات، من سورة براءة فوق أن تُحصى، في إرسال النبي عليّاً خلف أبي بكر ونزعها منه.

وقد رواها السُّنَّة والشيعة.

بيد أنَّ فريقاً من الرواة، قد جعلوا لها حشواً رثّاً، في أنَّه قد اشترك في تبليغها أبو بكر، وأبو هريرة مع علي، وهو يناقض النصّ

والتنزيل على النبي، أنَّه لا يبلغ عنك إلَّا أنت أو رجل منك، فافهم وتنبَّه لما قد قرأت.

ثمَّ إنَّ رسول الله قال: أيُّها الناس، كان يعرض عليَّ القرآن في كُلِّ عام مرة واحدة، وقد عرضه جبرئيل عليَّ في هذا العام مرَّتين، ربَّما أُدعى فأُجيب، ألا وإنِّي مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما فلن تضلّوا بعدي أبداً: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فإنَّهما كهاتين ـ وأشار بالسبابة والوسطى ـ فلن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض.

هذا وقد دعا الناس إلى حجَّة الوداع، في السنة العاشرة للهجرة، فاجتمع له مائة ألف مسلم ونيف، من الجزيرة العربية وممَّن حولها.

فسار بهم إلى مكَّة المكرَّمة، فحجَّ فيهم، فطاف بالبيت ولبَّى وسعى، ثمَّ قام فيهم خطيباً في عرفة، فقال وبَيَّن، ثمَّ المزدلفة فمنى، ثمَّ أكمل حجَّه ومناسكه وهو يقول: أيُّها النَّاس خذوا عنِّي حجَّكم ومناسككم، فربَّما لا ترونني بعد هذا العام.

ثمَّ ودَّع مكَّة مسقط رأسه، وديار الأحبَّة، ثمَّ البيت والحرم، وتوجَّه إلى المدينة دار هجرته، ومحطّ رحله الأخير.

فنزل عليه جبرئيل بأمرٍ عظيم، يأمره أن يُبلِّغ الناس بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، فالله يقول: الحق وهو يهدي السبيل.

إذاً فمن لولاية هذا الأمر، وقيادة المسلمين بعد النبي، إلَّا الأطهر نسباً، والأزكى عملاً، والأعلم بكتاب الله وسُنَّة نبيّه، والأشد قوَّة وعزيمةً في إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، فهو سيِّد

ساح الحرب، وباب مدينة علم النَّبي، لقد قالها الذي لا ينطق عن الهوى، رسول الله محمَّد صلى الله عليه وآله.

قالوا: فمكث رسول الله ثلاثة أيَّام، يُفكِّر في هذا الأمر، وينظر فيه.

فنزل عليه جبرئيل بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وإنَّما أمر الله تعالى رسوله، في هذه الآية المباركة، القارعة للقلوب والضمائر، أن يُنصّب عليّاً للخلافة، بين ظهراني هذا الجمع الغفير، من الحجيج المسلم، ليوثِّق له الوصية فيهم، وليلقي الحجَّة عليهم، فإنَّ هذا اليوم المبارك له ما بعده.

ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويُحيي من حيّ عن بيِّنة، ألا ومن كفر بولاية عليّ بعد هذا التبليغ الحق، فهو الرَّادُّ على الله ورسوله، السُّنَّة والتنزيل، والله تعالى يقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[2].

ولنستمع لما رواه لنا ابن كثير في البداية، عن زيد بن أرقم قال: إنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله لما رجع من حجَّة الوداع، ونزل غدير خُم، أمر بدوحاتٍ فقمْمنَ ثمَّ قال: كأنِّي قد دُعيت فأجبت، إنِّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنَّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، ثمَّ قال:

---

(١) سورة المَائدة: ٦٧.

(٢) سورة الصَّافات: ٢٤.

الله مولاي، وأنا وليّ كُلّ مؤمن ومؤمنة، وأخذ بيد عليّ عليه السلام وقال: من كنت مولاه فهذا عليٌّ وليّه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه.

وفي التفسير الكبير للفخر الرازي قال: عن ابن عبَّاس، والبراء بن عازب: أنَّ الآية نزلت في فضل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأخذ النَّبي بيده وقال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، فلقيه عمر بن الخطاب فقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كُلّ مؤمن ومؤمنة.

وفي تفسير العيَّاشي: عن ابن عبَّاس، وجابر بن عبد الله قالا: أمر الله تعالى نبيّه محمَّداً، أن يُنصّب عليّاً علماً في الناس، ليخبرهم بولايته، فتخوَّف رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقولوا حابى ابن عمّه، وأن يطعنوا في ذلك عليه قال: فأوحى الله إليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

فقام رسول الله بولايته يوم غدير خُم.

وفي تفسير البرهان، عن إبراهيم الثقفي، بإسناده عن الخدري، وبريدة الأسلمي، ومحمَّد بن علي: نزلت يوم الغدير في عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وفي تاريخ اليعقوبي: أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله خرج من مكَّة ليلاً،

---

(١) سورة المَائدة: ٦٧.

منصرفاً إلى المدينة، فانتهى إلى موضع بالقرب من الجحفة يُقال له: غدير خُم، لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجَّة، فنزل فيه وقام خطيباً، وأخذ بيد علي وقال:

ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقالوا: بلى يا رسول الله قال:

من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، ثمَّ قال:

أيُّها النَّاس إنِّي فرطكم، وأنتم واردون عليَّ الحوض، وإنِّي سائلكم، حين تردون عليَّ، عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فقالوا: وما الثقلان يا رسول الله.

فقال: الثقل الأكبر، كتاب الله فاستمسكوا به ولا تضلّوا، ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي.

وجاء في رواية المفيد، والحاكم في المستدرك، والحلبي في سيرته، والنسائي في سُننه أنَّه قال:

«كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنَّهما لن يفترقا، حتى يردا عليَّ الحوض».

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: لما نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله في حجَّة الوداع بإعلان، أمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1].

---

(١) سورة المَائدة: ٦٧.

قال: فمكث النبي ثلاثاً حتى أتى الجحفة، فلم يأخذ بيده فرقاً من الناس، فلما نزل الجحفة يوم غدير خُم في مكان يُقال له: مهيعة، فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال النبي: من أولى بكم من أنفسكم فجهروا، فقالوا: الله ورسوله.

ثمَّ قال لهم الثانية: فقالوا: الله ورسوله.

ثمَّ قال لهم الثالثة: فقالوا: الله ورسوله.

فأخذ بيد عليّ فقال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه.

وروى المفيد في إرشاده: أنَّ النبي ﷺ بعد أن انتهى من خطابه، أفرد لعليّ عليه السلام خيمة، وأمر المسلمين بأن يدخلوا عليها فوجاً فوجاً، ويُسلِّموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك، وأمر أزواجه، وسائر نساء المؤمنين ممَّن معه أن يفعلن ذلك، وقال له عمر بن الخطاب يوم ذاك: بخٍ بخٍ لك يا عليّ، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وقام حسان بن ثابت، يستأذن النبي في أن يصف ذلك الحدث العظيم، في ذلك اليوم المشهود، فأذن له رسول الله، فوقف على مرتفع عالٍ، فتطاول له الناس لسماع كلامه، فأنشأ فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم بخمٍّ وأسمع بالنبي مناديا
وقال فمن مولاكم ووليّكُمُ فقالوا ولم يُبدوا هنالك التعاميا
إلهك مولانا وأنت وليُّنا ولن تجد منَّا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فإنَّني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليّه فكونوا له أنصار صدقٍ مواليا
هناك دعا اللَّهمَّ والِ وليّه وكن للذي عادى عليّاً مُعاديا

واعلم أنَّ ثمَّة فريق من المفسرين، والمُأرِّخةِ للحديث في السيرة النبوية، قد حرَّفوا آية التبليغ عن موضعها، وذهبوا بها عن عزّها وشرفها، في فيضها الكريم، فأوقفوا عطاءاتها الجيَّاشة، على أُمَّة محمَّدٍ، وعلى الناس كافة.

وقد أفرغوا الإسلام، ممَّا قد ضمنه الله ورسوله، وحولوه إلى اسم وشكل ليس إلَّا.

فهم يقولون: إنَّ آية التبليغ، إنَّما قد نزلت تأمر النَّبي ﷺ أن يُبلِّغ الناس، في كل آية تدعوا إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وأن لا يخشى الكافرين والمشركين، ودليلهم أنَّ الآية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[(١)].

هذا والحال أنَّها قد نزلت في حجَّة الوداع، آخر أيَّام النبي، وآخر الوحي والتنزيل.

والقائلون بهذا هم وجوه وطرائق شتى.

فقائل قد جهل التنزيل ففسر وروى، لما قد وعى فهو جاهل أعمى.

وآخر قد علم الحق وأهله، فحرَّف خشية القتل، أو لحقدٍ، أو قد ارتشى، فشحذ الأُمَّة في صراع خطيرٍ، مرير يُضلِّل بعضها

(١) سورة المَائدة: ٦٧.

بعضاً، ويكفر بعضها بعضاً، فإذا بدماءها تسفك، وأعراضها تهتك، وأموالها تسلب.

هذا ما مُلخصه، مخافة الخروج عن وجهة الكتاب، فلذا أغمضت عن الإسهاب، لعدم الإفادة والتكرير، فمن أرادها فعليه بكتب التفسير، ومصادر الرواية والحديث.

ولمَّا بلَّغ النبي ، ما قد أُمر به في غدير خُم، فنصَّتْ سُنَّتهُ على خلافة علي، كما نصَّه الله في التنزيل، أنزلَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[١].

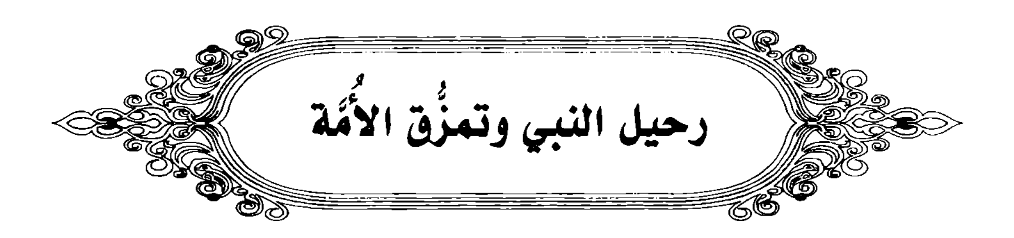
ألا إنَّها خلافة عليٍّ، فقد رحم الله بها الأُمَّة، لو أنَّها قد أنصفته، فأطاعت الله ورسوله، فجمعت بين السعادتين: سعادة الدُّنيا، وسعادة الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].



(١) سورة المَائدة: ٣.

(٢) سورة يُونس: ٤٤.



رحيل النبي وتمزُّق الأُمَّة

زعموا فأهذروا، وقالوا فأكثروا، أنَّ النبي قد رحل إلى ربِّه تعالى، ولم يوص بخلافة الأُمَّة لأحدٍ من المسلمين، فقد ترك الأمر شورى بينهم، فلهم أن يختاروا من يشاؤون من رجال المسلمين، في حفظها ورعايتها، هذا، وقد احتجوا بقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، فيا لله وللشورى.

وهل تركوا للشورى قلب ينبض بالحق، ورئة تتنفَّس به، فتُفكِّر وتختار.

فهذه كتب التفسير، ومصادر الرواية والحديث بين يديك، للفريقين من سُنَّةٍ وشيعة، فلو أنَّك قد نظرت فيها، بدقة وتجرُّد، في سرد وإسهاب، ما قد سطَّروا ووثَّقوا، لوليت منهم فراراً، ولملئت منهم رعباً.

لما قد وقَعوا فيه من خبطٍ، وشماس، وتلونٍ، وشجار، فيما قد رووه وبذروه، في أرض المسلمين.

فإذا بالرواية تكذِّب الرواية، وإذا بالحديث يُكذِّب الحديث، وإذا بالتفسير للقرآن يُكذِّب التفسير للقرآن.

---

(١) سورة الشّورىٰ: ٣٨.

بهذا ابتليت أُمَّةُ محمَّد، خير أُمَّةٍ أُخرجت للناس، فساد فيها الهرج، والمرج، والهزل، واللعب.

وهل لعاقل قد عقل الأُمور، بنظرٍ ودراية، أن يُصدِّق أنَّ رسول الله ﷺ قد رحل إلى ربِّه تعالى، وقد ترك الأُمَّة في غير وصية وراع، تُمزِّقها الأهواء والفتن، فتتفرق أيادي سبأ، تتقاذفها العواصف، وتُدمِّرها الأعاصير كُلَّ مُدمَّر.

وهل لصاحب مؤسسةٍ، أو شركةٍ، أو مدرسةٍ، أو رَبِّ أُسرة، أن يسافر في الأرض فيبعُد، ولم يُخلِّف على ما قد ترك في إدارته، راع أمين قادر، فيحفظها من التفكُّك، والتمزُّق، وسطوة اللصوص، عليم بالحساب، جدير في الإدارة، ذو قوَّة لا تُضام، فاقرأ وتدبَّر.

لقد عاد رسول الله بالمهاجرين والأنصار، من حجَّة الوداع، وغدير خُم، بعد أن بلَّغ في الحجيج الغفير، خلافة علي عليه السلام إلى المدينة، فألم به المرض فأرهقه، ولما علم أنَّه الفراق القريب، أمر بإعداد الجيش الكبير، فقد كان يخاف على الأُمَّة خطر ما بعد موته، وما ينزل بها لحبِّ الدُّنيا، وطلب الرياسة، والتزعم ممَّن يتربَّص به، وبالأُمَّة الدوائر المحدقة، بموته، ورحيله، وكان يخاف الروم.

ولما جُمع له الجيش «المسلم» الكبير، الذي ما عرفته الجزيرة العربية، ولا بلاد الشام يوماً قطّ، رأس عليه أُسامة بن زيد، الشاب الذي لم يُذرف على العشرين من عمره، وأخضع تحت لوائه وإمرته، كبار الصحابة، كأبي بكر، وعمر بن الخطاب،

وعثمان بن عفَّان، وسعد بن أبي وقَّاص وغيرهم، واحتبس لنفسه، وما يجري عليه في المدينة علي بن أبي طالب عليه السلام.

فوجد كبار الصحابة على النبي في أنفسهم، وتبرموا، إذ لم يُرئس أحدهم على الجيش، بدلاً من أُسامة لحداثة سنّه، وقد أدركوا خطر إبعادهم عن المدينة، حيث وفاة النبي، فخلافة علي فبيتوا في أنفسهم، وأَرقوا، فرأى رسول الله التثاقل في وجوههم، فغضب، وقد ظهر ذلك في وجهه الشريف.

فخرج إلى الناس، وحرضهم على القتال، بقيادة أُسامة، وقال، فيما قد رواه البخاري[١]، عن عبد الله بن عمر: أنَّ رسول الله بعث بعثاً، وأمَّر عليهم أُسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله فقال: إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإنَّه لمن أحب الناس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبَّ الناس إليَّ بعده.

قال هذا، والوجع يشتد به، والمرض تتفاعل سطوته وطلبته، ثم أمر أُسامة، أن يوطىء الخيل، تخوم البلقاء، والدارم من أرض فلسطين، على مشارف مؤتة، حيث قتل والده، وأن ينزل على العدوّ عماية الصبح، ويُمعن فيهم قتلاً وتشريداً، قبل أن تصل أخبارهُ إليهم.

وخرج أُسامة بالجيش، وعسكر في الجرف بجوار المدينة، حتى يجتمع له الجُند، ولما أحس الصحابة، أنَّ مرض النبي قد

---

(١) صحيح البخاري: ج٦، ص٣٢٦.

نشط والموت يطلبه، قاموا يُرْبكون، انبعاث الجيش إلى حرب الروم، فيُثبِّطون، ويوهنون في عزيمته وزحفه.

هذا وفي سيرة ابن هشام: أنَّ رسول الله قد استبطأ الناس، في بعث أُسامة، وأخذ الوجع يشتد به، فخرج عاصباً رأسه، وجعل يحثّهم على الخروج ثمَّ قال:

أيُّها النَّاس إنِّي أُوشك أن أدعى فأجيب، وإنِّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود، من السَّماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنَّ اللطيف الخبير، أخبرني أنَّهما لن يفترقا، حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

ويقول ابن سعد في طبقاته: إنَّ النبي أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، ودعا أُسامة وقال له: سر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليَّتك هذا الجيش، فأغر عليهم صباحاً، وأسرع السير، حتى لا تسبقك الأخبار إليهم، فإن ظفرت بهم، فأقل اللَّبث فيهم، وخذ معك الأدلَّاء، وقدم العيون والطلائع أمامك.

ويكمل ابن سعد فيقول: لم يبق أحد في وجوه المهاجرين والأنصار، إلَّا وأمره، بأن يشترك في تلك الغزوة.

وروى البخاري في صحيحه: عن الفضل بن العبَّاس أنَّه قال: أتاني رسول الله ﷺ، وهو يوعك وعكاً شديداً، وقد عصب رأسه فقال: خذ بيدي يا فضل، فأخذت بيده، حتى قعد على المنبر، ثمَّ قال: ناد في الناس، فناديت الصلاة جامعة، فاجتمعوا فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال:

أما بعد أيُّها الناس، قد دنا منِّي خلوف من بين أظهركم، ولن

أفي هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى، أن غيره غير مَغنٍ عنّي، حتى أقوم فيكم، ألا فمن كنت قد جلدت له ظهراً، فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً، فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت قد شتمت له عرضاً، فهذا عرضي فليستقد منه، ولا يقولنَّ قائل عنّي، أخاف الشحناء من رسول الله ﷺ، ألا وإنَّ الشحناء ليست من شأني، ولا من خلقي، وإن أحبّكم إليَّ، من أخذ حقاً كان له عليَّ.

فقام رجل وقال: يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهم.

فقال: أما أنا فلا أُكذِّب قائلاً، ولا أستحلفه على يمين، فيما كانت لك عندي؟

قال: أما تذكر، أنَّه مرَّ بك سائل، فأمرتني فأعطيته ثلاثة، قال: أعطه يا فضل.

وروى في الصحيحين، مسلم والبخاري، عن السيِّدة عائشة قالت: اجتمع نساء رسول الله عنده، فجاءت فاطمة رضي الله عنها تمشي، لا تخطىء مشيتها مشية أبيها، فقال: مرحباً يا بِنْتي، فأقعدها عن يمينه، ثمَّ سارها بشيء فبكت، ثمَّ سارها فضحكت، فقلت لها: خصَّك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين، فقلت: أخبريني ما سارك؟

فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله ﷺ.

فلمَّا توفي قلت: أسألك لما لي عليك من حقٍّ، لما أخبرتني؟

قالت: أما الآن فنعم، فقد سارني في الأوَّل، قال لي: أنَّ

جبرئيل كان يعارضني في القرآن كُلّ سنة مرَّة، وقد عارضني في هذا العام مرَّتين، ولا أرى ذلك إلَّا لاقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري، فنعم السلف أنا لك، فبكيت.

ثم سارني فقال: أما ترضين أن تكوني، أوَّل الناس لحاقاً بي، فضحكت.

روى البخاري، عن السيِّدة عائشة أنَّها قالت: لما ثقل المرض على رسول الله ﷺ واشتد، استأذن أزواجه، في أن يمرض في بيتي فأُذن له، فخرج وهو بين الرجلين، تخطّ رجلاه الأرض، بين عبَّاس بن عبد المطَّلب، وبين رجل آخر.

ولقد سُئل ابن عبَّاس عن الرجل الآخر، الذي لم تذكر اسمه، ولم تكن على جهلٍ به. قال: هل تدري من الآخر، الذي لم تسمه عائشة.

فقال السائل: لا.

قال ابن عبَّاس: هو علي بن أبي طالب، لم تذكر اسم عليّ، تخاف أن تذكر له فضيلة.

هذا، ثمَّ لننظر في أمر التناقض، فيمن يُصلِّي بالناس، والنبي على فراش الموت، فاقرأ وتدبَّر، لتكون على بيِّنة من الأمر.

فقد روى الطبري، عن الأرقم بن شرحبيل أنَّه قال: سألت ابن عبَّاس أوصى رسول الله قال: لا.

قلت: وكيف كان؟

قال: إنَّ رسول الله قال: ابعثوا إلى علي فادعوه.

فقالت عائشة: لو بعثت إلى أبي بكر.

وقالت حفصة: لو بعثت إلى عمر، فاجتمعوا عنده جميعاً.

فقال رسول الله ﷺ: انصرفوا، فإن تك لي حاجة أبعث إليكم.

قالوا: وجاء بلال، والمرض قد اشتد به عند طلوع الفجر فنادى: الصلاة يرحمكم الله.

فالطبري يروي عن عائشة أنَّه قال: مروا أبا بكر يُصلِّ بالناس، فقالت له: إنَّ أبا بكر رجل رقيق، فأعاد عليها القول، فرجعت تُردِّد عليه مقالتها الأُولى، فغضب وقال: إنَّكنَّ صويحبات يوسف.

ثمَّ خرج يتهادى بين رجلين، وقدماه تخطَّان في الأرض، فوجد أبا بكر يُصلِّي، فأراد أن يتأخر، فأشار إليه أن يبقى في مكانه، فبقي أبو بكر في مكانه، وجلس النبي إلى جنبه، فكان أبو بكر يُصلِّي بصلاة النبي، والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

ويروي ابن هشام، خلاف هذا قال:

إنَّه حين دعا بلال إلى الصلاة بالناس قال: مروا من يُصلِّي بالناس، فخرج عبد الله بن زمعة، فوجد عمر بن الخطاب في طريقه، فقال له: قم وصلِّ بالناس، وكان أبو بكر غائباً فلمَّا كبَّر، سمع رسول الله ﷺ صوته، فأرسل إلى أبي بكر، فجاء بعد أن أتم عمر الصلاة فصلَّى بالناس.

ويروي البخاري، عن الأعمش، عن عائشة قالت:

لما مرض رسول الله ﷺ، مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فأذن بلال فقال: مروا أبا بكر يُصلِّي بالناس، فقيل له: إنَّ

أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك، لم يستطع أن يُصلِّي بالناس، وأعاد عليه الصلاة والسلام أمره، فأعادوا كلامهم.

فقال النبي: إنَّكنَّ صويحبات يوسف، مُروا أبا بكر فليُصلِّ.

فخرج أبو بكر، فوجد النبي في نفسه خفَّة، فخرج يهادي بين رجلين، كأنِّي أنظر إلى رجليه تخطَّان من الوجع.

فأراد أبو بكر أن يتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك، ثمَّ أتى حتى جلس إلى جنبه.

قيل للأعمش الراوي عن عائشة: فكان النبي صلَّى، وأبو بكر يُصلِّي بصلاته، والناس يصلّون بصلاة أبي بكر، فأومأ برأسه نعم.

وقالت حفصة: مروا عمر بن الخطاب.

وروى المفيد في إرشاده، عن أئمَّة أهل بيت النبي قال:

حينما دعي للصلاة، يُصلِّي بالناس بعضهم، فإنِّي مشغول بنفسي.

فقالت عائشة: مروا أبا بكر.

فقال رسول الله ﷺ: اكففن، فإنَّكنَّ صويحبات يوسف، وقام مُباشراً، وهو لا يستطيع أن يستقل على الأرض من الضعف، فأخذ بيد علي، والفضل بن العبَّاس، فأعمد عليهما، ورجلاه تخطَّان الأرض من الضعف.

فلما دخل المسجد، وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب، فأومأ إليه أن تأخر عنه، فتأخر.

وقام مقامه، فكبَّر، وابتدأ الصلاة، التي كان قد ابتدأها أبو بكر، ولم يبن على ما مضى منها.

قالوا: ولما انصرف رسول الله من الصلاة، التي أتاها من فراشه، وهو يحْتضر لتصحيح أمرها، استدعى أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وجماعة ممَّن حضروا بالمسجد من المسلمين، وقال: ألم آمركم أن تنفذوا جيش أُسامة.

فقالوا: بلى يا رسول الله.

فقال: لما تأخرتم عن أمري؟

فقال أبو بكر: إنِّي خرجت، ثمَّ رجعت لأُجدِّد بك عهداً.

وقال عمر بن الخطاب: إنِّي لم أخرج، لأنِّي لا أُحبّ أن أسأل عنك الركب.

فقال صلى الله عليه وآله: انفذوا جيش أُسامة، كرَّرها ثلاثاً، ثمَّ أُغمي عليه إغماءً شديداً، فبكى المسلمون، وارتفع النحيب، من أزواجه، وابنته، ونساء المؤمنين، حزناً وألماً لفراقه.

ولما أفاق قال: اتوني بدواةٍ وكتف، لأكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي أبداً، ثمَّ أُغمي عليه، فقام بعضهم ليأتي بدواة وكتف، فقال له عمر بن الخطاب: إرجع فإنَّه يهجر، فرجع.

فلما أفاق، قال بعضهم: ألا نأتيك بدواة وكتف يا رسول الله؟ قال: لا أبعد الذي قلتم، ولكنِّي أُوصيكم بأهل بيتي خيراً، وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا.

روى البخاري[١]، عن ابن عبَّاس قال:

---

(١) صحيح البخاري: ج٧، ص٢٢٥.

لما حضر رسول الله، وفي البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي: هلُمَّ أكتب لكم كتاباً، لا تضلّوا بعده.

فقال عمر: إنَّ النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت، فاختصموا منهم من يقول: قَرِّبوا يكتب لكم النبي، كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول: ما قال عمر.

فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي، قال رسول الله: قوموا.

قال: فكان ابن عبَّاس يقول: إنَّ الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله، وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولغطهم.

قالوا: ولما اشتد به المرض، وهو في ساعاته الأخيرة، جعل يأخذ الماء بيده، ويقول: واكرباه.

فتقول فاطمة: واكربي لكربك يا أبتاه.

فيقول: لا كرب على أبيك، بعد اليوم يا فاطمة.

قالوا: وتوفي رسول الله يوم الاثنين، لليلتين بقيتا من صفر، وقالت بهذا الإمامية.

ويرى الكليني، أنَّه توفي لاثنتي عشرة ليلة، مضت من ربيع الأوَّل.

قالوا: ولما سمع المسلمون، أنَّ النبي قد مات، دهشوا.

فقد كانوا قد رأوه يخرج، فيُصلِّي بهم في ارتياح وشفاء.

وتقول رواة الحديث: إنَّ أبا بكر، كان غائباً، خارج المدينة عند وفاته.

فدخل عليه عمر بن الخطاب، فكشف عن وجهه وقال:

إنَّ رجالاً من المنافقين، يزعمون بأنَّ محمَّداً قد مات، وإنَّه والله ما مات، ولكنَّه قد ذهب إلى ربّه، كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثمَّ رجع إليهم بعد أن قالوا: بأنَّه قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ، كما رجع موسى، وليقطعن أيدي وأرجل رجال، زعموا أنَّه مات، ولئن بلغني عن رجل من المسلمين، يزعم أنَّ محمَّداً قد مات، ضربته بسيفي هذا، وخرج على الناس شاهراً سيفه، يُردِّد مقالته، ويُهدِّد، ويتوعد.

ويروي ابن سعد في طبقاته، وابن كثير في البداية والنهاية: أنَّه دخل عمر بن الخطاب والمغيرة، فكشفا الثوب عن وجهه، فقال عمر: ما أشد غشي رسول الله ﷺ.

وقال المغيرة: مات رسول الله ﷺ.

فقال له: كذبت، ما مات، ولكنَّه ذاهب إلى ربّه، كما ذهب ابن عمران، وخرج إلى الناس وهم بين باكٍ وباكية، وجعل يصيح بين الناس: إنَّ محمَّداً ما مات، ولكنَّه ذهب إلى ربِّه، وسيرجع كما رجع موسى بن عمران، بعد أن غاب عن قومه أربعين ليلة.

أخذ يُكرِّر هذا، حتى حضر أبو بكر من منزله خارج المدينة،

فدخل أبو بكر على النبي، وهو على فراش الموت، فنظر إلى وجهه، وخرج إلى الناس وعمر ينادي:

إنَّ محمَّداً لم يمت، ولن يمت، وأبى أن يستمع لكلام أبي بكر أوَّلاً.

فقال أبو بكر: أيُّها الناس من كان يعبد محمَّداً، فإنَّ محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حيّ لا يموت.

ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا﴾(١).

فصمت الناس، وكأنَّ الأمر قد قُدِر من قبل هذا.

وهذا ما قد حملهم، على التخلُّف عن جيش أُسامة بن زيد، الأمر الذي أغضب الله ورسوله.

أقول: سبحان الله، فإنَّ الآية التي قد تلاها أبو بكر، فقد نزلت على رسول الله في معركة أُحُد، وقد فرَّ هؤلاء، فجلسوا على صخرةٍ في سفح الجبل، وعليّ بن أبي طالب، يكرُّ على الكتائب والفرسان، فيقتل ويهزم، كُلَّما جاءت كتيبة، لتستأصل رسول الله ومن معه، بعد خيانة الرماة، واستشهاد أسد الله، وأسد رسوله حمزة بن عبد المطَّلب، وفرار المسلمين عن النبي.

فمر بهم أنس بن النضر فقال:

---

(١) سورة آل عِمرَان: ١٤٤.

ولنستمع بلسان الطبري، بسنده إلى محمَّد بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الله بن رافع، قال:

إنَّ أنس بن النضر رحمه الله، قال لعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين، والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم ناحية، ما يُجلسكم هنا؟

فقالوا: لقد قتل محمَّد رسول الله.

فقال: وما تصنعون بالحياة من بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم تركهم واستقبل القوم، فقاتل حتى قُتل.

ويروي الطبري في تاريخه[1]: أنَّه قد فشا في الناس، أنَّ محمَّداً قد قتل.

فقال بعض أصحاب الصخرة، ممَّن قد فرّوا عن النبي صلى الله عليه وآله والتجأوا إليها، وفيهم عمر بن الخطاب، وأبو بكر، فقال بعض من على الصخرة: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبيْ بن سلول، ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، يا قوم إنَّ محمَّداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم، من قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

فقال لهم أنس بن النضر: يا قوم، إن كان محمَّد قد قتل، فإنَّ ربّ محمَّد لم يُقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمَّد صلى الله عليه وآله، ثمَّ قال: اللَّهمَّ إنِّي أعتذر إليك ممَّا يقول هؤلاء، وأبرأ إليك ممَّا جاؤوا به، ثم شدَّ بسيفه على المشركين، وقاتل حتى قتل، بعد أن أُصيب بسبعين ضربة، ولولا أنَّ أخته عرفته، لم يعرفه أحد من المسلمين.

---

(١) تاريخ الطبري: ج٣، ص٢٠.

هذا، فأنزل الله على رسوله الآية: يصف الموقف في أُحُد، بنصّ كثير من المفسرين، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

وهنا يحضرني قول النبي، يوم معركة الأحزاب، والخندق، وقد بلغت القلوب الحناجر، بنصّ القرآن الكريم، عندما برز عمرو بن عبد ود، وزاغت الأبصار، لشدة الخوف من سيفه، فبرز له علي بن أبي طالب، وجاء برأسه، فرمى به تحت قدم النبي، قال: ضربة عليٍّ لعمرو، تعدل عمل الثقلين إلى يوم القيامة.

عزيزي القارىء: وبعد هذا الخروج الملح، نعود إلى ما كنَّا فيه، لنرى ماذا فعل أصحاب الصخرة، وسيِّد المرسلين في فراشه، قد دُعي فأجاب، ورحل إلى ربّه، فها هو بين يدي بني هاشم، يغسله علي، فهو منه بمنزلة هارون من موسى، ويقدم له الماء الفضل بن العبَّاس، ثم يُدرجه في أكفانه.

وأمَّا الصحابة: وقد تخلفوا عن جيش أُسامة، فقد انصرفوا ليستبقوا الخلافة، قبل فراغ علي وبني هاشم من تجهيز النبي.

فسبحان الله، فلو كان سيِّد المرسلين، وإمام الموحدين، محمَّد رجلاً عادياً، أمير قبيلة، أوزعيم جماعة من الناس، لروعي أهله في كرامته، حتى يدفن، فكيف بخير البشر أجمعين.

ولنترك الحديث للمؤرخ الطبري في تاريخه: (ج٢، ص٤٤٦)،

---

(١) سورة آل عِمرَان: ١٤٤.

يُحدِّثنا عن السقيفة وجورها، بلسان الفاروق عمر بن الخطاب، فقد قال وهو على المنبر.

كانت بيعة أبا بكر فلتة، غير أنَّ الله وقى شرّها، وأنَّه كان من خبرنا، حين توفى الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّ علياً والزبير ومن معهما، تخلفوا عنَّا في بيت فاطمة، وتخلفت عنَّا الأنصار بأسرها، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا، هؤلاء من الأنصار.

فانطلقنا نؤمَّهم، فلقينا رجلان صالحان، قد شهدا بدراً، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟

فقلنا: نريد هؤلاء، إخواننا من الأنصار.

قالا: فارجعوا، فاقضوا أمركم بينكم.

فقلنا: والله لنأتينهم.

قال: فأتيناهم، وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة.

قال: وإذا بين أظهرهم رجلٌ مُزمَّل فقلت: من هذا؟

قالوا: سعد بن عبادة.

فقلت: وما شأنه؟

قالوا: وجعٌ.

فقام رجل منهم فحمد الله وقال: أما بعد فنحنُ الأنصار، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر قريش رهط نبيّنا، وقد دفت إلينا من قومكم دافة، «الدافة جماعة تسيرُ بعقلانية».

قال: فلما رأيتهم، يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر، وقد كنت زورت في نفسي مقالة، أُقدمها بين يدي أبي

بكر، وقد كنت أُداري منه بعض الحد، وكان هو أوقر منِّي وأحلم.

فلما أردت أن أتكلم قال: على رِسْلِك فكرهت أن أعصيه.

فقام فحمد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئاً، كنت زوَّرت في نفسي أن أتكلم به، لو تكلمت إلَّا قد جاء به، أو بأحسن منه وقال:

أمَّا بعد يا معشر الأنصار، فإنَّكم لا تذكرون منكم فضلاً، إلَّا وأنتم له أهل، وإنَّ العرب لا تعرف هذا الأمر، إلَّا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط داراً ونسباً، ولكن قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم.

فأخذ بيدي، وبيد أبي عبيدة بن الجراح.

وإنِّي والله، ما كرهت من كلامه شيئاً غير هذه الكلمة.

فلما قضى أبو بكر كلامه، قام منهم رجل فقال: أنا جُذيْلُها المُحكِّك، وعُذيقُها المرجب، منَّا أميرٌ، ومنكم أمير، يا معشر قريش.

قال: فارتفعت الأصوات وكثر اللَّغط.

فلما أشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر: ابسط يدك أُبايعك، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار، ثم نزونا على سعد، حتى قال قائلهم: قتلتم سعد بن عبادة.

فقلت: قتل الله سعداً.

وإنَّا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعةً، فإمَّا أن

نتابعهم على ما نرضى، أو نخالفهم، فيكون فساد، انتهى كلام عمر، فانظر وتدبَّر.

ويقول ابن أبي الحديد، في شرح النهج: أنَّه لما بويع أبو بكر، أقبلت الجماعة التي بايعته، تزفه زفّاً إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما كان آخر النهار، اجتمع قومٌ من المهاجرين، وقومٌ من الأنصار، وتعاقبوا فيما بينهم، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا معشر الأنصار، إنَّكم وإن كنتم أُولي فضل، ونصر، وسابقة، ولكن ليس فيكم، كأبي بكر، وعمر، وعلي، وأبي عبيدة.

فقال زيد بن أرقم: إنَّا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن.

وإن منَّا لسيِّد الأنصار: سعد بن عبادة، ومن أمر الله رسوله أن يقرأه السلام، وأن يُأخذ عنه القرآن: كأُبي بن كعب.

وفينا من يجيء يوم القيامة، إمام العلماء: سعد بن معاذ.

وفينا من أمضى رسول الله صلى الله عليه وآله شهادته، بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت.

وإنَّا لنعلم أنَّ بين من سميت من قريش، من لو طلب هذا الأمر لا ينازعه فيه أحد، وهو علي بن أبي طالب.

وجاء في تاريخ ابن خلدون، وشرح النهج ج١، ص١٢٨:

أنَّ أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة، لما علموا

باجتماع الأنصار، توجهوا إلى سقيفة بني ساعدة، حيث الأنصار قد أرادوها لزعيمهم سعد بن عبادة، فقال أبو بكر: نحن أولياء النبي ﷺ وعشيرته، وأحق الناس بأمره، ولا ننازع في ذلك، وأنتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأُمراء، وأنتم الوزراء.

وتكلم بعده الحباب بن المنذر، فأشاد بالأنصار، ومواقفهم، وجهادهم، ودعاهم إلى التماسك، والترابط، وعدم التنازل عن حقهم، في خلافة النبي ﷺ، ولا أقل من أن تكون الإمارة مشتركة، بين المهاجرين، وبينهم من كل فريقٍ أمير.

فقام عمر بن الخطاب وردَّ عليه فقال: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيّها من غيركم، ولا تمنع العرب أن تولي أمرها، من كانت النُّبوَّة منهم، من ينازعنا سلطان محمَّد، ونحن أولياؤه وعشيرته.

فقام الحباب ليردّ عليه، وكادت الفتنة، أن تقع بين المسلمين، هذا كله والنبي لم يدفن بعد، فأين الشورى التي يدَّعون، ويزعمون.

هكذا كان يا أخي:

وعن المفيد في إرشاده، قال: فلما أراد أمير المؤمنين تغسيل النبي ﷺ، استدعى الفضل بن العبَّاس، وأمره أن يناوله الماء، فلما فرغ من غسله، وتحنيطه، تقدَّم وصلَّى عليه، ومدَّه، ولم يشرك معه أحداً، في الصلاة عليه، والمسلمون في المسجد، يخوضون فيمن يؤمهم في الصلاة عليه، وأين يُدفن.

فخرج إليهم أمير المؤمنين عليه السلام، وقال لهم: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمامنا، حيّاً، وميتاً، فليدخل عليه فوج بعد فوج، فيصلّون عليه بغير إمام وينصرفون.

وإنَّ الله لم يقبض نبيّاً في مكان، إلَّا وقد ارتضاه لرمسه فيه، وإنِّي دافنه في حجرته، التي قبض فيها، فلم يعارض أحد في ذلك.

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب: إنَّه لما صلَّى عليه علي، وبنو هاشم، وخرجوا، دخل المهاجرون، ثم الأنصار، ثم بقية الناس يصلون عليه بدون إمام.

ولما فرغوا من الصلاة عليه، أنفذ العبَّاس إلى أبي عبيدة بن الجراح، وكان يحفر لأهل مكَّة، ويضرح.

وأنفذ إلى زيد بن سهل، وكان يحفر لأهل المدينة، فقيل له: احفر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحفر له لحداً.

ودخل أمير المؤمنين عليه السلام، والعبَّاس، والفضل، وأُسامة بن زيد، ليباشروا دفنه، فنادت الأنصار من وراء البيت: يا علي نذكرك الله، وحقنا اليوم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ليدخل أوس بن خولي، وكان بدرياً فاضلاً من بني عوف.

فلما دخل قال له علي: إنزل القبر فنزل، ووضع أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله على يديه، ودلَّاه في حفرته، فلما وضعه في حفرته قال له: «أخرج، فخرج، ونزل علي عليه السلام، فكشف عن وجه رسول الله، ووضع خدَّه على الأرض، ووجهه إلى القبلة، ثم

وضع عليه اللبن، وأهال عليه التُّراب، ورفع قبره عن وجه الأرض مقدار شبر، أو أكثر منه بقليل.

وقيل: إنَّه قد دفن في اليوم الثاني لوفاته، عن خمسة وستين سنة، وقيل: ثلاثةٍ وستين، والله أعلم.

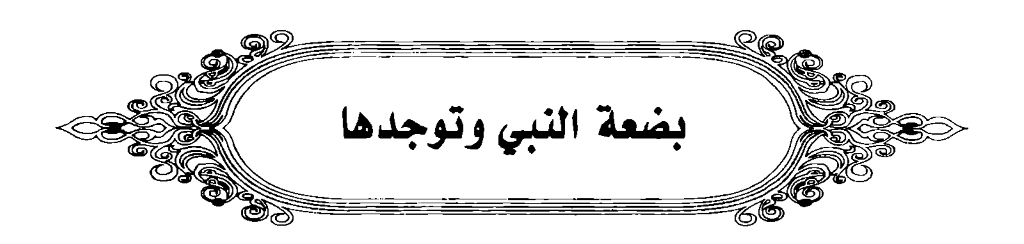
قالوا: وجاءت أُمّ الحسن والحسين، فاطمة زوج علي عليهما السلام، فوقفت على قبر أبيها رسول الله ﷺ، وقالت: أطابت نفوسكم أن تحثوا التُّراب على رسول الله ﷺ، وأخذت من تراب القبر ووضعته على عينها، وأنشأت تقول:

ماذا على من شمَّ تربة أحمدٍ   أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليا
صُبَّتْ عَليَّ مصائبُ لو أنَّها   صُبَّتْ على الأيَّام عُدْنَ لياليا

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].



(١) سورة الأنبياء: ٣٤-٣٥.



بضعة النبي وتوجدها

لا أعتذر في قولي وهو الحق، يا ابنة سيِّد المرسلين، أنَّ الله قد جعل مقاليد الجنان، والنار في يَدكم، وأنَّه يرضى لرضاكم، ويغضب لغضبكم، بكم قد فتح، وبكم يختم، فأنتم حصن الله المنيع، والعروة الوثقى، يا أصحاب الكساء، وآية المباهلة، محمَّد، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهَّرهم تطهيراً.

ألا وإنَّ الناس، فيكم فريقان يا سيِّدتي:

١ ـ فريق يجهل حقكم، فهو في ذمَّة العلماء المُبلِّغين، فهم قد حملوا وزره في قوله وفعله، فأمره إلى الله.

٢ ـ وفريق يتجاهل حقكم، رادّاً على الله قوله تعالى، وهو يقرأ مُحكم التنزيل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

يقول الشافعي:

يا آل بيت رسول اللّه حبّكُمُ   فرضٌ من اللّه في القرآن أنزله
يكفيكُمُ من عظيم القدر أنَّكُمُ   من لم يُصلِّ عليكُمُ لا صلاة له

---

(١) سورة الشّورىٰ: ٢٣.

وبعد فقد عرفت ممَّا مر: أنَّ خلافة أبي بكر، لم تكن بنصّ من الله ورسوله، ولا بشورى بين المسلمين.

وإنَّما قد كانت استباقاً، وابتزازاً لوصي النبي عليّ، قبل أن يفرغ من تغسيل رسول الله، ودفنه.

وهو ما قد قصَّه علينا الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، في تاريخ الطبري: فها هو أبو بكر، يجلس على كرسي سيِّد المرسلين، فيحكم ويشرع، فكان أوَّل ما قد شرع به، أن صادر فدك من فاطمة، وهي إرثها من أبيها النبي ﷺ، فقد كان قد صالح عليها أصحابها اليهود، على أن يعملوا بها بنصف ناتجها في كل عام، فكانت خالصة له من دون المسلمين، إذ لم يوجف عليها بخيل، ولا ركاب.

فشق ذلك على فاطمة بضعة النبي، فغضبت عليه، فغضب الله لغضبها، فإنَّ الله يغضب لغضب فاطمة.

فقد روى البخاري في صحيحه[١]: أنَّ رسول الله قال: فاطمة بضعةٌ منِّي، فمن أغضبها فقد أغضبني، ومن أغضبني فقد أغضب الله.

روى الطبرسي في الاحتجاج[٢]: عن حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما بويع أبو بكر، واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار، بعث إلى فدك، من أخرج وكيل فاطمة عليها السلام بنت رسول الله منها، فجاءت فاطمة الزَّهراء عليها السلام إلى أبي بكر، ثمَّ

---

(١) صحيح البخاري: ج٥، ص٨٣.
(٢) الاحتجاج: ج١، ص٩٢.

قالت: لِمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله، وأخرجت وكيلي من فدك، وقد جعلها لي رسول الله، بأمر الله تعالى.

فقال: هاتي على ذلك بشهود، فجاءت بأُمّ أيمن، فقالت له أُمّ أيمن: لا أشهد يا أبا بكر، حتى أحتج عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، أُنشدك بالله، ألست تعلم أنَّ رسول الله قال: أُمّ أيمن امرأة من أهل الجنَّة.

فقال: بلى.

قالت: فأشهد أنَّ الله عزَّ وجلّ أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[1]، فجعل فدكاً لها طعمة بأمر الله، فجاء عليّ عليه السلام فشهد بمثل ذلك، فكتب لها كتاباً ودفعه إليها، فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟

فقال: إنَّ فاطمة ادعت في فدك، وشهدت لها أُمّ أيمن، وعلي فكتبته لها، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة، فتفل فيه ومزَّقه، فخرجت فاطمة تبكي:

فلما كان بعد ذلك، جاء علي إلى أبي بكر، وهو في المسجد، وحوله المهاجرون والأنصار، فقال: يا أبا بكر، لِمَ منعت فاطمة ميراثها من رسول الله، وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال أبو بكر: هذا فيء للمسلمين، فإن أقامت شهوداً، أنَّ رسول الله جعله لها، وإلَّا فلا حقّ لها فيه.

---

(١) سورة الإسرَاء: ٢٦.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا بكر تحكم فينا، بخلاف حكم الله في المسلمين.

قال: لا.

قال: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثم ادعيت أنا فيه من تسأل البيِّنة؟

قال: إيَّاك أسأل البيِّنة.

قال: فما بال فاطمة سألتها البيِّنة، على ما في يديها؟ وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين بيِّنة، على ما ادعوها شهوداً، كما سألتني على ما ادعيت عليهم، فسكت أبو بكر.

فقال عمر: يا علي دعنا من كلامك، فإنَّا لا نقوى على حجَّتك، فإن أتيت بشهود عدول، وإلَّا فهو في فيء للمسلمين، لا حقّ لك، ولا لفاطمة فيه.

فقال أمير المؤمنين: يا أبا بكر، تقرأ كتاب الله؟

قال: نعم.

قال: أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] فيمن نزلت، فينا أم في غيرنا؟

قال: بل فيكم.

قال: فلو أنَّ شهوداً شهدوا على فاطمة بنت رسول الله بفاحشة، ما كنت صانعاً بها؟

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

قال: كنت أقيم عليها الحدّ، كما أُقيمه على نساء المسلمين.

قال: إذاً كنت عند الله من الكافرين، قال: ولم؟

قال: لأنَّك رددت شهادة الله لها بالطهارة، وقبلت شهادة الناس عليها، كما رددت حكم الله، وحكم رسوله، أن جعل لها فدكاً قد قبضته في حياته، ثمَّ قبلت شهادة أعرابي، بائل على عقبيه عليها، وأخذت منها فدكاً، وزعمت أنَّه فيءُ للمسلمين، وقد قال رسول الله: «البيِّنةُ على المدَّعي، واليمين على المدعى عليه».

فرددت قول رسول الله البيّنة على مَن ادّعى واليمين على مَن ادّعي عليه، قال: فدمدم الناس، وأنكروا، ونظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: صدق والله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ورجع إلى منزله.

قال: ثمَّ دخلت فاطمة المسجد، وطافت بقبر أبيها، وهي تقول:

قَدْ كانَ بَعدَكَ أنباءٌ وَهَنْبَثَةٌ ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختلَّ قومك فاشهدهم ولا تغب

قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا ... فغاب عنَّا فكل الخير محتجب

وكنت بدراً ونوراً يُستضاء به ... عليك ينزل من ذي العزَّة الكتب

تجهَّمتنا رجال واستخف بنا ... إذْ غبت عنَّا فنحن اليوم نُغتصب

فسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت ... منَّا العيون بتهمال لها سكب

قال: فرجع أبو بكر وعمر إلى منزلهما.

وبعث أبو بكر إلى عمر فدعاه ثمَّ قال له:

أما رأيت مجلس عليّ منّا في هذا اليوم؟ والله لئن قعد مقعداً آخر مثله، ليفسدنَّ علينا أمرنا فما الرأي؟

فقال عمر: الرأي أن تأمر بقتله.

قال: فمن يقتله؟ قال: خالد بن الوليد.

فبعثا إلى خالد بن الوليد فأتاهما فقالا: نريد أن نحملك على أمر عظيم.

قال: إحملاني على ما شئتما، ولو على قتل علي بن أبي طالب.

قالا: فهو ذلك.

قال خالد: متى أقتله؟

قال أبو بكر: احضر المسجد، وقم بجنبه في الصلاة، فإذا سلَّمت فقم إليه واضرب عنقه.

قال: نعم.

فسمعت أسماء بنت عميس، وكانت تحت أبي بكر، فقالت لجاريتها: إذهبي إلى منزل علي وفاطمة عليهما السلام، واقرئيهما السلام، وقولي لعلي: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1].

فجاءت، فقال أمير المؤمنين: قولي لها: إن الله يحول بينهم وبين ما يريدون.

ثم قام وتهيَّأ للصلاة، وحضر المسجد، وصلَّى خلف أبي بكر، وخالد بن الوليد يُصلِّي بجنبه ومعه السيف. فلما جلس أبو

---

(١) سورة القَصَص: ٢٠.

بكر في التشهد، ندم على ما قال، وخاف الفتنة، وعرف شدَّة علي وبأسه، فلم يزل متفكِّراً، لا يجسر أن يُسلِّم، حتى ظنَّ الناس أنَّه قد سها، ثمَّ التفت إلى خالد فقال: يا خالد لا تفعلنَّ ما أمرتك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا خالد ما الذي أمرك به؟

فقال: أمرني بضرب عنقك.

قال: أوكنت فاعلاً؟

قال: إي والله، لولا أنَّه قال لي لا تقتله قبل التسليم لقتلتك.

قال: فأخذهُ علي فجلد به الأرض، فاجتمع الناس عليه، فقال عمر: يقتله وربُّ الكعبة.

فقال الناس: يا أبا الحسن، الله الله بحقِّ صاحب القبر، فخلى عنه.

ثمَّ التفت إلى عمر، فأخذ بتلابيبه وقال: يابن صهاك، والله لولا عهد من رسول الله، وكتاب من الله سبق، لعلمت أيُّنا أضعف ناصراً، وأقل عدداً ودخل منزله.

هذا وذكر الطبرسي في الاحتجاج[١]:

قال: روى عبد الله بن الحسن[٢] بإسناده عن آبائه عليهم السلام: أنَّه لمّا

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص١٠٠.

(٢) هو عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في عمدة الطالب وإنَّما سُمّي المحض لأنَّ أباه الحسن بن الحسن عليه السلام وأمه فاطمة بنت الحسين عليه السلام وكان يشبّه برسول الله صلى الله عليه وآله.

أجمع(١) أبو بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فدكاً وبلغها ذلك(٢) لاثت خمارها(٣) على رأسها واشتملت بجلبابها(٤) وأقبلت في

= وكان شيخ بني هاشم في زمانه، وقيل له: بم صرتم أفضل الناس؟ قال: لأنَّ الناس كلهم يتمنون أن يكونوا منّا ولا نتمنى أن نكون من أحد.
وقال أبو الفرج الأصفهاني ـ في مقاتل الطالبيين ـ عند ذكر مَن قتل أيام أبي جعفر المنصور: «وكان أبو جعفر المنصور قد طلب محمداً وإبراهيم فلم يقدر عليهما فحبس عبد الله بن الحسن وإخوته وجماعة من أهل بيته بالمدينةى ثم أحضرهم إلى الكوفة فحبسهم بها، فلما ظهر محمد قتل عدة منهم في الحبس... ـ إلى أن قال: ـ وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام يكنى أبا محمد... ـ إلى أن قال: ـ وقتل عبد الله بن الحسن في محبسه بالهاشمية، وهو ابن خمس وسبعين، وسنة خمس وأربعين ومائة».
وفي معجم البلدان: والهاشمية أيضاً مدينة بناها السفّاح بالكوفة إلى أن قال: وبالهاشمية هذه حبس المنصور عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومَن كان معه من أهل بيته.

(١) أجمع: أحكم النية والعزيمة.

(٢) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: قال أبو بكر ـ يعني: الجوهري ـ: فحدثني محمد بن زكريا قال: حدثني جعفر بن محمد بن عمارة الكندي قال: حدثني أبي عن الحسين بن صالح بن حي قال: حدثني رجلان من بني هاشم عن زينب بنت علي بن أبي طالب عليهما السلام.
قال: وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه.
قال أبو بكر: وحدثني عثمان بن عمران الجعفي عن نائل بن نجيح بن عمير بن شمر بن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام.
قال أبو بكر: وحدثني أحمد بن محمد بن يزيد عن عبد الله بن محمد بن سليمان عن أبيه عن عبد الله بن حسن بن حسن قالوا جميعاً لما بلغ فاطمة... الخ.

(٣) اللوث: الطي والجمع، ولاث العمامة شدّها وربطها، ولاثت خمارها لفته والخمار ـ بالكسر ـ: المقنعة، سميت بذلك لأن الرأس يخمر بها أي يغطى.

(٤) الاشتمال بالشيء: جعله شاملاً ومحيطاً لنفسه ـ والجلباب: الرداء والإزار.

لمة[١] من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها[٢]، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله ﷺ[٣] حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم[٤] فنيطت دونها ملاءة[٥]، فجلست ثم أنَّت أنَّة أجهش[٦] القوم لها بالبكاء، فارتجَّ المجلس، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكّر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام

---

(١) في لمة: أي جماعة، وفي بعض النسخ «في لميمة» بصيغة التصغير، أي جماعة قليلة، والحفدة ـ بالتحريك ـ: الأعوان والخدم.

(٢) أي إن أثوابها كانت طويلة تستر قدميها فكانت تطأها عند المشي، وفي بعض النسخ «تجر أدراعها» والمعنى واحد.

(٣) الخرم ـ بضم الخاء وسكون الراء ـ: الترك، والنقص، والعدول.

(٤) الحشد. الجماعة.

(٥) نيطت: علقت وناط الشيء: علقه، والملامة الإزار.

(٦) أجهش القوم: تهيئوا.

كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتا لحكمته، وتنبيها على طاعته، وإظهاراً لقدرته، تبعاً لبريته وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده من نقمته، وحياشة[1] لهم إلى جنته.

وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة علماً من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع الأمور.

ابتعثه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير رحمته، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها فأنار الله بأبي محمد ﷺ ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها[2]، وجلى عن الأبصار غممها[3]، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم.

ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد ﷺ من تعب هذه الدار في راحة، قد حف بالملائكة

---

(١) حاش الإبل: جمعها وساقها.

(٢) بهمها: أي مبهماتها: وهي المشكلات من الأمور.

(٣) الغمم: جمع غمة وهي: المبهم والملتبس وفي بعض النسخ(عماها).

الأبرار، ورضوان الربّ الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيّه وأمينه، وخيرته من الخلق وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت: أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائداً إلى الرضوان أتباعه، مؤدّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة.

فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتا للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقا للقلوب، وطاعتنا نظاما للملّة، وإمامتنا أماناً للفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر[١] ومنماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن

(١) منسأة للعمر: مؤخرة.

اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية فاتّقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء.

ثم قالت: أيها الناس اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول عوداً وبدءاً ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً[(١)]، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم[(٢)] حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تعزوه[(٣)] وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم ولنعم المعزى إليه ﷺ، فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة[(٤)] مائلاً عن مدرجة المشركين[(٥)] ضارباً ثبجهم[(٦)] آخذاً بأكظامهم[(٧)] داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يجف الأصنام[(٨)] وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولّوا الدبر، حتى تفرّى الليل عن صبحه[(٩)] وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق

---

(١) الشطط ـ بالتحريك ـ وهو البعد عن الحق ومجاوزة الحد في كل شيء.

(٢) عنتم: أنكرتم وجحدتم.

(٣) تعزوه: تنسبوه.

(٤) صادعاً: الصدع هو الإظهار، والنذارة ـ بالكسر ـ الإنذار وهو الإعلام على وجه التخويف.

(٥) المدرجة: هي المذهب والمسلك.

(٦) ثبجهم، الثبج ـ بالتحريك ـ: وسط الشيء ومعظمه.

(٧) أكظامهم، الكظم ـ بالتحريك ـ : مخرج النفس من الحلق.

(٨) يجف الأصنام وفي بعض النسخ« يكسر الأصنام» وفي بعضها« يجذ» أي يكسر.

(٩) تفرى الليل عن صبحه: أي انشق حتى ظهر وجه الصباح.

الشياطين[١] وطاح وشيظ النفاق[٢] وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص[٣] في نفر من البيض الخماص[٤] وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب[٥] ونهزة الطامع[٦] وقبسة العجلان، وموطىء الأقدام[٧] تشربون الطرق[٨] وتقتاتون القد[٩] أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد ﷺ بعد اللتيا والَّتي، وبعد أن مني ببهم[١٠] الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان[١١] أو فغرت فاغرة من المشركين[١٢] قذف أخاه في لهواتها[١٣] فلا ينكفىء حتى يطأ جناحها بأخمصه[١٤] ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في

---

(١) شقاشق الشياطين، الشقاشق ـ جمع شقشقة بالكسر ـ وهي: شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج.
(٢) طاح: هلك، والوشيظ: السفلة والرذل من الناس.
(٣) كلمة الإخلاص: كلمة التوحيد.
(٤) البيض الخماص: المراد بهم أهل البيت عليهم السلام.
(٥) مذقة الشارب: شربته.
(٦) نهزة الطامع ـ بالضم ـ : الفرصة أي محل نهزته.
(٧) قبسة العجلان: مثل في الاستعجال، وموطئ الأقدار: مثل مشهور في المغلوبية والمذلة.
(٨) الطرق: بالفتح ماء السماء الذي تبول به الإبل وتبعر.
(٩) القد ـ بكسر القاف وتشديد الدال ـ : سير يقد من جلد غير مدبوغ.
(١٠) بهم الرجال: شجعانهم.
(١١) نجم: ظهر، وقرن الشيطان: امته وتابعوه.
(١٢) فغرفاه: أي فتحه، والفاغرة من المشركين الطائفة منهم.
(١٣) قذف رمى، واللهوات ـ بالتحريك، جمع لهات ـ : وهي اللحمة في أقصى شفة الفم.
(١٤) ينكفئ: يرجع، والأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

أمر الله قريبا من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجدّاً كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون[١] فاكهون[٢] آمنون، تتربصون بنا الدوائر[٣] وتتوكفون الأخبار[٤] وتنكصون عند النزال، وتفرّون من القتال.

فلما اختار الله لنبيّه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النّفاق[٥] وسمل جلباب الدين[٦] ونطق كاظم الغاوين[٧] ونبغ خامل الأقلّين[٨] وهدر فنيق المبطلين[٩] فخطر في عرصاتكم[١٠] وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم[١١] فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً[١٢] فوسمتم غير إبلكم[١٣] ووردتم غير مشربكم[١٤].

---

(١) وادعون: ساكنون.
(٢) فاكهون: ناعمون.
(٣) الدوائر: صروف الزمان، أي كنتم تنتظرون نزول البلايا علينا.
(٤) تتوقعون أخبار المصائب والفتن النازلة بنا.
(٥) في بعض النسخ «حسيكة» وحسكة النفاق عداوته.
(٦) وسمل جلباب الدين، سمل: صار خلقاً، والجلباب: الإزار.
(٧) الكظوم: السكوت.
(٨) الخامل: من خفي ذكره وكان ساقطاً لا نباهة له.
(٩) الهدير: ترديد البعير صوته في حنجرته، والفنيق: الفحل المكرم من الإبل الذي لا يركب ولا يهان.
(١٠) خطر البعير بذنبه: إذا رفعه مرة بعد مرة وضرب به فخذيه.
(١١) مغرزه: أي ما يختفي فيه تشبيها له بالقنفذ فإنه يطلع رأسه بعد زوال الخوف.
(١٢) أي: حملكم على الغضب فوجدكم مغضبين لغضبه.
(١٣) الوسم: أثر الكي.
(١٤) الورود: حضور الماء للشرب.

هذا والعهد قريب والكلم رحيب[١] والجرح لما يندمل[٢] والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وإنَّ جهنَّم لمحيطة بالكافرين، فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون! وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم أرغبة عنه تريدون[٣]؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها[٤] ويسلس قيادها[٥] ثم أخذتم تورون وقدتها[٦] وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسوا في ارتغاء[٧] وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء[٨] ويصير[٩] منكم على مثل حز المدى[١٠] ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون أن لا

---

(١) الكلم ـ بالضم ـ : الجرح، والرحب ـ بالضم ـ : السعة.
(٢) أي: لم يصلح بعد.
(٣) في بعض النسخ «تدبرون».
(٤) نفرتها، نفرت الدابة: جزعت وتباعدت.
(٥) يسلس: يسهل.
(٦) أي: لهبها.
(٧) الحسو: هو الشرب شيئاً فشيئاً، والارتغاء: هو شرب الرغوة وهي اللبن المشوب بالماء وحسواً في ارتغاء: مثل يضرب لمن يظهر شيئاً ويريد غيره.
(٨) الخمر ـ بالفتح ـ : ما واراك من شجر وغيره، والضراء بالفتح: الشجر الملتف بالوادي.
(٩) وفي بعض النسخ« يصبر».
(١٠) الحز: القطع، والمدى: السكاكين.

إرث لنا، أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته.

أيها المسلمون أَأُغلب على إرثي[١]؟ يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئا فرياً! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٢].

وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿...فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٣].

وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٥].

وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٦] ـ وزعمتم أن لا حظوة[٧] لي ولا أرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصَّكم الله بآية أخرج أبي منها؟

أم هل تقولون: إن أهل ملَّتين لا يتوارثان؟

---

(١) في بعض النسخ« إرثه».
(٢) سورة النَّمل: ١٦.
(٣) سورة مَريَم: ٥-٦.
(٤) سورة الأنفَال: ٧٥.
(٥) سورة النِّسَاء: ١١.
(٦) سورة البَقَرَة: ١٨٠.
(٧) الحظوة: المكانة.

أولست أنا وأبي من أهل ملَّة واحدة؟

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة[١] تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبأ مستقرّ وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم.

ثم رمت بطرفها[٢] نحو الأنصار فقالت: يا معشر النقيبة وأعضاد الملة[٣] وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي[٤] والسنة عن ظلامتي[٥]؟

أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبي يقول: «المرء يحفظ في ولده»؟

سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة[٦] ولكم طاقة بما أُحاول، وقوَّة على ما أطلب وأُزاول.

أتقولون مات محمد صلى الله عليه وآله؟ فخطب جليل استوسع وهنه واستنهر فتقه[٧] وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت

---

(١) مخطومة: من الخطام ـ بالكسر ـ : وهو كل ما يدخل في أنف البعير ليقاد به والرحل ـ بالفتح ـ : هو للناقة كالسرج للفرس.

(٢) في بعض النسخ «رنت».

(٣) النقيبة: الفتية.

(٤) الغميزة: ـ بفتح الغين المعجمة والزاي ـ ضعفة في العمل.

(٥) السنة ـ بالكسر ـ : النوم الخيف.

(٦) إهالة: بكسر الهمزة الدسم. وسرعان ذا إهالة مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته.

(٧) الوهن: الخرق، واستنهر: اتسع.

الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت[١] الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة[٢] عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافاً، وصراخاً، وتلاوة، وألحاناً، ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله، حكم فصل وقضاء حتم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّـٰكِرِينَ﴾[٣].

إيهاً بني قيلة[٤] أأُهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأىً مني ومسمع، ومنتدى[٥] ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة[٦] توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت.

قاتلتم العرب، وتحمَّلتم الكدّ والتعب، وناطحتم الأمم،

---

(١) أكدت: قل خيرها.
(٢) بائقة: داهية.
(٣) سورة آل عِمرَان: ١٤٤.
(٤) بنو قيلة، قبيلتا الأنصار: الأوس والخزرج.
(٥) المنتدى: المجلس.
(٦) الجنة ـ بالضم ـ: ما استترت به من السلاح.

وكافحتم[١] البهم، لا نبرح أو تبرحون[٢] نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرَّ حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين[٣] فأنّى حزتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين.

ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض[٤] وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة[٥] ونجوتم بالضيق من السعة، فمجحتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم[٦] فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد.

ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجذلة التي خامرتكم[٧] والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة[٨] وبثة الصدر، وتقدمة الحجة،

---

(١) وفي بعض النسخ «كالحتم».
(٢) لا نبرح: لا نزال.
(٣) استوسق: اجتمع.
(٤) أخلدتم: ملتم. والخفض: السعة والخصب واللين.
(٥) الدعة: الراحة والسكون.
(٦) الدسع: القيء، وتسوغ الشراب: شربه بسهولة.
(٧) الجذلة: ترك النصر، خامرتكم: خالطتكم.
(٨) الخور: الضعف، والقناة: الرمح. والمراد من ضعف القناة هنا: ضعف النفس عن الصبر على الشدة.

فدونكموها فاحتقبوها دبرة[١] الظهر نقبة الخف[٢] باقية العار، موسومة بغضب الجبار، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعملوا إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون.

فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان، وقال: يا بنت رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً رؤوفاً رحيماً وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وعقاباً عظيماً، إن عزوناه وجدناه أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الأخلَّاء[٣] آثره على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي[٤] بعيد، فأنتم عترة رسول الله الطيبون، الخيرة المنتجبون، على الخير أدلَّتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك والله ما عدوت رأي رسول الله، ولا عملت إلَّا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، وإنّي أُشهد الله وكفى به شهيداً، أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: نحن معاشر الأنبياء

---

(١) فاحتقبوها: أي احملوها على ظهوركم، ودبر البعير: أصابته الدبرة بالتحريك وهي جراحة تحدث من الرحل.

(٢) نقب خف البعير: رق وتثقب.

(٣) الإلف: هو الأليف بمعنى المألوف، والمراد هنا، الزوج لأنه إلف الزوجة وفي بعض النسخ« ابن عمك».

(٤) في ذخائر العقبى، ـ لمحب الدين الطبري ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله« لا يحبنا أهل البيت إلا مؤمن تقي، ولا يبغضنا إلا منافق شقي» أخرجه الملا.

لا نورّث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً وإنما نورّث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة وما كان لنا من طعمة فلوليّ الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه»[١] وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجالدون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين، لم أنفرد به وحدي، ولم أستبدّ بما كان الرأي عندي[٢] وهذه حالي ومالي، هي لك وبين يديك، لا

---

(١) نقل الإمام المجاهد السيد عبد الحسين شرف الدين« قدس سره» في كتابه الجليل« النص والاجتهاد» عن الأستاذ المصري المعاصر محمود أبو رية ما يلي:
«قال»: بقي أمر لا بد أن نقول فيه كلمة صريحة، ذلك هو موقف أبي بكر من فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ وما فعل معها في ميراث أبيها، لأنا إذا سلمنا بأن خبر الآحاد الظني يخصص الكتاب القطعي، وأنه قد ثبت أن النبي ﷺ قد قال إنه لا يورث، وأنه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإن أبا بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة رضي الله عنها بعض تركة أبيها ﷺ كأن يخصها بفدك، وهذا من حقه الذي ليس يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للخليفة أن يخص من يشاء بما يشاء.
قال: وقد خص هو نفسه الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي ﷺ على أن فدكاً هذه التي منعها أبو بكر لم تلبث أن أقطعها الخليفة عثمان لمروان، هذا كلامه بنصه.
ثم عقب السيد «ره» قائلاً: ونقل ابن أبي الحديد عن بعض السلف كلاماً مضمونه العتب على الخليفتين والعجب منهما في مواقفهما مع الزهراء بعد أبيها ﷺ قالوا في آخره: «وقد كان الأجل أن يمنعهما التكرّم عما ارتكباه من بنت رسول الله ﷺ فضلاً عن الدين» فذيله ابن أبي الحديد بقوله: «هذا الكلام لا جواب عنه» النص والاجتهاد ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) خطر ببالي وأنا أفكر في قول الخليفة، «وذلك بإجماع المسلمين لم أنفرد به» وقوله في آخر الحديث الذي تفرد بنقله عن النبي ﷺ «وما كان من طعمة فلولي الأمر أن يحكم فيه بحكمه» نعم خطر ببالي وأنا افكر في هاتين الفقرتين وما إذا كانت فدك من حق المسلمين حتى يؤخذ رأيهم فيها أم من حقه =

تزوى عنك، ولا ندخر دونك، وإنَّك وأنت سيّدة أمَّة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا ندفع ما لك من فضلك، ولا يوضع في فرعك وأصلك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي فهل ترين أن أخالف في ذاك أباك ﷺ؟

الخاص حتى يحكم فيه بحكمه كما جاء في ذيل الحديث الذي استنكرته الصديقة الطاهرة عليها السلام واعتبرته كذباً وزوراً وافتراء على الرسول ﷺ اعتلالاً منهم لما أجمعوا على الغدر بذريته كما اعتبرته طعنا في عصمته ﷺ لو صدر ذلك منه، واسمع ذلك كله في جوابها لأبي بكر، «سبحان الله! ما كان أبي رسول الله ﷺ عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل في حياته» ثم إن كان من حقه الخاص فلماذا لم يعطها سيدة النساء وبنت سيد الأنبياء إكراماً لمقام أبيها ﷺ وإذا كان من حق المسلمين فكيف تداولتها الأيدي بالأهواء بعد ذلك دون أخذ رأيهم فيها.

نعم خطر ببالي وأنا أجيل الفكر في هذا وشبهه قول الشريف قتادة بن إدريس من قصيدته العصماء في رثاء سيدة النساء عليها السلام والتي يقول في أولها:

ما لعينيَّ غاب عنها كراها	وعراها من عبرة ما عراها
ألدار نعُمت فيها زماناً	ثم فارقتها فلا أغشاها

إلى أن يقول:

بل بكائي لمن خصها	اللَّه تعالى بلطفه واجتباها
وحباها بالسيِّدين الجليلـ	ين العظيمين منه حين حباها
ولفكري في الصاحبين اللذين	استحسنا ظلمها وما راعياها
منعا بعلها من الحلِّ والعقـ	د وكان المنيب والأواها

والتي يقول فيها:

وأنت فاطم تطالب بالإر	ث من المصطفى فما ورَّثاها

إلى أن قال ـ وهو محل الشاهد ـ:

أترى المسلمين كانوا يلومو	نهما في العطاء لو أعطياها
كأن تحت الخضراء بنت نبي	ناطق صادق أمين سواها
بنت من؟ أمّ من؟ حليلة مَن؟	... من سنَّ ظلمها وأذاها

فقالت عليها السلام: سبحان الله ما كان أبي رسول الله صلى الله عليه وآله عن كتاب الله صادفاً[١] ولا لأحكامه مخالفاً! بل كان يتبع أثره ويقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل[٢] في حياته هذا كتاب الله حكما عدلاً، وناطقاً فصلاً يقول: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مَريَم: ٦] ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النَّمل: ١٦] وبيَّن عزَّ وجلَّ فيما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح به علَّة المبطلين، وأزال التظنِّي والشبهات في الغابرين، كلا بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

فقال أبو بكر: صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته، معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، لا أُبعد صوابك، ولا أنكر خطابك هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلَّدوني ما تقلَّدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبدّ، ولا مستأثر، وهم بذلك شهود[٣].

---

(١) صادفاً: معرضاً.

(٢) الغوائل: المهالك، فهي صلوات الله عليها رأت في هذا التعليل والاستدلال بوضع حديث مزور على لسان الرسول صلى الله عليه وآله مؤامرة استهدفت شخصه الكريم كما استهدفت رسالته من خلال أهل بيته حيث سلبته أعظم امتياز تستند إليه الرسالة وهي العصمة بمخالفته أحكام الكتاب في منع أهل بيته من الإرث ورأت عليها السلام في هذا التهجم على شخصه الكريم بعد الوفاة شبهاً بما كان يُحاك ضدّه من المؤامرات في حياته صلى الله عليه وآله إذ هي الأُخرى استهدفت شخصه للقضاء على رسالته.

(٣) حقاً إنَّه لمن الملفت للنظر لجوء أبي بكر إلى رأي المسلمين بعد انهزامه أمام حجج الصدّيقة الدامغة الثابتة اليقينة من صريح المحكم من كتاب الله العظيم مما لا يدع مجالاً للشك والشبهة في بطلان الحديث المزعوم وسقوطه عن =

فالتفتت فاطمة عليها السلام إلى الناس وقالت: معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل[١] المغضية على الفعل القبيح الخاسر، أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأوّلتم، وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اغتصبتم! لتجدنَّ والله محمله ثقيلاً، وغبّه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء، وبان بإورائه الضرّاء وبدا لكم من ربّكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون.

ثم عطفت على قبر النبي صلى الله عليه وآله وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم ولا تغب
وكل أهل له قربى ومنزلة ... عند الإله على الأدنين مقترب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم[٢] ... لما مضيت وحالت دونك الترب
تجهمتنا رجال واستخف بنا ... لما فقدت وكل الأرض مغتصب
و كنت بدرا ونورا يستضاء به ... عليك ينزل من ذي العزة الكتب
وكان جبرئيل بالآيات يؤنسنا ... فقد فقدت وكل الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الكثب[٣]

ثم انكفأت عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام يتوقع رجوعها إليه، ويتطلّع طلوعها عليه، فلما استقرّت بها الدار، قالت لأمير المؤمنين عليه السلام:

= الاعتبار ومخالفته لأصول الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله منزه عن التفوه بمثله.

(١) في بعض النسخ «قبول الباطل».
(٢) النجوى: السرّ.
(٣) الكثب ـ بضمتين ـ: جمع الكثيب وهو: الرمل.

يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل[١] فخانك ريش الأعزل[٢] هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة[٣] ابنيّ! لقد أجهد[٤] في خصامي، وألفيته ألدَّ في كلامي[٥] حتى حبستني قيلة نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدَّك[٦] يوم أضعت حدَّك، افترست الذئاب، وافترشت التراب، ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً[٧] ولا خيار لي، ليتني مت قبل هنيئتي، ودون ذلَّتي عذيري الله منه عادياً[٨] ومنك حامياً، ويلاي في كل شارق! ويلاي في كل غارب! مات العمد، ووهن العضد[٩] شكواي إلى أبي! وعدواي[١٠] إلى ربِّي! اللهم إنك أشدّ منهم قوة وحولاً، وأشدّ بأساً وتنكيلاً.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام لا ويل لك بل الويل لشانئك[١١] ثم

---

(١) قوادم الطير: مقادم ريشه وهي عشرة ـ والأجدل: الصقر.
(٢) الأعزل من الطير: ما لا يقدر على الطيران.
(٣) يبتزني: يسلبني والبلغة ما يتبلَّغ به من العيش.
(٤) في بعض النسخ «أجهر».
(٥) ألفيته: وجدته، وألدَّ: خاصم مخاصمة شديد.
(٦) ضرع: خضع وذل.
(٧) أي ما فعلت شيئاً نافعاً، وفي بعض النسخ «ولا أغنيت باطلاً»: أي كففته.
(٨) العذير: النصير. وعادياً: متجاوزاً.
(٩) الوهن: الضعف في العمل أو الأمر أو البدن.
(١٠) العدوى: طلبك إلى وال لينتقم لك من عدوك.
(١١) الشانيء: المبغض.

نهنهي عن وجدك[١] يا ابنة الصفوة، وبقية النبوَّة، فما ونيت[٢] عن ديني، ولا أخطأت مقدوري[٣]، فإن كنت تريدين البلغة، فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أُعدّ لك أفضل مما قطع عنك، فاحتسبي الله.

فقالت: حسبي الله وأمسكت.

وقال سويد بن غفلة[٤]: لما مرضت فاطمة سلام الله عليها، المرضة التي توفيت فيها[٥] دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علَّتك يا ابنة رسول الله؟ فحمدت الله، وصلَّت على أبيها، ثم قالت:

أصبحت والله عائفة لدنياكنَّ، قالية لرجالكنَّ، لفظتهم بعد أن

---

(١) أي: كفي عن حزنك وخففي من غضبك.

(٢) ما كللت ولا ضعفت ولا عييت.

(٣) ما تركت ما دخل تحت قدرتي، أي لست قادراً على الانتصاف لك لما أوصاني به الرسول ﷺ.

(٤) قال العلامة في الخلاصة: سويد بن غفلة الجعفي قال البرقي: إنَّه من أولياء أمير المؤمنين عليه السلام وفي أسد الغابة: «أدرك الجاهلية كبيراً وأسلم في حياة رسول الله ﷺ ولم يره وأدى صدقته إلى مصدق النبي ﷺ ثم قدم المدينة فوصل يوم دفن النبي ﷺ وكان مولده عام الفيل وسكن الكوفة..» وفي تهذيب التهذيب وثقه ابن معين والعجلي مات سنة ٨٠ وقيل ٨١ وقيل ٨٨.

(٥) قال ابن أبي الحديد في المجلد الرابع من شرحه على النهج: «قال أبو بكر وحدثنا محمد بن زكريا قال حدثنا محمد بن عبد الرحمان المهلبي عن عبد الله بن حماد بن سليمان عن أبيه عن عبد الله بن حسن بن حسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عليه السلام قالت: لما اشتدّ بفاطمة بنت رسول الله ﷺ الوجع وثقلت في علّتها دخلت عليها...إلخ.

عجمتهم[١] وسئمتهم بعد أن سبرتهم[٢] فقبحاً لفلول الحد، واللعب بعد الجد، وقرع الصفاة وصدع القناة، وختل الآراء[٣] وزلل الأهواء، وبئس ما قدَّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون! لا جرم لقد قلَّدتهم ربقتها وحمَّلتهم أوقتها[٤] وشننت عليهم غاراتها[٥]، فجدعاً وعقراً وبعداً للقوم الظالمين.

ويحهم أنّى زعزعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمور الدنيا[٦] والدين؟! ألا ذلك هو الخسران المبين! وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟! نقموا والله منه نكير سيفه وقلَّة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال[٧] وقعته، وتنمره في ذات الله[٨] وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردّهم إليها وحملهم عليها ولسار بهم سيراً سجحا[٩] لا يكلم حشاشه[١٠] ولا يكل سائره[١١] ولا يمل راكبه ولأوردهم منهلا نميراً، صافياً، روياً، تطفح ضفتاه ولا يترنق

---

(١) لفظتهم: رميت بهم، وطرحتهم بعد أن عجمتهم: أي بعد أن اختبرتهم وامتحنتهم.
(٢) سئمتهم: مللتهم، وسبرتهم: جرَّبتهم واختبرتهم واحداً واحداً.
(٣) ختل الآراء: زيفها وخداعها.
(٤) أوقتها: ثقلها.
(٥) شننت الغارة عليهم: وجهتها عليهم من كل جهة.
(٦) الطبين: الفطن الحاذق العالم بكل شيء.
(٧) النكال: ما نكلت به غيرك كائناً ما كان.
(٨) تنمر: عبس وغضب.
(٩) سجحاً: سهلاً
(١٠) كلمه: جرحه.
(١١) يكل: يتعب.

جانباه ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سرّاً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ري الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب، ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين!

ألا هلمَّ فاسمع! وما عشت أراك الدهر عجباً!! وإن تعجب فعجب قولهم!! ليت شعري إلى أي سناد استندوا؟! وإلى أي عماد اعتمدوا؟! وبأيّة عروة تمسَّكوا؟! وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا[١] لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلاً! استبدلوا والله الذنابى بالقوادم[٢] والعجز بالكاهل[٣] فرغما لمعاطس[٤] قوم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، ألا إنَّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. ويحهم أفمن يهدي إلى الحق أحقّ أن يتبع أم من لا يهدِّي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون؟! أما لعمري لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً[٥] وذعافاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف الباطلون غب[٦] ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً واطمأنوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيف صارم،

---

(١) احتنكه: استولى عليه.
(٢) الذنابى: ذنب الطائر، وقوادمه: مقادم ريشه.
(٣) العجز: مؤخر الشيء، والكاهل: مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق.
(٤) المعطس: الأنف.
(٥) القعب: القدح، والدم العبيط: الخالص الطري.
(٦) الذعاف: السم الذي يقتل من ساعته، الغب: العاقبة.

وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرتا لكم! وأنّى بكم وقد عميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون!

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها عليها السلام على رجالهنَّ فجاء إليها قوم من المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر قبل أن يبرم العهد، ويحكم العقد، لما عدلنا عنه إلى غيره.

فقالت عليها السلام: إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم.

أقول: بعد أن وقفنا على خطبة بنت سيِّد المرسلين، تلك الخطبة البحر الكبير، المتلاطم تيَّاره، المتراكم زخَّاره، ذو الريح العاصف، والزعزع القاصف، شعرنا بمظلومية آل محمَّد صلى الله عليه وآله، شعوراً حرّاً لا تبعية فيه، ولا تقليد.

فخرجنا من الإيمان الوهم، أنَّ الأرض هي السَّماء، وأنَّ السَّماء هي الأرض إلى الإيمان اليقين، أنَّ المشرق هو المصدر للنور الذي يهدي بشروقه.

وأنَّ المغرب هو الباعث للظلام، الذي لا تثبت فيه قدم، ولا يرى ضالته فيه بصر، إلَّا مُمْتَحنٌ بصير.

وبعد: فقد أدرك أبو بكر وعمر، خطر فدك على سلطانهما، عند ادعائهما الخلافة وتقمُّصها، وبعد خطبة الزَّهراء وإحجاجهما، ففكَّرا وقدرا، فيما لو بقيت فدك في قبضة عليّ وفاطمة، فإنَّهما لا يأمنان أن يُجنِّد عليٌّ بدرِّها الجند، لضربهما وإخراجهما من

الخلافة والتسلطن، فهي العامل الاقتصادي الوحيد في حركته وإعداده هذا.

وثانياً: فلوأنَّهما قد ردَّا فدكاً على فاطمة بعد خطبتها وإحجاجهما، وقد حضرها المهاجرون والأنصار، لقبضت عليها موثقة بشهود، ولعادت الكرة عليهما، تطالبهما بحقِّ عليّ بالخلافة، وأنَّه هو صاحبها الأكفأ، والأجدر بإدارتها من سواه.

فإذا هي الطامة الكبرى، التي لا طاقة لهما بها، أو الخروج منها.

فلذلك صادرها أبو بكر ولم يردّها على آل محمَّد ﷺ، ظَنّاً بخلافته، وحكمه، ولو لأيَّام قلائل في هذه الدُّنيا، التي تغرُّ، وتضرُّ، وتمر.

وثمَّة أمرٌ ثالث: قد أرَّق ليلهم، وأسهر عينهم، وهو أن يغتالوا عليّ بن أبي طالب، إذاً ذهب المنازع.

فرأوا أن يقتلوه، وهو قائم يُصلِّي بين يدي ربّه تعالى، إذ لا طاقة لهم على الوثبة إليه في غير صلاته.

إذاً فهم يقتلون حامل لواء الحمد يوم القيامة، الكرَّار غير الفرَّار في ميادين الحرب، والقتال بين الإسلام والشِّرك، ومن هو من رسول الله بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه ليس بنبي.

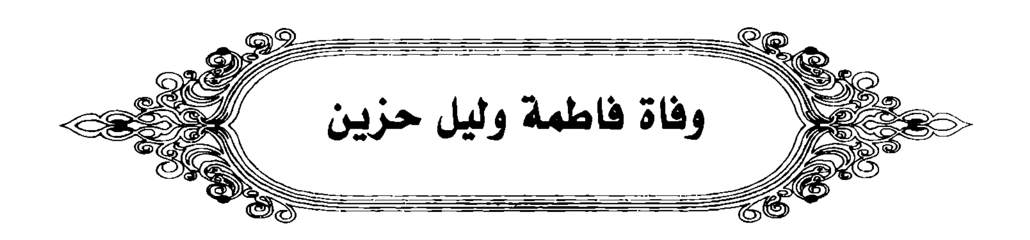
قد قرأت فتأمَّل يرحمك الله.

ومن شعري أقول:

شرف الرِّسالة لا تهتف بمن هتكا تركوا النَّبي لا دفنٌ ولا نُسكا
يوم السقيفةِ غدرٌ لا مثيل له اغتصبوا الخلافة لا خُمٌ ولا فدكا
يوم السقيفةِ إفكٌ لا نظير له جحدوا الوصية لا وحيٌ ولا ملكا

يـوم الـسـقـيـفـة جـورٌ لا حـدود لـه سفكوا الدماء دم الحسين إذْ سُفكا
وهـب الـنَّـبـيُّ لـلـزهـراء نـحـلـتـهُ خافوا الوصي أن يُنفق إذا ملكا
قـال الـخـلـيـفـةُ ذا فـيءٌ لأُمـتـنـا قال النَّبي لا نُورثْ بذا سلكا
علـى الـصِّـراط يـوم الـبعث وزْرته أنَّى الشفيع لم يُبقِ وما تركا
أُمُّ الـحـسـين يـومَ الـحـشـر مـوعـدنـا نرجوا الشفاعة في الميزان ما ملكا





وفاة فاطمة وليل حزين

على المسلمين أن يعيدوا قراءة التاريخ بمسؤولية وتنبُّه، على فيْرق طريقين، بين الحقّ والباطل، بين الهدى والضلال، حتى يتبيَّن لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، من سيرة النَّبي ونور اليقين.

إن هم أرادوا الهدى والرشد إلى الله ورسوله، والأخذ الصحيح الصَّادق، عن التنزيل والتبليغ، الذي لا لبس ولا عبثيَّة فيه.

واعلم أخي المسلم، أنَّ أهل بيت النُّبوَّة، هم الميزان والفيصل في كُلٍّ بحث وقراءة، وهم صراط الله المستقيم، وعلى ولايتهم والتنكر لهم توزن الأعمال يوم القيامة، فلا يثقل الميزان إلَّا بولايتهم والأخذ عنهم، ولا يخف إلَّا بالجحود لولايتهم، والأخذ عن سواهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[2].

---

(١) سورة الإسرَاء: ٣٦.

(٢) سورة الإسرَاء: ٧١.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١].

وقال النَّبي صلى الله عليه وآله: إنَّ مثل أهل بيتي فيكم، كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها غرق.

واعلم أخي المسلم: أنَّه من أفرط في حُبٍّ، أو بغضٍ في غير حقٍّ، أو يقينٍ كاشف، فإنَّه قد عمي وصم عن نور الهدى، وعين اليقين.

هذا، فقد أجمع المؤرخون سُنَّة وشيعة إلَّا الشاذ منهم، أنَّ الله تعالى يرضى لرضى فاطمة، ويغضب لغضبها، وأنَّه من آذاها فقد آذى رسول الله، ومن آذى رسول الله، فقد أغضب الله تعالى.

روى البخاري في صحيحه ج٥، ص٨٣ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فاطمة بضعةٌ منِّي، فمن أغضبها فقد أغضبني.

وروى أيضاً في صحيحه ج٥، ص٢٥٢، عن أُمّ المؤمنين عائشة: أنَّ فاطمة عليها السلام بنت النَّبي، أرسلت إلى أبي بكرٍ تسأله ميراثها من رسول الله، مما أفاء اللهعليه بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنَّ رسول الله قال: لا نورث ما تركناه صدقة، إنَّما يأكل آل محمَّد في هذا المال، وإنِّي والله لا أُغيِّر شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك،

---

(١) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٤.

فهجرته فلم تُكلِّمه حتى توفيت، وعاشت بعد النَّبي ستة أشهر، فلمَّا توفيت دفنها زوجها عليّ ليلاً، ولم يُؤذن بها أبا بكر انتهى.

أقول: وهل كان أبو بكر يعلم حكماً وفاطمة تجهله، وقد ربيت في بيت النُّبوَّة والتنزيل، وهي من أصحاب الكساء، الذين قد أذهب الله عنهم الرِّجس، وطهَّرهم تطهيراً.

وهل تدَّعي فاطمة إرثاً من أبيها، قد حرمه الله ورسوله عليها، وقد صان الوحي والتنزيل عصمتها، وقال رسول الله: فاطمة سيِّدة نساء أهل الجنَّة.

ثمَّ استمع لابن قتيبة وهو يُحدِّثنا، في كتابه الإمامة والسياسة ج١، ص٣١ قال: وإنَّ أبا بكر رضي الله عنه، تفقد قوماً تخلَّفوا عن بيعته عند عليّ (كرَّم الله وجهه)، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار عليّ، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجن، أو لأحرقنّها على مَن فيها.

فقيل له: يا أبا حفص إنَّ فيها فاطمة.

فقال: وإنْ.

فخرجوا فبايعوا إلَّا عليّاً، فإنَّه زعم أنَّه قال: حلفت أن لا أخرج، ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن، فوقفت فاطمة رضي الله عنها على بابها، فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردُّوا لنا حقّاً، فأتى عمر أبا بكر فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة؟

فقال أبو بكر لقنفذ، وهو مولى له: إذهب فادع لي عليّاً.

قال: فذهب إلى عليّ فقال له: ما حاجتك.

فقال: يدعوك خليفة رسول الله.

فقال عليّ: لسريع ما كذبتم على رسول الله.

فرجع فأبلغ الرِّسالة قال: فبكى أبو بكر طويلاً.

فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة.

فقال أبو بكر (رضي الله عنه) لقنفذ: عُد إليه فقل له: خليفة رسول الله يدعوك لتبايع، فجاء قنفذ فأدَّى ما أُمر به، فرفع عليٌّ صوته فقال: سبحان الله، لقد ادعى ما ليس له، فرجع قنفذ فأبلغ الرِّسالة، فبكى أبو بكر طويلاً، ثمَّ قام عمر فمشى معه جماعة، حتى أتوا باب فاطمة، فدقوا الباب، فلمَّا سمعت أصواتهم، ثارت بأعلى صوتها: يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب، وابن أبي قحافة، فلمَّا سمع القوم صوتها وبكاءها، انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبادهم تتفطر، وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا علياً فمضوا به إلى أبي بكر، فقالوا له: بايع.

فقال: إن لم أفعل فمه؟

قالوا: إذاً والله الذي لا إله إلَّا هو، نضرب عنقك.

فقال: إذاً تقتلون عبد الله، وأخا رسول الله.

قال عمر: أمَّا عبد الله فنعم، وأمَّا أخو رسول الله فلا، وأبو بكر ساكت لا يتكلَّم.

فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك.

فقال: لا أكرهه على شيءٍ ما كانت فاطمة إلى جنبه، فلحق

عليّ بقبر رسول الله ﷺ، يصيح، ويبكي، وينادي: يـ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾[1].

فقال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: انطلق بنا إلى فاطمة، فإنَّا قد أغضبناها، فانطلقا جميعاً فأستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلَّماه، فأدخلهما عليها، فلمَّا قعدا عندها، حوَّلت وجهها إلى الحائط، فسلَّما عليها فلم تردّ عليهما السَّلام، فتكلَّم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله، والله إنَّ قرابة رسول الله أَحبُّ إليَّ من قرابتي، وإنَّك لأحبّ إليَّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك، أنِّي متُّ ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك، وأعرف فضلك، وشرفك، وأمنعك حقّك، وميراثك من رسول الله، إلَّا أنِّي سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول:

لا نورث ما تركنا فهو صدقة.

فقالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به؟

قالا: نعم.

فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبَّ فاطمة ابنتي فقد أحبَّني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟

قالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٠.

قالت: فإنِّي أشهد الله وملائكته، أنَّكما أسخطتماني، وما أرضيتماني، ولئن لقيت النَّبي لأشكونكما إليه.

فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثمَّ انتحب أبو بكر يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق وهي تقول:

والله لأدعون الله عليك في كُلِّ صلاةٍ أُصلِّيها، ثمَّ خرج باكياً، فاجتمع إليه الناس فقال لهم:

يبيت كُلُّ رجل منكم معانقاً حليلته، مسروراً بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي.

قال: فلم يبايع عليّ كرَّم الله وجهه، حتى ماتت فاطمة رضي الله عنهما، ولم تمكث بعد أبيها إلَّا خمسة وسبعين ليلة. انتهى.

أقول: إنَّه لما فقد النصير عليّ عليه السلام، خاف الفتنة بين المسلمين، فلم يسلّ سيفه قطّ، إلَّا مرَّة واحدة، على هؤلاء، عندما أرادوا أن ينبشوا قبر **فاطمة**، وسيأتي خبر ذلك.

هذا فالذي منع الإمام علي من سلّ سيفه، وقد اغتصب حقّه في الخلافة، وحقّ زوجه فاطمة في إرثها، هو أنَّه قد أسلم تحت سيفه ذي الفقار إلى الله، بدعوة النَّبي إلى الإسلام، أكثر من مائة ألف مسلم، سوى من قد صالح النَّبي على الجزية وعاهده.

وهؤلاء ممَّا لا ريب فيه، هم قبائل شتى متنافرة، يفرِّقُها الحقد والثارات، وما من قبيلة إلَّا وقد كلَمها سيف علي، فقد قتل شجعانها وصناديدها، فلهم قِبله ثارات، قد عُصبت برأسه بعد موت رسول الله.

هذا، وثمَّة جيش الروم، الذي لا ينقص عدده عن مائتي ألف مقاتل، يتربَّص بالإسلام والمسلمين الدوائر.

وأنت لو تتبعت شجاعة عليّ عليه السلام، وفروسيته وفدائه في حركة سيرة النَّبي، والتاريخ الإسلامي، قبل وفاة النَّبي وبعده، من مبيته في فراش النَّبي في مكَّة، وقد طلبته فرسان قريش لتقتله، فهاجر إلى يثرب، فأسس دولة الإسلام.

إلى معركة بدر، وقد قتل نصف من قُتل من المشركين.

إلى معركة أُحُد، وقد فرَّ هؤلاء في سفح جبل أُحُد، ولم يبق إلَّا عليّ.

إلى معركة الأحزاب، حيث عمرو بن عبد ودّ، وقد بلغت قلوب هؤلاء الحناجر بلسان القرآن، فقتله عليّ يوم قال النبي: «برز الإيمان كُلّه إلى الشِّرك كُلّه».

وقال صلى الله عليه وآله: «لضربة عليّ لعمرو بن عبد ود، تعدل عمل الثقلين إلى يوم القيامة».

ثمَّ معركة خيبر، وقد فرَّ هؤلاء أصحاب الخلافة في اليوم الأوَّل، وفي اليوم الثاني، فساء ذلك النَّبي فقال: غداً لأعطين الراية رجلاً، كرَّار غير فرَّار، يُحبُّ الله ورسوله، ويُحبُّه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ففتح خيبر بسيفه.

ويوم حنين، إذ ضاقت الأرض على المسلمين بما رحبت، وقد فرّوا وبقي عليّ يضرب الشِّرك والكفر بسيفه.

وغيرها من الحروب والغزوات قبل وفاة رسول الله.

ثمَّ إنَّه سأقصُّ عليك في كتابي هذا، ما كان من أمر عليّ بعد

رحيل رسول الله، من فتن وحروب، من حرب الجمل، وصفِّين، والنهروان.

وكيف كان أبو الحسن، يشقُّ بسيفه ذي الفقار، صفوف الجند، فيفتح شارعاً في الجيش، فيقتل ويهزم كُل عنيد جبَّار.

أخي المسلم، أو نظيري في الخلق، فأين هؤلاء من بطولة عليّ، وشجاعته، وسطوته، حتى يرفعوا صوتهم عليه، ويفرضوا عليه بيعتهم، وهو هو، وسيفه سيفه، وزئيره زئيره.

نعم وهو القائل: «فلأسالمنَّ ما سلمت أُمور المسلمين، ولو لم يكن بها جور إلَّا عليَّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه».

فلذلك بايع عليّ، وفي العين قذى، وفي الحلق شجى وهو يرى تراثه، وتراث فاطمة نهباً.

وبعد: فلو كان بكاء أبي بكر، بكاء خوف ورعب لغضبِ فاطمة، وقد علم أنَّ سخطها وغضبها عليه، يغضب الله ورسوله عليه، فلذلك يضجر ويتحرَّج، فالأمر سهل عليه، ولا عسرة فيه، فليدفع لها حقّها وإرثها، بدل أن يلين لها قولاً، مع شدَّة قسوتها وتوجدها، وهو يجود بدمعه الغزير، ثمَّ ينادي: أقيلوني بيعتي.

ولنصْغ لرسالة الجاحظ الخريِّت في هذا، فقد شرح وبيَّن، وأجاب عن هذا السؤال الملحاح، في رسائله «ص٣٠٠» قال: فإن قالوا: كيف تظنُّ به ظلمها والتعدِّي عليها، وكُلَّما ازدادت عليه غلظة، ازداد لها ليناً ورقَّة، حيث تقول له:

والله لا أُكلِّمك أبداً.

فيقول:

والله لا أهجركِ أبداً.

ثمَّ تقول:

والله لأدعونَّ الله عليك.

فيقول:

والله لأدعونَّ الله لكِ.

ثمَّ يتحمَّل منها هذا الكلام الغليظ، والقول الشديد في دار الخلافة، وبحضرة قريش والصحابة، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتنزيه، وما يجب لها من الرفعة والهيبة، ثمَّ لم يمنعه ذلك عن أن قال، معتذراً متقرباً، كلام المعظَّم لحقِّها، المُكبِر لمقامها، الصائن لوجهها، المتحنِّن عليها، ما أحد أعزّ عليَّ منك فقراً، ولا أحبُّ إليَّ منك غنى، ولكن سمعت رسول الله يقول:

إنَّا معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة؟؟

قيل لهم: ليس ذلك بدليل، على البراءة من الظلم، والسلامة من الجور، وقد يبلغ من مكر الظالم، ودهاء الماكر، إذا كان أريباً، وللخصومة معانداً، أن يظهر كلام المظلوم، وذلَّة المنتصف، وحدب الوامق، ومقْتِ المُحقّ. انتهى.

«وفي الجزء العاشر من البحار، عن أمالي الشيخ قال: اشتد المرض بسيِّدة نساء العالمين وثقلت، فجاءها العبَّاس بن عبد المطَّلب عائداً، فقيل له: إنَّها ثقيلة، وليس يدخل عليها أحد، فانصرف إلى داره، وأرسل إلى عليّ عليه السلام، فقال لرسوله: قل له يابن أخ، عمُّك يقرؤك السَّلام، ويقول لك: لله فقد فاجأني من

الغمِّ، بشكاة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقرّة عينه وعيني فاطمة ما هدَّني، وإنِّي لأظنها أولنا لحوقاً برسول الله صلى الله عليه وآله، يختار لها ويحبوها، ويزلفها لربِّه.

فإن كان من أمرها ما لا بُدَّ منه، فاجمع أنا لك الفداء، المهاجرين، والأنصار، حتى يصيبوا الأجر في حضورها، والصلاة عليها، وفي ذلك جمالٌ للدِّين.

فقال عليّ عليه السلام لرسوله: أبلغ عمِّي السَّلام وقل: لا عدمت إشفاقك وتحيتك، وقد عرفت مشُورتك ولرأيك فضله، إنَّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، لم تزل مظلومة، من حقِّها ممنوعة، وعن ميراثها مدفوعة، ولم تحفظ فيها وصية رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا رُعي فيها حقّه، ولا حقّ الله عزَّ وجلَّ، وكفى بالله حاكماً، ومن الظالمين مُنتقماً، وأنا أسألك ياعم، أن تسمح لي بترك ما أشرت به، فإنَّها وصتْني بستر أمرها.

فلمَّا بلَّغ الرسول، كلام عليّ إلى العبَّاس قال:

يغفر الله لابن أخي فإنَّه لمغفور له، إنَّ رأي ابن أخي لا يُطعن فيه، إنَّه لم يولد لعبد المطَّلب مولود أعظم بركة من عليّ إلَّا النبي صلى الله عليه وآله، إنَّ عليّاً لم يزل أسبقهم إلى كل مكرمة، وأعلمهم بكل فضيلة، وأشجعهم في الكريهة، وأشدهم جهاداً للأعداء في نصرة الحنيفية، وأوَّل من آمن بالله ورسوله.

قالوا: ورأت فاطمة أباها في المنام، وقد أنهكها ما قد ألمَّ بها، من فراق أبيها، وقسوة القوم، رأته في قصر من الدُّر

الأبيض، فلمَّا رآها قال ﷺ: هلمِّي إليَّ يا بنيَّة، فإنِّي إليكِ مشتاق.

فقالت: والله إنِّي لأشد شوقاً منك إلى لقائك.

فقال لها: أنت اللَّيلة عندي.

فانتبهت من نومها، وأيقنت بالرحيل، لقول أبيها رسول الله قال: «من رآني فقد رآني».

قالوا: ولما أحست بالفراق، آلمها فراق أطفالها: الحسن، والحسين، وزينب وأُمُّ كلثوم، وما سينزل بساحتهم من خطوب، ومثولات، فحنَّت، وأنَّت، وأخذت بيدها جنب الجدار، فنهضت تتوكأ وتمشي، حتى انتهت إلى الماء في بيتها، فجمعت أطفالها إليها، على هذه الحالة من الوجع، والألم الشديد، وشرعت تغسِل رؤوسهم بالماء والطين، وهي تُكلِّمهم بصوتٍ خافت حزين، وعيناها الغائرتان من الضعف، ترسل الدمع المشفع بالفراق الأخير، ودخل الإمام علي، فوجد أُمّ الحسن والحسين، قد تجافت عن فراش العلَّة والموت وهي تغسل رؤوس أطفاله، فرقَّ لها وسألها عن قيامها من الفراش.

فقالت: إنَّه الفراق، وقصَّت عليه الرؤيا، فأخذ بيدها إلى الفراش، وجلس إليها، فقالت له: يا ابن عم، إنَّه قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي، وإنَّني لا أرى ما بي، إلَّا أنَّني لاحقة بأبي عن قليل، وأنا أُوصيك يا علي بما في نفسي.

قال لها عليّ عليه السلام: أوصيني بما أحببتِ يا بنت رسول الله، فجلس عند رأسها، وأخرج من كان في البيت.

قالت: يابن عم، ما عهدتني كاذبة، ولا خائنة، ولا خالفتك منذ عاشرتني.

فقال عليّ عليه السلام: معاذا الله، أنت أعلم بالله، وأبرُّ وأتقى، وأكرم وأشدُّ، خوفاً من الله، من أن أُوبِّخك بمخالفتي، وقد عزَّ عليَّ مفارقتك وفقدكِ، إلَّا أنَّه أمرٌ لا بُدَّ منه، والله لقد جدَّدْتِ عليَّ مصيبة رسول الله، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فبكى عليّ، وبكت فاطمة، فأخذ برأسها، وضمَّها إلى صدره وقال:

أُوصني بما شئت، فإنَّك تجدينني وفيّاً، أمضي كل ما أمرتني به.

فقالت: جزاك الله عنِّي خير الجزاء يابن عم، أُوصيك أن لا يشهد أحد جنازتي من هؤلاء، الذين ظلموني، فإنَّهم عدوِّي، وعدوّ رسول الله، ولا يُصلِّ عليَّ أحدٌ منهم، ولا من أتباعهم، وادفني في اللَّيل، إذا هدأت العيون، ونامت الأبصار.

يابن عم: إذا قضيت نحبي، فغسِّلني ولا تكشف عنِّي، فإنِّي طاهرة مطهَّرة، وحنطني بفاضل حنوط أبي رسول الله صلى الله عليه وآله، وصلِّ عليَّ، وليُصلِّ معك الأدنى فالأدنى من أهل بيتي، وعفِّ قبري[١].

ثمَّ طلبت من أسماء بنت عميس، الحنوط الذي جاء به جبرئيل من الجنَّة، وقالت: يا أسماء ائتني ببقية حنوط والدي، من موضع كذا وكذا، فضعيه عند رأسي[٢].

روي عن عليّ عليه السلام أنَّه قال: كان في الوصية: أن يُدفع إليَّ

---

(١) روضة الواعظين.

(٢) البحار: ج١٠.

الحنوط، فدعاني رسول الله ﷺ قبل وفاته بقليل، فقال: يا علي، ويا فاطمة، هذا حنوطي من الجنَّة، دفعه إليَّ جبرئيل، وهو يقرئكما السَّلام، ويقول لكما: اقسماه واعزلا منه لي ولكما.

فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبتاه لك ثُلثه، وليكن الناظر في الباقي علي بن أبي طالب، فبكى رسول الله ﷺ وضمَّهما إليه وقال: موفقة رشيدة، مهدية مُلهمة، يا علي قل في الباقي قال: نصف ما بقي لها، والنصف الآخر لمن ترى يا رسول الله ﷺ.

قال: هو لك[1].

ثمَّ احتضرت بنت رسول الله، وانكشف الغطاء في النزع، فنظرت نظراً حادّاً، فقالت: السَّلام على جبرئيل، السَّلام على رسول الله، اللَّهمَّ مع رسولك، اللَّهمَّ في رضوانك، وجوارك، ودارك دار السَّلام.

ثمَّ قالت: أترون ما أرى؟

فقيل لها: ما ترين؟

قالت: هذه مواكب أهل السَّموات، وهذا جبرئيل، وهذا رسول الله يقول: يا بُنيَّة اقدمي، فما أمامك خيرٌ لك.

ثمَّ قالت: وعليك السَّلام يا قابض الأرواح، ففتحت عينيها، وفارقت الحياة، فشقَّت أسماء جيبها، ووقعت عليها تُقبِّلها، وهي تقول: يا فاطمة، إذا قدمتِ على أبيك رسول الله، فاقرأيه عن أسماء بنت عميس السَّلام.

---

(١) المستدرك في أحكام الكفن.

قالوا: ودخل الحسن والحسين، فوجدا أُمّهما مُسجَّاة، فقالا: يا أسماء، ما يُنيم أُمّنا في هذه الساعة؟

قالت: يا بُنيَّ رسول الله ليست أُمّكما نائمة، قد فارقت الحياة.

فألقى الحسن نفسه يُقبِّل رجلها ويقول: يا أُمَّاه كلميني، قبل أن تفارق روحي بدني، وكذلك الحسين يُقبِّل رجلها ويقول: يا أُمَّاه أنا الحسين كلميني، قبل أن يتصدع قلبي فأموت.

فقالت لهما أسماء: يا بُنيَّ رسول الله، انطلقا إلى أبيكما، فأخبراه بموت أُمّكما، فخرجا حتى إذا كانا قرب المسجد، رفعا صوتهما بالبكاء.

فابتدر إليهما جمع من الصحابة، وسألوهما عن بكائهما.

فقالا: أوليس قد ماتت أُمّنا فاطمة، فوقع الإمام علي على وجهه يقول: بمن العزاء يا بنت رسول الله؟ وأقبل إلى البيت.

ارتجَّت المدينة بالبكاء، من الرِّجال والنِّساء، ودهش الناس، كيوم قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وصاح أهل المدينة صيحة واحدة، واجتمعت نساء أهل المدينة في دار السيِّدة فاطمة، فرأينها مُسجَّاة في حجرتها، وحولها أيتامها، يبكون على أُمّهم، التي فقدوها في عنفوان شبابها، صرخت النِّساء، صرخة كادت المدينة أن تتزعزع من صراخهن، وهن يصحن: يا سيِّدتاه، يا بنت رسول الله[١].

وأقبل الناس مُسرعين، وازدحموا على باب البيت، وعلي

---

(١) المجالس السَّنية.

جالس، والحسن والحسين بين يديه يبكيان، فبكى الناس لبكائهما، وأقبل الشيخان إلى علي يعزِّيانه، ويقولان له: يا أبا الحسن لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول الله.

كان الناس ينتظرون خروج الجنازة، فأمر علي أبا ذر فنادى: انصرفوا، فإنَّ ابنة رسول الله، قد أُخّر إخراجها في هذه العشية، فتفرَّق الناس، وهم يظنون أنَّ الجنازة تُشيَّع صباح غدٍ، إذ أنَّ السيِّدة فاطمة الزَّهراء فارقت الحياة بعد صلاة العصر، أو أوائل اللَّيل[١].

قالوا: وقام علي، فوضع الجسد الطاهر على المغتسل، ولم يجردها من ثيابها، فإنَّها طاهرة مطهَّرة، واكتفى بصب الماء على البدن، كما صنع في تغسيل رسول الله ﷺ، وكانت أسماء بنت عُميس تناول عليّاً الماء، لتغسيل السيِّدة فاطمة عليها السلام.

يقول الإمام الحسن عليه السلام: غسَّلها ثلاثاً وخمساً، وجعل في الغسلة الأخيرة شيئاً من الكافور، وأشعرها مئْزراً سابغاً دون الكفن، وهو يقول: اللَّهمَّ إنَّها أمتك، وابنة رسولك، وصفيك، وخيرتك من خلقك، اللَّهمَّ لقِّنها حجَّتها، وأعظم برهانها، وأعلِ درجتها، واجمع بينها وبين أبيها محمَّد ﷺ[٢].

وبعد الفراغ من التغسيل، حملها ووضعها على أكفانها، ثمَّ نشفها بالبردة التي نشف بها رسول الله، وحنطها بثلثها، الباقي عن حنوط رسول الله[٣].

---

(١) البحار: ج١٠.

(٢) مستدرك الوسائل.

(٣) مستدرك الوسائل: باب تغسيل الميت.

كان يقول علي عليه السلام: فغسلتها في قميصها، ولم أكشفه عنها، فوالله لقد كانت ميمونة، طاهرة، مطهَّرة[١].

قالوا: وقبل أن يعقد عليها الكفن للوداع الأخير، نادى علي بصوتٍ حزين، وهو يبكي: يا حسن، يا حسين، يا زينب، يا أُمُّ كلثوم، هلموا وتزوَّدوا من أُمّكم، فهذا الفراق واللقاء في الجنَّة، فتقدموا وهم يبكون، فانكبوا عليها يُقبِّلونها، وهم يصيحون: يا أُمَّاه، يا أُمَّاه، فإذا هم قد غسلوا الكفن ببكائهم.

وهُنا أمر عظيم، معجز خارق للعادة، قد حدث بقدرة الله وإذنه.

يقول علي عليه السلام: أُشهد الله أنَّها حنَّت وأنَّت، وأخرجت يديها من الكفن، وضمَّتهما إلى صدرها ملياً، فسمع الإمام علي عليه السلام هاتف يقول: يا علي، ارفعهما، فلقد أبكيا ملائكة السَّموات، وقد اشتاق الحبيب إلى حبيبه، فرفعهما أبوهما، وعيناه تذرفان بالدمع.

هذا وقد حضر الأفراد، الذين قد أوصت الزَّهراء أن يصلّوا عليها، ويدفنوها مع علي في ظلمة اللَّيل.

وهم: سلمان، عمَّار بن ياسر، أبو ذر الغفاري، المقداد، حذيفة، عبد الله بن مسعود، العبَّاس بن عبد المطَّلب، الفضل بن العبَّاس، عقيل، الزبير، بريدة، ونفر من بني هاشم.

وتقدَّم علي، وصلَّى بهم على حبيبة رسول الله، قائلاً: اللَّهمَّ

---

(١) البحار: ج٤.

إنِّي راضٍ عن ابنة نبيّك، اللَّهمَّ إنَّها قد أُوحشت فآنسها، اللَّهمَّ إنَّها قد هُجرت فصِلها، اللَّهمَّ إنَّها قد ظُلمت فاحكم لها، وأنت خير الحاكمين[١].

ثمَّ تقدَّم علي، وسلمان، والعبَّاس، والفضل يحملون ذلك الجسد النحيف[٢].

ونزل علي عليه السلام إلى القبر، واستلم بضعة رسول الله، وأضجعها في لحدها، ووضع ذلك الخد، الذي طالما تعفَّر بين يدي الله في السُّجود، ذلك الخد الذي كان يُقبِّله رسول الله، في كل ليلة قبل أن ينام، وضع ذلك الخد على التُّراب، وقال:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، سلمتك أيتها الصدِّيقة، إلى من هو أولى بك منِّي، ورضيت لك بما رضي الله تعالى لك، ثمَّ قرأ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[٣][٤].

ثمَّ خرج من القبر، وقد أشْرج اللُّبن، وتقدَّم الحاضرون يهيلون التُّراب، على تلك الدُّرَّة النبوية، أشبه الناس خلقاً، وخُلقاً، ومنطقاً برسول الله محمَّد، التي قضت وهي مظلومة، متوجدة، غاضبة على من قد تجرأ على الله ورسوله، فاغتصب حقّها، وإرثها، وحقّ بعلها، زوراً وبهتاناً فإذا بها شهيدة الظلم والاضطهاد.

---

(١) خصال الصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام.
(٢) مستدرك الوسائل: باب الدفن.
(٣) سورة طه: ٥٥.
(٤) طبقات ابن سعد.

ها هي قد دفنت في ظلمة اللَّيل، فشق ذلك على علي، وعلى ولده، وعلى الطاهرين من أصحابه، ومن والاه في كل عصر تذكر فيه.

ثمَّ وقف الإمام على قبرها، وقال عليه السلام:

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ قَلَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي، بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ، أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ، الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ، وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ، هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا، سَلَامَ مُوَدِّعٍ لَا قَالٍ، وَلَا سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ، بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ[1].

وقال يرثي فاطمة، أُمّ الحسن والحسين عليهم السلام:

نَفْسِي عَلَى زَفَرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ   يَا لَيْتَهَا خَرَجَتْ مَعَ الزَّفَرَاتِ
لَا خَيْرَ بَعْدَكِ فِي الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا   أَبْكِي مَخَافَةَ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

وقال عليه السلام:

أَرَى عِلَلَ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَثِيرَةً   وَصَاحِبُهَا حَتَّى الْمَمَاتِ عَلِيلُ

(١) نهج البلاغة: ص٤٣٤.

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ وَإِنَّ بَقَائِي عِنْدَكُمْ لَقَلِيلُ
وَإِنَّ افْتِقَادِي فَاطِماً بَعْدَ أَحْمَدٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا يَدُومَ خَلِيل

وقال: وقد وقف على القبر مُسلِّماً:

مَا لِي وَقَفْتُ عَلَى الْقُبُورِ مُسَلِّماً قَبْرَ الْحَبِيبِ فَلَمْ يَرُدَّ جَوَابِي
أَحَبِيبُ مَا لَكَ لَا تَرُدُّ جَوَابَنَا أَنَسِيتَ بَعْدِي خُلَّةَ الْأَحْبَاب

قالوا: واستيقظ الناس في مدينة النبي الحزينة، على فراق فاطمة وأبيها رسول الله، بعد ليلٍ حزينٍ ألمَّ بعلي وبنيه، والطاهرين من أصحاب رسول الله ﷺ، فوجدوا أنَّ قد دُفنت بنت رسول الله في اللَّيل سرّاً، فساءهم ذلك، إذ لم يشهدوا تشييعها، والصلاة عليها ودفنها، ففريق حزن يطلب الأجر والثواب، وآخر غضب لزعامته، وسلطانه المزعوم، فمراسيم التشييع للزهراء، والصلاة عليها يجب أن يكون خاضعاً لسطوته ووجوده، فأمر الخليفة ووزيره، وقد ضجَّ الناس إذ لم يشيِّعوا الزَّهراء، أن يُنْبَشَ القبر ويُصلِّي عليها الخليفة من جديد، ثمَّ تُشيَّع وتُدفن ثانية، فذهبوا إلى البقيع يبحثون عن قبر فاطمة، وكان الإمام علي قد أخفى قبرها، بقبورٍ حفرها، فمكرتْ بهم وتنكرتْ لهم.

قالوا: وأُخبر حيدرة الكرَّار، أنَّ رجال السلطة في البقيع، تريد نبش قبر فاطمة، فغضب غضب الحرب من جديد، بعد إغماد سيفه وصبره، فلبس قباءه الأصفر، وكان يعرف به في الحروب الطاحنة، ثمَّ سلَّ ذا الفقار، وهرول إلى البقيع، فوجد القوم فقال: ماذا تريدون.

قال أشدّهُم: نريد نبش القبر ولنُصلينَّ عليها، فأخذه علي بيده، فهزَّه ودفعه في الأرض، وقال له: يا ابن السوداء، أمَّا حقِّي فقد تركته، مخافة أن يرتدَّ الناس عن دينهم.

وأمَّا قبر فاطمة: فوالذي نفس علي بيده: لئن نبشتم منه حجراً واحداً، لأسقين الأرض من دمائكم.

فنظر بعضهم إلى بعض، ثمَّ انصرفوا وهم يعلمون، فلاح سيفه وسطوته في الحرب، وأن لا طاقة لهم بهِ، هكذا كان يا أخي.

هذا، وقد اختُلف في تاريخ وفاتها عليها السلام.

فاليعقوبي، يروي أنَّها قد تُوفيت بعد أبيها، بثلاثين أو خمسة وثلاثين يوماً.

وفي صحيح البخاري: ستة أشهر.

وقالوا: أربعون يوماً.

وقيل: خمسة وسبعون يوماً[١].

وعن أهل البيت عليهم السلام: ففي دلائل الإمامة للطبري الإمامي: أنَّها قُبضت في جمادى الآخرة يوم الثلاثاء، لثلاث خلون منه سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وفي العاشر من البحار عن جابر بن عبد الله قال: قُبض النبي ولها يومئذٍ ثمانية عشرة سنة وسبعة أشهر، هذا والله أعلم.

أقول: إنَّ لفاطمة، أُمّ الحسن والحسين، زوج علي حبيبة رسول الله، حقّاً كبيراً عظيماً، قد ادّخره الله، ليومٍ تشخص فيه

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ج١، ص٣١.

الأبصار، يوم يجمع الله فيه الفراعنة الجبابرة، ذلك اليوم الفصل، يوم يعضُّ الظالم على يديه، يوم لا تقبل معذرتهم، شاخصة أبصارهم، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء، هنالك الولاية لله الحقّ، فكيف بهؤلاء وبسقيفتهم، التي اغتصبت حق علي، وفدك فاطمة، وأسَّست لسُمِّ الحسن، وقتل الحسين، وأهل بيته، وأصحابه في كربلاء، الجهاد والشهادة على يد معاوية، وولده يزيد طلقاء فتح مكَّة، والشجرة الملعونة في القرآن؟

وكيف بهم جميعاً في قيامتهم وحشرهم، إذا كانت الضحية آل محمَّد، والخصم محمَّد، والحكم الله، والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً.

وكيف بهؤلاء، وماذا يفعل هؤلاء، الذين أسَّسوا لظلم البشرية، من تجويع، وسفكٍ للدماء، وهتك، وتشريدٍ إلى يومنا هذا، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وأقصُّ عليك ممَّا رواه المؤرخون، عن النبي والأئمَّة الأطهار عليهم السلام، في حقِّ فاطمة، وشفاعتها يوم القيامة، فقد روى الحاكم النيسابوري، في المستدرك: ج٣، ص١٥٣، بإسناده عن علي عليه السلام قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ من وراء الحجاب: يا أهل الجمع، غضُّوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمَّد حتى تمرّ».

(١) سورة يس: ١٢.

ورواه ابن الأثير في أسد الغابة: ج٥، ص٥٢٣؛ والكنْجي الشافعي في كفاية الطالب: ص٢١٢؛ والذهبي في ميزان الاعتدال: ج٢، ص١٨؛ والهمداني في مودة القربى: ص١٠٤، مع زيادةٍ قال: عن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ من بطنان العرش: يا أهل القيامة غضُوا أبصاركم، لتجوز فاطمة بنت محمَّد، مع قميص مخضَّب بدم الحسين، فتحتوي على ساق العرش فتقول: أنت الجبَّار العدل، اقضي بيني وبين من قتل ولدي، فيقضي الله بسُنَّتي وربُّ الكعبة، ثمَّ تقول: اللَّهمَّ شفِّعني فيمن بكى على مُصيبته، فيشفِّعها الله فيهم».

ومنهم الذَّرنْدي في نظم درر السمطين، والمتقي في كنز العمَّال: ج١٣ ص٩٣؛ والهيثمي في مجمع الزوائد: ج٦، ص٢١٢؛ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمَّة: ص٢١٧؛ وابن أبي الحديد في شرح النهج؛ وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان: ج٣، ص٢٣٧؛ والسيوطي في الخصائص: ج٢، ص٢٦٥؛ والكناني المصري في تنزيه الشريعة المرفوعة؛ والنبهاني في الفتح الكبير وجواهر البحار؛ والشافعي في المناقب؛ والملَّا علي القاري في جمع الوسائل؛ والقندوزي في ينابيع المودة؛ والشبراوي في الإتحاف بحب الأشراف؛ والشبلنجي في نور الأبصار.

ويروي هذا الحديث عن أبي هريرة: كُلٌّ من أبي نعيم في دلائل النُّبوَّة، وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة، ويروي هذا الحديث عن أبي أيُّوب الأنصاري كُلٌّ من: الخوارزمي في

مقتل الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: ينادي منادٍ من بطنان العرش: يا أهل الجمع، نكِّسوا رؤوسكم، وغضُّوا أبصاركم، حتى تجوز فاطمة بنت محمَّد على الصِّراط قال: فتمرُّ ومعها سبعون ألف جارية، من الحور العين، كالبرق اللَّامع.

ورواه القرماني في أخبار الدول، والطبري في ذخائر العقبى، وابن الصبَّاغ في الفصول المهمَّة، والصفوري في نزهة المجالس، ويروى هذا الحديث عن ابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعن جابر بن عبد الله، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: حدَّثني أبي، عن جدِّي، عن رسول الله ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة، تُنصب للأنبياء والرُّسل منابر من نور، فيكون منبري أعلى منابرهم يوم القيامة، ثم يقول الله تعالى: أُخطب فأخطب، بخطبة لم يسمع أحد من الأنبياء والرُّسل بمثلها.

ثمَّ ينصب للأوصياء منابر من نور، وينصب لوصيِّي عليّ بن أبي طالب، في أواسطهم منبر، فيكون منبره أعلى من منابرهم، ثمَّ يقول الله تعالى:

يا علي اخطب فيخطب، بخطبة لم يسمع أحد من الأوصياء بمثلها، ثمَّ ينصب لأولاد الأنبياء والمرسلين منابر من نور، فيكون لابنيَّ وسبطيَّ منبر من نور، ثمَّ يُقال لهما: اخطبا فيخطبان بخطبتين، لم يسمع أحد من أولاد الأنبياء والمرسلين بمثلها.

ثمَّ ينادي المُنادي، وهو جبرئيل عليه السلام: أين فاطمة بنت محمَّد؟ فتقوم.

فيقول الله تعالى: يا أهل الجمع، لمن الكرم اليوم؟

فيقول محمَّد وعلي والحسن والحسين عليهم السلام: لله الواحد القهَّار.

فيقول الله تعالى: يا أهل الجمع، إنِّي قد جعلت الكرم لمحمَّد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين.

يا أهل الجمع: طأطئوا الرؤوس، وغضُّوا الأبصار، فإنَّ هذه فاطمة تسير إلى الجنَّة، فيأتيها جبرئيل بناقة من نوق الجنَّة، خطامها من اللؤلؤ الرطب، عليها رحل من المرجان، فتُناخ بين يديها، فتركبها، فيبعث الله مائة ألف، ليسيروا عن يمينها، ويبعث إليها مائة ألف ملك، ليسيروا عن يسارها، ويبعث إليها مائة ألف ملك، يحملونها على أجنحتهم، حتى يُصيِّرُوها على باب الجنَّة، فإذا صارت عند باب الجنَّة، تلتفت فيقول الله تعالى: يا بنت حبيبي ما التفاتك، وقد أمرت بكِ إلى جنَّتي؟

فتقول: يا ربِّ، أحببت أن يعرف قدري في مثل هذا اليوم.

فيقول الله تعالى: يا بنت حبيبي، ارجعي فانظري من كان في قلبه حبٌّ لكِ، أو لأحدٍ من ذرِّيَّتك، خذي بيده فأدخليه الجنَّة.

قال أبو جعفر عليه السلام: والله يا جابر إنَّها ذلك اليوم، لتلتقط شيعتها ومحبِّيها، كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء، فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنَّة، يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا، فإذا التفتوا يقول الله تعالى:

يا أحبَّائي ما التفاتكم، وقد شفَّعتُ فيكم فاطمة بنت حبيبي.

فيقولون: يا ربِّ أحببنا أن يعرف قدرنا، في مثل هذا اليوم.

فيقول الله تعالى: يا أحبَّائي ارجعوا وانظروا من أحبّكم لحبِّ فاطمة.

انظروا: من أطعمكم لحبِّ فاطمة.

انظروا: من كساكم لحبِّ فاطمة.

انظروا: من سقاكم شربة في حبِّ فاطمة.

انظروا: من ردَّ عنكم غيبة في حبِّ فاطمة، فخذوا بيده، وأدخلوه الجنَّة[١].

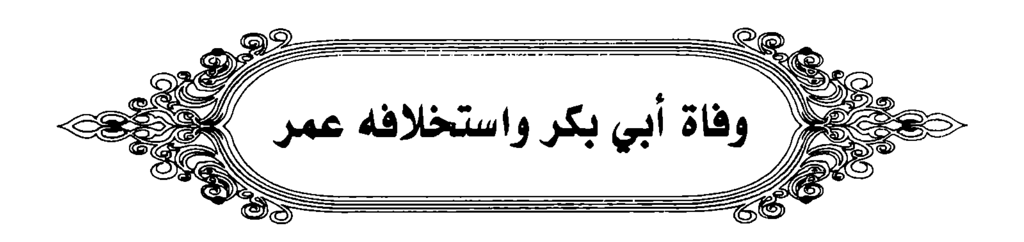
اللَّهمَّ صلِّي على محمَّد وآلِ محمَّد.

اللَّهمَّ ارزقنا شفاعة محمَّد وآلِ محمَّد:

برحمتك يا أرحم الرَّاحمين، والحمد لله ربّ العالمين.



(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٥١.



تحدَّثنا فيما سبق، عن استخلاف أبي بكر وخلافته، والآن نقصُّ عليك، خبر علّته التي توفي فيها، وعمَّا قد لام نفسه، فيما كان قد فعله أثناء خلافته، ثمَّ استخلافه عمر، وعن موته ودفنه.

وإليك، فاقرأ ماقد ذكره فحول المؤرخين.

قال الأندلسي في العقد الفريد: (ج٥، ص١٦)، عن الليث بن سعد، عن الزهري قال:

أُهديَ لأبي بكر طعام، وعنده الحارث بن كلدة، فأكلا منه، فقال الحارث: أكلنا سُمّ سنة، وإنِّي وإيَّاك لميتان عند رأس الحول، فماتا جميعاً في يوم واحد عند انقضاء السنة، وإنَّما سمَّته يهود، كما سمَّت النبي بخيبر في ذراع الشاة، فلمَّا حضرت النَّبي صلى الله عليه وآله الوفاة قال: ما زالت أكلة خيبر تعاودني، حتى قطعت أبهري.

وهذا مثل ما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1]، والأبهر والوتين: عرقان في القلب، إذا انقطع أحدهما مات صاحبه.

ويروي ابن عبد ربّه في العقد الفريد، عن الزهري، عن

---

(١) سورة الحَاقَّة: ٤٦.

عروة، عن عائشة، قالت: اغتسل أبو بكر يوم الاثنين، لسبع خلون من جمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً، فحُمَّ خمسة عشر يوماً، لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر أن يُصلِّي بالناس، وتوفي ليلة الثلاثاء، لثمان بقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة من التاريخ، وغسَّلته امرأته أسماء بنت عميس، وصلَّى عليه عمر بن الخطاب، بين القبر والمنبر، وكبَّر أربعاً.

وعن العقد الفريد أيضاً: عن الزهري، عن سعيد بن المسيب قال: لما توفي أبو بكر، أقامت عليه عائشة النوح، فبلغ ذلك عمر، فنهاهن، فأبين، فقال لهشام بن الوليد: أخرج إليَّ بنت أبي قحافة.

فأخرج إليه أُمّ فروة، فعلاها بالدرَّة ضرباً، فتفرَّق النوائح:

وقالت عائشة، وأبوها يغمض «رضي الله عنه».

وأبيض يُسْتسْقَى الغمام بوجههِ ربيع اليتامى عِصمةٌ للأرامل

قالت عائشة: فنظر إليَّ وقال: ذلك رسول الله ﷺ، ثم أُغمي عليه فقالت:

لعمرك ما يُغْني الثَّراء عن الفتى إذ حشْرجت يوماً وضاق بها الصدْرُ

فنظر إليَّ كالغضبان وقال: قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[١].

ثمَّ قال: انظروا ملاءتين خلقين، فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإنَّ الحي أحوج إلى الجديد من الميِّت.

العقد الفريد: عن عروة بن الزبير، والقاسم بن محمَّد قالا:

---

(١) سورة قّ: ١٩.

أوصى أبو بكر عائشة، أن يُدفن إلى جنب رسول الله ﷺ، فلمَّا توفي حُفر له وجُعل رأسه بين كتفي رسول الله، ورأس عمر عند حِقويَّ أبي بكر، وبقي في البيت موضع قبر، فلمَّا حضرت الوفاة الحسن بن علي، أوصى بأن يُدفن مع جدّه في ذلك الموضع، فلمَّا أراد بنو هاشم أن يحفروا له، منعهم مروان وهو والي المدينة أيَّام معاوية، فقال أبو هريرة: علام تمنعه أن يُدفن مع جدّه؟ فأشهد لقد سمعت رسول الله يقول: الحسن والحسين، سيِّدا شباب أهل الجنَّة.

قال له مروان: لقد ضيَّع الله حديث رسول الله، إذ لم يروْهِ غيرك.

قال: أنا والله لقد قلت ذلك، لقد صحبته، حتى عرفت من أحبَّ، ومن أبغض، ومن نفى، ومن أقرَّ، ومن دعا له، ومن دعا عليه.

قال: وسطح قبر أبي بكر كما سطح قبر النَّبي ﷺ، ورُشَّ بالماء.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أنَّ أبا بكر صُلِّي عليه ليلاً، ودفن ليلاً.

ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، ولها مات النبي وعاش أبو قحافة، بعد أبي بكر أشهراً وأيَّاماً، ووهب نصيبه في ميراثه لولد أبي بكر.

وكان نقش خاتم أبي بكر: «نعم القادر الله».

ويُضيف الأندلسي في عقده قال: عن القاسم بن محمَّد، عن عائشة أُمّ المؤمنين، أنَّها دخلت على أبيها في مرضه الذي تُوفي فيه، فقالت: يا أبت، أعهد إليَّ خاصَّتك، وأنفذ رأيك في عامتك، وانقل من دار جهازك، إلى دار مُقامك، إنَّك محضور،

ومنصلٌ بي لوعتك، وأرى تخاذل أطرافك، وانتقاع لونك، فإلى الله تعزيتي عنك، ولديه ثواب حزني عليك، أرقأ فلا أرقأ، وأشكو فلا أُشكَى.

قال: فرفع رأسه وقال:

يا أُمه هذا يوم يُخلَّى لي عن غطائي، وأُشاهد جزائي، إن فرحاً فدائم، وإن ترحاً فمُقيم، إنِّي اضلعْت بإمامة هؤلاء القوم، حين كان النكوص إضاعة، والخزل تفريطاً فشهيدي الله ما كان بقلبي إلَّا إيَّاه، فتعلَّقت بصحفتهم، وتعلَّلت بدرَّة لقحتهم، وأقمت صِلايَ معهم، لا مختالاً أشراً، ولا مكاثراً بطراً، ولم أعْدُ سدَّ الجوعة، ورِوْيَ العورة، وقواته القِوام من طوْي معطفي، تهفو منه الأحشاء، وتجفُّ له الأمعاء، واضطررت إلى ذلك، اضطرار الجرضِ إلى الماء المعين الآجن، فإذا أنا مت، فردِّي إليهم صفحتهم وعبدهم، ولقْحتهم ورحاهم، ودثارةَ ما فوقي، اتقيت بها البرد، ودثارةَ ما تحتي، اتقيت بها الأرض، كان حشوها قطع السعف.

قال: ودخل عليه عمر فقال: يا خليفة رسول الله، لقد كلَّفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً، فهيهات من شقّ غبارك، فكيف اللحاق بك.

ويضيف في العقد الفريد: عن عبد الرَّحمن بن عوف، عن أبي بكر أنَّه قال: إنِّي لا آسي على شيء من الدُّنيا، إلَّا على ثلاث فعلتهن، ووددت أنِّي تركتهن، وثلاث تركتهن ووددت أنِّي فعلتهن، وثلاث وددت أنِّي سألت رسول الله ﷺ عنهن.

فأمَّا الثلاث التي فعلتهن ووددت أنِّي تركتهن:

فوددت أنِّي لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا أغلقوه على الحرب.

ووددت أنِّي لم أكن حرَّقت الفجاءة السلمي وأنِّي قتلته سريعاً، أو خليته نجيحاً.

ووددت أنَّ يوم سقيفة بني ساعدة، قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين، فكان أحدهما أميراً، وكنت له وزيراً.

يعني بالرجلين: عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح.

وأمَّا الثلاثة التي تركتهنَّ، ووددت أنِّي فعلتهن:

فوددت أنِّي يوم أُتيت بالأشعث بن قيس أسيراً، ضربت عنقه، فإنَّه يخيل إليَّ أنَّه لا يرى شراً إلَّا أعان عليه.

ووددت أنِّي يوم سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردَّة، أقمتُ بذي القصة، «اسم موضع»، فإن ظفر المسلمون ظفروا، وإن انهزموا، كنت بصدد لقاءٍ، أو مدد.

ووددت أنِّي وجَّهت خالد بن الوليد إلى الشام، ووجَّهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فأكون قد بسطتُ يديَّ كلتيهما في سبيل الله.

وأمَّا الثلاثة، التي وددت أنِّي سألت رسول الله ﷺ عنهنَّ:

فإنِّي وددت أنِّي سألته لمن هذا الأمر من بعده، فلا ينازعه أحد، وإنِّي سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ فلا يظلموا نصيبهم منه.

ووددت أنِّي سألته عن بنت الأخ والعمة، فإنَّ في نفسي منهما شيئاً.

أقول: أوليس كان أبو بكر، هو أوَّل من دخل خيمة عليّ بن أبي طالب، التي قد نصبها رسول الله، يوم التبليغ، في غدير خُم حيث قال: فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

فدخل وسلَّم على عليّ بإمرة المؤمنين، ثمَّ تلاه عمر بن الخطاب، فدخل وسلَّم على عليّ وقال: بخٍ بخٍ لك يا علي، أصبحت والله مولاي، ومولى كُلّ مؤمن ومؤمنة.

يقول أبو بكر الصدِّيق: ووددت أنِّي سألته لمن هذا الأمر من بعده، فلا ينازعه أحد.

أولم يكن حاضراً يوم تبوك، وقد قال: رسول الله ﷺ: يا علي، أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبي بعدي.

بلا والله، لقد سمعوها ووعوها، ولكن حليت الدُّنيا بأعينهم، وراقهم زبرجها.

وروى المسعودي في مروج الذهب: ج٢ ص٣٢٩ قال: ولما بويع أبو بكر في يوم السقيفة، وجُدِّدت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة، خرج عليّ فقال: أفسدت علينا أُمورنا ولم تستشر، ولم ترع لنا حقّاً.

فقال أبو بكر: بلى، ولكنِّي خشيت الفتنة.

قال: وكان أبو بكر «رضي الله عنه»، قد سمَّته اليهود في شيءٍ من الطعام، وأكل معه الحارث بن كلدة فعمي، وكان السُّمّ لسنة، ومرض أبو بكر قبل وفاته بخمسة عشر يوماً.

ولمَّا احتضر قال: ما آسي على شيءٍ إلَّا على ثلاث فعلتها، وودت أنِّي تركتها، وثلاث تركتها وودت أنِّي فعلتها، وثلاث وددت أنِّي سألت رسول الله ﷺ عنها.

فأمَّا الثلاث التي وددت أنِّي تركتها: فوددت أنِّي لم أكن فتَّشت بيت فاطمة، وذكر في ذلك كلاماً كثيراً.

ووددت أنِّي لم أكن قد حرقت الفجاءة، وأطلقته نجياً، أو قتلته صريحاً.

ووددت أنِّي يوم سقيفة بني ساعدة، قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين، فكان أميراً، وكنت وزيراً.

والثلاثة التي تركتها ووددت أنِّي فعلتها.

وددت أنِّي يوم أُتيت بالأشعث بن قيس أسيراً، ضربت عنقه، فإنَّه قد يخيَّل لي أنَّه لا يرى شرّاً إلَّا أعانه.

ووددت أنِّي كنت قد قذفت المشرق بعمر بن الخطاب، فكنت قد بسطتُ يميني وشمالي في سبيل الله.

ووددت أنِّي يوم جهزت جيش الردَّة ورجعت، أقمت مكاني، فإن سلم المسلمون سلموا، وإن كان غير ذلك، كنت صدر اللقاء أو مدداً، وكان أبو بكر، قد بلغ مع الجيش إلى مرحلة من المدينة، وهو الموضع المعروف بذي القصة.

والثلاث التي وددت أنِّي سألت رسول الله ﷺ عنها: وددت أنِّي كنت سألته، في من هذا الأمر، فلا ينازع الأمر أهله.

ووددت أنِّي سألته عن ميراث العمَّة، وبنت الأخ، فإنَّ بنفسي منهما حاجة.

ووددت أنّي سألته: هل للأنصار في هذا الأمر نصيب، فنعطيهم إيَّاه.

أقول: فلو أنَّك نظرْتَ في هذه الثلاثة المثلثة، في ندم أبي بكر في خلافته، التي لا تزيد على السنتين وبضعة أشهر، وهو يقول «رضي الله عنه»: ليتني فعلت كذا، وليتني لم أفعل كذا، وعن عدم علمه بميراث بنت الأخ والعمَّة، وقابلته بقول النبي ﷺ: أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها.

ثمَّ ولو أنَّك نظرْتَ في إحراقه الفجاءة في النار، ورسول الله قد قال: لا يُعذِّب بالنار إلَّا خالق النار.

لرأيت من أمر الخلافة، والاستخلاف، والاستخفاف، عجباً عجباً، فعليّ يقول: سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السَّموات أعلم منِّي بطرق الأرض. فتباً لغفلة المسلمين عن علي جهلاً وحقداً نكير سيفه وجهاده الحق.

عن ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ج١ ص٥٣٧، قال: ثمَّ دخل عليه أُناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا خليفة رسول الله، ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟

فقال: قد نظر إليَّ.

قالوا: فماذا قال؟

قال: إنِّي فعّال لما أريد.

ثمَّ قال لهم: انظروا ماذا أنفقت من بيت المال، فنظروا فإذا هو ثمانية آلاف درهم، فأوصى أهله أن يؤدّوها إلى الخليفة بعده.

ثمَّ دعا عثمان بن عفَّان فقال: أُكتب عهدي، فكتب عثمان، وأملى عليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة، آخر عهده في الدُّنيا نازحاً عنها، وأوَّل عهده بالآخرة داخلاً فيها: إنِّي استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم فذلك ظنِّي به ورجائي فيه، وإن بدَّل وغيَّر، فالخير أردت، ولا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

ثمَّ ختم الكتاب ودفعه، فدخل عليه المهاجرون والأنصار، حين بلغهم أنَّه استخلف عمر فقالوا:

نراك استخلفت علينا عمر، وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا، وأنت بين أظهرنا، فكيف إذا ولَّيْتَ عنَّا، وأنت لاقِ الله عزَّ وجلَّ، فسائلك فما أنت قائل؟

فقال أبو بكر: لئن سألني الله لأقولنَّ:

استخلفت عليهم خيرهم في نفسي.

قال: ثمَّ أمر أن تجتمع له الناس، فاجتمعوا فقال:

أيُّها الناس، قد حضرني من قضاء الله ما ترون، وإنَّه لا بُدَّ لكم من رجل، يلي أمركم، ويُصلِّي بكم، ويُقاتل عدوِّكم، فيأمركم فإن شئتم، اجتهدت لكم رأيي، ووالله الذي لا إله إلَّا هو، لا آلوكم في نفسي خيراً، قال: فبكى وبكى الناس، وقالوا:

---

(١) سورة الشُّعَرَاء: ٢٢٧.

يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا، فاختر لنا.

قال: سأجتهد لكم رأيي، وأختار لكم خيركم، إن شاء الله قال:

فخرجوا من عنده، ثمَّ أرسل إلى عمر فقال:

يا عمر أَحبَّك مُحب، وأبغضك مُبغض، وقديماً يُحبّ الشرّ، ويبغض الخير.

فقال عمر: لا حاجة لي بها.

فقال أبو بكر: لكن بها إليك حاجة، والله ما حبوتك بها، ولكن حبوتها بك ثمَّ قال:

خذ هذا الكتاب، واخرج به إلى الناس، وأخبرهم أنَّه عهدي، وسلهم عن سمعهم وطاعتهم، فخرج عمر بالكتاب، وأعلمهم فقالوا: سمعاً وطاعة.

فقال له رجل:

ما في الكتاب يا أبا حفص؟

قال: لا أدري، ولكنِّي أوَّل من سمع وأطاع.

قال: لكنِّي والله أدري ما فيه أمَّرتهُ عام أوَّل وأمَّرك العام.

أقول: فكيف للخليفة أبي بكر «رضي الله عنه»، أن يخاف وهو حريص على أُمَّة محمَّد، أن تضيع بعده فتعصف بها الأهواء، وتمزِّقها الفتن، إن لم يكن عليها خليفة وراع بعده، يُنْظم أمرها، ويضبط حركتها، أفكان هو أحرص من رسول الله، على أُمَّة رسول الله فيوصي، ويعين، ويختار من يشاء، بغير شورى بين المسلمين، فكان هو أولى بالوصية منه، فأوصى لعمر.

أم أنزل الله عليه: يا أيُّها الخليفة لرسول الله، بلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك، وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته.

الجواب عليه: هو ما قاله عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»، قال: وقد قيل له: يا أمير المؤمنين استخلف علينا.

قال: والله لا أحملكم حياً وميتاً ثمَّ قال:

إن استخْلفت فقد استخلف من هو خير منِّي، يعني أبا بكر، وإن أدع، فقد ودع من هو خير منِّي، يعني النَّبي صلى الله عليه وآله، وفيه من التناقض والهدم، ما هو واضح الاستغراب، والدلالة للمتتبع البصير، المستقرىء لسيرة النَّبي صلى الله عليه وآله.

وروى الطبري في تاريخه: ج٢، ص٦١٨، قال: قال الواقدي، حدَّثني إبراهيم بن أبي النَّضر، عن محمَّد بن إبراهيم بن الحارث قال:

دعا أبو بكر عثمان خالياً، فقال له: أُكتب:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم»

هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين.

أمَّا بعد، قال: ثمَّ أُغمي عليه، فذهب عنه.

فكتب عثمان: أمَّا بعد، فإنِّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً منه، ثمَّ أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليَّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر وقال: أراك خفتَ أن يختلف الناس، إن افُتلتتْ نفسي في غشيتي.

قال: نعم.

قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرَّها أبو بكر «رضي الله تعالى عنه» من هذا الموضع.

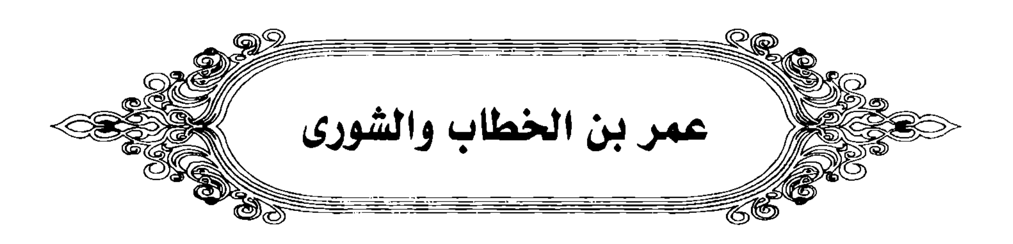
قال ورُوي عن ابن حميد قال: حدَّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن القاسم بن محمَّد، عن أسماء ابنة عميس قالت: دخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر، فقال: استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه، وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت لاقٍ ربّك، فسائلك عن رعيَّتك.

قال أبو بكر وكان مُضطجعاً: أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة: أبالله تخوِّفُني إذا لقيت الله ربِّي فسائلني.

قلت: استخلفْت على أهلك خير أهلك.

هكذا كان يا أخي، نعوذ بالله من مُضلَّات الفتن، ما ظهر منها وما بطن، آمين يا ربّ العالمين.





عمر بن الخطاب والشورى

كان عمر بن الخطاب، رجلاً صلباً، عازماً، حازماً، حاسماً، شخصية متماسكة، قد فتح البلدان، ومصّر الأمصار، ودوَّن الدواوين، وكان يستشير عليّ بن أبي طالب في كثير من عزْمه وسيْره، فيشير عليه عليٌّ ويصدقه النصيحة، مُنبسطاً، غير مُتردِّد في حفظ الإسلام والمسلمين.

عن المسعودي في مروج الذهب: (ج٢، ص٣٣٤) قال: هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رياح بن عبد الله بن رزاح بن عدي بن كعب.

وفي كعب يجتمع نسبه مع نسب النَّبي صلى الله عليه وآله، وأُمّه حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكانت سوداء.

ويضيف المسعودي فيقول: وكان متواضعاً، خشن الملبس، شديد في ذات الله، واتبعه عمَّاله، في سائر أفعاله، وشيمه وأخلاقه، كُلٌّ يتشبَّه به ممَّن غاب أو حضر، وكان يلبس الجبَّة الصوف، المرقَّعة بالأديم وغيره، ويشتمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفه، مع هيبة قد رزقها، وكان ركابه الإبل، ورحله مشدودة بالليف، وكذلك عمَّاله، مع ما فتح الله عليهم من البلاد، وأوسعهم من الأموال انتهى.

في نهج البلاغة: (ج٢، ص٢٩٤) قال: استشار عمر بن الخطاب علياً في الشخوص لقتال الفرس بنفسه، فقال له علي عليه السلام:

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعِدٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ، وَمَكَانُ الْقَيِّمِ، بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً، وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالِاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غداً يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

انتهى.

روى المؤرخ الطبري، في كتابه تاريخ الأُمم والملوك: ج٢، ص٢٦٣ عن مقتل عمر قال:

خرج عمر بن الخطاب يوماً، يطوف في الأسواق، فلقيه أبو لؤلؤة، غلام المغيرة بن شعبة، وكان نصرانياً، فقال: يا أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شعبة، فإنَّ عليَّ خراجاً كثيراً.

قال: وكم خراجك.

قال: درهمان في كل يوم.

قال: وإيش صناعتك.

قال: نجَّار نقَّاش حدَّاد.

قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنَّك تقول: لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت.

قال: نعم.

قال: فاعمل لي رحى قال:

لئن سلمْتُ لأعملن لك رحى، يتحدَّث بها من بالمشرق والمغرب، ثمَّ انصرف عنه.

فقال عمر «رضي الله عنه»: لقد توعدني العبد آنفاً.

قال: ثمَّ انصرف عمر إلى منزله، فلمَّا كان من الغد، جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين إعهد، فإنَّك ميِّت في ثلاثة أيَّام.

قال: وما يُدريك.

قال: أجده في كتاب الله عزَّ وجلَّ التوراة.

قال عمر: آلله إنَّك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة.

قال: اللَّهم، لا، ولكنِّي أجد صفتك وحليتك، وإنَّه قد فنى أجلك.

قال: وعمر لا يحس وجعاً وألماً.

فلمَّا كان من الغد، جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم، وبقي يومان.

قال: ثمَّ جاءه من غدِ الغدِ فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبيحتها.

قال: فلمَّا كان الصبح، خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكل بالصفوف رجالاً، فإذا استوت جاء هو فكبَّر قال:

ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له رأسان، نصابه في وسطه، فضرب عمر ستّ ضربات، إحداهن تحت سرته، وهي التي قتلته، وقُتل معه كُليب بن أبي البكري الليثي، وكان خلْفه.

فلمَّا وجد عمر حرِّ السلاح سقط وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟

قالوا: نعم يا أمير المؤمنين هو ذا.

قال: تقدَّم فصلِّ بالناس.

قال: فصلَّى عبد الرحمن بن عوف، وعمر طريح، ثم احتمل فأُدخل داره، فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال: إنِّي أُريد أن أعهد إليك.

فقال: يا أمير المؤمنين نعم إن أشرت عليَّ قبلت منك.

قال: وما تريد.

قال: أُنشدك الله أتشير عليَّ بذلك.

قال: اللَّهم لا.

قال: والله لا أدخل فيه أبداً.

قال: فهب لي صمتاً، حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو عنهم راض. أُدع لي عليّاً، وعثمان، والزبير، وسعداً قال: وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً، فإن جاء وإلَّا فاقضوا أمركم.

أُنشدك الله يا عليّ: إن وليت من أُمور الناس شيئاً، أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس.

أُنشدك الله يا عثمان: إن وليت من أُمور الناس شيئاً، أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس.

أُنشدك الله يا سعد: إن وليت من أُمور الناس شيئاً، أن تحمل أقاربك على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا، ثمَّ اقضوا أمركم، وليُصلِّ بالناس صهيب، ثمَّ دعا أبا طلحة الأنصاري فقال:

قُم على بابهم فلا تدع أحداً يدخل إليهم، وأوص الخليفة من بعدي بالأنصار، الذين تبؤوا الدار والإيمان، أن يُحسن إلى مُحسنهم، وأن يعفوا عن مسيئهم، وأوص الخليفة من بعدي بالعرب، فإنَّها مادة الإسلام، أن يؤخذ من صدقاتهم حقّها، فتوضع في فقرائهم، وأوص الخليفة من بعدي بذمَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، أن يوفي لهم بعهدهم.

اللَّهمَّ هل بلغت، تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة.

ثمَّ قال: يا عبد الله بن عمر، أخرج فانظر من قتلني.

فقال: يا أمير المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة.

قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيَّتي بيد رجل، سجد لله سجدة واحدة.

يا عبد الله بن عمر، إذهب إلى عائشة، فسلها أن تأذن لي أن أُدفن مع النَّبي ﷺ وأبي بكر.

يا عبد الله بن عمر إن اختلف القوم، فكن مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة، فاتبع الحزب الذي فيه عبد الرَّحمن.

يا عبد الله إئذن للناس، قال:

فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار، فيسلمون عليه ويقول لهم: أعن ملاء منكم كان هذا.

فيقولون: معاذا الله.

قال: ودخل في الناس كعب، فلمَّا نظر إليه عمر، أنشأ يقول:

وما بي حذار الموتِ إنِّي لميِّتٌ ولا شكَّ أنَّ القول ما قال لي كعبُ

فقيل له: لو دعوت الطبيب.

قال: فدعي طبيب من بني الحارث ابن كعب، فسقاه نبيذاً، فخرج مشكلاً قال: فاسقوه لبناً.

قال: فخرج اللَّبن أبيض.

فقيل له: «يا أمير المؤمنين» إعهد.

قال: قد فرغت.

قال: ثمَّ توفي ليلة الأربعاء، لثلاث ليال بقين من ذي الحجَّة، سنة ٢٣ قال:

فخرجوا به بكرة يوم الأربعاء، فدفن في بيت عائشة مع النَّبي ﷺ، وأبي بكر، وتقدَّم صهيب فصلَّى عليه.

وقد قيل: إنَّ وفاته، كانت في غرة المحرم سنة ٢٤.

ويضيف الطبري: عن راوي الحديث قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ولدت قبل الفجار الأعظم الآخر، بأربع سنين.

قال: وقتل ابن خمس وخمسين سنة.

وقيل: أقل من ذلك.

وقيل: أكثر، والله أعلم.

الطبري يتحدَّث عن الشورى قال: ج٣ ص٢٩٢: أنَّ عمر بن الخطاب لما طُعن، قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت.

قال: من أستخلف، لو كان أبو عبيدة ابن الجراح حياً استخلفته، فإن سألني ربِّي قلت: سمعت نبيّك يقول: إنَّه أمين هذه الأُمَّة.

ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، فإن سألني ربِّي قلت سمعت نبيّك يقول: إنَّ سالماً شديد الحب لله.

فقال له رجل: أدلك عليه عبد الله بن عمر.

فقال: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا.

ويحك كيف أستخلف رجلاً، عجز عن طلاق امرأته، لا أرب لنا في أُموركم ما حمدتها، فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شرّاً فشرٌ عنَّا إلى عمر،

بحسب آل عمر، أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أُمَّة محمَّد، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً، لا وزر، ولا أجر، إنِّي لسعيد، وانظر فإن استخلفتُ، فقد استخلف من هو خير منِّي، وإن أترك فقد ترك من هو خير منِّي، ولن يضيع الله دينه، فخرجوا ثمَّ راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهداً.

فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر، فأُولي رجلاً أمركم هو أحراكم، أن يحملكم على الحق، وأشار إلى علي، ورهقتني غشية، فرأيت رجلاً دخل جنَّة قد غرسها، فجعل يقطف كل غضَّة ويانعة، فيضمه إليه، ويصيره تحته، فعلمت أنَّ الله غالب أمره، ومتوفٍّ عمر، فما أُريد أن أتحملها حياً وميِّتاً، عليكم هؤلاء الرهط، الذين قال رسول الله ﷺ: إنَّهم من أهل الجنَّة: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله، ولكن الستة: علي، وعثمان، ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن، وسعد خالا رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ، وابن عمته، وطلحة الخير ابن عبيد الله، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوا ولياً، فأحْسنوا مؤازرته، وأعينوه، إن ائتمن أحداً منكم، فليُؤدِّ إليه أمانته، وخرجوا.

فقال العبَّاس لعلي: لا تدخل معهم.

قال: أكره الخلاف.

قال: إذاً ترى ما تكره.

فلمَّا أصبح عمر، دعا عليّاً، وعثمان، وسعداً، وعبد الرحمن بن

عوف، والزبير بن العوام فقال: إنّي نظرت، فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلّا وإن مضت الأيّام الثلاثة قبل قدومه، فاقضوا أمركم، ومن لي بطلحة.

فقال سعد بن أبي وقّاص: أنا لك به، ولا يخالف إن شاء الله.

فقال عمر: أرجو أن لا يخالف إن شاء الله، وما أظن أن يلي، إلّا أحد هذين الرجلين: علي، أو عثمان.

وإن ولي عثمان: فرجل فيه لين.

وإن ولي علي: ففيه دعابة، وأحر به أن يحملهم على طريق الحقّ.

وإن تولوا سعداً: فأهلها هو، وإلّا فليستعن به الوالي، فإنّي لم أعزله عن خيانة، ولا ضعف.

ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف، مدد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه، وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إنَّ الله عزَّ وجلَّ طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط، حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت، حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال لصهيب: صلِّ بالناس ثلاثة أيّام، وأدخل عليّاً، وعثمان، والزبير، وسعداً، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر، ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة، ورضوا رجلاً، وأبى واحد، فاشدخ

رأسه، أو أضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة، فرضوا رجلاً منهم، وأبى اثنان، فاضرب رأسيْهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكِّموا عبد الله بن عمر.

فأيُّ الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين، إن رغبوا عمَّا اجتمع عليه الناس، فخرجوا.

فقال علي لقوم كانوا معه من بني هاشم: إن أُطيع فيكم قومكم، لم تؤمروا أبداً، وتلقاه العبَّاس فقال: عدلت عنَّا.

فقال: وما علمك.

قال: قرن بي عثمان وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون، فيوليها عبد الرحمن عثمان، أو يوليها عثمان عبد الرحمن.

فلو كان الآخران معي، لم ينفعاني، بل إنِّي لأرجو إلَّا أحدهما.

فقال له العبَّاس: لم أرفعك في شيء، إلَّا رجعت إليَّ مُستأخراً بما أكره، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ، أن تسأله فيمن هذا الأمر، فأبيت، وأشرت عليك بعد وفاته، أن تعاجل الأمر فأبيت، وأشرت عليك، حين سماك عمر في الشورى، أن لا تدخل معهم فأبيت، احفظ عنِّي واحدة، كُلَّما

عرض عليك القوم، فقل لا إلَّا أن يولوك، واحْذر هؤلاء الرهط، فإنَّهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر، حتى يقوم لنا به غيرنا، وأيم الله لا يناله إلَّا بشرّ، لا ينفع معه خير.

فقال علي: أما لئن بقي عثمان، لأذكرنه ما أتى، ولئن مات ليتداولنها بينهم، ولئن فعلوا ليجدُنِّي حيث يكرهون، ثم تمثَّل:

حلفت بربِّ الراقصات عشيةً غدون خفافاً فابتدرن المُحصَّبا
ليختلين رهط ابن يعْمُر مارئاً نجيعاً بنو الشدَّاخ ورداً مصلَّبا

والتفت، فرأى أبا طلحة، فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لم ترع أبا الحسن.

فلمَّا مات عمر، وأُخرجت جنازته، تصدى عليّ، وعثمان أيُّهما يُصلِّي عليه.

فقال عبد الرحمن: كلاكما يُحبُّ الإمرة، لستما من هذا في شيء، هذا إلى صهيب استخلفه عمر يُصلِّي بالناس ثلاثاً، حتى يجتمع الناس على إمام، فصلَّى عليه صهيب، فلمَّا دفن عمر، جمع المقداد أهل الشورى، في بيت المسور بن مخرمة، ويُقال: في بيت المال، ويُقال: في حجرة عائشة بإذنها، وهم خمسة، معهم ابن عمر، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم، وجاء عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما، وقال: تريدان أن تقولا حضرنا، وكنَّا في أهل الشورى، فتنافس القوم في الأمر، وكثر بينهم الكلام.

فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها، أخوف منِّي لأن

تنافسوها، لا والذي ذهب بنفس عمر، لا أزيدكم على الأيَّام الثلاثة التي أمرتكم، ثمَّ أجلس في بيتي، فأنظر ما تصنعون.

فقال عبد الرحمن: أيُّكم يُخرج منها نفسه، ويتقلَّدها على أن يولِّيها أفضلكم، فلم يجبه أحد.

فقال: فأنا أنخلع منها.

فقال عثمان: أنا أوَّل من رضي.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يصفَك بأنَّك أمين في الأرض أمين في السَّماء.

فقال القوم: قد رضينا، وعلي ساكت.

فقال: ما تقول يا أبا الحسن.

قال: أعطني موثقاً، لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخصُّ ذا رحم، ولا تألو الأُمَّة.

فقال: أعطوني مواثيقكم، على أن تكونوا معي، على من بدَّل وغيَّر، وأن ترضوا من اخترت لكم، على ميثاق الله، أن لا أخصّ ذا رحم لرحمه، ولا آلوا المسلمين، فأخذ منهم ميثاقاً، وأعطاهم مثله.

فقال لعلي: إنَّك تقول، أحقّ من حضر الأمر، لقرابتك وسابقتك، وحسن أثرك في الدِّين، ولم تبعد، ولكن، أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر.

قال: عثمان، وخلا بعثمان فقال: تقول شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله ﷺ، لي سابقة وفضل لم تبعد، فلم

يصرف هذا الأمر عنِّي، ولكن لو لم تحضر، فأيّ هؤلاء الرهط تراه أحق به؟

قال علي: ثم خلا بالزبير، فكلَّمه بمثل ما كلَّم به عليّاً وعثمان.

فقال عثمان: ثمَّ خلا بسعد، فكلَّمه.

فقال عثمان: فلقي علي سعداً فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

أسألك برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ، وبرحم عمِّي حمزة منك، أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً عليَّ، فإنِّي أُدلي بما لا يُدلي به عثمان، ودار عبد الرحمن لياليه، يلقى أصحاب رسول الله ﷺ، ومن وافى المدينة، من أُمراء الأجناد، وأشراف الناس، يشاورهم، ولا يخلو برجل، إلَّا أمره بعثمان، حتى إذا كانت اللَّيلة، التي يستكمل فيها صبيحتها الأجل، أتى منزل المسور بن مخرمة، بعد ابهيرارٍ من اللَّيل، فأيقظه، فقال: ألا أراك نائماً، ولم أذق في هذه اللَّيلة كثير غمض، انطلق فادع الزبير، وسعداً، فدعاهما، فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد، في الصُّفَّة التي تلي دار مروان، فقال له: خل ابني عبد مناف وهذا الأمر.

قال: نصيبي لعلي.

وقال لسعد: أنا وأنت كلالة، فاجعل نصيبك لي فأختار.

---

(١) سورة النِّساء: ١.

قال: إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت عثمان فعلي أحبُّ إليَّ، أيُّها الرجل بايع لنفسك، وأرحنا وارفع رؤوسنا.

قال: يا أبا إسحاق، إنِّي قد خلعت نفسي منها، عليَّ أن أختار، ولو لم أفعل، وجُعل الخيار إليَّ لم أُردها، إنِّي أُريت كروضة خضراء، كثيرة العشب، فدخل فحل، فلم أرَ فحلاً: قطّ أكرم منه، فمرَّ كأنَّه سهم، لا يلتفت إلى شيء، ممَّا في الروضة حتى قطعها لم يُعرِّج، ودخل بعير يتلوه، فاتبع أثره، حتى خرج من الروضة، ثمَّ دخل فحل عبقري، يجرُّ خطامه، يلتفت يميناً وشمالاً، ويمضي، قصد الأولين حتى خرج، ثمَّ دخل بعير رابع، فرتع في الروضة، ولا والله لا أكون الرابع، ولا يقوم مقام أبي بكر، وعمر بعدهما أحد، فيرضى الناس عنه.

قال سعد: فإنِّي أخاف أن يكون الضعف قد أدركك، فامض لرأيك، فقد عرفت عهد عمر، وانصرف الزبير وسعد، وأرسل المسور بن مخرمة إلى عليٍّ، فناجاه طويلاً، وهو لا يشكّ أنَّه صاحب الأمر، ثم نهض، وأرسل المسور إلى عثمان، فكان في نجيهما، حتى فرَّق بينهما أذان الصبح.

فلمَّا صلّوا الصبح، جمع الرهط، وبعث إلى من حضره من المهاجرين، وأهل السابقة والفضل من الأنصار، وإلى أُمراء الأجناد، فاجتمعوا، حتى التجَّ المسجد بأهله، فقال: أيُّها الناس، إنَّ الناس، قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم، وقد علموا من أميرهم.

فقال سعيد بن زيد: إن نراك لها أهلاً.

فقال: أشيروا عليَّ بغير هذا.

فقال عمَّار: إن أردت أن لا يختلف المسلمون، فبايع علياً.

فقال المقداد بن الأسود: صدق عمَّار، إن بايعت عليّاً.

قلنا: سمعنا وأطعنا.

قال ابن أبي سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش، فبايع عثمان.

فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدق، إن بايعت عثمان، قلنا: سمعنا وأطعنا، فشتم عمَّارُ ابن أبي سرح، وقال: متى كنت تنصح المسلمين، فتكلَّم بنو هاشم وبنو أُميَّة، فقال عمَّار: أيُّها الناس، إنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرمنا بنبيّه، وأعزَّنا بدينه، فأنَّى تَصْرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم.

فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك، يابن سُمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها.

فقال سعد بن أبي وقَّاص: يا عبد الرحمن، أفرغ قبل أن يُفتن الناس.

فقال عبد الرحمن: إنِّي قد نظرت وشاورت، فلا تجعلُنَّ أيُّها الرهط على أنفسكم سبيلاً، ودعا عليّاً فقال: عليك عهد الله وميثاقه، لتعملن بكتاب الله وسُنَّة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده.

قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي.

ودعا عثمان فقال له، مثل ما قال لعلي.

قال: نعم فبايعه.

فقال عليّ: حبوته حبو دهر، ليس هذا أوّل يوم، تظاهرتم فيه علينا، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

والله ما ولّيت عثمان، إلّا ليرد الأمر إليك، واللَّهُ كل يوم هو في شأن.

فقال عبد الرحمن يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً، فإنِّي قد نظرت وشاورت الناس، فإذا هم لا يعدلون بعثمان.

فخرج عليٌّ، وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله.

فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدت للمسلمين.

قال: إن كنت أردت بذلك الله، فأثابك الله ثواب المحسنين.

فقال المقداد: ما رأيت مثل ما أُوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم، إنِّي لأعجب من قريش، أنَّهم تركوا رجلاً ما أقول أنَّ أحداً أعلم، ولا أقضى منه بالعدل، أما والله لو أجد عليه أعواناً.

فقال عبد الرحمن: يا مقداد، اتق الله، فإنِّي خائف عليك الفتنة.

فقال رجل للمقداد: رحمك الله مَنْ أهل هذا البيت، ومن هذا الرجل قال: أهل البيت بنو عبد المطَّلب، والرجل علي بن أبي طالب، وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان، فقيل له: بايع عثمان.

---

(١) سورة يُوسُف: ١٨.

فقال: أكُل قريش راضٍ به.

قال: نعم.

فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك، إن أبيت رددتها.

قال: أتردها.

قال: نعم.

قال: أكُل الناس بايعوك.

قال: نعم.

قال: قد رضيت، لا أرغب عمَّا قد أجمعوا عليه وبايعه.

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن: يا أبا محمَّد، قد أصبت إذ بايعت عثمان.

وقال لعثمان: لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا.

فقال عبد الرحمن: كذبت يا أعور، لو بايعتُ غيره لبايعته، ولقلت هذه المقالة.

وقال الفرزدق:

صلَّى صهيبٌ ثلاثاً ثمَّ أرسلها ... على ابن عفَّان ملكاً غير مقصورِ

خلافةً من أبي بكر لصاحبِهِ ... كانوا أخلَّاءَ مهديٍّ ومأمورِ

روى لنا المسعودي في مروج الذهب قال ج٣ ص١٧: لمَّا حجَّ معاوية، طاف بالبيت ومعه سعد بن عبادة الأنصاري، فلمَّا فرغ، انصرف معاوية إلى دار الندوة، فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في عليٍّ، وشرع في سبِّه، فزحف سعد ثم قال:

أجلستني معك على سريرك، ثمَّ شرعت في سبِّ علي، والله لأن يكون فيَّ خصلة واحدة، من خصالٍ كانت لعلي، أحبُّ إليَّ من أن يكون لي، ما طلعت عليه الشَّمس، والله لأن أكون صهراً لرسول الله ﷺ، وأنَّ لي من الولد ما لعلي، أحبُّ إليَّ من أن يكون لي، ما طلعت عليه الشَّمس.

والله، لأن يكون رسول الله ﷺ، قال لي ما قاله يوم خيبر: لأعطين الراية غداً، رجلاً يُحبُّه الله ورسوله، ويُحبُّ الله ورسوله، ليس بفرَّار، يفتح الله على يديه، أحبُّ إليَّ، من أن يكون لي، ما طلعت عليه الشَّمس.

والله، لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي، ما قال له في غزوة تبوك: ألا ترضى أن تكون منِّي، بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبي بعدي، أحبُّ إليَّ، من أن يكون لي، ما طلعت عليه الشَّمس، وأيم الله، لا دخلت لك داراً ما بقيت، ثمَّ نهض.

قال: فلمَّا نهض ليقوم، ضرط له معاوية وقال له: اقعد حتى تسمع جواب ما قلت، ما كنت عندي قطُّ ألأم منك الآن.

فهلَّا نصرته، ولم قعدت عن بيعته؟

فإنِّي لو سمعت من النَّبي ﷺ، مثل الذي سمعت فيه، لكنت خادماً لعلي ما عشت.

فقال سعد: والله، إنِّي لأحق بموضعك منك.

فقال معاوية: يأبى عليك ذلك بنو عذرة، وكان سعد فيما يُقال لرجل من بني عذرة.

قال: وفي ذلك، يقول السيِّد ابن محمَّد الحميري:

سَائِلْ قُرَيْشاً بِهَا إنْ كُنْتَ ذَا عَمَهٍ مَنْ كَانَ أثبْتَها في الدِّينِ أوتَادَا
مَنْ كَانَ أقْدَمَها سلْماً وَأكْثَرها علْماً وَأطْهَرَهَا أهْلاً وَأوْلَادَا
مَنْ وَحَّدَ اللَّه إذْ كَانَتْ مُكَذِّبَةً تَدعُو مَعَ اللَّهِ أوْثَاناً وأنْدَادَا
مَنْ كَانَ يُقْدِمُ فِي الهَيْجَاءِ إنْ نَكَلُوا عَنْهَا وَإنْ بخِلُوا فِي أزْمةٍ جَادَا
مَنْ كَانَ أعْدلَهَا حُكْماً وأقْسطَهَا حِلْماً وأصْدَقَهَا وَعْداً وإيعَادَا
إنْ يَصْدِقُوكَ فَلَمْ يَعْدُوا أبَا حَسَنٍ إنْ أنْتَ لَمْ تَلْقَ للأبْرارِ حُسَّادَا
إنْ أنْتَ لم تَلْقَ مِنْ تِيْمٍ أخَا صَلَفٍ وَمِنْ عُدَيٍّ لحَقِّ اللَّه جُحَّادَا
أوْ من بنِي عامرٍ أوْ من بني أسدٍ رهط العبيدِ ذَوِي جهْلٍ وَأوْغَادَا
أوْ رَهْطِ سعْدٍ وسعْدٌ كَانَ قَدْ علمُوا عَنْ مُستَقِيم صِرَاطِ اللَّه صَدَّادَا
قَوْمُ تَدَاعُوا زَنِيماً ثُمَّ سَادهُمُ لَوْلَا خُمُولُ بَنِي زُهْرٍ لمَا سَادَا

أقول: لقد قال عمر بن الخطاب، لولده عبد الله في الشورى، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة، فاتبع الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف.

فإن عارض الباقون هذا الأمر، فاضربوا أعناقهم.

بهذا القرار، قد حسم أمر الشورى عمر، لزعامة عثمان بن عفَّان، على أُمَّة رسول الله محمَّد.

فأين الشورى وحرية الرأي للإسلام والمسلمين، نعم لقد دُبِّر القرار في الخفاء وقُدِرْ.

وبعد: فلو قد قرأت سيرة عبد الرحمن، وعثمان بن عفَّان، وسيرة الصحابة كافة، من المهد إلى اللحد، بدقةٍ، وتجرُّد، غير مُتحزِّبٍ، ولا جاحد، لحصحص لك الحق، أنَّ علمهم جميعاً، لا يساوي جزءاً قليلاً، من علم علي، وأنَّ جهادهم جميعاً، لا يزن

عند الله، موقفاً من جهاد عليّ بن أبي طالب، في سبيل الله، وحفظ الإسلام والمسلمين.

فهذه مصادر التاريخ لسُنَّة النبي بين يديك، إن أنت قد فرقْت بين الصحيح الصريح، وبين ما قد زُوِّر، ولُفِّق تحت حدِّ السيف، ورشوة الحاكمين، طلباً للزعامة والحكم، أو طمساً لدين محمَّد، وثأراً من سيف علي، لمَا كان قد قتل، ومزَّق من صناديدهم، وفرسانهم في حروب النبي مع قريش، في كفرها، وشركها المتغطرس الغليظ، فلا ريب ولا مراء فيه.

واعلم، وأنت تعلم: أنَّ عمر بن الخطاب، كان قد أبرم في نفسه، مُبْرماتٍ ثلاث، خرج بها من القوَّة إلى الفعل، في مواطن ثلاث، فكانت الطامة الكبرى على الإسلام والمسلمين، بل وعلى الناس كافة، في كُلِّ زمان ومكان.

الموطن الأوَّل: حيث سقيفة بني ساعدة، فخلافة أبي بكر عبد الله بن عثمان.

الموطن الثاني: كانت تلك الشورى، وما أدراك ما تلك الشورى، فكانت خلافة عثمان بن عفَّان، التي قد خضعت في إدارتها لمروان بن الحكم، وبني معيط يفعلون، ويعبثون فيها ما يشاؤون، ولا حرج أو رقيب.

الموطن الثالث: وهو الأخطر، من السقيفة والشورى، على الأُمَّة والرِّسالة وذلك.

إنَّ عمر بن الخطاب، كان قد ولَّى على الشام معاوية بن أبي سفيان، ذلك الرجل الداهية، القادر على سياسة السلم والحرب،

وهو يعلم أنَّه وأباه، هم أشدّ الناس عداوة لمحمَّد وأهل بيته، والأحرص في العزيمة، والإعداد لدفن دين محمَّد صلى الله عليه وآله، وإبادة من اعتنقه، واهتدى بهديه.

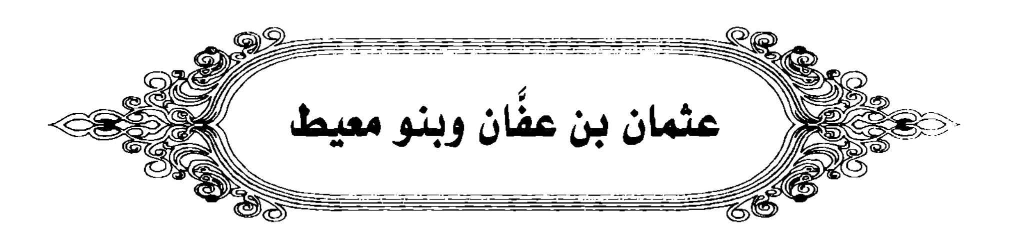
هذا: وما كان لمعاوية، أن يغفل عن إعدادهِ للجيش الشامي الكبير، في ظلِّ هذه الولاية التي أُسديت إليه، وقد أصبح وأمسى، المال والاقتصاد في عهدته وقبضته، فراغ يفيض بالرشوة والمال، على قادة الأجناد، وعلى أشراف الناس، وأُمراء القبائل من بيت مال المسلمين.

وفي ظلِّ هذا المكر والدهاء، قام يضرب المدبِّر عنه بالمقبل عليه، في نباهة ويقظة، فهو الرَّواغة الأرق.

لقد قام يُنظِّم ويُعدُّ لنفسه، وهو يطمع أن يصول ويجول، لينتزع سلطان محمَّدٍ من مالكه، وبعدها يفعل ما يشاء، بدينه وأُمَّته.

هذا: وقد قام يسهر بعينٍ، على ما قد أعده ويعده، وصرف الأُخرى تُراقب حركة الخلافة، والخليفة في الحجاز يتربَّص بها الدوائر.

وبعد: فهذا الذي سبَّب حرب الجمل، وصفِّين، والنهروان، ومهَّد لقتل علي، وسمَّ الحسن، وقتل الحسين في معركة كربلاء، ومزَّق الإسلام والمسلمين كُلّ ممزَّق.



وما أن تقمَّص عثمان بن عفَّان الخلافة، وتقلَّد مقاليد الحكم، وأخذ بزمام الناس وحُجْزتهم، طفق ينزع من بيت مال المسلمين، حصصاً وفيرةً مضاعفة، ويرمي بها بني معيط، تحت ستار السِّر، مرفقة بالمحاباة، مرسلة بالتخصيص والتمييز، والله يعلم ما يسرّون وما يعلنون.

لقد بسط يده بالبذخ والرخاء، على بني أبيه كُلَّ البسط، ثمَّ مال يرشي ساسة الناس، الحوّل القلَّب، أهل الختلِ والغدر، مُوسعاً مُغدقاً، غير مُتحرج، أو مُقتد، بشيخيه السابقين.

فبنيت في ظلِّ خلافته، الدور الواسعة، واقتطعت الضيع، والعقارات، مُرقَّعة، موثَّقة، موقَّعة، ثابتة السند، بيد مالكها العزيز الحميم.

هذا: فقفاه، وحذا حذوه عمَّاله، في الأمصار والبلدان، باذخة، مُسرفة، مفرطة، فلا حساب ولا قصاص.

فجاع الفقراء، بتخمة الأغنياء، وتبيَّغ بهم فقرهم، واشتدت عليهم فاقتهم، لما طغى الحاكم في الميزان، وتجافى القسط، والعدل، ومُنع النَّصفُ، وسيم الناس الخسف، ورفع الحد والقصاص عن الخاصة، وطبق في العامة، من الشعب فقط.

فهذا والي أمير المؤمنين على الكوفة، الوليد بن أبي معيط، قد شرب الخمر حتى الفجر، فدخل المسجد ثملاً في سكره، فصلَّى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات، فالتفت إلى من خلفه فقال: أفأزيدكم؟

قالوا: لا، فنزع بعض المصلين خاتمه من يده في حالته تلك، ومضى به شهود عدول، إلى عثمان بن عفَّان، يشكونه، ويطلبون إقالته، وإقامة الحد عليه، فلم يقبل شهادتهم فيه، ولم يعزله، حتى أصرَّ عليه الصحابة، فجيء به فجلده علي بن أبي طالب، بعد أن ألبسه أمير المؤمنين عثمان جبَّة الخلافة، لئلَّا يجلده أحد من الناس، حياء من جبَّته تلك.

هذا: ورسول الله قال: والله فلو أنَّ فاطمة بنت محمَّد سرقت، لأقمت عليها الحد، ولقطعت يدها.

إذاً، فلا هوادة في الحد، والقصاص في الإسلام، فالسيِّد والمسود فيه سواء، وهو خاضع لصدق حكم الفقهاء، مُنزه عن الجهل والأهواء.

ولما ظهر الحيف، وغار العدل، في خير أُمَّة أُخرجت للناس، ثار المظلوم على الحاكم، من قريب ومن بعيد، بغضب شديد عنيد، فهم ينكرون عليه حكمه وخلافته، فممَّن أنكر عليه فعله، أبو ذر الغفاري، فردَّ إنكاره عثمان، ونفاه من دار هجرته، وجوار قبر نبيّه، إلى الشام، ومن الشام إلى المدينة، ثمَّ إلى الربذة، نفياً بعد نفي، في تعذيب وتشريد، فمات وحيداً، غريباً في الربذة، وهو يشكو ما نزل به إلى الله.

هذا، ولم يرع قول النبي فيه، قال: «ما أقلت الغبراء، ولا أظلَّت الخضراء، أصدق ذي لهجةٍ من أبي ذر».

وممَّن أنكر عليه عمَّار، فأخذه وأمر بجلده، فجُلد حتى أشرف على الموت، وقد فُتق تحت سرَّته.

هذا، وهو على علم بما قال رسول الله في عمَّار، وأبويه ياسر وسمية، أوَّل شهيدين في الإسلام، يوم مرَّ بهم وهم يُعذَّبون، تحت سياط قريش، مطرَّحين على رمضاء مكَّة، تحت الشَّمس في الصحراء، قال ﷺ: «صبراً آل ياسر، فإنَّ موعدكم الجنَّة.

ولنصغ لقول المؤرخين، في حكم عثمان وخلافته في مروج الذهب للمسعودي قال ج٢ ص٣٦٦: هو عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، أُمّه أروى بنت كريز بن جابر بن حبيب بن عبد شمس.

وقال عن عبد الله بن عتبة: إنَّ عثمان يوم قتل، كان له عند خازنه من المال: خمسون ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم.

وقيمة ضياعه، بوادي القرى وحنين وغيرهما، مائة ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلاً.

قال: وفي أيَّام عثمان، اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور، منهم الزبير بن العوام: بنى داره بالبصرة، وابتنى أيضاً دوراً بمصر، والكوفة، والإسكندرية.

قال: وبلغ مال الزبير بعد وفاته، خمسين ألف دينار، وخلَّف الزبير ألف فرس، وألف عبد وأمة.

قال: وكذلك طلحة بن عُبيد الله التميمي: ابتنى داره بالكوفة، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار.

وقيل: أكثر من ذلك، وشيَّد داره بالمدينة، وبناها بالآجر، والجص، والسَّاج.

قال: وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري: ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله، أربعة وثمانين ألفاً.

قال: وابتنى سعد بن أبي وقَّاص داره بالعقيق، فرفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شرفات.

قال: وخلَّف زيد بن ثابت حين مات، من الذهب والفضة، ما كان يُكسَّر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال، والضياع، بقيمة مائة ألف دينار.

قال: وابتنى المقداد داره بالمدينة، في الموضع المعروف بالجرف، على أميال من المدينة، وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصَّصة الظاهر والباطن.

قال: ومات يعلى بن مُنية، وخلف خمسمائة ألف دينار، وديوناً على الناس، وعقارات وغير ذلك من التركة، ما قيمته ثلثمائة ألف دينار.

قال: وهذا باب يتسع ذكره، ويكثر وصفه، في من تملك من الأموال في أيَّامه.

قال: وقدم على عثمان، عمّه الحكم بن أبي العاص، وابنه مروان، وغيرهما من بني أُميَّة، والحكم هو طريد رسول الله ﷺ، الذي غربه عن المدينة، ونفاه عن جواره.

وكان عمَّاله جماعة: منهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط على الكوفة، وهو ممَّن أخبر النبي ﷺ، أنَّه من أهل النار، وعبد الله بن أبي سرح على مصر.

ومعاوية بن أبي سفيان على الشام.

وعبد الله بن عامر على البصرة، وصرف عن الكوفة الوليد بن عقبة، وولَّاها سعيد بن العاص.

والسبب: أنَّ الوليد بن عقبة، كان يشرب مع ندمائه ومغنيه، من أوَّل اللَّيل إلى الصباح، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة، خرج مُتفضِّلاً في غلائله، فتقدَّم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلَّى بهم أربعاً، وقال: أتريدون أن أزيدكم؟

وقيل: أنَّه قال في سجوده: إشرب، واسقني.

وخطب الناس الوليد، فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنح، ويتمثَّل بأبياتٍ من الطويل:

ولست بعيداً عن مدام وقينةٍ ولا بصفا صلدٍ عن الخير مُعزلِ
ولكنِّي أروي من الخمر هامتي وأمشي الملا بالساحبِ المتسلسلِ

وقال الحطيئة من الكامل:

شهدَ الحطيئةُ يوم يلقى ربَّهُ أنَّ الوليد أحقُّ بالعذرِ

نادى وقد تمَّت صلاتهم أأزيدكم ثملاً وما يدري
ليزيدهم أُخرى ولو قبلوا لقرنت بين الشفعِ والوترِ
حبسوا عِنانك في الصلاة ولو خلو عِنانك لم تزل تجري

قال: فهجم عليه جماعة، فانتزعوا خاتمه من يده، وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفَّان، فشهدوا عنده على الوليد، أنَّه شرب الخمر.

فقال عثمان: وما يدريكما أنَّه شرب الخمر؟

فقالا: هي الخمر التي كنَّا نشربها في الجاهلية، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه، فزجرهما ودفع في صدورهما، وقال: تنحيا عنِّي.

فخرجا من عنده، وأتيا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخبراه بالقصة، فأتى عثمان وهو يقول: دفعت الشهود، وعطَّلت الحدود.

فقال له عثمان: فما ترى؟

قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره، فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه، ولم يدرأ عن نفسه بحجَّةٍ، أقمت عليه الحد.

فلما حضر الوليد، دعاهما عثمان، فأقاما الشهادة عليه، ولم يُدِل بحجَّة، فألقى عثمان السوط إلى علي، فقال علي لابنه الحسن: قم يا بُنيَّ، فأقم عليه ما أوجب الله عليه.

فقال: يكفينيه بعض من ترى.

فلما نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحدِّ عليه، توقياً لغضب عثمان لقرابته منه، أخذ علي السوط ودنا منه، فلما أقبل نحوه، سبَّه الوليد وقال: يا صاحب مكس.

(درهم يُؤخذ في السوق) فأقبل الوليد يروغ من عليّ، فاجتذبه عليّ فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط.

فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا.

قال: بل وشرّاً من هذا إذا فسق، ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه. انتهى.

في العقد الفريد للأندلسي قال: ج٥ ص٣٥، وممَّا نقم الناس على عثمان: أنَّه آوى طريد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص، ولم يؤوه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف دينار، وسير أبا ذر إلى الربذة، وسير عامر بن عبد قيس، من البصرة إلى الشام، وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف، وتصدق رسول الله ﷺ بمهزون (موضع سوق بالمدينة)، على المسلمين، فأقطعها الحرث بن الحكم أخا مروان، وأقطع فدك مروان، وهي صدقة لرسول الله ﷺ، وافتتح أفريقيا، فأخذ خمس الفيء فوهبه لمروان. انتهى.

في الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ج١ ص٤٦، خطب عثمان قال: أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار، لقد عبتم عليَّ أشياء، ونقمتم أُموراً قد أقررتم لابن الخطاب مثلها، ولكنَّه وقمكم وقمعكم، ولم يجترىء أحد يملأ بصره منه، ولا يشير بطرفه إليه،

أما والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عدداً، وأقرب ناصراً وأجدر، إلى أن قال لهم: أتفقدون من حقوقكم شيئاً؟

فما لي لا أفعل في الفضل ما أُريد، فلِمَ كنت إماماً إذاً؟

أما والله ما عاب عليَّ من عاب منكم أمراً أجهله، ولا أتيت الذي أتيت، إلَّا وأنا أعرفه.

قال: وقدم معاوية بن أبي سفيان على أثر ذلك من الشام، فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب، وطلحة بن عُبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقَّاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعمَّار بن ياسر، فقال لهم: يا معشر الصحابة، أُوصيكم بشيخي هذا خيراً، فوالله لئن قتل بين أظهركم، لأملأنَّها عليكم خيلاً ورجالاً، ثم أقبل على عمَّار بن ياسر فقال: يا عمَّار إنَّ بالشام مئة ألف فارس، كُلٌّ يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم، وعبدانهم لا يعرفون عليّاً، ولا قرابته، ولا عمَّاراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته، فإيَّاك يا عمَّار أن تقعد غداً في فتنة تنجلي، فيُقال: هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل علي.

ويضيف ابن قتيبة ص٥٥ قال: وذكروا أنَّ أهل مصر جاؤوا يشكون ابن أبي سرح عاملهم، فكتب إليه عثمان كتاباً يتهدَّده فيه، فأبى ابن أبي سرح، أن يقبل ما نهاه عنه عثمان، وضرب بعض من أتاه به من قبل عثمان من أهل مصر، حتى قتله، فخرج من مصر سبعمائة رجل، فنزلوا المسجد، وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله

في مواقيت الصلاة، ما صنع بهم ابن أبي سرح، فقام طلحة، فتكلَّم بكلام شديد، وأرسلت عائشة إلى عثمان فقالت له:

قد تقدم إليك أصحاب رسول الله، وسألوك عزل هذا الرجل، فأبيت إلَّا واحدة، فهذا قد قتل منهم رجلاً، فأنصفهم من عاملك.

ودخل عليه علي، وكان متكلم القوم فقال له:

إنَّما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً فاعزله عنهم، واقض بينهم، فإن وجب لهم عليه حق فانصفهم منه فقال: اختاروا رجلاً أُوليه عليهم.

فقالوا: استعمل محمَّد بن أبي بكر.

فكتب عهده وولَّاه، وخرج معه عدد من المهاجرين، والأنصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر فخرج محمَّد ومن كان معه، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة، إذا هم بغلام أسود على بعير، يخبط البعير، كأنَّه رجل يطلب أو يُطلب، فقال له أصحاب محمَّد:

ما قصتك، وما شأنك، كأنَّك طالب أو هارب؟

فقال: أنا غلام أمير المؤمنين، وجهني إلى عامل مصر.

فقال له رجل: هذا عامل مصر معنا.

قال: ليس هذا أُريد، فأُخبر محمَّد بأمره، فبعث في طلبه رجلاً، فجاء به إليه، فقال له غلام: من أنت؟

فأقبل مرة يقول: أنا غلام مروان، ومرة يقول: أنا غلام أمير المؤمنين، حتى عرَّفه رجل به لعثمان.

فقال له محمَّد: إلى من أرسلك؟

قال: إلى عامل مصر.

قال: بماذا؟ قال: برسالة.

قال: أما معك كتاب؟

قال: لا، ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً.

قال: وكانت معه إداوة (سقاء من جلد تُسمَّى المُطهرة)، قد يبست فيها شيء يتقلقل، فحرَّكوه ليخرج فلم يخرج، فشقُّوا إداوته، فإذا فيها كتاب من عثمان، إلى عبد الله بن أبي سرح، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار، ثمَّ فكَّ الكتاب بمحضرٍ منهم فقرأه، فإذا فيه: إذا أتاك محمَّد بن أبي بكر وفلان وفلان، فاقتلهم، وأبطل كتابهم، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي.

فلما رأوا الكتاب، فزعوا منه، ورجعوا إلى المدينة.

قال: وختم محمَّد الكتاب بخواتم النفر، الذين كانوا معه ودفعه إلى رجل منهم، ثم قدموا المدينة، فجمعوا طلحة والزبير، وعليّاً، وسعداً، ومن كان من أصحاب رسول الله، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبر بقصة الغلام وإقرارهم الكتاب، فلم يبق أحد من أهل المدينة، إلَّا حَنَقَ على عثمان، وقام أصحاب النبي فلحقوا بمنازلهم، وحضر الناس عثمان، وأحاطوا به، ومنعوه الماء والخروج ومن كان معه، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر.

قال: وذكروا أنَّ أهل مصر، أقبلوا إلى علي فقالوا: ألم تر عدوّ الله، ماذا كتب فينا؟ قم معنا إليه، فقد أحلَّ الله دمه.

فقال علي: لا والله، لا أقوم معكم.

قالوا: فلِمَ كتبت إلينا؟

قال علي: لا، والله ما كتبت إليكم كتاباً قطّ.

فنظر بعضهم إلى بعض، ثمَّ أقبل الأشتر النخعي، من الكوفة في ألف رجل، وأقبل ابن أبي حذيفة من مصر في أربع مئة رجل، فأقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً، وطلحة يُحرِّض الفريقين جميعاً على عثمان، ثمَّ إنَّ طلحة قال لهم: إنَّ عثمان لا يبالي ما حصرتموه، وهو يدخل عليه الطعام والشراب، فامنعوه الماء أن يدخل عليه.

قال: وذكروا أنَّ عثمان، لمَّا منع الماء بعث إلى علي يخبره، أنَّه مُنع من الماء ويستغيث به، فبعث إليه علي ثلاثة قرب مملوءة ماء، فما كادت تصل إليه، فقال طلحة: ما أنت وهذا؟ وكان بينهما في ذلك كلام شديد. انتهى.

وروى المسعودي في مروج الذهب قال: ج٢ ص٣٨٠: ولمَّا كان سنة خمس وثلاثين، سار مالك بن الحارث من الكوفة في مائتي رجل، وحكيم بن جبلة العبدي في مائة رجل من أهل البصرة، ومن أهل مصر ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عُديس البلوي.

قال: وقد ذكر الواقدي وغيره من أصحاب السير، أنَّه ممَّن بايع تحت الشجرة، إلى آخرين ممَّن كان بمصر، مثل عمرو بن

الحمق الخزاعي، وسعيد بن حمران التجيبي، ومعهم محمَّد بن أبي بكر الصدِّيق، وقد كان تكلَّم بمصر، وحرَّض الناس على عثمان لأمر يطول، كان السبب فيه مروان بن الحكم، فنزلوا في الموضع المعروف: «بذي خشب».

فلمَّا علم عثمان بنزولهم، بعث إلى عليّ بن أبي طالب، فأحضره وسأله أن يخرج إليهم، ويضمن لهم عنه كل ما يريدون، من العدل، وحسن السيرة، فسار علي إليهم، فكان بينهم خطب طويل، فأجابوه إلى ما أراد، وانصرفوا.

فلمَّا صاروا إلى الموضع، المعروف بحسميْ، إذا هم بغلام على بعير، وهو مقبل من المدينة. فتأملوه، فإذا ورش غلام عثمان، فقرَّروه، فأقرَّ وأظهر كتاباً إلى ابن أبي سرح صاحب مصر.

وفيه: إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان، واقتل فلاناً، وافعل بفلان كذا، وأحصى أكثر من في الجيش، وأمر فيهم بما أمر.

وعلم القوم أنَّ الكتاب بخطِّ مروان، فرجعوا إلى المدينة، واتفق رأيهم، ورأي من قدم من العراق، ونزلوا المسجد، وتكلَّموا وذكروا ما نزل بهم من عمَّالهم، ورجعوا إلى عثمان، فحاصروه في داره، ومنعوه الماء، فأشرف على الناس وقال: ألا أحدٌ يسقينا؟

قال: بم تستحلون قتلي، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

لا يحل دم امرىءٍ مسلم، إلَّا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، والله ما فعلت ذلك في جاهلية ولا إسلام.

فبلغ عليّاً طلبه للماء، فبعث إليه بثلاث قرب ماء، فما وصل إليه ذلك، حتى خرج جماعة من موالي بني هاشم وبني أُميَّة، وارتفع الصوت، وكثر الضجيج، وأحدقوا بداره بالسلاح، وطالبوه بمروان، فأبى أن يخلي عنه، وفي الناس بنو زهرة، لأجل عبد الله بن مسعود، لأنَّه كان من أحلافها، وهذيل لأنَّه كان منها، وبنو مخزوم وأحلافها لعمَّار، وغفَار وأحلافها لأجل أبي ذر، وتيم بن مرَّة مع محمَّد بن أبي بكر وغير هؤلاء.

فلمَّا بلغ عليّاً، أنَّهم يريدون قتله، بعث بابنيه الحسن والحسين، مع مواليه بالسلاح، إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمَّد، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم، اقتداء بمن ذكرنا، فصدوهم عن الدار، فرمى من وصفنا بالسهام، واشتبك القوم، وجرح الحسن، وشُجَّ قنبر، وجرح محمَّد بن طلحة، فخشي القوم أن يتعصَّب بنو هاشم وبنو أُميَّة، فتركوا القوم في القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار، فتسوروا عليها، وكان ممَّن وصل إليه محمَّد بن أبي بكر، ورجلان آخران، وعند عثمان زوجته، وأهله، ومواليه مشاغيل بالقتال، فأخذ محمَّد بن أبي بكر بلحيته فقال: يا محمَّد، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك، فتراخت يده، وخرج عنه إلى الدار، ودخل رجلان، فوجداهُ فقتلاه، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه، فصعدت امرأته فصرخت وقالت: قد قتل أمير المؤمنين.

فدخل الحسن والحسين، ومن كان معهما من بني أُميَّة،

فوجدوه قد فاضت نفسه «رضي الله عنه»، فبكوا، فبلغ ذلك عليّاً، وطلحة، والزبير، وسعداً وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل علي الدار، وهو كالواله الحزين، وقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين، وأنتما على الباب، ولطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمَّد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير.

فقال له طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن، ولا تشتم، ولا تلعن، لو دفع إليهم مروان ما قُتل.

وهرب مروان وغيره من بني أُميَّة، وطُلبوا ليُقتلوا فلم يُوجدوا.

وقال علي لزوجته نائلة بنت الفرافصة: من قتله وأنت كنت معه؟

قالت: دخل إليه رجلان، وقصَّت خبر محمَّد بن أبي بكر، فلم ينكر ما قالت وقال: والله لقد دخلت عليه، وأنا أُريد قتله، فلما خاطبني بما قال، خرجت ولا أعلم بتخلُّف الرجلين عنِّي، والله ما كان لي في قتله من سبب، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله.

وكانت مدة ما حُوصر عثمان في داره، تسعاً وأربعين يوماً، وقيل: أكثر من ذلك.

قال: وقتل في ليلة الجمعة، لثلاث بقين من ذي الحجَّة.

وذكر أنَّ أحد الرجلين: كنانة بن بشر التجيبي، ضربه بعمود على جبهته، والآخر منهما سعد بن حمران المرادي، ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحلَّه.

وقيل: إنَّ عمرو بن حمق، طعنه بسهام تسع طعنات، وكان فيمن مال عليه: عُمير بن ضابىء البرجمي التميمي، وخضخض سيفه في بطنه.

قال: ودفن في الموضع المعروف «بحش كوكب»، وهذا الموضع فيه مقابر بني أُميَّة، وصلَّى عليه جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حُذيفة.

وقال حسان فيه من البسيط:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليٍّ وابن عفَّانا
لتسمعنَّ وشيكاً في ديارهُمُ اللَّه أكبرُ يا ثارات عثمانا

قال: ولعثمان بن عفَّان أبياتاً من البسيط، كان يُردِّدها:

تفنى اللذاذة ممَّن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
يلقى عواقب سوءٍ من مغبَّتها لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ

قال: وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أخا عثمان لأُمِّه، فلمَّا سمع بمقتله، قال فيه من الطويل:

بني هاشم إنَّا وما كان بيننا كصدع الصَّفا ما يُومضُ الدَّهر شاعبُه
بني هاشم كيف الهوادة بيننا وسيف ابن أروى عندكم وحرائبُه
بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوهُ لا تحلُّ مناهبُه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُه

فأجابه عن هذا الشعر، وعن ما رُمي به بني هاشم الفضل بن العبَّاس فقال من الطويل:

فلا تسألونا سيفكم إنَّ سيفكم ... أُضيع وألقاه لدى الروع صاحبُه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أُختنا ... فهم سلبوه سيفه وحرائبُه
وكان ولي الأمر بعد محمَّد ... عليّ وفي كُلِّ المواطن صاحبُه
عليّ ولي اللَّه أظهر دينه ... وأنت مع الأشقين فيما تحاربُه
وأنت امرؤٌ من أهل صفواء نازحٌ ... فما لك فينا من حميم تعاتبُه
وقد أنزل الرَّحمن أنَّك فاسقٌ ... فما لك في الإسلام سهم تطالبُه

وفي العقد الفريد: (ج٥، ص٣٦)، قال: ولي الخلافة، مُنسلخ ذي الحجَّة، سنة ثلاث وعشرين، وقتل يوم الجمعة، صبيحة عيد الأضحى، سنة خمس وثلاثين، فكانت ولايته اثنتي عشرة سنة، وستة عشر يوماً، ومات وهو ابن أربع وثمانين سنة.

فلمَّا كان ليلة السبت، انتدب لدفنه رجال، منهم: جبير بن مُطعم، وحكيم بن حزام، وأبو الجهم بن حذيفة، وعبد الله بن الزبير، فوضعوه على باب صغير، وخرجوا به إلى البقيع، ومعهم نائلة بنت الفرافصة، بيدها السراج، فلما بلغوا به البقيع، منعهم من دفنه فيه رجال من بني ساعدة، فردّوه إلى حش كوكب، فدفنوه فيه، وصلَّى عليه جبير بن مُطعم، ويُقال: حكيم بن حزام، ودخلت القبر نائلة بنت الفرافصة، وأُمّ البنين بنت عيينة زوجتاه، وهما دلتاه في القبر.

وبعد هذا البحث، أُوثق لعزيزي القارىء، مُهماً ليكون على علم بما سيجري على الأُمَّة بعد مقتل عثمان، من زورٍ، وبهتان،

وأنَّ الذين أجَّجوا نار الفتنة لقتله، هم ومن قعد عن إغاثته ونصره، سيطلبون عليّاً وحده بثأره.

الإمامة والسياسة لابن قتيبة قال: ج١ ص٥٤: وكتب إلى معاوية، وأهل دمشق خاصة:

أمَّا بعد: فإنِّي في قوم طال فيهم مقامي، واستعجلوا القدر فيَّ، وقد خيَّروني بين يحملوني على شارف من الإبل، إلى دخل: «جزيرة باليمن»، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني، وبين أن أقيدهم ممَّن قتلت، ومن كان على سلطان يخطىء ويصيب، فيا غوثاه، ولا أمير عليكم دوني، فالعجل العجل يا معاوية، وأدرك ثمَّ أدرك، وما أراك تدرك.

وفي فتوح ابن الأعثم قال: ج٢ ص٢٠٩، وأمَّا معاوية، فإنَّه أتاه بالكتاب المسور بن مخرمة، فقرأه، لما أتاه ثم قال: يا معاوية، إنَّ عثمان مقتول، فانظر فيما كتبت به إليه.

فقال معاوية: يا مسورإنِّي مُصرحٌ، أنَّ عثمان بدأ فعمل بما يُحبّ الله ويرضاه، ثمَّ غير فغير الله عليه، أفيتهيَّأ لي أن أرد ما غير الله عزَّ وجلَّ.

هذا: وروى الطبري في تاريخ الأُمم والملوك ج٣ ص٤٠٢، قال: فلمَّا رأى عثمان ما قد نزل به، وما قد انبعث عليه من الناس، كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمَّا بعد: فإنَّ أهل المدينة قد كفروا، وأخلفوا الطاعة، ونكثوا

البيعة، فابعث إليَّ من قبلك، من مقاتلة أهل الشام، على كل صعب وذلول.

فلمَّا جاء معاوية الكتاب، تربَّص به، وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله، وقد علم اجتماعهم.

قال: كتب أهل مصر بالسقياية، أو بذي خشب إلى عثمان بكتاب، فجاء به رجل منهم، حتى دخل به، فلم يرد عليه شيئاً، فأمر به فأخرج من الدار، وكان أهل مصر، الذين ساروا إلى عثمان، ستمائة رجل، على أربعة ألوية، لها رؤوس أربعة، مع كل رجل منهم لواء، وكان جماع أمرهم، جميعاً إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وإلى عبد الرحمن بن عُديس التجيبي، فكان فيما كتبوا إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمَّا بعد: فاعلم أنَّ الله لا يغيِّرما بقوم، حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم، فالله الله، ثمَّ الله الله، فإنَّك على دُنيا فاستتمَّ إليها معها آخرة، ولا تلبس نصيبك من الآخرة، فلا تسوغ لك الدُّنيا، واعلم إنَّا والله لله نغضب، وفي الله نرضى، وإنَّا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا، حتى تأتينا منك توبة مصرحة، أو ضلالة مجلحة مبلجة، فهذه مقالتنا لك، وقضيتنا إليك، والله عذيرنا منك والسلام.

وكتب أهل المدينة إلى عثمان، يدعونه إلى التوبة، ويحتجون، ويقسمون له بالله، لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه، أو يعطيهم ما يلزمه من حقّ الله، فلما خاف القتل، شاور نصحاءه وأهل بيته، فقال لهم: قد صنع القوم ما قد رأيتم، فما المخرج؟

فأشاروا عليه أن يرسل إلى علي بن أبي طالب، فيطلب إليه أن يردّهم عنه، ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم، حتى يأتيه إمداد.

فقال: إنَّ القوم لن يقبلوا التعليل، وهي مُحملي عهداً، وقد كان منِّي في قدمتهم الأولى ما كان، فمتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به.

فقال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى، أمثل من مكاثرتهم على القرب، فأعطهم ما سألوك، وطاولهم ما طاولوك، فإنَّما هم بغوا عليك فلا عهد لهم، فأرسل إلى عليّ فدعاه، فلمَّا جاءه قال: يا أبا الحسن، إنَّه قد كان من الناس ما قد رأيت، وكان منِّي ما قد علمت، ولست آمنهم على قتلي، فارددهم عنِّي، فإنَّ لهم الله عزَّ وجلَّ أن أعتبهم من كل ما يكرهون، وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري، وإن كان في ذلك سفك دمي.

فقال له عليٌّ: الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك، وإنِّي لأرى قوماً لا يرضون إلَّا بالرضى، وقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله، لترجعن عن جميع ما نقموا، فرددتهم عنك، ثم لم تف لهم بشيء من ذلك، فلا تغرني هذه المرة من شيء، فإنِّي معطيهم عليك الحق.

قال: نعم، فأعطهم، فوالله لأفين لهم، فخرج عليٌّ إلى الناس، فقال: أيُّها الناس إنَّكم إنَّما طلبتم الحق فقد أُعطيتموه، إنَّ عثمان زعم أنَّه منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه ووكدوا عليه.

قال الناس: قد قبلنا، فاستوثق منه لنا، فإنَّا والله لا نرضى بقول دون فعل.

فقال لهم علي: ذلك لكم، ثم دخل عليه، فأخبره الخبر.

فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً، يكون لي فيه مهلة، فإنِّي لا أقدر على ردّ ما كرهوا في يوم واحد.

قال له عليٌّ: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب، فأجله وصول أمرك.

قال: نعم، ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيَّام.

قال عليٌّ: نعم، فخرج إلى الناس، فأخبرهم بذلك، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً، أجله فيه ثلاثاً، على أن يرد كل مظلمة، ويعزل كل عامل كرهوه، ثم أخذ عليه في الكتاب، أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه، من عهد وميثاق، وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين، والأنصار، فكف المسلمون عنه، ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه، فجعل يتأهب للقتال، ويستعد بالسلاح، وقد كان اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الخمس، فلما مضت الأيَّام الثلاثة، وهو على حاله، لم يُغيِّر شيئاً ممَّا كرهوه، ولم يعزل عاملاً ثار به الناس، وخرج عمرو بن حزم الأنصاري، حتى أتى المصريين، وهم بذي خشب، فأخبرهم الخبر، وسار معهم حتى قدموا المدينة، فأرسلوا إلى عثمان، ألم نفارقك على أنَّك زعمت أنَّك تائب من إحداثك، وراجع عمَّا كرهنا منك، وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه.

قال: بلى، أنا على ذلك.

قالوا: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك، وكتبت به إلى عاملك.

قال: ما فعلت، ولا لي علم بما تقولون.

قالوا: بريدك على جملك، وكتاب كاتبك عليه خاتمك.

قال: أمَّا الجمل: فمسروق، وقد يشبهُ الخط الخط.

وأمَّا الخاتم: فانتقش عليه.

قالوا: فإنَّا لا نعجل عليك، وإن كنَّا قد اتهمناك، أعزل عنَّا عمَّالك الفسَّاق، واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا، واردد علينا مظالمنا.

قال عثمان: ما أراني إذاً في شيء، إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم، الأمر إذاً أمركم.

قالوا: والله لنفعلن، أو لتعزلن، أو لتقتلن، فانظر لنفسك، أو دع، فأبى عليهم وقال: لم أكن لأخلع سربالاً سربلنيه الله، فحصروه أربعين ليلة، وطلحة يُصلِّي بالناس.

قال: وجاء محمَّد بن أبي بكر، وثلاثة عشر حتى انتهى إلى عثمان، فأخذ بلحيته قال:

ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك.

قال: أرسل لحيتي يابن أخي، أرسل لحيتي قال: فاستعْد

رجلاً من القوم بعينه، فقام إليه بمشقص حتى وجأ به في رأسه، ثم تغاووا عليه حتى قتلوه. انتهى.

قال علي عليه السلام في نهج البلاغة ج٣ ص٤٩٠:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ.

قيل: إنَّ أُمّ المؤمنين أخرجت نعليْ رسول الله صلى الله عليه وآله وقميصه من سترها، وعثمان على المنبر وقالت: هذان نعلا رسول الله وقميصه لم تبل، وقد بدَّلت من دينه، وغيَّرت من سُنَّته.

وجرى بينهما كلام المخاشنة، فقالت: اقتلوا نعثلا، (تُشبهه برجل يهودي كان يُطلْ في لحيته).

وفي نهج البلاغة، قال في قتل عثمان: ج١ ص٩٨:

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ، وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ.

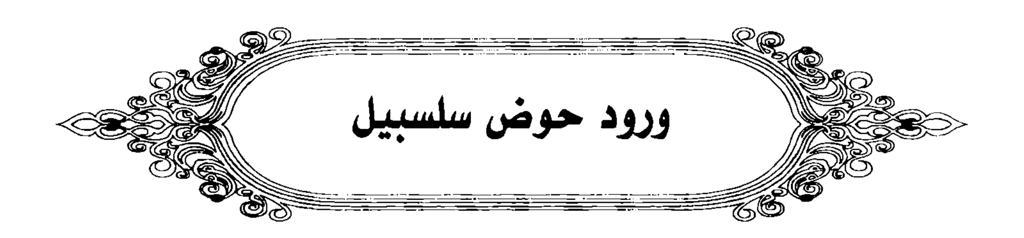
هكذا كان يا أخي المسلم، أو نظيري في الخلق.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ* وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾(٢).



(١) سورة الرَّحمٰن: ٧-٩.
(٢) سورة النِّسَاء: ٥٨.



ورود حوض سلسبيل

سواء علينا إذا أشرقت شمس الضياء الكاشف، لغطش اللَّيل الغاشي لما ستر، أأطفأنا الشموع أم لم نطفئها، فالحال في الضياء سواء، فقد سخفت شعلتها، وإنَّ الغمام الذي حبس النُّور عن الأرض المجدبة، وأهلها المُسْنتون، فغمَّ قلوبهم، ونغَّص معيشتهم، ولم يحمل حتى الرذاذ، فهو محض البلاء والابتلاء.

وإنَّ من استوى عنده الحق، والباطل، والخير، والشَّر، والمحْلُ، والعطاء، فهو صرف شيطان رجيم.

وها أنا أُقدِّم لك، وردة من بستان علي، قال ﷺ في نهج البلاغة: (ج١، ص٢٠٠)، في صفة الأرض ودحوها على الماء:

كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ[١]، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ[٢] تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا[٣]، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ

---

(١) كبس النهر والبئر: أي طمهما بالتُّراب وعلى هذا كان حقّ التعبير كبس بها مور أمواج لكنَّه أقام الآلة مقام المفعول لأنَّها المقصود بالعمل والمور: التحرُّك الشديد. والمستفحلة: الهائجة يصعُب التغلُّب عليها.

(٢) مُمْتلئة.

(٣) جمع أذيّ أعْلى الموج.

أَثْبَاجِهَا[١]، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا[٢]، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً[٣]. إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا[٤]. فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ[٥]. سَاجِياً مَقْهُوراً[٦]. وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً[٧] وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَاعْتِلَائِهِ[٨] وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ[٩] وَكَعَمَتْهُ[١٠] عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ[١١] فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَانِهِ[١٢] وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ[١٣] فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا[١٤] وَحَمَلَ شَوَاهِقَ الْجِبَالِ

---

(١) اصطفقت الأشجار اهتزت الريح والأثباج: جمع ثَبَج بالتحريك: هو في الأصل ما بين الكاهل والظهر أو صدر القطاة استعاره لأعالي الموج. والمتقاذفات التي يقذف بعضها بعضاً.

(٢) هو في الأصل الصدر استعارة لما لاقى الماء من الأرض.

(٣) مُنكسراً مُسترخياً.

(٤) مِن تمعكت الدابة تمرغت في التُّراب.

(٥) اصطخاب: افتعال من الصخب بمعنى ارتفاع الصوت.

(٦) ساجياً: ساكناً.

(٧) الحَكَمَة مُحركة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه وفيها العِذاران.

(٨) البأو الكبر والزهو.

(٩) بضم الغين وفتح اللام: النشاط وتجاوز الحد.

(١٠) كَعَم البعير كمنع: شُدَّ فاه لئلَّا يعضُّ أو يأكل وما يُشدُّ به كعام ككتاب.

(١١) الكِظة بالكسر: ما يعرض من امتلاء البطن بالطعام ويُراد بها هنا ما يشهد في جري الماء من ثقل الإندفاع.

(١٢) النزق والنزقان: الطيش.

(١٣) الزيفان: التبختر في المشية ولبد كفرح ونصر: أي قام وثبت.

(١٤) نواحيها.

الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا[١] فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا[٢]، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا[٣] وَعَدَلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا[٤]، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ[٥] مِنْ صَيَاخِيدِهَا[٦] فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ[٧] لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا[٨] وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا[٩] وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا[١٠] وَفَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنَهَا وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا وَأَخْرَجَ

---

(١) البذَّخ: بمعنى الشمخ جمع شامخ وباذخ أي عالٍ ورفيع أو من الضخامة مع الارتفاع وحمل: عطف على أكتاف.

(٢) عرانين جمع عرنين بالكسر: ما صلب من عظم الأنف والمُراد أعالي الجبال غير أنَّ الاستعارة من ألطف أنواعها في هذا المقام.

(٣) السهوب جمع سَهَبَ بالفتح: أي الفلاة. والبيد: جمع بيداء. والأخاديد: جمع أخدود الحفر المستطيلة في الأرض. والمُراد منها مجاري الأنهار.

(٤) الضمير للأرض كما يظهر من بقية الكلام والجلاميد: جمع جلمود الحجر القاسي.

(٥) الشاخيب: جمع شنخوب وهو رأس الجبل. والشُّم: الرفيعة.

(٦) جمع صيخود: وهو الصخرة الشديدة.

(٧) الميدان بالتحريك الاضطراب.

(٨) سطحها.

(٩) التغلغل: المبالغة في الدخول. ومُتسرِّبة: أي داخلة. والجوبات: جمع جوبة بمعنى الحفرة. والخياشم: جمع خيشوم هو منفذ الأنف إلى الرأس أو مارق من الغضاريف الكائنة فوق قصبة الأنف متصلة بالرأس وضمير تغلغلها للجبال وخياشيمها للأرض والمجاز ظاهر.

(١٠) ركوب الجبال أعناق السهول: استعلاؤها عليها. وأعناقها: سطوحها. وجراثيمها: ما سفل عن السطوح من الطبقات التُّرابية واستعلاء الجبال عليها ظاهر.

إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا[١] ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الْأَرْضِ[٢] الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا[٣] وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا[٤] حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا[٥] وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ[٦] وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ[٧] حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ[٨] وَالْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ[٩] وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ[١٠] وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً[١١] قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ تُمْرِيهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ

---

(١) مرافق البيت ما يُستعان به فيه وما يحتاج إليه في العيش خصوصاً ما يكون من الأماكن أو هو ما يتم به الانتفاع كمصابِّ المياه والطرق الموصلة إليه والأماكن التي لا بُدَّ منها للساكنين فيه لقضاء حاجاتهم وما يشبه ذلك.

(٢) الأرض الجُرُز بضمتين: التي تمرُّ عليها مياه العيون فتنبت.

(٣) مرتفعاتها.

(٤) ذريعة: وسيلة.

(٥) الموات من الأرض: ما لا يزرع.

(٦) جمع لُمعة بضم الام: في الأصل القطعة من النبات مالت لليبس استعارها لِقطع السحاب والمشابهة في لونها وذهابها إلى الاضمحلال لولا تأليف إيَّاها مع غيرها.

(٧) جمع قَزَعِة محرَّكة: وهي القطعة من الغيم.

(٨) تمخضت: تحرَّكت تحرُّكاً شديداً كما يتحرَّك اللبن في السقاء بالمخضّ والضمير في فيه راجع إلى المُزُن أي تحرَّكت اللجة التي يحملها المزن فيه ويصح أن يرجع للغمام في أوَّل العبارة.

(٩) جمع كُفة بضم الكاف: وهي الحاشية والطرف لكُلِّ شيء أي جوانبه.

(١٠) نامت النار: همدت. والوميض: اللمعان. والكنهور كسفرجل: القطعة العظيمة من السحاب أو المتراكم منه. والرَّباب كسحاب الأبيض المتلاحق منه أي لم يمهد لمعان البرق في ركام هذا الغمام.

(١١) صبّاً متلاحقاً متواصلاً.

أَهَاضِيبِهِ(١) وَدُفَعَ شآبِيبِهِ(٢). فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا(٣) وَبَعَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ(٤) مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا(٥) أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ(٦) وَمِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ(٧) فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا(٨) وَتَزْدَهِي(٩) بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ(١٠) أَزَاهِيرِهَا(١١) وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغاً لِلْأَنَامِ(١٢)

---

(١) أسف الطائر: دنا من الأرض والهيدب كجعفر السحاب المتدلي أو ذيله وقوله تمريه: من مرى الناقة أي مسح على ضرعها ليحلب لبنها والدِرر كغلل جمع دِرَّة بالكسر اللبن والأهاضيب: جمع هِضاب وهو جمع هضبة كضربة وهي المطرة أي دنا السحاب من الأرض لثقله بالماء وريح الجنوب تستْدره الماء كما يستدر الحالب لبن الناقة فإنَّ الريح تُحرِّكه فيصبّ ما فيه.

(٢) جمع شؤبوب: ما ينزل من المطر بشدَّة.

(٣) البَرك بالفتح: في الأصل ما يلي الأرض من جلد صدر البعير كالبركة. والبواني: هي أضلاع الزور وشبه السحاب بالناقة إذا بركت وضربت بعنقها على الأرض ولاطمتها بأضلاع زورها.

(٤) بعاع عطف على برك والبعاع بالفتح: ثقل السحاب من الماء وألقى السحاب بعاعه: أمطر كل ما فيه.

(٥) العبء: الحمل.

(٦) الهوامد من الأرض: ما لم يكن بها نبات.

(٧) زُعُر: جمع زاعر وهو من المواضع القليلة النبات.

(٨) بهج كمنع سرَّ وأفرح.

(٩) جمع ريطة بالفتح: وهي كل ثوب رقيق لين.

(١٠) جمع زهار الذي هو جمع زهرة بمعنى النبات.

(١١) سمط: من سمط الشيء علق عليه السموط وهي الخيوط تنظم فيها القلادة. الأنوار جمع نور بفتح النون وهو الزهر بالمعنى المعروف أي حِلية القلائد التي علقت عليها من أزهار نباتها.

(١٢) البلاغ: ما يتبلغ به من القوت.

وَرِزْقاً لِلْأَنْعَامِ، وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا.





خلافة الوصي علي

وجاء الشعب يهرع إلى وصي النبي، علي يحمل همومه وجراحه غير مُكره، أو مُلبَّسٍ عليه، يطلبه حثيثاً، ليسوسهم في سلمهم، وحربهم، ليسعهم علمه وعدله، فهو العلم والقضاء، وهو السيف والعدل، وهو أولى بالناس، من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو الزاهد، من غير عجز أو ضلال، وهو الكَّابُّ للدُّنيا على وجهها، والمُطلِّق لها ثلاثاً، لا رجعة فيها.

وجاءت الخلافة تستصرخه، وتهتف به، فوقفت قائمة، تُقبِّل يديه وقدميه، في عزَّة واطمئنان، تتنفَّسُ الغمِّ والزفير، وتشكو إليه أسرها، واحتباسها لأربعةٍ وعشرين سنة، وبضعة أشهر، كانت على الأُمَّة جحيماً، وهلاكاً في هلاك، كُلُّ ذلك احتكاراً لها، واستخفافاً بخيرها، وعطائها.

فقال لهم علي عليه السلام في نهج البلاغة: (ج١، ص٢٠٩):

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ

الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً.

بهذا أجابهم، ليلقي عليهم الحجَّة، وليمنحهم الرأي، وليفسح لهم في الخيار والاختيار، ليكونوا له جُند حق، يصول بهم، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، في حفظهم، ورعايتهم، ليحق الحق، ويبطل الباطل، وقد انتصف للمظلوم من الظالم، فإذا بالناس، قد حضنتها السعادة، وعمَّها الرخاء.

فتعال لنقف على خطبته الشقشقية، فإنَّه يُفصِّل لنا فيها، ما كان من أمرِ منْ تصدر للخلافة والحكم، بعد وفاة النبي، ثم كيف خلص الناس إليه، ليستخلفوه عليهم، وهم يُصرّون قال عليه السلام في نهج البلاغة (ج١، ص٥٠).

أَمَّا وَٱللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ[(١)] وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ ٱلْقُطْبِ مِنَ ٱلرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي ٱلسَّيْلُ[(٢)] وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ ٱلطَّيْرُ. فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً[(٣)]، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً، وَطَفِقْتُ

---

(١) الضمير يرجع إلى الخلافة. وفلان كناية عن الخليفة الأول أبي بكر (رضي الله عنه).

(٢) تمثيل لسمو قدره كرم الله وجهه وقربه من مهبط الوحي وأنّ ما يصل إلى غيره من فيض الفضل فإنّما يتدفق من حوضه ثم ينحدر عن مقامه العالي فيصيب منه من شاء الله وعلى ذلك قوله ولا يرقى الخ غير أنّ الثانية أبلغ من الأولى في الدلالة على الرفعة.

(٣) فسدلت الخ: كناية عن غض نظره عنها، وسدل الثوب: أرخاه. وطوى عنها =

أَرْتَئي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ[١]، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طِخْيَةٍ عَمْيَاءَ[٢] يَهْرَمُ فِيهَا ٱلْكَبِيرُ. وَيَشِيبُ فِيهَا ٱلصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ[٣]. فَرَأَيْتُ أَنَّ ٱلصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى[٤]. فَصَبَرْتُ وَفِي ٱلْعَيْنِ قَذىً، وَفِي ٱلْحَلْقِ شَجاً[٥] أَرَى تُرَاثِي نَهْباً، حَتَّى مَضَى ٱلْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابْنِ ٱلْخَطَّاب بَعْدَهُ[٦] (ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ ٱلأَعْشَى):

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا   وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ[٧]

= كشحا: مال عنها. وهو مثل لان من جاع فقد طوى كشحه ومن شبع فقد ملأه فهو قد جاع عن الخلافة أي لم يلتقمها.

(١) وطفقت الخ: بيان لعلة الإغضاء. والجذاء بالجيم والذال المعجمة والدال المهملة، وبالحاء المهملة مع الذال المعجمة: بمعنى المقطوعة ويقولون «رَحِمٌ جذَّاء»: أي لم توصل «وسِنٌّ جذَّاءِ»: أي متهتمة، والمراد هنا ليس ما يؤيدها كأنّه قال تفكرت في الأمر فوجدت الصبر أولى فسدلْت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً.

(٢) طِخْيَة بطاء فخاء بعدها ياء ويثلث أولها: أي ظلمة. ونسبة العمى إليها مجاز عقلي. وإنّما يعمى القائمون فيها إذ لا يهتدون إلى الحق وهو تأكيد لظلام الحال واسودادها.

(٣) يكدح يسعى سعي المجهود.

(٤) أحجى: ألزم. من حجى به كرضى: أولع به ولزمه ومنه هو حجي بكذا أي جدير وما أحجاه، وأحج به أي أخلق به. وأصله من الحجا بمعنى العقل فهو أحجى أي أقرب إلى العقل. وهاتا بمعنى هذه أي رأى الصبر على هذه الحالة التي وصفها أولى بالعقل من الصولة بلا نصير.

(٥) الشجا ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه. والتراث الميراث.

(٦) أدلى بها ألقى بها إليه.

(٧) الكُور بالضم: الرَّحل أو هو مع أداته. والضمير راجع إلى الناقة المذكورة في الأبيات قبل في قوله:

فَيَا عَجَباً بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ[١] إِذْ عَقَدَهَا لأَخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا[٢] فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ

وقد أسلى الهم إذ يعتري بجسرة دوسرة عاقر

والجسر: العظيم من الإبل. والدوسرة: الناقة الضخمة. وحيان كان سيداً في بني حنيفة مطاعاً فيهم، وكان ذا حظوة عند ملوك فارس، وله نعمة واسعة ورفاهية وافرة وكان (الأعشى) ينادمه. والأعشى، هذا: هو الأعشى الكبير أعشى قيس وهو (أبو بصير ميمون بن قيسبن جندل). وأول القصيدة:

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

وجابر أخو حيان أصغر منه، ومعنى البيت: أنّ فرقاً بعيداً بين يومه في سفره وهو على كور ناقته، وبين يوم حيان في رفاهيته، فإنّ الأول كثير العناء شديد الشقاء، والثاني وافر النعيم وافي الراحة. [يتلو هذا البيت أبيات منها:

في مجدل شيد بنيانه يزل عنه ظفر الطائر
ما يجعل الجُدُّ الظَّنونُ الذي جُنّبَ صوبَ اللّجبِ الماطرِ
مثلَ الفراتيّ إذا ما طما يَقْذفُ بالبوصيّ والماهر

(المجدل كمنبر: القصر. والجدّ بضمّ أوله: البئر القليلة الماء. والظنون: البئر لا يدرى أفيها ماء أم لا. واللجب: المراد منه السحاب لاضطرابه وتحركه. والفراتي: الفرات. وزيادة الياء للمبالغة. والبوصي: ضرب من السفن معرب بوزي، والماهر؛ السابح المجيد. ووجه تمثل الإمام بالبيت ظاهر بأدنى تأمل].

(١) رووا أن أبا بكر قال بعد البيعة: «أقيلوني فلست بخيركم». وأنكر الجمهور هذه الرواية عنه والمعروف عنه: «وليتكم ولست بخيركم».

(٢) لشد ما تشطرا ضرعيها جملة شبه قسمية اعترضت بين المتعاطفين، فالفاء في فصيرها عطف على عقدها. وتشطرا مسند إلى ضمير التثنية، وضرعيها تثنية ضرع: وهو للحيوانات مثل الثدي للمرأة. قالوا: إنّ للناقة في ضرعها شطرين كل خلفين شطر ويقال شطر بناقته تشطيراً: صر خلفين وترك خلفين. والشطر أيضاً: أن تحلب شطراً وتترك شطراً، فتشطراً أي أخذ كل منهما شطراً، سمي شطري الضرع ضرعين مجازاً وهو هنا من أبلغ أنواعه حيث أنَّ من ولي الخلافة لا ينال الأمر إلاّ تاماً ولا يجوز أن يترك منه لغيره سهماً، فأطلق على =

كَلْمُهَا[١] وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ ٱلْعِثَارُ فِيهَا، وَٱلإِعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ[٢]، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ ٱلنَّاسُ ـ لَعَمْرُ ٱللَّهِ ـ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ[٣]، وَتَلَوُّنٍ وَٱعْتِرَاضٍ. فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ ٱلْمُدَّةِ وَشِدَّةِ ٱلْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ. جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَٱللَّهِ وَلِلشُّورَى[٤] مَتَى ٱعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ ٱلأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ

= تناول الأمر واحداً بعد واحد إسم التشطر والاقتسام كأن أحدهما ترك منه شيئاً للآخر، وأطلق على كل شطر إسم الضرع نظراً لحقيقة ما نال كل واحد.

(١) الكُلام بالضم؛ الأرض الغليظة. وفي نسخة كلمها وإنّما هو بمعنى الجرح، كأنّه يقول خشونتها تجرح جرحاً غليظاً.

(٢) الصعبة من الإبل: ما ليست بذلول. وأشنق البعير وشنقه كفه بزمامه حتى ألصق ذفراه (العظم الناتىء خلف الأذن) بقادمة الرحل أو رفع رأسه وهو راكبه. واللام هنا زائدة للتحلية ولتشاكل أسلس. وأسلس: أرخى. وتقحّم: رمى بنفسه في القحمة أي الهلكة. وسيأتي معنى هذه العبارة في الكتاب. وراكب الصعبة إمّا أن يشنقها فيخرم أنفها وإمّا أن يسلس لها فترمي به في مهواة تكون فيها هلكته.

(٣) مني الناس: ابتلوا وأصيبوا. والشِماس بالكسر إباء ظهر الفَرس عن الركوب والنفار. والخبط: السير على غير جادّة. والتلون: التبدل. والإعتراض: السير على غير خط مستقيم، كأنّه يسير عرضاً في حال سيره طولاً. يقال بعير عرضي يعترض في سيره لأنّه لم يتم رياضته، وفي فلان عرضية أي عجرفة وصعوبة.

(٤) إجمال القصة أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما دنا أجله وقرب مسيره إلى ربّه استشار فيمن يوليه الخلافة من بعده فأشير عليه بابنه عبد الله فقال لا يليها (أي الخلافة) اثنان من ولد الخطاب حسْبُ عمر ما حمل، ثم رأى أن يكِل الأمر إلى ستة قال: إنّ النبي ﷺ مات وهو راض عنهم، وعليهم بعد التشاور أن يعيّنوا واحداً منهم يقوم بأمر المسلمين، والستة رجال الشورى هم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، وكان سعد من بني عم عبد الرحمن كلاهما

أُقْرَنُ إِلَى هٰذِهِ ٱلنَّظَائِرِ[١] لٰكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا[٢] وَطِرْتُ إِذْ

من بني زهرة وكان في نفسه شيء من علي كرم الله وجهه من قبل أخواله لأنّ أمّه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ولعلي في قتل صناديدهم ما هو معروف مشهور. وعبد الرحمن كان صهراً لعثمان، لأنّ زوجته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت أختاً لعثمان من أمه، وكان طلحة ميالاً لعثمان لصلات بينهما على ما ذكره بعض رواة الأثر، وقد يكفي في ميله إلى عثمان، انحرافه عن علي لأنّه تيمي وقد كان بين بني هاشم وبني تيم مواجد لمكان الخلافة في أبي بكر، وبعد موت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اجتمعوا وتشاوروا فاختلفوا، وانضم طلحة في الرأي إلى عثمان، والزبير إلى علي، وسعد إلى عبد الرحمن، وكان عمر قد أوصى: بأن لا تطول مدة الشورى فوق ثلاثة أيام وأن لا يأتي الرابع إلاّ ولهم أمير، وقال: إذا كان خلاف فكونوا مع الفريق الذي فيه عبد الرحمن. فأقبل عبد الرحمن على عليّ وقال: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده». فقال عليّ: «أرجو أن أفعل وأعمل على مبلغ علمي وطاقتي». ثم دعا عثمان وقال له مثل ذلك فأجابه بنعم، فرفع عبدالرحمن رأسه إلى سقف المسجد، حيث كانت المشورة، وقال: «اللهم اسمع واشهد. اللهم إنّي جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان». وصفق بيده في يد عثمان وقال: «السلام عليك يا أمير المؤمنين». وبايعه. قالوا وخرج الإمام علي واجداً، فقال المقداد بن الأسود لعبد الرحمن: «والله لقد تركت عليّاً وإنّه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون». فقال: «يا مقداد! لقد تقصيت الجهد للمسلمين». فقال المقداد: «والله إنّي لأعجب من قريش إنّهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أنّ رجلاً أقضى بالحق ولا أعلم به منه». فقال عبد الرحمن: «يا مقداد إنّي أخشى عليك الفتنة فاتّق الله». ثم لما حدث في عهد عثمان ما حدث من قيام الأحداث من أقاربه على ولاية الأمصار ووجد عليه كبار الصحابة روي أنّه قيل لعبد الرحمن هذا عمل يديك، فقال: «ما كنت أظن هذا به ولكن لله علي أن لا أكلمه أبداً». ثم مات عبد الرحمن وهو مهاجر لعثمان، حتى قيل إنّ عثمان دخل عليه في مرضه يعوده فتحول إلى الحائط لا يكلمه. والله أعلم والحكم لله يفعل ما يشاء.

(١) المشابه بعضهم بعضاً دونه.

(٢) أسف الطائر: دنا من الأرض، يريد أنه لم يخالفهم في شيء.

طَارُوا. فَصَغَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ(١) وَمَالَ ٱلآخَرُ لِصِهْرِهِ(٢) مَعَ هَنٍ وَهَنٍ(٣) إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ ٱلْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ(٤) بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ.

وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضِمُونَ مَالَ ٱللَّهِ خَضْمَةَ ٱلإِبِلِ نِبْتَةَ ٱلرَّبِيعِ(٥)، إِلَى أَنِ ٱنْتَكَثَ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ(٦)، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ(٧)، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَٱلنَّاسُ كَعُرْفِ ٱلضَّبُعِ إِلَيَّ(٨) يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ ٱلْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ،

---

(١) صغى صغىً وصغا صغوا: مال، والضغن: الضغينة يشير إلى سعد.

(٢) يشير إلى عبد الرحمن.

(٣) يشير إلى أغراض أخر يكره ذكرها.

(٤) يشير إلى عثمان وكان ثالثاً بعد انضمام كل من طلحة والزبير وسعد إلى صاحبه كما تراه في خبر القضية. ونافجاً حضنيه: رافعاً لهما، والحضن: ما بين الأبط والكشح. يقال للمتكبر جاء نافجاً حضنيه. ويقال مثله لمن امتلأ بطنه طعاماً، والنثيل: الروث، والمعتلف من مادة علف: موضع العلف وهو معروف أي لا هم له إلاّ ما ذكر.

(٥) الخضم: على ما في القاموس: الأكل أو بأقسى الأضراس أو ملء الفم بالمأكول أو خاص بالشيء الرطب. والقضم: الأكل بأطراف الأسنان أخف من الخضم والنبتة: بكسر النون كالنبات في معناه.

(٦) انتكث فتله: انتقض. وأجهز عليه عمله، تمم قتله. تقول أجهزت على الجريح وذففت عليه.

(٧) البِطنة بالكسر: البطر والأشر. والكظة: (أي التخمة) والإسراف في الشبع. وكبت به: من كبا الجواد إذا سقط لوجهه.

(٨) عرف الضبع: ما كثر على عنقها من الشعر وهو ثخين يضرب به المثل في الكثرة والازدحام، وينثالون: يتتابعون مزدحمين. والحسنان: ولداه الحسن والحسين، وشق عطفاه: خدش جانباه من الاصطكاك. وفي رواية شق عطافي. والعطاف: الرداء وكان هذا الإزدحام لأجل البيعة على الخلافة.

مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ ٱلْغَنَمِ(١) فَلَمَّا نَهَضْتُ بِٱلأَمْرِ، نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ(٢)، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلاَمَ ٱللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣) بَلَى وَٱللَّه لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلٰكِنَّهُمْ حَلِيَتِ ٱلدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ(٤) وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا. أَمَّا وَٱلَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ ٱلنَّسَمَةَ(٥) لَوْلاَ حُضُورُ ٱلْحَاضِرِ(٦)، وَقِيَامُ ٱلْحُجَّةِ بِوُجُودِ ٱلنَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ أَنْ لاَ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ(٧)، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا(٨)، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ(٩).

---

(١) ربيضة الغنم: الطائفة الرابضة من الغنم يصف ازدحامهم حوله وجثومهم بين يديه.

(٢) الناكثة: أصحاب الجمل، والمارقة: أصحاب النهروان، والقاسطون: أي الجائرون أصحاب صفين.

(٣) سورة القَصَص: ٨٣.

(٤) حليت الدنيا: من حليت المرأة إذا تزينت بحليها، والزبرج الزينة من وشي أو جوهر.

(٥) النَّسَمة محركة؛ الروح. وبرأها: خلقها.

(٦) من حضر لبيعته ولزوم البيعة لذمة الإمام بحضوره.

(٧) والناصر الجيش الذي يستعين به على إلزام الخارجين بالدخول في البيعة الصحيحة. والكظة: ما يعتري الأكل من امتلاء البطن بالطعام والمراد استئثار الظالم بالحقوق، والسغب: شدّة الجوع والمراد منه هضم حقوقه.

(٨) الغارب: الكاهل. والكلام تمثيل للترك وإرسال الأمر.

(٩) عفطة العنز: ما تنثره من أنفها كالعفطة، عفطت تعفط من باب ضرب، غير أنّ =

(قالوا): وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّوَادِ(١)، عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ، فَنَاوَلَهُ كِتَاباً فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فِيهِ. قَالَ لَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، لَوِ ٱطَّرَدْتَ خُطْبَتَكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ». فَقَالَ:

«هَيْهَاتَ يَا ٱبْنَ عَبَّاسٍ تِلْكَ شِقْشِقَةٌ(٢) هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ».

قَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَٱللَّهِ مَا أَسِفْتُ عَلَى كَلاَمٍ قَطُّ كَأَسَفِي عَلَى هٰذَا ٱلْكَلاَمِ أَنْ لاَ يَكُونَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ».

(قَوْلُهُ: كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ) يُرِيدُ: أَنَّهُ إِذَا شَدَّدَ عَلَيْهَا فِي جَذْبِ ٱلزِّمَامِ وَهِيَ تُنَازِعُهُ رَأْسَهَا خَرَمَ أَنْفَهَا وَإِنْ أَرْخَى لَهَا شَيْئاً مَعَ صُعُوبَتِهَا تَقَحَّمَتْ بِهِ فَلَمْ يَمْلِكْهَا. يُقَالُ أَشْنَقَ ٱلنَّاقَةَ إِذَا جَذَبَ رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ فَرَفَعَهُ وَشَنَّقَهَا أَيْضاً، ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱبْنُ السِّكِّيتِ فِي إِصْلاَحِ ٱلْمَنْطِقِ. وَإِنَّمَا قَالَ أَشْنَقَ لَهَا وَلَمْ يَقُلْ أَشْنَقَهَا لأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ أَسْلَسَ لَهَا فَكَأَنَّهُ عليه السلام قَالَ إِنْ رَفَعَ لَهَا رَأْسَهَا بِمَعْنَى أَمْسَكَهُ عَلَيْهَا بِٱلزِّمَامِ.

= أكثر ما يستعمل ذلك في النعجة، والأشهر في العنز النفطة بالنون، يقال: «ما له عافط ولا نافط» أي نعجة ولا عنز، كما يقال: «ما له ثاغية ولا راغية»، والعفطة الحبقة أيضاً لكن الأليق بكلام أمير المؤمنين هو ما تقدم.

(١) السواد: العراق. وسمي سواداً لخضرته بالزرع والأشجار. والعرب تسمي الأخضر أسود قال الله تعالى: ﴿**مدهامتان**﴾: يريد الخضرة كما هو ظاهر.

(٢) الشقشقة بكسر فسكون فكسر: شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج، وصوت البعير بها عند إخراجها هدير، ونسبة الهدير إليها نسبة إلى الآلة، قال في القاموس: والخطبة الشقشقة العلوية وهي هذه.

اليعقوبي في تاريخه: (ج٢، ص٧٤) قال: وأُستخلف علي بن أبي طالب بن عبد المطَّلب، وأُمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، يوم الثلاثاء، لسبع بقين من ذي الحجَّة، سنة ٣٥، ومن شهور العجم في حزيران، وكانت الشَّمس يومئذٍ في الجوزاء، ستاً وعشرين درجة، وأربعين دقيقة، والقمر في الدلو، ثماني عشرة درجة، وأربعين دقيقة، وزحل في السنبلة، خمساً وعشرين درجة، والمريخ في الجدي، سبع درجات، بايعه طلحة، والزبير، والمهاجرون، والأنصار.

وكان أوَّل من بايعه، وصفق على يده، طلحة بن عبيد الله، فقال رجل من بني أسد: أوَّل يد بايعت يد شلاء، أو يد ناقصة.

وقام الأشتر فقال: أُبايعك يا أمير المؤمنين، على أنَّ عليَّ بيعة أهل الكوفة.

ثمَّ قام طلحة والزبير، فقالا: نبايعك يا أمير المؤمنين، على أنَّ علينا بيعة المهاجرين.

ثمَّ قام أبو الهيثم بن التِّيهان، وعقبة بن عمرو، وأبو أيُّوب فقالوا: نبايعك، على أنَّ علينا بيعة الأنصار، وسائر قريش.

وبايع الناس، إلَّا ثلاثة نفر من قريش: مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، وكان لسان القوم فقال: يا هذا إنَّك قد وترتنا جميعاً.

أما أنا: فقتلت أبي صبراً يوم بدر.

وأما سعيد: فقتلت أباه يوم بدر، وكان أبوه من نور قريش.

وأمَّا مروان: فشتمت أباه، وعبت على عثمان حين ضمَّه إليه على ذلك بنو عبد مناف.

فتبايعنا، على أن تضع عنَّا ما أصبنا، وتعفي لنا عمَّا في أيدينا، وتقتل قتلة صاحبنا (يريد عثمان بن عفَّان) فغضب علي وقال: أمَّا ما **ذكرت من وتري،** إيَّاكم فالحق وتركم.

وأما وضعي عنكم ما أصبتم: فليس لي أن أضع حق الله تعالى.

وأمَّا إعفائي عمَّا في أيديكم: فما كان لله وللمسلمين، فالعدل يسعكم.

وأمَّا قتلي قتلة عثمان: فلو لزمني قتلهم اليوم، لزمني قتالهم غداً.

ولكن لكم، أن أحملكم على كتاب الله، وسُنَّة نبيّه، فمن ضاق عليه الحقّ، فالباطل عليه أضيق، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم.

فقال مروان: بل نبايعك، ونقيم معك، فترى ونرى.

وقام قوم من الأنصار فتكلَّموا، وكان أوَّل من تكلَّم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، وكان خطيب الأنصار فقال:

والله يا أمير المؤمنين، لئن كانوا تقدَّموك في الولاية، فما تقدَّموك في الدِّين، ولئن كانوا سبقوك أمس، فقد لحقتهم اليوم،

ولقد كانوا وكنت، لا يخفى موضعك، ولا يُجهل مكانك، يحتاجون إليك فيما لا يعلمون، وما احتجت إلى أحد مع علمك.

ثم قام خزيمة بن ثابت الأنصاري، وهو ذو الشهادتين فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، ولا كان المنقلب إلَّا إليك، ولئن صدقنا أنفُسنا فيك، فلأنت أقدم النَّاس إيماناً، وأعلم الناس بالله، وأولى المؤمنين برسول الله، لك ما لهم، وليس لهم ما لك.

وقام صعصعة بن صوحان فقال:

والله يا أمير المؤمنين، لقد زيَّنْتَ الخلافة وما زانَتك، ورفعتها وما رفعتك، ولهي إليك أحوج منك إليها.

ثم قام مالك بن الحارث الأشتر فقال:

أيُّها الناس، هذا وصيّ الأوصياء، ووارث علم الأنبياء العظيم البلاء، الحسن الغناء، الذي شهد له كتاب الله بالإيمان، ورسوله بجنَّة الرضوان، مَن كملت فيه الفضائل، ولم يشكَّ في سابقته، وعلمه، وفضله الأواخر، ولا الأوائل.

ثم قام عقبة بن عمرو فقال: من له يوم كيوم العقبة، وبيعة كبيعة الرضوان، والإمام الأهدى، الذي لا يُخاف جوره، والعالم الذي لا يُخاف جهله.

ويضيف اليعقوبي قال: وعزل عليّ، عمَّال عثمان عن البلدان، خلا أبا موسى الأشعريّ، كلَّمه فيه الأشتر، فأقرَّه وولَّى

قثم بن العبَّاس مكَّة، وعبد الله بن العبَّاس اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة مصر، وعثمان بن حنيف الأنصاري البصرة، وأتاه طلحة والزبير فقالا: إنَّه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة، فأشركنا في أمرك.

فقال: أنتما شريكاي في القوَّة، والاستقامة، وعوناي على العجز والأود.

وروى بعضهم: أنَّ المغيرة بن شعبة قال له: يا أمير المؤمنين أنفذ طلحة إلى اليمن، والزبير إلى البحرين، واكتب بعهد معاوية على الشام، فإذا استقامت الأُمور، فشأنك وما تريد فيهم.

فأجابه في ذلك بجواب، فقال المغيرة: والله ما نصحت له قبلها، ولا أنصح له بعدها.

وكانت عائشة بمكَّة، خرجت قبل أن يقتل عثمان، فلما قضت حجّها، انصرفت راجعة، فلمَّا صارت في بعض الطريق، لقيها ابن أُمّ كلاب، فقالت له: ما فعل عثمان.

قال: قتل. قالت: بعداً، وسُحْقاً.

قالت: فمن بايع الناس؟

قال: طلحة.

قالت: أيْها ذو الأصبع.

ثمَّ لقيها آخر، فقالت: ما فعل الناس؟

قال: بايعوا عليّاً.

قالت: والله ما كنت أبالي، أن تقع هذه على هذه.

ثمَّ رجعت إلى مكَّة، وأقام علي أيَّاماً، ثم أتاه طلحة والزبير فقالا: إنَّا نريد العمرة، فأذن لنا في الخروج.

فقال لهما: والله ما أردتما العمرة، ولكنَّكما أردتما الغدرة، فلحقا عائشة بمكَّة، فحرَّضاها على الخروج، فأتت أُمّ سلمة، بنت أبي أُميَّة زوج رسول الله، فقالت: إنَّ ابن عمِّي وزوج أختي، أعلماني أنَّ عثمان قُتل مظلوماً، وأنَّ أكثر الناس لم يرض ببيعة عليّ، وأنَّ جماعة ممَّن بالبصرة قد خالفوا، فلو خرجت بنا، لعلَّ الله أن يُصلح أمر أُمَّة محمَّد على أيدينا؟

فقالت لها أُمُّ سلمة: إنَّ عماد الدِّين لا يُقام بالنِّساء، حُماديات النِّساء، غضّ الأبصار، وخفض الأطراف، وجرِّ الذيول، إنَّ الله وضع عنِّي وعنك هذا، ما أنت قائلة، لو أنَّ رسول الله عارضك بأطراف الفلوات، قد هتكت حجاباً قد ضربه عليك؟

فنادى مناديها: ألا إنَّ أُمّ المؤمنين مقيمة، فأقيموا وأتاها طلحة والزبير، وأزالاها عن رأيها، وحملاها على الخروج، فسارت إلى البصرة، مخالفة على عليّ، ومعها طلحة والزبير في خلق عظيم. انتهى.

وروى الطبري في تاريخه: (ج٣، ص٤٥٨) قال:

واجتُمع إلى علي، بعدما دخل طلحة والزبير، في عدَّة من الصحابة، فقالوا: يا عليّ، إنَّا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإنَّ هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم.

فقال لهم: يا إخوتاه، إنِّي لست أجهل ما تعلمون، ولكنِّي كيف أصنع بقوم، يملكونا ولا نملكهم، ها هم هؤلاء، قد ثارت معهم عُبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم، يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء، ممَّا تريدون قالوا: لا.

قال: فلا والله، لا أرى إلَّا رأياً ترونه إن شاء الله، إنَّ هذا الأمر أمر جاهلية، وإنَّ لهؤلاء القوم مادة، وذلك أنَّ الشيطان، لم يشرع شريعة قطّ، فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً.

إنَّ الناس من هذا الأمر، إن حُرِّك على أُمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا، حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق، فاهدؤوا عنِّي، وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا.

وقال طلحة: دعني فلآت البصرة، فلا يفجأك إلَّا وأنا في خيل.

فقال: حتى أنظر في ذلك.

وقال الزبير: دعني آت الكوفة، فلا يفجِئك إلَّا وأنا في خيل فقال: حتى أنظر في ذلك.

وسمع المغيرة بذلك المجلس، فجاء حتى دخل عليه فقال: إنَّ لك حق الطاعة والنصيحة، وإنَّ الرأي تحرز به ما في غد، وإنَّ الضياع اليوم تضييعِ ما في غد، أقْرِرْ معاوية على عمله، وأقْرِرْ ابن عامر على عمله، وأقْرِرْ العمَّال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم، وبيعة الجنود استبدلت، أو تركت.

قال: حتى أنظر.

فخرج من عنده، وعاد إليه من الغد فقال: إنِّي أشرت عليك بالأمس برأي، وإنَّ الرأي أن تعاجلهم بالنزوع، فيعرف السامع من غيره، ويستقبل أمرك.

ثمَّ خرج، وتلقاه ابن عباس خارجاً، وهو داخل، فلما انتهى إلى علي قال: رأيت المغيرة خرج من عندك، ففيم جاءك قال: جاءني أمس بذيَّ وذَيَّ، وجاءني اليوم بذي وذي.

فقال: أما أمس، فقد نصحك.

وأمَّا اليوم: فقد غشك.

فقال ابن عباس لعلي: وأنا أشير عليك، بأن تثبت معاوية، فإن بايع فعليَّ أن أقلعه من منزله.

قال عليٌّ: لا والله لا أعطيه إلَّا السيف.

قال: ثم تمثل بهذا البيت:

ما ميتة إن مُتُّها غيْرَ عاجزِ بعارٍ إذا ما غالَتِ النفس غوُلها

روى الأندلسي في العقد الفريد قال: «ج٥ ص٦٠»: لما قتل عثمان بن عفَّان، أقبل الناس يهرعون إلى علي بن أبي طالب، فتراكمت عليه الجماعة في البيعة فقال: ليس ذلك إليكم، إنَّما ذلك لأهل بدر ليبايعوا.

فقال: أين طلحة، والزبير، وسعد؟ فأقبلوا فبايعوا، ثم بايعه المهاجرون والأنصار، ثم بايعه الناس، وذلك يوم الجمعة لثلاث

عشرة خلت من ذي الحجَّة سنة خمس وثلاثين، وكان أوَّل من بايعه: طلحة، وكانت إصبعه شلَّاء، فتطيَّر منها عليّ وقال: ما أخلقه أن ينكث، فكان كما قال علي (رضي الله عنه).

وأضاف، ينسب علي ويصفه قال: هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأُمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، كان أصلعاً بطيناً، حمش الساقين «دقيقهما».

قال: وهو أوَّل من شهد: أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه.

وقال له النبي ﷺ: أما ترضى أن تكون منِّي، بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنَّه لا نبيَّ بعدي.

قال: وبهذا الحديث، سمت الشيعة علي بن أبي طالب الوصيَّ، وتأولوا فيه أنَّه استخلفه على أُمَّته، إذ جعله منه بمنزلة هارون من موسى، لأنَّ هارون كان خليفة موسى على قومه إذا غاب عنهم.

وقال السيِّد الحميري رحمهُ الله تعالى:

إنِّي أدين بما دانَ الوصيُّ به   وشاركتْ كفَّهُ كفِّي بصفينا

قال: وجمع النبي ﷺ فاطمة، وعليّاً، والحسن، والحسين، فألقى عليهم كساءه، وضمَّهم إلى نفسه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١) فتأولت الشيعة الرجس، هنا بالخوض في غمرة الدُّنيا وكدورتها.

قال: وقال النبي ﷺ يوم خيبر: لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يُحبُّ الله ورسوله، ويُحبّه الله ورسوله، لا يمسي حتى يفتح الله له، فدعا عليّاً، وكان أرْمدَ، فتفل في عينيه وقال: اللَّهمَّ قِهِ داء الحرَّ والبرد، فكان يلبس كسوة الصيف في الشتاء، وكسوة الشتاء في الصيف ولا يضرّه.

قال: ذُكر عليّ عند عائشة، فقالت: ما رأيت رجلاً أحبّ إلى رسول الله منه، ولا رأيتُ امرأة أحب إليه من امرأته.

قال: وقال علي بن أبي طالب: أنا أخو رسول الله ﷺ وابن عمِّه، لا يقولها بعدي إلَّا كذَّاب.

وقال عن الشعبي، أنَّه قال: كان علي بن أبي طالب في هذه الأُمَّة، مثل المسيح بن مريم في بني إسرائيل، أحبه قومٌ فكفروا في حبِّه، وأبغضه قومٌ فكفروا في بغضه.

وقال: كان علي بن أبي طالب، إذا دخل بيت المال، ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة قال:

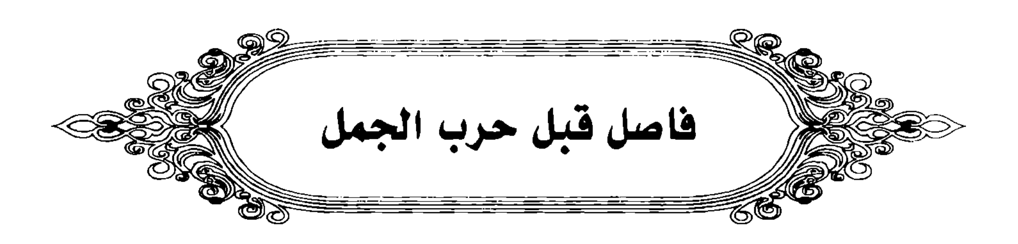
ابيضِّي واصفرِّي وغرِّي غيري ... إنِّي من اللَّه بكُلِّ خيرِ

قال: وسأل رجل الحسن البصري فقال: يا أبا سعيد، إنَّهم يزعمون أنَّك تبغض عليّاً؟

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

قال: فبكى الحسن حتى اخضلت لحيته ثم قال: كان علي بن أبي طالب، سهماً صائباً من مرامي الله على عدوِّه، وربَّاني هذه الأُمَّة، وذا فضلها، وسابقتها، وذا قرابة، قريبةٍ من رسول الله ﷺ، لم يكن النَّومةِ عن رسول الله ﷺ، ولا الملولة في ذات الله، ولا السروقةِ لمال الله، أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياضٍ مونقةٍ، وأعلام بيِّنة، ذلك علي بن أبي طالب يا لكع.





فاصل قبل حرب الجمل

ها هي ساح الحرب، عادت تدعو عليّاً، ليحمل لواء النبي من جديد.

ليُقاتل قريشاً وجنودها وهم مفتونين، كما قاتلهم من قبل، تحت لواء النبي، وهم مشركين.

وها هو الوحي، المنزل على رسول الله، يصرخ: أغثني يا عليّ، أغثني يا عليّ، أغثني يا عليّ.

وها هم الفقراء، الذين قد غبَّ الحيف أفواههم، وسحق الاستعلاء وجودهم، قد أقبلوا، شاخصة أبصارهم إلى رحمة الله، في خلافة علي.

وها هو القرآن، والعدل، والإسلام، والسلم، والحرب، والإقدام، والحكم، والقصاص، يثور إعصاراً في صدر عليّ، ليحكم في أُمَّة محمَّد، بما أنزل الله، ليعمَّ عدل الإسلام وسعادته، العربي والعجمي، والأسود والأبيض، وكذلك الأخ في الدِّين، والنظير في الخلق، أو الناس كافة.

فها هي شياطين الجن والإنس، قد برزت مجتمعة، متحدة إلى حرب الله ورسوله، في حرب عليّ.

لقد جمعت، وأعدت، وشحذت سيف الشِّرك والبغي، لتزحف تحت لواء الثارات، وقد اتخذت كلمة التوحيد شعاراً، ظاهره الإسلام والإيمان، وباطنه الكفر والنفاق، ليضلوا به، من لا يعرف من الإسلام إلَّا اسمه، ولا يفقه من القرآن إلَّا رسمه، يميل مع كل ريح، وينعق مع كل ناعق.

لقد طلبوا الولاية والسلطان من علي، فقال لهم: إنَّ طالب الولاية لا يولى.

وجاء آخرون، ليحملوه على العطاء والإسراف، من بيت مال المسلمين، فقال لهم ولي الله:

وَاللَّهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا؟!

وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ، حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ(١)**، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي،**

---

(١) العظلم: سواد يصبغ به.

وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ، مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ[1]، مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ[2] الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ، أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى؟! وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟

فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ.

فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ، أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا.

مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

وقال في نهج البلاغة: (ج٢، ص٣٩٤) في خطبته القاصعة يذمّ إبليس والمستكبرين ويحذّر من اتباعهم قال عليه السلام:

---

(١) الدنف: المريض.

(٢) ثكل من فقدت ولدها.

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اَلَّذِي لَبِسَ اَلْعِزَّ وَاَلْكِبْرِياءَ، وَاَخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاَصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ، وَجَعَلَ اَللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ، ثُمَّ اَخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلاَئِكَتَهُ اَلْمُقَرَّبِينَ لِيَمِيزَ اَلْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ اَلْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ اَلْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ اَلْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ اَلْغُيُوبِ: ﴿...إِنِّي خَالِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [ص: ٧١-٧٤] اَعْتَرَضَتْهُ اَلْحَمِيَّةُ فَاَفْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لأَصْلِهِ، فَعَدُوُّ اَللَّهِ إِمَامُ اَلْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ اَلْمُسْتَكْبِرِينَ، اَلَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ اَلْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اَللَّهَ رِدَاءَ اَلْجَبَرِيَّةِ، وَاَدَّرَعَ لِبَاسَ اَلتَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ اَلتَّذَلُّلِ.

أَلاَ تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اَللَّهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي اَلدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَأَعَدَّ لَهُ فِي اَلآخِرَةِ سَعِيراً.

وَلَوْ أَرَادَ اَللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ، يَخْطَفُ اَلأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ اَلْعُقُولَ رُوَاؤُهُ[1]، وَطِيبٍ يَأْخُذُ اَلأَنْفَاسَ عَرْفُهُ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ اَلأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ اَلْبَلْوَى فِيهِ عَلَى اَلْمَلاَئِكَةِ، وَلٰكِنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاِخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ مِنْهُمْ.

---

(١) الرُّواء ـ بضم ففتح ـ حسن المنظر. والعرف ـ بالفتح ـ الرائحة.

فَٱعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ ٱلطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ ٱلْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللَّهَ سِتَّةَ آلآفِ سَنَةٍ، لاَ يُدْرَى أَمِنْ سِنِي ٱلدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي ٱلآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ[١]، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى ٱللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَةٍ[٢]؟ كَلَّا، مَا كَانَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً! إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْأَرْضِ لَوَاحِدٌ، وَمَا بَيْنَ ٱللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ[٣].

فَٱحْذَرُوا ـ عِبَادَ ٱللَّهِ ـ عَدُوَّ ٱللَّهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ[٤]، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ ٱلْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ ٱلشَّدِيدِ[٥]، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ[٦]، وَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٧] قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ.

---

(١) عن متعلق بأحبط، أي أضاع عمله بسبب كبر ساعة.
(٢) أي يسلم من عقابه، وكأنّه استعمل سلم بمعنى ذهب أو فات فأتى بعلى.
(٣) الهوادة ـ بالفتح ـ اللين والرخصة.
(٤) أن يصيبكم بشيء من دائه بالمخالطة كما يعدي الأجرب السليم، والضمير لابليس ويستفزكم: يستنهضكم لما يريد فإن تباطأتم عليه أجلب عليكم بخيله أي ركبانه، ورجله أي مشاته. والمراد أعوان السوء.
(٥) النزع في القوس: مدها. وأغرق النازع إذا استوفى مدّ قوسه.
(٦) لأنّه يجري من ابن آدم مجرى الدم.
(٧) سورة الحِجر: ٣٩.

صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ ٱلْحَمِيَّةِ[١]، وَإِخْوَانُ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلْجَامِحَةُ مِنْكُمْ[٢]، وَٱسْتَحْكَمَتِ ٱلطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ ٱلْحَالُ مِنَ ٱلسِّرِّ ٱلْخَفِيِّ إِلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْجَلِيِّ، ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ ٱلذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ ٱلْقَتْلِ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِثْخَانَ ٱلْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ ٱلْقَهْرِ إِلَى ٱلنَّارِ ٱلْمُعَدَّةِ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ جَرْحاً[٣]، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً مِنَ ٱلَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ، فَٱجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ[٤] وَلَهُ جَدَّكُمْ، فَلَعَمْرُ ٱللَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ

---

(١) صدق إبليس في توعّد بني آدم بالإغواء أولئك الغشماء أبناء الحمية الجاهلية.

(٢) أي استعان ببعضكم على من لم يطعه منكم وهو المراد بالجامحة. والطماعية: الطمع. وقوله فنجمت الخ أي بعد أن كانت وسوسة في الصدور وهمساً في القول ظهرت إلى المجاهرة بالنداء ورفع الأيدي بالسلاح. ودلفت الكتيبة في الحرب: تقدمت. وأقحموكم: أدخلوكم بغتة. والولجات جمع ولجة بالتحريك. كهف يستتر فيه المارة من مطر ونحوه. أوطأه: أركبه. وإثخان الجراحة المبالغة فيها، أي أركبوكم الجراحات البالغة كناية عن إشعال الفتنة بينهم حتى يتقاتلوا. والخزائم جمع خزامة ككتابة. وهي حلقة توضع في وترة أنف البعير فيشدّ فيها الزمام.

(٣) فأصبح أي إبليس. وقوله وأورى... الخ: أي أشدّ قدحاً للنار في دنياكم لاتلافها، وبالجملة فهو أضرّ عليكم بوساوسه من إخوانكم في الإنسانية الذين أصبحتم لهم مناصبين أي مجاهرين لهم بالعداوة ومتألبين أي مجتمعين.

(٤) أي غضبكم وحدتكم. وله جدكم بفتح الجيم أي قطعكم، يريد قطع الوصلة بينكم وبينه.

فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ[١]، لاَ تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلاَ تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرَصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلاَءٍ.

فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ ٱلْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ ٱلشَّيْطَانِ، وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ[٢]، وَٱعْتَمِدُوا وَضْعَ ٱلتَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ ٱلتَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ ٱلتَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ. وَٱتَّخِذُوا ٱلتَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً[٣] بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجْلاً وَفُرْسَاناً، وَلاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ ٱللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ ٱلْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ ٱلْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ ٱلْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ ٱلْغَضَبِ، وَنَفَخَ ٱلشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ ٱلْكِبْرِ ٱلَّذِي أَعْقَبَهُ ٱللَّهُ بِهِ ٱلنَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ ٱلْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ.

أَلاَ وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي ٱلْبَغْيِ[٤]، وَأَفْسَدْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ،

---

(١) البنان: الأصابع.

(٢) النخوة: التكبر والتعاظم. والنزغة: المرة من النزغ بمعنى الإفساد. والنفثة: النفخة.

(٣) المسلحة: الثغر يدافع العدو عنده والقوم ذوو السلاح.

(٤) أمعنتم: بالغتم. والمصارحة: التظاهر.

مُصَارَحَةً لِلَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ، فَاللَّهَ ٱللَّهَ فِي كِبْرِ ٱلْحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ ٱلشَّنَآنِ(١) وَمَنَافِخُ ٱلشَّيْطَان ٱلَّتِي خَدَعَ بِهَا ٱلأُمَمَ ٱلْمَاضِيَةَ، وَٱلْقُرُونَ ٱلْخَالِيَةَ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ(٢)، وَمَهَاوِي ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ، أَمْراً تَشَابَهَتِ ٱلْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ ٱلْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ ٱلصُّدُورُ بِهِ.

أَلاَ فَالْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ ٱلَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقُوا ٱلْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ(٣)، وَجَاحَدُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لآِلاَئِهِ(٤)، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ ٱلْفِتْنَةِ، وَسُيوفُ ٱعْتِزَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ(٥).

---

(١) الملاقح جمع ملقح كمكرم الفحول التي تلقح الإناث وتستولد الأولاد. والشنآن البغض.

(٢) أعنقوا: من أعنقت الثريا: غابت، أي غابوا واختفوا. والحنادس جمع حندس بكسر الحاء الظلام الشديد. والمهاوي جمع مهواة الهوة التي يتردى فيها الصيد. والذلل جمع ذلول من الذلّ بالضم ضد الصعوبة. والسياق هنا السوق. والسلس بضمتين جمع سلس ككتف السهل والقياد من أمام كالسوق من خلف.

(٣) الهجينة: الفعلة القبيحة. والتهجين: التقبيح أي أنّهم باحتقار غيرهم من الناس قبحوا خلق الله لهم.

(٤) الآلاء: النعم.

(٥) اعتزاء الجاهلية: تفاخرهم بأنسابهم كل منهم يعتزي أي ينتسب إلى أبيه وما فوقه من أجداده، وكثيراً ما يجرّ التفاخر إلى الحرب، وإنّما تكون بدعوة الرؤساء فهم سيوفها.

فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْداداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً، وَلاَ تُطِيعُوا ٱلأَدْعِيَاءَ ٱلَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ[١]، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ ٱلْفُسُوقِ وَأَحْلاَسُ ٱلْعُقُوقِ، ٱتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى ٱلنَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، إِسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ[٢]، وَمَوْطِىءَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ ٱلْأُمَمَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ وَصَوْلاَتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ[٣]، وَٱتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ[٤]، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَٱسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ ٱلْكِبْرِ[٥] كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ ٱلدَّهْرِ.

فَلَوْ رَخَّصَ ٱللَّهُ فِي ٱلْكِبْرِ لأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ

---

(١) الأدعياء ـ جمع دعي ـ وهو من ينتسب إلى غير أبيه، والمراد منهم الأخساء المنتسبون إلى الأشراف والأشرار المنتسبون إلى الأخيار. وشربتم بصفوكم كدرهم: أي خلطوا صافي إخلاصكم بكدر نفاقهم. وبسلامة أخلاقكم مرض أخلاقهم. والأحلاس جمع حلس بالكسر. كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له فقيل لكل ملازم لشيء هو حلسه. والعقوق: العصيان.

(٢) النبل ـ بالفتح ـ : السهام.

(٣) المَثُلات ـ بفتح فضم ـ العقوبات.

(٤) مثاوي ـ جمع مثوى ـ بمعنى المنزل. ومنازل الخدود: مواضعها من الأرض بعد الموت. ومصارع الجنوب: مطارحها على التراب.

(٥) لواقح الكبر: محدثاته في النفوس.

لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ ٱلتَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ ٱلتَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي ٱلتُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا أَقْوَاماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ ٱللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ[١]، وَٱبْتَلاَهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ، فَلاَ تَعْتَبِرُوا ٱلرِّضَا وَٱلسُّخْطَ بِالْمَالِ وَٱلْوَلَدِ[٢]، جَهْلاً بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ وَٱلاِخْتِبَارِ فِي مَوَاضِعِ ٱلْغِنَى وَٱلاِقْتِدَارِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ إِنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.. إلخ.

وبعد، فإنِّي أعتذر من حبيبي القارىء، لهذا الاستطراد والإسهاب، فقد كان مطلوباً ومرجواً، لما سيأتي من أحداث ووقائع، مُدمية للقلب، مرهقة للنفس، تميث لُبّ العقل، كما يُماث الملح بالماء.

والسؤال: فأين ذهب هؤلاء، عن الولاء لهذا الإمام العظيم، وإلى ما جنحوا عن طاعة الله ورسوله فيه، حتى هلكوا وأهلكوا،

---

(١) المخمصة: الجوع. والمجهدة: المشقة. ومخض اللبن: تحريكه ليخرج زبده. والمكاره تستخلص إيمان الصادقين وتظهر مزاياهم العقلية والنفسية.

(٢) لا تجعلوا كثرة الأولاد، ووفرة الأموال، دليلاً على رضاء الله، والنقص فيهما دليلاً على سخطه، فقد يكون الأول فتنة واستدراجاً، والثاني ابتلاء.

فسبحان الله، وهو القائل عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].



(١) سورة الزُّمَر: ٦٧.



حرب الجمل

فلا ريب في أنَّ العلل معلولة لِمُعلِّها، مُعِلةٌ لمعلولاتها، فإمَّا خيراً وصلاحاً، وإمَّا شرّاً وفساداً، فلا تنفك قائمة، فاعلة، مُنفعلة، متفاعلة، كمثل الزوجية الصالحة، في اللِّقاح والإنجاب.

روى البخاري، ومسلم في صحيحيهما:

أنَّ رسول الله ﷺ قال: من سنَّ سُنَّةً صالحة، فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. ومن سنَّ سُنَّة سيِّئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2].

روى الطبري في تاريخه: (ج٣، ص٤٦٩)، قال: خرجت

---

(١) سورة يٓس: ١٢.

(٢) سورة النِّساء: ٥٩.

عائشة نحو المدينة من مكَّة بعد مقتل عثمان، فلقيها رجل من أخوالها، فقالت: ما وراءك؟

قال: قتل عثمان، واجتمع الناس على عليّ، والأمر أمر الغوغاء.

فقالت: ما أظن ذلك تاماً، ردّوني، فانصرفت راجعة إلى مكَّة، حتى إذا دخلتها، أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي، وكان أمير عثمان عليها فقال: ما ردّكِ يا أُمّ المؤمنين؟

قالت: ردَّني، أنَّ عثمان قُتل مظلوماً، وأنَّ الأمر لا يستقيم، ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزّوا الإسلام، فكان أوَّل من أجابها: عبد الله بن عامر الحضرمي، وذلك أوَّل ما تكلَّمت بنو أُميَّة بالحجاز، ورفعوا رؤوسهم، وقام معهم سعيد بن العاصي، والوليد بن عقبة، وسائر بني أُميَّة، وقد قدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة، ويعلى بن أُميَّة من اليمن، وطلحة والزبير من المدينة، واجتمع ملأهم، بعد نظر طويل في أمرهم على البصرة، وقالت:

أيُّها الناس، إنَّ هذا حدث عظيم، وأمر منكر، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم، لعلَّ الله عزَّ وجلَّ يدرك لعثمان، وللمسلمين بثأرهم.

وأضاف الطبري قال: قال أبو قتادة لعلي: يا أمير المؤمنين، إنَّ رسول الله ﷺ قلَّدني هذا السيف وقد شمتهُ، فطال شيْمهُ، وقد أتى تجريده على هؤلاء القوم الظالمين، الذين لم يألوا الأُمَّة غشاً، فإن أحببت أن تقدمني فقدمني.

وقامت أُمّ سَلَمةَ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله عزَّ وجلَّ، وأنَّك لا تقبله منِّي، لخرجت معك، وهذا ابني عمر، والله لهو أعزّ عليَّ من نفسي، يخرج معك، فيشهد مشاهدك، فخرج فلم يزل معه.

ويضيف الطبري قال: أنَّ عائشة «رضي الله عنها»، لما انتهت إلى سَرِف، راجعة في طريقها من مكَّة، لقيها عبد بن أُمّ كلاب، وهو عبد بن أبي سلمة، يُنسب إلى أُمِّه.

فقالت له: مَهْيم.

قال: قتلوا عثمان «رضي الله عنه».

فمكثوا ثمانياً قالت: ثم صنعوا ماذا.

قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأُمور إلى خير مجاز، اجتمعوا على علي بن أبي طالب.

فقالت: والله، ليت أنَّ هذه انطبقت على هذه، إن تم الأمر لصاحبك، ردّوني، ردّوني، فانصرفت إلى مكَّة، وهي تقول: قُتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه.

فقال لها ابن أُمّ كلاب: ولِمَ، فوالله إنَّ أوَّل من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعْثلاً فقد كفر.

قالت: إنَّهم استتابوه ثمَّ قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير، خير من قولي الأوَّل.

فقال لها ابن أُمّ كلاب:

وَمنْكِ البداءُ ومنكِ الغِيرْ ومنْكِ الرِّياحُ ومنْكِ المطَرْ
وأنْتِ أمْرتِ بقتْلِ الإمام وقلت لنا إنَّهُ قَدْ كفْر
فهبنَا أطعْناكِ في قتْلهِ وقاتلهُ عندنَا من أمرْ
ولم يسقُطِ السَّقفُ مِنْ فوقنا ولم تنكسفْ شمْسنا والقمرْ
وقد بايَع النَّاس ذا تُدْرَاءِ يزيلُ الشَّبَا ويُقيمُ الصَّعَرْ
ويلبسُ للحرْبِ أثوابها وما مَنْ وَفى مِثْلُ من غَدَرْ

فانصرفت إلى مكَّة، فنزلت على باب المسجد، فقصدت للحجر فسترت، واجتمع إليها الناس، فقالت: يا أيُّها الناس، إنَّ عثمان، قتل مظلوماً، ووالله لأطلبن بدمه.

ويضيف الطبري في نفس المصدر ص٤٧٥ عن العُرْنيْ صاحب الجمل، أنَّه قال: بينما أنا أسير على جمل، إذ عرض لي راكب، فقال: يا صاحب الجمل تبيع جملك.

قلت: نعم.

قال: بكم.

قلت: بألف درهم.

قال: مجنون أنت، جمل يُباع بألف درهم.

قال: قلت: نعم جملي هذا.

قال: ومِمَّ ذلك.

قلت: ما طلبت عليه أحداً قطّ، إلَّا أدركته، ولا طلبني وأنا عليه أحد قطّ، إلَّا فُتَّهُ.

قال: لو تعلم لمن نريده، لأحسنت بيعنا.

قال: قلت: ولمن تريده؟

قال: لأُمّك.

قلت: لقد تركت أُمِّي في بيتها قاعدة، ما تريد براحاً.

قال: إنَّما أُريده لأُمّ المؤمنين عائشة.

قلت: فهو لك، فخذه بغير ثمن.

قال: لا، ولكن إرجع معنا إلى الرحل، فلنعطك ناقة مهرية، ونزيدك دراهم.

قال: فرجعت، فأعطوني ناقة لها مهريَّة، وزادوني ستمائة درهم.

فقال لي: يا أخا عُرِيْنة، هل لك دلالة بالطريق.

قال: قلت: نعم، أنا من أدرك الناس.

قال: فسر معنا، فسرت معهم، فلا أمر على وادٍ، ولا ماء، إلَّا سألوني عنه، حتى طرقنا ماء الحوأب، فنبحتنا كلابها.

قالوا: أي ماءٍ هذا؟؟ قلت: ماء الحوأب.

قال: فصرخت عائشة بأعلى صوتها، ثمَّ ضربت عضد بعيرها فأناخته، ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً، رُدّوني تقول ذلك ثلاثاً، فأناخت وأناخوا حولها، وهم على ذلك، وهي تأبى، حتى كانت الساعة التي أناخوا فيها، من الغد قالوا: فجاءها ابن الزبير، فقال: النجاء النجاء، فقد أدرككم والله عليٌّ بن أبي طالب.

قال: فارتحلوا وشتموني.

فانصرفت، فما سرت إلَّا قليلاً، وإذا أنا بعلي بن أبي طالب، وركب معه نحو من ثلثمائة.

فقال لي عليّ: يا أيُّها الراكب فأتيته، فقال: أين أتيت الضعينة.

قلت: في مكان كذا وكذا، وهذه ناقتها، وبعتهم جملي.

قال: وقد ركبت.

قلت: نعم، وسرت معهم حتى أتينا ماء الحوأب، فنبحت عليها كلابها فقالت: كذا وكذا، فلما رأيت اختلاط أمرهم، انفلتت وارتحلوا.

روى ابن قُتيبة في الإمامة والسياسة ج١ ص٧١ قال: وذكروا أنَّ عائشة، لما أتاها أنَّه بويع لعليّ، وكانت خارجة عن المدينة، فقيل لها: قتل عثمان، وبايع الناس عليّاً.

فقالت: ما كنت أُبالي، أن تقع السَّماء على الأرض، قتل والله مظلوماً، وأنا طالبة بدمه.

فقال لها عبيد: إنَّ أوَّل من طعن عليه، وأطمع الناس فيه لأنت، ولقد قلت: اقتلوا نعثلاً فقد فجر.

فقالت عائشة: قد والله قلت، وقال الناس، وآخر قولي خير من أوَّله.

فقال عبيد: عذر والله ضعيف يا أُمّ المؤمنين ثم قال:

وَمِـنْـكِ الـبـداءُ ومـنـكِ الـغِـيـرْ ومـنْـكِ الـرِّيـاحُ ومـنْـكِ الـمـطَـرْ
وأنْــتِ أمْــرتِ بــقــتْــلِ الإمــام وقــلــت لــنــا إنَّــهُ قَــدْ كــفــر
فــهــبـنَـا أطـعْـنـاكِ فـي قـتْـلـهِ وقــاتــلــهُ عــنــدنَــا مــن أمــرْ
ولم يسقُطِ السَّقفُ مِنْ فوقنا ولـم تـنكسفْ شمْسنا والقمرْ
وقـد بـايَـع الـنَّـاس ذا تُـدْرَاءٍ يـزيـلُ الـشَّـبَا ويُـقـيـمُ الـصَّـعَـرْ
ويـلـبـسُ لـلـحـرْبِ أثـوابـهـا ومـا مَـنْ وَفـى مِـثْـلُ مـن غَـدَرْ

قال: فلما أتى عائشة، خبر أهل الشام أنَّهم ردوا بيعة علي، وأبو أن يبايعوه، أمرت، فعمل لها هودج من حديد، وجعل فيه موضع عينيها، ثم خرجت، ومعها الزبير، وطلحة، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة.

قال: وذكروا أنَّ مروان بن الحكم، لما بويع علي، هرب من المدينة، فلحق بعائشة بمكَّة، فقالت له عائشة: ما وراءك؟

فقال مروان: غلبنا على أنفسنا.

فقال له رجل من أهل مكَّة: إيَّاك وعليّاً، فقد طلبك ففرَّ من بين يديه.

فقال مروان: لم؟ فوالله ما يجد إليَّ سبيلاً، أما هو فقد علمت أنَّه لا يأخذ بظن، ولا ينصب إلَّا على اليقين، وأيم الله ما أُبالي إذا قصر عليَّ سيفه، ما طال عليَّ من لسانه.

فقال الرجل: إذا أطال الله عليك لسانه طال سيفه.

قال مروان: كلا إنَّ اللِّسان أدب، والسيف حكم.

قال: وذكروا أنَّه لما تحدث الناس بالمدينة، بمسير عائشة، مع طلحة والزبير، ونصبهم الحرب لعليّ، وتألفهم الناس، كتبت أُمّ سلمة إلى عائشة:

أما بعد، فإنَّك سدَّة بين رسول الله، وبين أُمته، وحجابك مضروب على حرمته، قد جمع القرآن الكريم ذيلك، فلا تُنّدحيه، وسكن عقيرتك، فلا تُصحريها.

الله من وراء هذه الأُمَّة، قد علم رسول الله مكانك، لو أراد أن يعهد إليك، وقد علمت أنَّ عمود الدِّين، لا يثبت بالنِّساء إنْ مال، ولا يرأب بهن إن انصدع، حُماديَّات النِّساء، غضّ الأبصار، وضمّ الذيول، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ، لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات، على قعود من الإبل، من منهل إلى منهل، إنَّ بعين الله مهواكِ، وعلى رسول الله ﷺ تردين، وقد هتكت حجابه، الذي ضرب الله عليك، وتركت عهيداه، ولو أتيتُ الذي تريدين، ثم قيل لي أدخلي الجنَّة، لاستحييت أن ألقى الله، هاتكة حجاباً، قد ضربه عليَّ، فاجعلي حجابك، الذي ضرب عليك حصنك، فأبغيه منزلاً لك، حتى تلقيه، فإنَّ أطوع ما تكونين: إذا ما لزمته، وانصح ما تكونين: إذا ما قعدت فيه، ولو ذكَّرتْكِ كلاماً، قاله رسول الله ﷺ، لنهشتني نهش الحية والسلام.

فكتبت إليها عائشة: ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك، وليس مسيري على ما تظنين، ولنعم المطلع، مطلع فزعت فيه إليَّ فئتان مُتناجزتان، فإن أقدر، ففي غير حرج، وإن أحرج، ما لي ما لا غنى بي، عن الازدياد منه والسلام.

قال: ولما نزل طلحة، والزبير، وعائشة بأوطاس من أرض خيبر، أقبل عليهم سعيد بن العاصي على نجيب له، فأشرف على الناس، ومعه المغيرة بن شعبة، فنزل، وتوكأ على قوس له سوداء، فأتى عائشة فقال لها: أين تريدين يا أُمّ المؤمنين؟

قالت: أُريد البصرة.

قال: وما تصنعين بالبصرة؟

قالت: أطلب بدم عثمان.

قال: فهؤلاء قتلة عثمان معك.

ثم أقبل على مروان فقال له: وأنت أين تريد أيضاً؟

قال: البصرة.

قال: وما تصنع بها؟

قال: أطلب قتلة عثمان.

قال: فهؤلاء قتلة عثمان معك، إنَّ هذين الرجلين قتلا عثمان، «طلحة والزبير»، وهما يريدان الأمر لأنفسهما، فلما غلبا عليه قالا: نغسل الدم بالدم، والحوبة بالتوبة.

ثم قال المغيرة بن شعبة: أيُّها الناس، إن كنتم إنَّما خرجتم مع أُمّكم، فارجعوا بها خيراً لكم، وإن كنتم غضبتم لعثمان، فرؤساؤكم قتلوا عثمان، وإن كنتم نقمتم على عليّ شيئاً فبيِّنوا ما نقمتم عليه.

أُنشدكم الله، فتنتين في عام واحد.

فأبوا، إلَّا أن يمضوا بالناس، فلحق سعيد بن العاصي

باليمن، ولحق المغيرة بالطائف، فلم يشهدا شيئاً من الحروب الجمل وصفين، فلما انتهوا إلى ماء الحوأب، في بعض الطريق، ومعهم عائشة، نبحها كلاب الحوأب، فقالت لمحمد بن طلحة: أي ماء هذا؟

قال: هذا ماء الحوأب.

فقالت: ما أراني إلَّا راجعة.

قال: ولِمَ؟

قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: كأنِّي بإحداكنَّ، قد نبحها كلاب الحوأب، وإيَّاك أن تكوني أنت يا حميراء.

فقال لها محمد بن طلحة: تقدمي رحمك الله، ودعي هذا القول، وأتى عبد الله بن الزبير، فحلف لها بالله، لقد خلفته أوَّل اللَّيل، وأتاها ببيِّنة زور من الأعراب، فشهدوا بذلك، فزعموا أنَّها أوَّل شهادة زور، شهد بها في الإسلام.

فلما انتهى إقبالهم على أهل البصرة، ودنوا منها، قام عثمان بن حنيف، عامل البصرة لعلي بن أبي طالب، فقال: أيُّها الناس إنَّما بايعتم الله ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

والله لو علم علي، أنَّ أحداً أحق بهاذ الأمر منه ما قبله، ولو بايع الناس غيره، لبايع من بايعوا، وأطاع من ولوا، وما به إلى

---

(١) سورة الفَتْح: ١٠.

أحد من صحابة رسول الله حاجة، وما بأحد عنه غنى، ولقد شاركهم محاسنهم، وما شاركوه في محاسنه، ولقد بايعه هذان الرجلان، وما يريدان الله، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبا ثواب الله من العباد، وقد زعما أنَّهما بايعا مُستكرهين، فإن كانا استكرها قبل بيعتهما، كانا رجلين من عرض قريش، لهما أن يقولا ولا يأمرا، ألا وإنَّ الهدي ما كانت عليه العامة، والعامة على بيعة علي، فما ترون أيُّها الناس؟

فقام حكيم بن جبل العبدي فقال: نرى إن دخلا علينا قاتلناهما، وإن وقفا تلقيناهما، والله ما أُبالي أن أُقاتلهما وحدي، وإن كنت أُحبُّ الحياة، وما أخشى في طريق الحق وحشة، ولا غيرة، ولا غشاً، ولا سوء منقلب إلى بعث، وإنَّها لدعوة قتيلها شهيد، وحيها فائز، والتعجيل إلى الله قبل الأجر، خير من التأخير في الدُّنيا، وهذه ربيعة معك.

وروى المسعودي في مروج الذهب ج٢ ص٣٩٤، قال: ودخل طلحة والزبير مكَّة، وقد كانا استأذنا عليّاً في العمرة فقال لهما:

لعلَّكما تريدان البصرة، أو الشام، فأقسما أنَّهما لا يقصدان غير مكَّة، وقد كانت عائشة «رضي الله عنها» بمكَّة، وقد كان عبد الله بن عامر، عامل عثمان على البصرة، هرب عنها حين أخذ البيعة لعلي بها على الناس حارثة بن قدامة السعدي، ومسير

عثمان بن حنيف الأنصاري إليها، على خراجها من قبل علي عليه السلام، وانصرف عن اليمن عامل عثمان، وهو يعلى بن مُنية، فأتى مكَّة، وصادف بها عائشة، وطلحة، والزبير، ومروان بن الحكم، في آخرين من بني أُميَّة، فكان ممَّن حرَّض على الطلب بدم عثمان، وأعطى عائشة وطلحة، والزبير، أربعمائة ألف درهم، وكراعاً[١]، وسلاحاً وبعث إلى عائشة بالجمل، المُسمَّى: «عسكراً».

وكان شراؤه باليمن مائتي دينار.

فأرادوا الشام، فصدهم ابن عامر وقال: إنَّ به معاوية، ولا ينقاد إليكم، ولا يطيعكم، ولكن هذه البصرة، لي بها صنائع وعدد، فجهزهم بألف ألف درهم، ومائة من الإبل، وغير ذلك.

وسار القوم نحو البصرة، في ستمائة راكب، فانتهوا في اللَّيل، إلى ماء لبني كلاب، يُعرف بالحوأب، عليه ناس من بني كلاب، فعوت كلابهم على الركب، فقالت عائشة: ما اسم هذا الموضع؟

فقال السائق لجملها الحوأب.

فاسترجعت، وذكرت ما قيل لها في ذلك، فقالت: ردوني إلى حرم رسول الله ﷺ، لا حاجة لي في المسير.

فقال الزبير: بالله، ما هذا الحوأب، ولقد غلط فيما أخبرك به.

---

(١) الكراع ما يملك من البقر والغنم وغيرها.

وكان طلحة في ساقة الناس، فلحقها، فأقسم أنَّ ذلك ليس بالحوأب، وشهد معهما خمسون رجلاً ممَّن كان معهم، فكان ذلك أوَّل شهادة زور، أُقيمت في الإسلام.

أقول: لقد كان قد سبقها شهادات زورٍ، أخطر فأخطر بكثير، وإنَّها عند الله لفي كتاب، لا يغادر صغيرة، ولا كبيرة، إلَّا أحصاها.

وأنا لا أريد من القارىء، أن يتحول عن وجهته، فهذا اختياره وشأنه، بيد أنِّي لا أريده أن يكون جاهلاً، مُغفَّلاً عمَّا كان، ولُفِّق في حركة وتاريخ سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإلى الله المنقلب، يحكم فيمن شاء بما شاء، فهو خير الحاكمين.

قال: فأتوا البصرة، فخرج إليهم عثمان بن حنيف، فمانعهم وجرى بينهم قتال، ثم إنَّهم اصطلحوا بعد ذلك على كفِّ الحرب، إلى قدوم علي عليه السلام.

فلمَّا كان في بعض اللَّيالي، بيَّتوا عثمان بن حنيف، فأسروه، وضربوه، ونتفوا لحيته، ثم إنَّ القوم استرجعوا وخافوا، على مخلفيهم بالمدينة، من أخيه سهل بن حنيف وغيره من الأنصار، فخلوا عنه.

فأرادوا بيت المال، فمانعهم الخزان والموكلون به، وهم السبابجة، فقتل منهم سبعون رجلاً، غير من جرح، وخمسون من السبعين ضرب رقابهم، صبراً من بعد الأسر، وهؤلاء أوَّل من قتل في الإسلام، ظلماً وصبراً.

وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي، وكان من سادات عبد القيس، وزهَّاد ربيعة ونساكها، وتشاح طلحة والزبير في الصلاة بالناس، ثم اتفقوا على أن يُصلِّي بالناس عبد الله بن الزبير يوماً، ومحمَّد بن طلحة يوماً، في خطب طويل كان بين طلحة والزبير، إلى أن اتفقا على ما وصفنا.

قال: وسار علي من المدينة، بعد أربعة أشهر، وقيل غير ذلك، في سبعمائة راكب، منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار، منهم سبعون بدرياً، وباقيهم من الصحابة، وقد كان استخلف على المدينة، سهل بن حنيف الأنصاري.

فانتهى إلى الربذة، بين الكوفة ومكَّة، من طريق الجادة، وفاته طلحة وأصحابه، وقد كان عليّ أرادهم، فانصرف حين فاتوه إلى العراق في طلبهم، ولحق بعلي من أهل المدينة، جماعة من الأنصار، فيهم: خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأتاه من طيء ستمائة راكب، وكاتب علي من الربذة أبا موسى الأشعري، ليستنفر الناس فثبَّطهم أبو موسى.

وقال: إنَّما هي فتنة، فنُمي ذلك إلى عليّ، فولَّى على الكوفة قرظة بن كعب الأنصاري، وكتب إلى أبي موسى: اعتزل عملنا يابن الحائك، مذموماً مدحوراً، فما هذا أوَّل يومنا منك، وإنَّ لك فينا لهنات وهنيات.

وسار علي بمن معه، حتى نزل بذي قار، وبعث بابنه الحسن، وعمَّار بن ياسر إلى الكوفة، يستنفران الناس، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة، نحو من سبعة آلاف.

وقيل: ستة آلاف، وخمسمائة وستون رجلاً، منهم الأشتر، فانتهى علي إلى البصرة، وراسل القوم، وناشدهم الله، فأبو إلَّا قتاله.

وذكر عن المنذر بن الجارود، فيما حدث به أبو خليفة، الفضل بن الحباب الجمحي، عن ابن عائشة، عن معن بن عيسى، عن المنذر بن الجارود قال: لما قدم عليّ «رضي الله عنه» البصرة، دخل ممَّا يلي الطَّف فأتى الزاوية، فخرجت أنظر إليه، فورد موكب في نحو ألف فارس، يتقدمهم فارس على فرس، أشهب عليه قلنسوة، وثياب بيض، متقلد سيفاً، ومعه راية، وإذا تيجان القوم، الأغلب عليها البياض، والصفرة، مدججين بالحديد والسلاح، فقلت: من هذا؟

فقيل: هذا أبو أيُّوب الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأنصار وغيرهم.

ثم تلاهم فارس آخر، عليه عمامة صفراء، وثياب بيض، متقلد سيفاً، مُتنكب قوساً، معه راية على فرس أشقر، في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا؟

فقيل: هذا خزيمة بن ثابت الأنصاري، ذو الشهادتين.

ثمَّ مرَّ بنا فارس آخر، على فرس كميت، معتم بعمامة صفراء، من تحتها قلنسوة بيضاء، عليه قباء أبيض مصقول، متقلدٌ سيفاً، مُتنكبٌ قوساً في نحو ألف فارس من الناس، ومعه راية، فقلت: من هذا؟

فقيل لي: أبو قتادة بن ربعي.

ثمَّ مرَّ بنا فارس آخر، على فرس أشهب، عليه ثياب بيض، وعمامة سوداء، قد سدلها من بين يديه، ومن خلفه، شديد الأدمة، عليه سكينة ووقار، رافع صوته بقراءة القرآن، متقلدٌ سيفاً، متنكب قوساً، معه راية بيضاء، في ألف من الناس، مختلفي التيجان، حوله مشيخة، وكهول، وشباب، كأنَّما قد أُوقفوا للحساب، أثر السجود قد أثر في جباههم، فقلت: من هذا؟

فقيل: عمَّار بن ياسر، في عدة من الصحابة، من المهاجرين والأنصار، وأبنائهم.

ثمَّ مرَّ بنا فارس، على فرس أشقر، عليه ثياب بيض، وقلنسوة بيضاء، وعمامة صفراء، متنكب قوساً، متقلد سيفاً، تخطُّ رجلاه في الأرض، في ألف من الناس، الغالب على تيجانهم، الصفرة والبياض، معه راية صفراء، فقلتُ: من هذا؟

قيل: هذا قيس بن سعد بن عبادة، في عدة من الأنصار، وأبنائهم، وغيرهم من قحطان.

ثم مرَّ بنا فارس، على فرس أشهل، ما رأينا أحسن منه، عليه ثياب بيض، وعمامة سوداء، قد سدلها من بين يديه، بلواء.

قلت: من هذا؟

قيل: هو عبد الله بن عباس، في وفده، وعدة من أصحاب رسول الله ﷺ.

ثم تلاه موكب آخر، فيه فارس، أشبه الناس بالأولين، قلت: من هذا؟

قيل: عبيد الله بن العباس.

ثم تلاه موكب آخر، فيه فارس، أشبه الناس بالأولين.

قلت: من هذا؟

قيل: قثم بن العباس، أو معبد بن العباس.

ثمَّ أقبلت المواكب والرايات، يقدم بعضها بعضاً، واشتبكت الرماح.

ثمَّ ورد موكب، فيه خلق من الناس، عليهم السلاح والحديد، مختلفوا الرايات، في أوَّله راية كبيرة، يتقدمهم رجل، كأنَّما كسر وجبر.

قال ابن عائشة: وهذه صفة رجل شديد الساعدين، نظره إلى الأرض، أكثر من نظره إلى فوق، كذلك تخبر العرب، في وصفها إذا أخبرت عن الرجل، أنَّه كسر وجبر، كأنَّما على رؤوسهم الطير، وعن يمينه شاب حسن الوجه، وعن يساره شاب حسن الوجه، وبين يديه شاب مثلهما.

قلت: من هؤلاء؟

قيل: هذا علي بن أبي طالب، وهذان الحسن والحسين، عن يمينه وشماله، وهذا محمَّد ابن الحنفية بين يديه، معه الراية العظمى، وهذا الذي خلفه: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب،

وهؤلاء ولد عقيل، وغيرهم من فتيان بني هاشم، وهؤلاء المشايخ هم أهل بدر، من المهاجرين، والأنصار.

فساروا، حتى نزلوا الموضع المعروف: بالزاوية، فصلَّى أربع ركعات، وعفَّر خديه على التُّراب، وقد خالط ذلك دموعه، ثم رفع يديه يدعو:

اللَّهمَّ ربِّ السَّموات وما أظلَّت، والأرضين وما أقلَّت، وربِّ العرش العظيم، هذه البصرة، أسألك من خيرها، وأعوذ بك من شرِّها، اللَّهمَّ أنزلنا فيها خير منزل، وأنت خير المنزلين.

اللَّهمَّ إنَّ هؤلاء القوم، قد خلعوا طاعتي، وبغو عليَّ، ونكثوا بيعتي، اللَّهمَّ أحقن دماء المسلمين.

وبعث إليهم من يناشدهم الله في الدماء، وقال: علام تقاتلونني؟ فأبوا إلَّا الحرب، فبعث إليهم رجلاً من أصحابه، يُقال له: مسلم، معه مصحف، يدعوهم إلى الله، فرموه بسهم فقتلوه، فحمل إلى علي، وقالت أُمّه من الرجز:

يا ربِّ إنَّ مسلماً أتاهم يتلو كتاب اللَّه لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم وأُمّه قائمة تراهم

قال: وأمر عليّ «رضي الله عنه»، أن يصافوهم، ولا يبدأوهم بقتال، ولا يرموهم بسهم، ولا يضربوهم بسيف، ولا يطعنوهم برمح، حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، من الميمنة، بأخٍ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل، قد رمي بسهم فقتل، فقال علي: اللَّهمَّ اشهد، وأعذروا إلى القوم.

ثمَّ قام عمَّار بن ياسر بين الصفين، فقال: أيُّها الناس، ما أنصفتم نبيّكم، حين كففتم عقائلكم، في الخدور، وأبرزتم عقيلته للسيوف.

وعائشة على جمل، في هودج من دفوف الخشب، قد ألبسوه المسوح، وجلود البقر، وجعلوا دونه اللبود، وقد غُشي على ذلك بالدروع.

فدنا عمَّار من موضعها، فنادى: إلى ماذا تدعين؟

قالت: إلى الطلب بدم عثمان.

فقال: قاتل الله في هذا اليوم الباغي، والطالب بغير الحق.

ثم قال: أيُّها الناس، إنَّكم لتعلمون، أيُّنا الممالىء في قتل عثمان، ثم أنشأ يقول، وقد رشقوه بالنبل:

[المتقارب]

فمنك البكاء ومنك العويلُ ومنك الرِّياحُ ومنكِ المطرْ
وأنت أمرتِ بقتل الإمام وقاتلُهُ عندنا منْ أمرْ

وتواتر عليه الرمي واتصل، فحرَّك فرسه، وزال عن موضعه، وأتى عليّاً فقال: ما تنتظر يا أمير المؤمنين، وليس لك عند القوم إلَّا الحرب؟

فقام علي «رضي الله عنه» في الناس خطيباً، رافعاً صوته، فقال: أيُّها الناس، إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تقربوا شيئاً من

أموالهم، إلَّا ما تجدونه في عسكرهم، من سلاح، أو كراع، أو عبد، أو أمة، وما سوى ذلك، فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله.

ويضيف المسعودي قال: وخرج عليّ بنفسه، حاسراً على بغلة رسول الله ﷺ، لا سلاح عليه، فنادى: يا زبير أُخرج إليَّ، فخرج إليه الزبير، شاكّاً في سلاحه، فقيل ذلك لعائشة.

فقالت: واثكلكِ يا أسماء.

فقيل لها: إنَّ عليّاً حاسر، فاطمأنت، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، فقال له علي:

ويحك يا زبير، ما الذي أخرجك؟

قال: دم عثمان.

قال: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ، في بني بياضة، وهو راكب حماره، فضحك إليَّ رسول الله ﷺ، وضحكت إليه وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ما يدع عليّ زهوه.

فقال لك: ليس به زهو، أتحبه يا زبير؟

فقلت: إنّي والله لأحبه.

فقال لك: «إنَّك والله ستقاتله، وأنت له ظالم».

فقال الزبير: أستغفر الله، والله لو ذكرتها ما خرجت.

فقال له: يا زبير إرجع.

فقال: وكيف أرجع الآن، وقد التقت حلقتا البطان[١]، هذا والله العار الذي لا يُغسل.

فقال: يا زبير إرجع بالعار، قبل أن تجمع العار والنار، فرجع الزبير، وهو يقول:

[البسيط]

اخترت عاراً عَلَى نارٍ مُؤجَّجَةٍ ما إن يقوم لها خلقٌ مِنَ الطِّينِ

نادى عليٌّ بأمرٍ لستُ أجهلُهُ عارٌ لعمركَ في الدُّنيا وفي الدِّينِ

فقلت حسبُكَ من عذْلِ أبا حسنٍ فبعضُ هذا الَّذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبد الله: أين تذهب وتدعُنا؟

فقال: يا بُنيَّ، أذْكَرَني أبو الحسن بأمر كنت قد أُنسيتهُ.

فقال: لا والله، ولكنَّك فررت من سيوف بني عبد المطَّلب، فإنَّها طوال حداد، تحملها فتية أنجاد.

قال: لا والله، ولكنِّي ذكرت ما أنسانيه الدَّهر، فاخترت العار على النار، أبالجبن تعيُّرني، لا أبا لك؟ ثم أمال سنانه، وشدَّ في الميمنة، فقال علي: أفرجوا له فقد هاجوه.

ثمَّ رجع فشدَّ في الميسرة، ثمَّ رجع فشدَّ في القلب، ثم عاد إلى ابنه فقال: أيفعل هذا جبان.

قال: ثم مضى منصرفاً، حتى أتى وادي السباع، والأحنف بن

---

(١) الحزام الذي يُشد على البطن.

قيس معتزل في قومه من بني تميم، فأتاه آتٍ، فقال له: هذا الزبير مار.

فقال: ما أصنع بالزبير، وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس، يقتل بعضهم بعضاً، وهو مار إلى منزله سالماً، فلحقه نفر من بني تميم، فسبقهم إليه عمرو بن جرموز، وقد نزل الزبير إلى الصلاة، فقال: أتؤمُّني أو أؤمك؟ فأمهُ الزبير، فقتله عمرو في الصلاة.

قال: وقتل الزبير «رضي الله عنه»، وله خمس وسبعون سنة، قال: ورثته زوجته، عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، فقالت:

[الكامل]

غدر ابنُ جُرموزٍ بفارس بُهمةٍ ... يوم اللقاء وكان غير مُسدَّدِ
يا عمرو لونبهته لوجدته ... لا طائشاً رعش الجنان ولا اليدِ
هبلتك أُمّك أن قتلت لمُسْلماً ... حلَّت عليكَ عُقوبةُ المتعمِّدِ
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فيمن مضى ممَّن يروح ويغتدي

وأتى عمرو عليّاً بسيف الزبير، وخاتمه.

فقال علي: سيفٌ طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، لكنَّه الحين ومصارع السوء، وقاتل ابن صفية في النار.

ففي ذلك يقول عمرو بن جرموز:

[المتقارب]

أتيت عليّاً برأس الزبير ... وقد كنت أرجو به زُلفتي
فبشَّر بالنار قبل العيانِ ... وبئس بشارةِ ذي التحفةِ

لَسَيَّانَ عندي قتل الزبير وضرطةُ عنزٍ بذي الجحفةِ

أضاف المسعودي قال: ثم نادى علي «رضي الله عنه»، طلحة حين رجع الزبير: يا أبا محمَّد، ما الذي أخرجك؟

قال: الطلب بدم عثمان.

قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللَّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأنت أوَّل من بايعني، ثم نكثت وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[١] فقال: أستغفر الله، ثمَّ رجع.

فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة، ما أُبالي رميت ههنا أم ههنا، فرماه في أكْحُلهِ فقتله، وقُتل محمد بن طلحة مع أبيه في ذلك اليوم.

وفي نهج البلاغة ج١ ص٦٤ قال الإمام لابنه محمد بن الحنفية، لمَّا أعطاه الراية:

تزول الجبالُ ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جُمْجُمتك، تد في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم، وغضّ بصرك، واعلم أنَّ النصر من عند الله سبحانه انتهى.

قال المسعودي: ثم أمره أن يحمل على القوم، فأبطأ محمد بحملته، حتى تنفُد سهام الرماة، فقال له علي: إحمل.

---

(١) سورة الفَتْح: ١٠.

فقال: لا أجد مُتقدَّماً، إلَّا على سهم، أو سِنان، وإنِّي مُنتظر نفاد سهامهم وأحمل.

فقال له: إحمل بين الأسنة، فإنَّ للموت عليك جُنة، فحمل محمد فشكَّ بين الرماح والنشاب، فوقف، فأتاه عليّ فضربه بقائم سيفه وقال: أدركك عرق من أُمّك، وأخذ الراية، وحمل، وحمل الناس معه، فما كان القوم، إلَّا كرماد، اشتدت به الريح في يوم عاصف.

وأطافت بنو ضبَّة بالجمل، وأقبلوا يرتجزون، ويقولون:

نحن بنو ضبَّة أصحاب الجملْ نُنازل الموت إذا الموتُ نزلْ
ردُّوا علينا شيخنا ثم بَجَلْ ننعى ابن عفَّان بأطراف الأسلْ
والموت عندنا أحلى من العسلْ

وقُطع على خطام الجمل سبعون يداً، ورُمي الهودج بالنشاب والنبل، حتى صار كأنَّه قُنفذ، وعرقب الجمل وهو لا يقع، وقد قطعت أعضاؤه، وأخذته السيوف حتى سقط.

ويُقال: إنَّ عبد الله بن الزبير، قبض على خطام الجمل، فصرخت عائشة، وكانت خالته: واثكل أسماء، خلِّ الخطام، وناشدته فخلَّى عنه.

ولمَّا سقط الجمل ووقع الهودج، جاء محمد بن أبي بكر، فأدخل يده، فقالت: من أنت؟

قال: أقرب الناس منك قرابة، وأبغضهم إليك، أنا محمَّد أخوك، يقول لك أمير المؤمنين: هل أصابك شيء؟

قالت: ما أصابني إلَّا سهم لم يضرني.

فجاء علي حتى وقف عليها، فضرب الهودج بقضيب، وقال: يا حميراء، رسول الله أمرك بهذا؟

ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك، والله ما أنصفك الذين أخرجوك، إذ صانوا عقائلهم وأبرزوكِ. وأمر أخاها محمَّداً، فأنزلها في دار صفية بنت الحارث بن طلحة العبدي، وهي أُمّ طلحة الطلحات، ووقع الهودج، والناس مُفترقون يقتتلون، والتقى الأشتر مالك بن الحارث النخعي، وعبد الله بن الزبير، فاعْتركا، وسقطا على الأرض عن فرسيهما، وطال اعتراكهما على وجه الأرض، فعلاه الأشتر، ولم يجد سبيلاً إلى قتله، لشدَّة اضطرابه من تحته، والناس حولهما يجولون، وابن الزبير ينادي:

[مجزوء الخفيف]

اقتلوني ومالكاً   واقتلوا مالكاً معي

فلا يسمعه أحد لشدَّة الجلاد، ووقع الحديد على الحديد، ولا يراهم راءٍ لظلمة النقع، وترادف العجاج، وجاء ذو الشهادتين، خزيمة بن ثابت إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، لا تُنكِّس اليوم رأس محمَّد، واردد إليه الراية، فدعا به وردَّ عليه الراية، وقال:

[الرجز]

اطعنهم طعن أبيك تُحمدِ   لا خير في الحرب إن لم توقدِ

بالمشرفية والقنا المسدَّدِ

ثم دخل البصرة، وكانت الوقعة في الموضع المعروف:

«بالخريبة»، وذلك يوم الخميس، لعشر خلون من جمادى الآخرة، سنة ستّ وثلاثين، وبعث بعبد الله بن عباس إلى عائشة، يأمرها بالخروج إلى المدينة، فدخل عليها بغير إذنها، واجتذب وسادة فجلس عليها، فقالت له: يا ابن عباس، أخطأت السُّنَّة المأمور بها، دخلت علينا بغير إذننا، وجلست على رحلنا بغير أمرنا.

فقال لها: لو كنت في البيت، الذي خلفك فيه رسول الله ﷺ، ما دخلنا إلَّا بإذنك، وما جلسنا على رحلك إلَّا بأمرك، وإنَّ أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة، والتأهب للخروج إلى المدينة.

فقالت: أبيت ما قلت، وخالفت ما وصفت.

فمضى إلى علي فخبره بامتناعها، فردَّه إليها وقال: إنَّ أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترجعي.

فأنعمت وأجابت إلى الخروج، وجهزها علي، وأتاها في اليوم الثاني، ودخل عليها ومعه الحسن والحسين، وباقي أولاده، وأولاد إخوته، وفتيان أهله من بني هاشم، وغيرهم من شيعته من همدان.

فلمَّا بصرت به النسوان، صحن في وجهه، وقلن: يا قاتل الأحبة.

فقال عليه السلام: لو كنت قاتل الأحبة، لقتلت من في هذا البيت، وأشار إلى بيت من تلك البيوت، قد اختفى فيه مروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عامر، وغيرهم، فضرب من كان

معه بأيديهم، إلى قوائم سيوفهم، لما علموا من في البيت، مخافة أن يخرجوا منه فيغتالوه.

فقالت له عائشة، بعد خطب طويل كان بينهما: إنِّي أُحبُّ أن أُقيم معك، فأسير إلى قتال عدوِّك عند سيرك.

فقال: بل ارجعي إلى البيت، الذي تركك فيه رسول الله ﷺ.

فسألته أن يؤمن ابن أُختها عبد الله بن الزبير، فأمنه وتكلَّم الحسن والحسين في مروان فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة، وولد عثمان، وغيرهم من بني أُميَّة.

قال: وقد ذكر المدائني: أنَّه رأى بالبصرة، رجلاً مُصْطلمِ الأُذن، فسأله عن قصته، فذكر أنَّه خرج يوم الجمل ينظر إلى القتلى، فنظر إلى رجل منهم، يخفض رأسه ويرفعه، وهو يقول:

[الطويل]

لقد أوردتنا حومة الموت أُمّنا ... فلم تنصرف إلَّا ونحن رواء

أطعنا بني تيمٍ لشقوةِ جَدِّنا ... وما تيمٌ إلَّا أعبدٌ وإماء

فقلت: سبحان الله، أتقول هذا عند الموت؟

قل: لا إله إلَّا الله.

فقال: يا ابن اللخناء، إيَّاي تأمر بالجزع عند الموت؟

فوليت عنه متعجباً منه، فصاح بي: إدن منِّي، ولقنِّي الشَهادة، فصرت إليه، فلما قربت منه استدناني، ثم التقم أُذني فذهب بها، فجعلت ألعنه وأدعو عليه، فقال: إذا صرت إلى أُمّك، فقالت: من

فعل هذا بك، فقل عمير بن الأهلب الضبي، مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين.

وخرجت عائشة من البصرة، وقد بعث معها علي أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر، وثلاثين رجلاً، وعشرين امرأة من ذوات الدِّين من عبد القيس، وهمدان وغيرهما، ألبسهُنَّ العمائم، وقلدهن السيوف، وقال لهن: لا تعلمن عائشة أنَّكنَّ نسوة، وتلثمن كأنَّكنَّ رجال، وكنَّ اللاتي تلين خدمتها، وحملها.

فلما أتت المدينة، قيل لها: كيف رأيت مسيرك؟

قالت: كنت بخير، والله لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر، ولكنَّه بعث معي رجالاً أنكرتهم، فعرَّفها النسوة أمرهن، فسجدت وقالت: ما ازددت والله يابن أبي طالب إلَّا كرماً، ووددت أنِّي لم أخرج، وإن أصابتني كيت وكيت، من أُمور ذكرتها شاقة.

قال: وقتل من أصحاب علي في ذلك اليوم، خمسة آلاف نفس، ومن أصحاب الجمل وغيرهم من أهل البصرة، ثلاثة عشر ألفاً، وقيل غير ذلك.

قال: ودخل علي بيت مال البصرة، في جماعة من المهاجرين والأنصار، فنظر إلى ما فيه من العين والورق، فجعل يقول: يا صفراء غرِّي غيري، ويا بيضاء غرِّي غيري.

وأدام النظر إلى المال مُفكِّراً ثمَّ قال: اقسموه بين أصحابي ومن معي، خمسمائة خمسمائة، ففعلوا، فما نقص درهم واحد، وعدد الرِّجال اثنا عشر ألفاً.

وقبض ما كان من معسكرهم من سلاح، ودابة، ومتاع، وآلة، وغير ذلك، فباعه، وقسمه بين أصحابه، وأخذ لنفسه، كما أخذ لكل واحد، ممَّن معه من أصحابه، وأهله وولده، خمسمائة درهم، فأتاه رجل من أصحابه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي لم آخذ شيئاً، وخلفني عن الحضور كذا، وأدلى بعذر، فأعطاه الخمسمائة التي كانت له.

وقيل لأبي لبيد الجهضمي من الأزد: أتحبُّ عليّاً؟

فقال: وكيف أحب رجلاً، قتل من قومي في بعض يوم، ألفين وخمسمائة، وقتل من الناس، حتى لم يكن أحد يعزي أحداً، واشتغل أهل كل بيت بمن لهم.

قال: وولى عليّ على البصرة عبد الله بن عباس، وسار إلى الكوفة، فكان دخوله إليها، لاثنتى عشرة ليلة مضت من رجب.

وفي نهج البلاغة: (ج٢، ص٤٥٤)، قال: لَمَّا مَرَّ بِطَلْحَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ، وَهُمَا قَتِيلَانِ يَوْمَ الْجَمَلِ:

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً! أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ، أَنْ تكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأَفْلَتَتْنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ، إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ، فَوُقِصُوا دُونَهُ.

بيان: عبد الرحمن من التابعين، وأبوه كان أمير مكَّة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

والوتر: الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي.

وأعيان بني جمح في بعض النسخ بالراي: أي ساداتهم أو جمع عير بمعنى الحمار وهو ذم لجماعة من بني جمح حضروا الجمل، وهربوا ولم يقتل منهم إلّا اثنان.

وأتلعوا أعناقهم: أي رفعوها.

والوقص: كسر العنق. يُقال: واقص الرجل: فهو موقوص.

❁ ❁ ❁

وقال ابن أبي الحديد: ركبت عائشة يوم الحرب الجمل المُسمَّى عسكراً في هودج قد ألبس الرفوف ثم ألبس جلود النمر ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد.

وروى الشعبي عن مسلم بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة تقلَّدت سيفي وأنا أريد نصرهما، فدخلت على عائشة وإذا هي تأمر وتنهى، وإذا الأمر أمرها، فذكرت حديثاً كنت سمعته من رسول الله ﷺ: لن يفلح قوم يدبّر أمرهم امرأة، فانصرفت واعتزلتهم.

وقد روي هذا الخبر على صورة أخرى: إنَّ قوماً يخرجون بعدي في فئة رأسها امرأة لا يفلحون أبداً.

وكان الجمل لواء عسكر البصرة لم يكن لواء غيره، فلما تواقف الجمعان، قال علي عليه السلام: لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم

فإنَّكم بحمد الله على حجَّة وكفكم عنهم حتى يبدءوكم حجَّة أخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، فإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم، فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيجوا امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنَّهنَّ ضعفاء القوى والأنفس والعقول، ولقد كنَّا نؤمر بالكفِّ عنهنَّ، وإنَّهنَّ لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها، وعقبه من بعده.

قال: وقتل بنو ضبَّة حول الجمل، فلم يبق فيهم إلَّا من لا نفع عنده، وأخذت الأزد بخطامه. فقالت عائشة: من أنتم؟

قالوا: الأزد.

قالت: صبراً، فإنَّما يصبر الأحرار، ورمي الجمل بالنبل حتى صارت القبَّة عليه كهيئة القنفذ.

فقال علي عليه السلام: لما فني الناس على خطام الجمل وقطعت الأيدي وسالت النفوس، ادعوا لي الأشتر وعمَّاراً، فجاءا، فقال: اذهبا فاعقرا هذا الجمل فإنَّهم قد اتخذوه قبلة، فذهبا ومعهما فتيان من مراد، يعرف أحدهما بعمر بن عبد الله فما زالا يضربان الناس حتى خلصا إليه فضربه المرادي على عرقوبيه فأقعى، وله رغاء ثم وقع لجنبه، وفرَّ الناس من حوله، فنادى علي: اقطعوا أنساع الهودج، ثم قال لمحمد بن أبي بكر: اكفني أختك فحملها محمد حتى أنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي.

وفي نهج البلاغة (ج٢، ص٣١١)، قال عليه السلام:

وَأَمَّا فُلَانَةُ، فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا، كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي، مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

بيان: قال ابن أبي الحديد في شرح هذا القول: الضغن الحقد والمرجل قدر كبير.

والقين: الحداد أي كغليان قدر من حديد.

وفلانة: كناية عن عائشة أبوها أبو بكر، وأُمّها أُمّ رومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس.

تزوجها رسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنتين بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وهي بنت سبع سنين، وبنى عليها بالمدينة، وهي بنت تسع سنين وعشرة أشهر، وكانت قبله تذكر لجبير بن مطعم، وكان نكاحه إيَّاها في شوال.

وبناؤه عليها في شوال، وتوفي رسول الله ﷺ عنها، وهي بنت عشرين سنة، وكانت ذات حظ من رسول الله ﷺ، وميل ظاهر إليها، وكانت لها عليه جرأة وإدلال، حتى كان منها في أمره في قصة مارية ما كان من الحديث الذي أسره الأخرى، وأدى إلى تظاهرهما عليه، وأنزل فيهما قرآن يتلى في المحاريب يتضمن وعيداً غليظاً عقيب تصريح بوقوع الذنب وصغو القلب وأعقبتها

تلك الجرأة، وذلك الانبساط أن حدث منها في أيام الخلافة العلوية ما حدث.

أقول: هكذا كان علي، في كل حرب منتصراً، سيفه وعدله، فلا يقتل إلّا كافراً، أو مشركاً، أو رجلاً قد ادعى الإسلام والإيمان، وهو يبطن الكفر والنفاق، قد مضى لا يلوي، يُصيغُ الفتن، ويذكي مذاهب التفرقة بين المسلمين، ويُؤجّج أواسطهم نار الحرب، فهو مُصممٌ، عامل كادح، فلو قد حالفه الحظ، وأمكنته الفرص، لذهب بالإسلام والمسلمين فمزَّقهم كُلُّ ممزَّق.

لقد كان أسد الله الغالب علي بن أبي طالب، على الكفَّار، أشد من حريق النار، بالمؤمنين رؤوف رحيم، فهو نفس رسول الله إلّا النُّبوَّة، فهو على خلقٍ عظيم، قسيم الجنَّة والنار، فسلام على سيِّد الوصيِّين، إمام الكلام، فارس السيف، الصادع بالعدل، الحكيم، الفصيح، البليغ، والحمد لله ربّ العالمين.





رسائل بين علي ومعاوية

يا لهول الفاجعة، وظهور السخرية، فاقرأ ودقِّق، تضحك كثيراً، وتبكي كثيراً، فلقد خبأ الدهر لنا، من أمره عجباً.

فهذا خليفة الشورى والمسلمين، **بوصية عمر**: عثمان بن عفَّان، ينهب مال بيت المسلمين، ويخصُّ به بني أبيه وولاته، ولم يقسم في الناس بالسوية، فتثور عليه ثائرة الناس، من قريب ومن بعيد، فتأتي المدينة، وتشكو إليه حيفه عليهم، وظلم ولاته لهم، في أمصارهم وبلدانهم، فلم يستمع لقول قائلهم، ولم يصغ لعتب المعاتب فيهم.

فيشتدُّ غضب الرعية عليه، وقد جاؤوا لقتله من مصر والعراق، اقتصاصاً منه بما قدَّمت يداه، فعسكر القوم في ساحته، ليردَّ عليهم مظالمهم، وليعدل فيهم، فتقول لهم أُمّ المؤمنين عائشة: اقتلوا نعثلة فقد كفر.

وفي رواية: فقد فجر.

هذا، وهرب عمرو بن العاص بولديه، عبد الله ومحمد إلى فلسطين، عن محنته وفتنته، رغبة عن مؤازرته ونصرته.

ويُحْدِقُ الخطر بالخليفة عثمان، فيرسل بكتاب إلى واليه على

الشام، معاوية بن أبي سفيان، يطلب فيه إغاثته ونجدته فيتثبَّط ويتلكَّأ، ثم يقول لرسول عثمان: لقد كان عثمان، قد حكم وعمل بما يرضي الله، ثم عاد وغيَّر، فغيَّر الله عليه.

فهل يتهيَّأ لي، أن أغير ما قد غيَّر الله عليه.

ويشتدّ الحصار على عثمان، ويعلوا الصراخ والجلبة من حوله، ويطلبه القتل حثيثاً، فيرسل إلى علي، فيدفع القوم ويُنهْنه عنه، ثم يعود إلى عثمان، يحمل إليه ما يطلبونه منه، فيعده عثمان بقضائها، ويقسم له بالله، ويعطيه العهود والمواثيق، فيعود إليهم علي بما زعم عثمان، فتهدأ ثائرتهم عنه.

ثم يخلو مروان بن الحكم بالخليفة عثمان، فيبطل قراره، ويغيِّر ويبدِّل، فيلهب نار الثورة عليه، أكثر فأكثر.

ثم يرسل بكتاب إلى ابن أبي سرح في مصر، قد لفقه وزوره باسم عثمان، مختوماً بخاتم الخلافة، يأمره فيه بقتل محمد بن أبي بكر، ونفراً ممَّن معه، وقد مرَّ عليك من قبل هذا.

فزحف القوم وقد نفد صبرهم، فالتفوا بدار عثمان، ومنعوه الماء، فقام يناديهم، من على سطح بيته: اسقونا الماء، فلم يصغ له أحد، ولم يرفق به أحد، واشتدَّ به العطش، فأرسل إلى علي يطلب منه الماء، ويشكو له عطشه، فأرسل إليه علي، بسبعة قرب ماء، فكان بين طلحة وعلي، مشادة كلامية في ذلك الماء، وما كاد أن يصل إليه، إلَّا بعزيمة من علي.

ولـمَّا أحس أنَّهم قد عزموا على قتل عثمان، أقام ولديه

الحسن والحسين، ومولاه قنبر، حرساً على بابه، ليدفعوا عنه، فيُشجُّ الحسن، ويجرح قنبر، فيتسور محمد بن أبي بكر ونفر معه سقف منزله، ويهبطوا إليه من كوة، فيقتلوه على فراشه، ثم يجتمع الناس حول علي ليبايعوه، فيقبض يده عنهم، بقوله: دعوني، والتمسوا غيري.

فتصر عليه الجماهير، فتبايعه خليفة عليهم، وما أسرع أن جاء إليه طلحة، والزبير، يطلبان منه ولاية الكوفة، والبصرة بإصرار وإلحاح، فيدفعهما عن الولاية لحرصهما عليها، فيغضبا ويبيتا له، فيقولا: إذن إئذن لنا في العمرة يا أبا الحسن.

فيقول لهما: والله ما أردتما العمرة، ولكنَّكما أردتما الغدرة، فيأذن لهما، فينطلقا في شأنهما إلى مكَّة هذا.

وتعود أُمّ المؤمنين، في طريقها إلى المدينة من مكَّة، فتلتقي رجلاً، فتسأله عن المدينة، فيقول لها: لقد قتل عثمان.

فتقول: بعداً وسحقاً، ثم ماذا؟

فيقول: لقد بايع الناس طلحة.

فتقول: أيْهَا ذو الإصبع.

ثم تلتقي بعبد ابن أُمّ كلاب، فتقول له: مَهْيَمْ.

فيقول لها: لقد قتل عثمان.

فتقول: ثم ماذا؟

فيقول: اجتمع أمر الناس، فبايعوا علياً بن أبي طالب.

فتقول: والله ما كنت أُبالي، أن تقع هذه على هذه، ردوني لقد قتل عثمان مظلوماً، فلأطلبن بدمه، فيجتمع أمرها، وأمر طلحة، والزبير، ومروان بن الحكم، فكانت معركة الجمل، فسفكت فيها الدماء، ورمِّلت النِّساء، وأُيتمت الأطفال، وتفرَّق المسلمون، موتورين، حاقدين، يختزن كُلٌّ في صدره، الثأر من أخيه المسلم، لينقضَّ عليه متى سنحت له الفرص.

وبعد: فاحْتفظْ بما قد قرأت، ووعيت، لتكون على بصيرة بما سيمرُّ عليك، من خطوب ومثولات، قد شحنت بالغدر، والفجور، وشهادة الزور، فها هي تزحف بعواصفها، وزلازلها، وأعاصيرها إلى الإمام علي بن أبي طالب، لتأخذ منه ثأر بدر، وأُحُد، والأحزاب، وخيبر، وحنين وغيرها من الغزوات، ثم ثأرها الجديد، من سيفه يوم الجمل.

وفي هذا يجتمع على علي، سيف عدوِّه، وخيانة أصحابه، وفي ذلك، هو البلاء، والخطب العظيم.

فتعال لنطرق أبواب المؤرخين، باباً باباً، بيقظة وتجرُّد، ليحصحص لنا الحقُّ، فندفع به باطل المبطلين، مطمئنين، مُثبتين.

روى اليعقوبي في تاريخه: (ج٢، ص٨٣) قال: وخرج عليّ من البصرة، متوجِّهاً إلى الكوفة، وقدم الكوفة في رجب سنة ٣٦، وكان جرير بن عبد الله على همذان فعزله.

فقال لعليّ: وجهني إلى معاوية، فإنَّ جُلّ من معه قومي، فلعلي أجمعهم على طاعتك.

فقال له الأشتر: يا أمير المؤمنين لا تبعثه، فإنَّ هواه هواهم.

فقال: دعه يتوجَّه، فإن نصح كان ممَّن أدَّى أمانته، وإن داهن كان عليه وزر من أؤتمن، ولم يؤدِّ الأمانة، ويا ويحهم مع من يميلون، ويدعونني، فوالله ما أردتهم، إلَّا على إقامة حق، ولا يردهم غيري، إلَّا على باطل.

فقدم جرير على معاوية، وهو جالس والناس حوله، فدفع إليه كتاب علي، فقرأه، ثم قام جرير فقال: يا أهل الشام، إنَّه من لم ينفعه القليل، لم ينفعه الكثير.

وقد كانت بالبصرة ملحمة، لن يشفع البلاء بمثلها، فلا بقاء للإسلام، فاتقوا الله يا أهل الشام، ورَوْا في علي ومعاوية خيراً، فانظروا لأنفسكم، ولا يكونن أحد أنظر لها منكم، ثم سكت وصمت معاوية، فلم ينطق، فقال: أبلعْني ريقي يا جرير.

وبعث معاوية من ليلته، إلى عمرو بن العاص أن يأتيه، وكتب إليه.

أمَّا بعد: فإنَّه قد كان من أمر عليّ، وطلحة، والزبير، وعائشة ما قد بلغك، فقد سقط إلينا مروان، في رافظة أهل البصرة، وقدم عليَّ جرير بن عبد الله في بيعة عليّ، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني، فاقدم على بركة الله تعالى.

فلمَّا انتهى الكتاب إليه، دعا ابنيه عبد الله، ومحمَّداً فاستشارهما.

فقال له عبد الله: أيُّها الشيخ، إنَّ رسول الله قبض وهو عنك راض، ومات أبو بكر وعمر، وهما عنك راضيان، فإنَّك إن تُفسد دينك بدنيا يسيرة، تُصيبها مع معاوية، فتُضجعان غداً في النار، ثم قال لمحمَّد: ما ترى؟

قال: بادر هذا الأمر، فكن رأساً قبل أن تكون ذنباً، فأنشأ يقول:

تطاول ليلي للهموم الطوارقِ ... وخوفِ التي تجلو وجوه العواتقِ

فإنَّ ابن هند سألني أن أزوره ... وتلك التي فيها بنات البوائقِ

أتاه جريرٌ من علي بخطةٍ ... أمرَّت عليه العيش مع كلِّ دانقِ

فإن نال منه ما يؤمِّل ردَّهُ ... فإن لم ينله ذَلَّ ذُلَّ المطابق

فواللَّه ما أدري وإنِّي لهكذا ... أكون ومهما قادني فهو سائقي

أأخدعه فيه دنية أم ... أعطيه من نفسي نصيحة وامقِ

أم أجلس في بيتي وفي ذاك راحة ... لشيخ يخاف الموت في كُلِّ شارقِ

وقد قال عبد اللَّه قولاً تعلَّقت ... به النفس إن لم يعتقلني عوائقي

وخالفت فيه أخوه محمَّد ... وإنِّي لصلب العود عند الحقائقِ

فلمَّا سمع عبد الله شعره قال: بال الشيخ على عقبيه، وباع دينه بدُنياه.

فلمَّا أصبح، دعا وردان مولاه، فقال له: إرحل يا وردان، ثم قال: حطّ يا وردان، فحط ورحل ثلاث مرَّات.

فقال وردان: لقد خلطت أبا عبد الله، فإن شئت أخبرتك ما في نفسك.

قال: هات.

قال: اعترضت الدُّنيا والآخرة على قلبك.

فقلت: عليٌّ معه آخرة بلا دُنيا، ومعاوية معه دُنيا بلا آخرة، وليس في الدُّنيا عوض من الآخرة، فلست تدري أيّهما تختار.

قال: لله درك ما أخطأت، ممَّا في نفسي شيئاً، فما الرأي يا وردان؟

قال: الرأي أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدِّين، عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدُّنيا، لم يستغن عنك.

قال عمرو: الآن وقد شهرتني العرب، بمسيري إلى معاوية، إرحل يا وردان، ثم أنشأ يقول:

يا قاتل اللَّه وردان وفطنته أبدى لعمرك ما في الصدر وردانُ

فقدم على معاوية، فذاكره أمره، فقال له: أمَّا علي، فوالله لا تساوي العرب بينك وبينه، في شيء من الأشياء، وإنَّ له في الحرب لحظّاً، ما هو لأحد من قريش، إلَّا أن تظلمه.

قال: صدقت، ولكنَّا نقاتله، على ما في أيدينا، ونلزمه قتل عثمان.

قال عمرو: واسوأتاه، إنَّ أحق الناس ألَّا يذكر عثمان، لا أنا ولا أنت.

قال: ولما، ويحك.

قال: أمَّا أنت فخذلته، ومعك أهل الشام، حتى استغاث

بيزيد بن أسد البجلي. فسار إليه، وأمَّا أنا فتركته عياناً، وهربت إلى فلسطين.

فقال معاوية: دعني من هذا، مُدَّ يدك فبايعني.

قال: لا لعمر الله، لا أُعطيك ديني، حتى آخذ من دُنياك.

قال له معاوية: لك مصر طعمة، فغضب مروان بن الحكم وقال: ما لي لا أُستشار؟

فقال معاوية: أُسكت، فإنَّما يُستشار بك.

فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، بت عندنا الليلة، وكره أن يفسد عليه الناس، فبات عمرو وهو يقول:

معاوي لا أُعطيك ديني ولم أنل ... به منك دُنيا فانظرنْ كيف تصنعُ

فإن تعطني مصراً فارْبحْ بصفقةٍ ... أخذت بها شيخاً يضرُّ وينفعُ

وما الدِّين والدُّنيا سواء وإنَّني ... لآخذ ما أعطى ورأسي مقنعُ

ولكنِّي أُعطيك هذا وإنَّني ... لأخدعُ نفسي والمخادعُ يُخدعُ

أأعطيك أمراً فيه للملك قوَّة ... وأبقى له إن زلَّت النعل أُخدعُ

وتمنعني مصراً وليست برغبةٍ ... وإن ترى القنوع يوماً لمولعُ

فكتب له بمصر شرطاً، وأشهد له شهوداً، وختم الشرط، وبايعه عمرو، وتعاهدا على الوفاء.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾[١].

---

(١) سورة الشُّعَرَاء: ٢٢١-٢٢٣.

روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ج١ ص٩٩، قال: وذكروا أنَّ النعمان بن بشير، لما قدم على معاوية، بكتاب زوجة عثمان، تذكر فيه دخول القوم عليه، وما صنع محمد بن أبي بكر من نتف لحيته.

في كتاب قد رقَّقت فيه، وأبلغت حتى إذا سمعه السامع، بكى حتى يتصدَّع قلبه، وبقميص عثمان مخضباً، بالدم ممزَّقاً، وعقدت شعر لحيته في زر القميص.

قال: فصعد المنبر معاوية بالشام، وجمع الناس، ونشر عليهم القميص، وذكر ما صنعوا بعثمان، فبكى الناس، وشهقوا، حتى كادت نفوسهم أن تزهق، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه.

فقام إليه أهل الشام، فقالوا: هو ابن عمّك، وأنت وليّه، ونحن الطالبون معك بدمه، فبايعوه أميراً عليهم.

وكتب، وبعث الرُّسل إلى كور الشام.

وكتب إلى شرحبيل بن السمط الكندي، وهو بحمص، يأمره أن يبايع له بحمص، كما بايع أهل الشام، فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية، دعا أُناساً من أشراف أهل حمص، فقال لهم: ليس من قتل عثمان، بأعظم جرماً ممَّن يبايع لمعاوية أميراً، وهذه سقطة، ولكنَّا نبايع له بالخلافة، ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة، فبايع لمعاوية بالخلافة، هو وأهل حمص، ثم كتب إلى معاوية.

أمَّا بعد: فإنَّك أخطأت خطأً عظيماً، حين كتبت إليَّ أن أُبايع لك بالإمرة، وإنَّك تريد أن تطلب بدم الخليفة المظلوم، وأنت غير

خليفة، وقد بايعت ومن قبلي بالخلافة، فلما قرأ معاوية كتابه سرَّه ذلك، ودعا الناس، وصعد المنبر، وأخبرهم بما قال شرحبيل، ودعاهم إلى بيعته بالخلافة، فأجابوه، ولم يختلف منهم أحد.

فلما بايع القوم له بالخلافة، واستقام له الأمر، كتب إلى علي: سلام الله على من اتبع الهدى.

أمَّا بعد: فإنَّا كنَّا نحن وإيَّاكم، يداً جامعة، وأُلفة أليفة، حتى طمعت يابن أبي طالب، فتغيَّرت، وأصبحت تعدُّ نفسك، قوياً على من عاداك، بطغام أهل الحجاز، وأوباش أهل العراق، وحمقى الفسطاط، وغوغاء السواد، وأيم الله، لينجلين عنك حمقاها، ولينقشعن عنك غوغاؤها، انقشاع السحاب عن السَّماء، قتلت عثمان بن عفَّان، ورقيت سلماً، أطلعك الله عليه، مطلع سوء عليك لا لك، وقتلت الزبير، وطلحة، وشردت بأُمّك عائشة، ونزلت بين المصريين، فمنيت، وتمنيت، وخُيِّل لك، أنَّ الدُّنيا قد سخرت لك بخيلها، ورجلها، وإنَّما تعرف أمنيتك لو قد زرتك، في المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام، فيحيطون بك من ورائك، ثم يقضي الله علمه فيك، والسلام على أولياء الله.

فأجابه علي:

أمَّا بعد: فقدِّر الأُمور، تقدير من ينظر لنفسه دون جند، ولا يشتغل بالهزل من قوله، فلعمري، لئن كانت قوَّتي بأهل العراق، أوثق عندي، من قوَّتي بالله ومعرفتي به، فليس عنده بالله تعالى يقين، من كان على هذا، فناج نفسك مناجاة، من يستغني بالجدِّ

دون الهزل، فإنَّ في القول سعة، ولن يعذر مثلك، فيما طمح إليه الرِّجال.

وأمَّا ما ذكرت، من أنَّا كنَّا وإيَّاكم، يداً جامعة، فكنَّا كما ذكرت، ففرَّق بيننا وبينكم، أنَّ الله بعث رسوله منَّا، فآمنا به وكفرتم، ثم زعمت أنِّي قتلت طلحة، والزبير، فذلك أمر غبت عنه ولم تحضره، ولو حضرته لعلمته، فلا عليك، ولا العذر فيه إليك، وزعمت أنَّك زائري في المهاجرين، وقد انقطعت الهجرة، حين أُسر أخوك، فإن يك فيك عجل، فاسْترفه وإن أزرك، فجدير أن يكون الله بعثني عليك للنقمة منك، والسلام.

ثم إنَّ معاوية، انتخب رجلاً من عبس، وكان له لسان، فكتب معاوية إلى علي، كتاباً عنوانه: من معاوية إلى علي وداخله: «بسم الله الرحمن الرحيم لا غيره».

فلما قدم الرسول، دفع الكتاب إلى علي، فعرف علي ما فيه، وأنَّ معاوية محارب له، وأنَّه لا يجيبه إلى شيء ممَّا يريد، وقام رسول معاوية خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: هل هاهنا أحد من أبناء قيس عيلان، وبني عبس، وذبيان؟

قالوا: نعم هم حولك.

قال: فاسمعوا ما أقول لكم، يا معشر قيس.

إنِّي أحلف بالله، لقد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ، خاضبين لحاهم، من دموع أعينهم، تحت قميص عثمان، رافعيهِ على الرماح، مخضوباً بدمائه، قد أعطوا الله عهداً، أن لا يغمدوا

سيوفهم، ولا يغمضوا جفونهم، حتى يقتلوا قتلة عثمان، يوصي به الميت الحي، ويرثه الحي من الميت، حتى والله نشأ عليه الصبي، وهاجر عليه الأعرابي، وترك القوم تعْسَ الشيطان، وقالوا: تعساً لقتلة عثمان، وأحلف بالله، ليأتينكم من خضر الخيل، اثنا عشر ألفاً، فانظروا كم الشهب وغيرها؟

فقال له علي: ما يريدون بذلك؟

قال: يريدون بذلك، والله خبط رقبتك.

فقال علي: تربت يداك، وكذب قولك، أما والله، لو أنَّ رسولاً قتل لقتلتك.

فقام الصلتُ بن زفر فقال: بئس وافد أهل الشام، أنت ورائد أهل العراق، ونعم العون لعلي، وبئس العون لمعاوية، يا أخا عبس أتخوف المهاجرين، والأنصار، بخضر الخيل، وغضب الرجال؟!

أما والله، ما نخاف غضب رجالك، ولا خضر خيلك.

فأمَّا بكاء أهل الشام، على قميص عثمان: فوالله ماهو بقميص يوسف، ولا بحزن يعقوب، ولئن بكوا عليه بالشام، لقد خذلوه بالحجاز.

وأمَّا قتالهم عليّاً: فإنَّ الله يصنع في ذلك ما أحب.

قال: وإنَّ العبسي أقام بالعراق عند علي، حتى اتهمه معاوية، ولقيه المهاجرون والأنصار، فأشربوه حب علي، وحدثوه عن فضائله، حتى شكَّ في أمره انتهى.

ومن كتاب لعلي، ردَّ فيه على معاوية، وكان قد أرسل إليه معاوية بن أبي سفيان، يُهدِّده بالحرب، ويتوعَّده فأجابه عليه السلام في نهج البلاغة ج٣ ص٥١٨ فقال له:

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً[١]، إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلاَءِ اللَّهِ عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ[٢]، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ.

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلاَمِ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ[٣]، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ، وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ[٤]، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ؟ وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ،

---

(١) أخفى أمراً عجيباً ثم أظهره. وطفقت ـ بفتح فكسر ـ أخذت. وعطف النعمة على البلاء تفسير وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً.

(٢) هجر: مدينة بالبحرين كثيرة النخيل. والمسدد: معلم رمى السهام. والنضال: المراماة أي كمن يدعو أستاذه في فن الرمي إلى المناضلة. وهما مثلان لناقل الشيء إلى معدنه والمتعالم على معلميه.

(٣) إن صحّ ما ادعيت من فضلهم لم يكن لك حظ منه فأنت عنه بمعزل. ثلمه: عيبه.

(٤) يريد أي حقيقة تكون لك مع هؤلاء، أي ليست لك ماهية تذكر بينهم. والطلقاء: الذين أسروا بالحرب ثم أطلقوا، وكان منهم أبو سفيان ومعاوية. والمهاجرون من نصروا الدين في ضعفه ولم يحاربوه.

وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ؟! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا[١]، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا.

أَلاَ تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ[٢]، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ؟ وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ، فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلاَ لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ؟!.

وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيْهِ[٣]، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ، أَلاَ تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً[٤] اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا[٥]، قِيلَ: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ»، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلاَتِهِ عَلَيْهِ؟ أَوَ لاَ تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ[٦]، قِيلَ:

---

(١) حن: صوت. والقدح ـ بالكسر ـ: السهم. وإذا كان سهم يخالف السهام كان له عند الرمي صوت يخالف أصواتها، مثل يضرب لمن يفتخر بقوم ليس منهم. وأصل المثل لعمربن الخطاب رضي الله عنه قال له عقبةبن أبي معيط: «أأقتل من بين قريش؟» فأجابه: «حن قدح ليس منها».

(٢) يقال أربع على ظلعك أي قف عند حدّك. والذرع ـ بالفتح ـ: بسط اليد ويقال للمقدار.

(٣) ذهاب ـ بتشديد الهاء ـ: كثير الذهاب. والتيه: الضلال. والرواغ: الميال. والقصد: الاعتدال.

(٤) مفعول لترى وقوله «غير مخبر» خبر لمبتدأ محذوف أي أنا والجملة اعتراضية.

(٥) هو حمزة بن عبد المطلب استشهد في أُحد والقائل رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٦) واحدنا هو جعفر بن أبي طالب أخو الإمام.

«الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ»! وَلَوْلاَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً[١]، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ تَمُجُّها آذَانُ السَّامِعِينَ، فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ[٢] فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا[٣]، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا[٤] وَلاَ عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ، أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الْأَكِفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ، وَأَنَّى يَكُونُ ذلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ، وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ[٥]، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ، وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلاَفِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ[٦].

---

(١) ذاكر هو الإمام نفسه.

(٢) الرمية: الصيد يرميه الصائد. ومالت به: خالفت قصده فاتبعها، مثل يضرب لمن اعوج غرضه فمال عن الإستقامة لطلبه.

(٣) آل النبي أسراء إحسان الله عليهم والناس أسراء فضلهم بعد ذلك. وأصل الصنيع من تصنعه لنفسك بالإحسان حتى خصصته بك كأنّه عمل يدك.

(٤) قديم مفعول يمنع. والعادي: الإعتيادي المعروف. والطول ـ بفتح فسكون ـ: الفضل. وأنْ خلطناكم فاعل يمنع. والأكفاء: جمع كفؤ ـ بالضم ـ النظير في الشرف.

(٥) المكذب أبو جهل. «وأسد الله» حمزة. و«أسد الأحلاف»: أبو سفيان لأنّه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي في غزوة الخندق. و«سيدا شباب أهل الجنة»: الحسن والحسين بنص قول الرسول. و«صبية النار» قيل هم أولاد مروان بن الحكم أخبر النبي عنهم وهم صبيان بأنّهم من أهل النار، ومرقوا عن الدين في كبرهم. و«خير النساء»: فاطمة. «وحمّالة الحطب»: أم جميل بنت حرب عمة معاوية وزوجة أبي لهب.

(٦) أي هذه الفضائل المعدودة لنا وأضدادها المسرودة لكم قليل في كثير مما لنا وعليكم.

فَإِسْلاَمُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لاَ تُدْفَعُ[١]، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ.

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ[٤]، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلْجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذلِكَ كَذلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ:

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا[٥] *

---

(١) شرفنا في الجاهلية لا ينكره أحد.

(٢) سورة الأنفال: ٧٥.

(٣) سورة آل عِمرَان: ٦٨.

(٤) يوم السقيفة عندما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة بعد موت النبي صلى الله عليه وآله ليختاروا خليفة له، وطلب الأنصار أن يكون لهم نصيب في الخلافة، فاحتجَّ المهاجرون عليهم بأنّهم شجرة الرسول ففلجوا أي ظفروا بهم، فظفر المهاجرين بهذه الحجة ظفر لأمير المؤمنين على معاوية، لأنّ الإمام من ثمرة شجرة الرسول، فإن لم تكن حجّة المهاجرين بالنبي صحيحة فالأنصار قائمون على دعواهم من حق الخلافة، فليس لمثل معاوية حقّ فيها لأنّه أجنبي عنهم.

(٥) شكاة ـ بالفتح ـ أي نقيصة وأصلها المرض. وظاهر: من ظهر إذا صار ظهراً أي خلفاً أي بعيد. والشطر لأبي ذؤيب. وأول البيت: * وعيّرها الواشون أنّي أحبها *.

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ[١]، وَلَعَمْرُ اللَّهِ! لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ، وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً[٢] مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلاَ مُرْتاباً بِيَقِينِهِ، وَهذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا[٣]، وَلكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ[٤]، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ[٥] وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ؟ أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ[٦]، أَمَّنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ[٧] حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ؟ كَلاَّ وَاللَّهِ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ[٨]، وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا، وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً.

---

(١) الخشاش ـ ككتاب ـ ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب لينقاد. وخششت البعير: جعلت في أنفه الخشاش، طعن معاوية على الإمام بأنّه كان يجبر على مبايعة السابقين من الخلفاء.

(٢) الغضاضة: النقص.

(٣) يحتج الإمام على حقه لغير معاوية لأنّه مظنة الاستحقاق، أمّا معاوية فهو منقطع عن جرثومة الأمر فلا حاجة للاحتجاج عليه. وسنح: أي ظهر وعرض.

(٤) لقرابتك منه يصحّ الجدال معك فيه.

(٥) أعدى: أشدّ عدواناً. والمقاتل: وجوه القتل.

(٦) من بذل النصرة هو الإمام واستقعده عثمان أي طلب قعوده ولم يقبل نصره.

(٧) استنصر عثمان بعشيرته من بني أمية كمعاوية فخذلوه وخلّوا بينه وبين الموت فكأنّما بثوا المنون: أي أفضوا بها إليه.

(٨) المعوقون: المانعون من النصرة.

وَمَا كُنْتُ لأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً[١]، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لاَ ذَنْبَ لَهُ:

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ[٢] *

وَمَا أَرَدْتُ إِلاَّ الْإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ: لَيْسَ لِي وَلأَصْحَابِي إِلاَّ السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ[٣]، مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ[٤]، وَبِالسُّيُوفِ مُخَوَّفِينَ:

* لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ[٥] *

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ[٦] فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ

---

(١) نقم عليه ـ كضرب ـ عاب عليه. والأحداث: جمع حدث، البدعة.

(٢) الظنة ـ بالكسر ـ التهمة. والمتنصح: المبالغ في النصح لمن لا ينتصح أي ربما تنشأ التهمة من إخلاص النصيحة عند من لا يقبلها. وصدر البيت:

* وكم سقت في آثاركم من نصيحة *

(٣) الاستعبار: البكاء فقوله يبكي من جهة أنّه إصرار على غير الحق وتفريق في الدين، ويضحك لتهديد من لا يهدد.

(٤) ألفيت: وجدت. وناكلين: متأخرين.

(٥) لبث ـ بتشديد الباء ـ فعل أمر من لبثه. إذا استزاد لبثه. أي مكثه، يريد أمهل. والهيجاء: الحرب. وحمل ـ بالتحريك ـ هو ابن بدر رجل من قشير أغير على إبله في الجاهلية فاستنقذها وقال:

لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ   لا بأسَ بِالموتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلْ

(٦) مرقل: مسرع. والجحفل: الجيش العظيم.

بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ(١)، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ(٢)، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ(٣)، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ، وَخَالِكَ، وَجَدِّكَ، وَأَهْلِكَ(٤)، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٥).



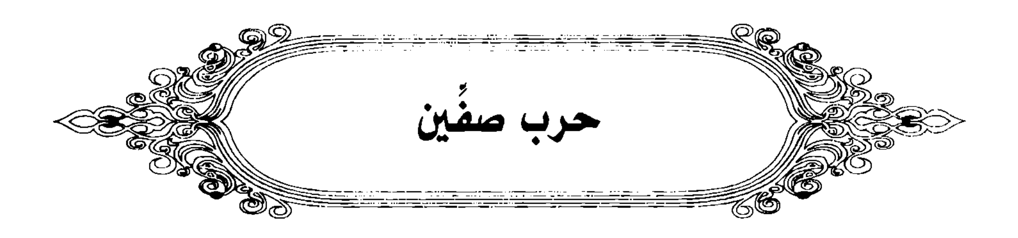
(١) صفة لجحفل. والساطع: المنتشر. والقتام ـ بالفتح ـ: الغبار.

(٢) متسربلين: لابسين لباس الموت كأنّهم في أكفانهم.

(٣) من ذراري أهل بدر.

(٤) أخوه: حنظلة. وخاله: الوليد بن عتبة. وجده: عتبة بن ربيعة.

(٥) سورة هُود: ٨٣.



إنَّه لا سواء إمام الهدى، وإمام الردى، وولي النبي، وعدوّ النبي.

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما والله، لا أخاف على أُمَّتي مؤمناً، ولا مشركاً.

فأمَّا المؤمن: فيمنعه الله بإيمانه.

وأمَّا المشرك: فيقمعه الله بشركه.

ولكنِّي أخاف عليكم كُلَّ منافق الجنان عالم اللّسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون».

إنَّه معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب، قائد جيش الشِّرك، إلى حرب الله ورسوله، يوم أُحُد والأحزاب، انتصاراً لإلهه الوثن، تحت لواء سيِّده إبليس.

إنَّه معاوية بن هند، التي لاكت بفمها كبد عمّ النبي، سيِّد الشُّهداء حمزة بن عبد المطَّلب، يوم أُحُد، ولم تستطع أن تزدردها، لحكمة من الله عزَّ وجلَّ.

كان ذلك ثأراً لأبيها عتبة، وعمِّها ربيعة، وأخيها الوليد،

وولدها حنظلة، وغيرهم من فرسانها، الشجعان الأشاوس، الذين قد فلق هامهم، سيف عليّ وحمزة، في معركة بدرٍ الكبرى.

وكانت قد توعّدت، أن لو قتل رسول الله ﷺ، لشربت الخمرة بقحفة رأسه، رأس النُّبوَّة والرِّسالة، تقدَّس ذكر رسول الله ﷺ، عن وعدها ووعيدها.

إنَّه معاوية ابن هند والد يزيد، قاتل سبط النَّبي، سيِّد شباب أهل الجنَّة، الحسين بن علي، وهو يُدافع عن دين جدّه محمَّد رسول الله ﷺ، في كربلاء الجهاد والاستشهاد، على يد جيشٍ كبير، قاده عاهر النسب، عبيد الله بن زياد، الزنيم اللعين.

ثم حمل إليه رأس الحسين الشريف، ورؤوس أهل بيته، ورؤوس قلَّة من أصحابه الكرام، على رؤوس الرماح، من العراق إلى الشام، وهو يجعجع ببنات رسول الله، زينب وأخواتها، ونساء الشُّهداء والأطفال، بخسته وقسوة سياطه، قد أوعر لهنَّ الطريق، في المفاوز والفلوات، تحت جحيم الشمس، على الرمال الملتهبة، المشتعلة، تسوق بهن زبانية يزيد، وابن زياد، من بلد إلى بلد، ليس معهن من ولاتهن وليّ، ولا من حماتهن حمي، يستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف.

فلما رآهم فرع الشجرة الملعونة في القرآن، يزيد أنشأ يقول:

لَيْتَ أشْياخي ببدْرٍ شهِدُوا   جزع الخزْرجِ من وقعِ الأسَلْ
لأهلّوا واستهلُّوا فَرَحاً   ثُمَّ قَالُوا يا يزيد لا تشلْ

قد قتلْنا القَرَم من ساداتهمْ   وعدلناه ببدرٍ فاعْتَدَلْ
لعبت هاشمُ بالملك فلا   خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزلْ

ثم أُوقف ببنات رسول الله بين يديه، ووضع رأس الحسين في طشت، فأخذ ينظر إليه مُتشمتاً، وقام ينكت ثناياه بمخصرته، وهو يقول: إنَّه الحسين بن علي، حسن الثغر، يقول ذلك غير مستنكف، ولا متحرج، على مرأى ومسمع من أُمَّةِ جدّه محمَّد، أُولئك الذين كانوا يصلون لله بزعمهم، فيركعون ويسجدون، في الغدو والآصال، وهم في عمىً وضلال، عن الصلاة وربّ الصلاة.

فأجابته العقيلة، زينب، وعلي بن الحسين زين العابدين، بكلام عظيم بليغ، يُمزِّق صلد الصخر ويفتته، وأنَّى لمثل هذه الطاغية، أن يخشع قلبه لله في ذرِّيَّة نبيّه. وهو هو في قسوته وفسقه وفجوره.

هذا والله يقول: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وبعد هذا الاستطراد الأليم، فإنِّي أُوجه من على هذه الصفحات، رسالة تقريع وتحذير للعالم عامة، وللمسلمين خاصة، إن هم أقروا هذا الاعتناق، لمثل هذا الإسلام المزيف، المغضب لله ولرسوله، اعتقاداً، وقولاً، وفعلاً.

هذا وقد أجمعت صحاح المسلمين، على أنَّ رسول الله قال: «حسين منِّي، وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً».

---

(١) سورة البَقَرَة: ٧٤.

وقال ﷺ: المسلم، من سلم الناس، من لسانه ويده.

هذا: لقد كان معاوية، داهية من دهاة العرب، لا يقف في طلب حكمه، وتشديد سلطانه، لحريجة في الدِّين، عن قتل وسفك، دماء الأخيار الأحرار، مهما قلَّ أو كثر عددهم، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١].

ومن العجيب، أنَّه قد ضم، أو انضمَّ إليه ابن النابغة، عمرو بن العاص، الذي لا يقلّ عنه، بل يزيده مكراً ودهاءاً، وقتلاً وتشريداً، في عباد الله الصالحين.

نعم عمرو بن العاص، هو هو بنفسه، وروحه، ولحمه، وعظمه، الذي كانت قد أرسلته قريش إلى قتل جعفر بن أبي طالب، أو أسره في الحبشة، عند الملك النجاشي، الملك الحاكم، العادل، رحمه الله تعالى، أوّل الدعوة المحمدية.

فها هو عاد، ليقاتل أخا جعفر الطيَّار، علي بن أبي طالب، بنفس الرُّوح، بنفس السيف،، تحت نفس اللواء، فاعتبروا يا أُولي الألباب.

صدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة الجاثيَة: ٢٣.

(٢) سورة الأنعَام: ١١٢-١١٣.

وقال رسول الله: يا علي، حربك حربي، وسلمك سلمي.

وقال فيه: اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه.

فتعال، لنقف على حرب صفين، بين وصي النبي علي، وبين معاوية، الذي غرسته يد السقيفة، في بلاد الشام والياً عليها.

روى ابن قُتيبة في الإمامة والسياسة: (ج١، ص١٢٣) قال: فلما عزم معاوية، على المسير إلى صفين، عبَّأ أهل الشام.

فجعل على مقدمته: أبا الأعور السلميّ.

وعلى ساقته: بسر بن أرطأة.

وعلى الخيل: عبيد الله بن عمر.

ودفع اللواء: إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

وعلى الميمنة: يزيد العبسيّ.

وعلى الميسرة: عبد الله بن عمرو بن العاص.

ثم قال: يا أهل الشام، إنَّكم قد سرتم لتمنعوا الشام، وتأخذوا العراق، ولعمري ما للشام، رجال العراق وأموالها، ولا لأهل العراق، بصر أهل الشام، ولا بصائرهم، مع أنَّ القوم بعدهم غيرهم مثلهم، وليس بعدكم غيركم، فإن غلبتموهم فلم تغلبوا، إلَّا من قد أتاكم، وإن غلبوكم، عاقبوا من بعدكم، والقوم لاقوكم ببصائر أهل الحجاز، ورقة أهل اليمن، وقسوة أهل مصر، وكيد أهل العراق، وإنَّما يبصر غداً، من أبصر اليوم، فاستعينوا بالصبر والصلاة، إنَّ الله مع الصابرين.

ثمَّ سار معاوية، في ثلاثة آلاف وثمانين ألفاً، حتى نزل بصفين، وذلك في نصف محرَّم، وسبق إلى سهولة الأرض، وسعة المناخ، وقرب الفرات، وكتب إلى علي يخبره بمسيره، ويضيف ابن قتيبة قال:

وذكروا أنَّ عليّاً، لما بلغه تأهب معاوية قال: أيُّها الناس، إنَّما بايع معاوية أهل الشام، وليس له غيرهم ولي، ولا نصير، وإنَّكم أهل الحجاز، وأهل العراق، وأهل اليمن، وأهل مصر، وقد جعل القوم معاوية بينهم وبين الله، وليس له دعوة في الدُّنيا، ولا في الآخرة، وقد وادع القوم الروم، فإن غلبتموهم، استعانوا بهم ولحقوا بأرضهم، وإن غلبوكم، فالغاية الموت، والمفر إلى الله العزيز الحكيم.

وقد زعم معاوية، أنَّ أهل الشام، أهل صبر ونصر، ولعمري أنتم أولى بذلك منهم، لأنَّكم المهاجرون، والأنصار، والتابعون بإحسان، وإنَّما الصبر اليوم، والنصر غداً.

قال: فجدَّ الناس ونشطوا، وتأهبوا، فسار عليّ بالناس من الكوفة، في مئة ألف وتسعين ألفاً.

فجعل على المقدِّمة: الأشتر النخعي.

وعلى ساقته: شُريح بن هانىء.

وعلى المهاجرين والأنصار: محمَّد بن أبي بكر.

وعلى أهل البصرة: عبد الله بن عباس.

وعلى الكوفة: عبد الله بن جعفر.

وعلى جماعة الخيل: عمَّار بن ياسر.

وعلى القلب: الحسن بن علي.

وسار علي حتى نزل صفين، وقد سبقه معاوية، إلى سهولة الأرض، وسعة المناخ، وقرب الفرات.

أضاف ابن قتيبة قال: وذكروا، أنَّه لما نزل معاوية بصفين، بعث أبا الأعور بمن معه، ليحولوا بينهم وبين الفرات، وأنَّ أهل العراق لما نزلوا، بعثوا غلمانهم ليستقوا لهم من الفرات، فحالت خيل معاوية بينهم وبين الماء، فانصرفوا فساروا إلى علي، فأخبروه، فقال علي للأشعث: إذهب إلى معاوية فقل له: إنَّ الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه، لم نحل بينك وبينه، فإن شئت خليت عن الماء، وإن شئت تناجزنا عليه، وتركنا ما جئنا له.

فانطلق الأشعث إلى معاوية، فقال له: إنَّك تمنعنا الماء، وأيم الله لنشربنه، فمرهم يكفوا عنه قبل أن نغلب عليه، والله لا نموت عطشاً، وسيوفنا على رقابنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟

فقال رجل منهم: نرى أن نقتلهم عطشاً، كما قتلوا عثمان ظمأً.

فقال عمرو بن العاص: لا تظن يا معاوية أنَّ عليّاً يظمأ، وأعنة الخيل بيده، وهو ينظر إلى الفرات، حتى يشرب، أو يموت دونه، خلِّ عن القوم يشربوا.

فقال معاوية: هذا والله أوَّل الظفر، لا سقاني الله من حوض الرسول إن شربوا منه، حتى يغلبوني عليه.

فقال عمرو: وهذا أوَّل الجور، أما تعلم أنَّ فيهم العبد،

والأجير، والضعيف، ومن لا ذنب له، لقد شجعت الجبان، وحملت من لا يريد قتالك على قتالك.

أقول: إنَّها لرسالة، عظيمة الشأن، إلى العصور، والأزمنة، وأهلها، وخاصة للباحثين، والناقدين، قد أرسل بها معاوية إليهم تترا، وهي منعه الماء عن مائة ألف إنسان، تنقص أو تزيد، باختلاف بين المؤرخين، وأضفْ إلى عددهم خيلهم، وإبلهم، وماعزهم، وغنمهم، ولك أن تضاعف في عدد حيوانهم، فلا ضير إن، هم ماتوا عطشاً، أو ينتصر ابن هند، فينتزع سلطان رسول الله من وصيّه علي، فتأمَّل رحمك الله تعالى.

وفي نهج البلاغة: (ج١، ص١٢٤) أنَّه عليه السلام قال لأصحابه، لمَّا منعهم معاوية الماء:

قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ، تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ، فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ، أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ، قَادَ لُمَةً مِنَ الْغُوَاةِ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ.

استطعموكم القتال كلمة مجازية ومعناها طلبوا القتال منكم كأنَّه جعل القتال شيئاً يستطعم أي يطلب أكله وفي الحديث إذا استطعمكم الإمام فأطعموه يعني إمام الصلاة أي إذا ارتج فاستفتحكم فافتحوا عليه وتقول: فلان يستطعمني الحديث أي يستدعيه منِّي ويطلبه.

واللَّمة بالتخفيف جماعة قليلة.

وعمس عليهم الخبر يجوز بالتشديد ويجوز بالتخفيف والتشديد يعطي الكثرة ويفيدها ومعناه أبهم عليهم الخبر وجعله مظلماً ليل عماس أي مظلم وقد عمس اللَّيل نفسه بالكسر إذا أظلم وعمسه غيره وعمست عليه عمساً إذا أريته أنَّك لا تعرف الأمر وأنت به عارف.

والأغراض جمع غرض وهو الهدف.

وقوله: فأقروا على مذلة وتأخير محلة أي أثبتوا على الذل وتأخر المرتبة والمنزلة أو فافعلوا كذا وكذا.

ونحو قوله عليه السلام: فالموت في حياتكم مقهورين قول أبي نصر بن نباتة والحسين الذي رأى الموت في العز حياة والعيش في الذل قتلا. وقال التهامي:

ومن فاته نيل العلا بعلومه   وأقلامه فليبغها بحسامه
فموت الفتى في العز مثل حياته   وعيشته في الذل مثل حمامه

❁ ❁ ❁

وفي نهج البلاغة: (ج٢، ص٤٣٧)، قال عليه السلام:

وَقَدْ سَمِعَ قَوْماً مِنْ أَصْحَابِهِ، يَسُبُّونَ أَهْلَ الشَّام، أَيَّامَ حَرْبِهِمْ بِصِفِّينَ: إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، فَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ:

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ.

قوله عليه السلام: وأبلغ في العذر أي العذر في القتال معهم أو في إتمام الحجَّة عليهم وإبداء عذر الله تعالى في عقابهم.

وفي النهاية: حقنت له دمه إذا منعت من قتله وإراقته أي جمعته له وحبسته عليه ويرعوي أي يرجع ويكف واللهج بالشيء الولع به وقد لهج بالكسر أغرى به.

❋ ❋ ❋

في نهج البلاغة ج٢ ص٢٦٧، أنَّه قال لأصحابه، في ساحة الحرب:

وَأَيُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ، أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ، الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ.

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ، لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ، إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ، أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّه.

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ، تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ، لَا تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً، قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ، فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَالْتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ، وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ، وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا، وَلَا تُخِلُّوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا، إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ، هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَ حِفَافَيْهَا، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا، لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا.

أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ، وَايْمُ اللَّهِ، لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، أَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ، إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللَّهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ، وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ، الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ، كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي، الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ، وَاللَّهِ، لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ.

اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ،

وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ، إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ، دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ، يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ، وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ، تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ، وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ، يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ، وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ، وَمَسَارِحِهِمْ.

قال الشريف الرضي:

الدعق: الدق أي تدق الخيول بحوافرها أرضهم.

ونواحر أرضهم: متقابلاتها يُقال: منازل بني فلان تتناحر أي تتقابل.

تبيين قوله عليه السلام: أحسَّ من نفسه أي علم ووجد.

ورباطة الجأش شدة القلب.

والذَّبّ الدفع، **والنجدة**: الشجاعة كما يذبُّ عن نفسه أي بنهاية الاهتمام والجد، لجعله مثله أي مثل أخيه في الجبن، أو أخاه مثله في الشجاعة.

والحثيث: السريع.

والمقيم للموت: الراضي به، كما أنَّ الهارب عنه الساخط له أهون من ميتة إما مطلقاً أو عنده عليه السلام، لما يعلم ما فيه من الدرجات.

وقال في النهاية **كشيش الأفعى**: صوت جلدها إذا تحرَّكت، وقد كشت تكش وليس صوت فمها، لأن ذلك فحيحها، ومِنْهُ حَدِيثُ عَلِيٍّ عليه السلام: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ».

وقال ابن أبي الحديد: أي كأنَّكم لشدة خوفكم واجتماعكم من الجبن كالضباب المجتمعة التي تحكُّ بعضها بعضاً قال الراجز:

كشيش أفعى أجمعت لعض وهي تحكُّ بعضها ببعض

واقتحم عقبة أو وهدة: رمى بنفسه فيها، والتلوم الانتظار والتوقف. قوله: أجزأ امرؤ.

قال ابن أبي الحديد: من الناس من يجعل هذا أو نحوه أمراً بلفظ الماضي كالمستقبل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[1].

ومنهم من قال: معنى ذلك هلّا أجزأ فيكون تحضيضاً محذوف الصيغة للعلم بها، وأجزأ أي كفي.

وقرنك مقارنك في القتال ونحوه.

وآسى أخاه بنفسه بالهمزة أي جعله أسوة لنفسه، ويجوز واسيت زيداً بالواو، وهي لغة ضعيفة والموجدة الغضب والسخط، قوله عليه السلام.

والذُّلَّ اللازم: قيل: يروى اللاذم بالذال المعجمة بمعناه.

والرائح: المسافر وقت الرواح، أو مطلقاً كما قاله الأزهري: ويناسب الأوَّل ما مرَّ من أن قتاله عليه السلام كان غالباً بعد الزوال.

---

(١) سورة البَقَرَة: ٢٣٣.

قوله عليه السلام: **تحت أطراف العوالي** يحتمل أن يكون المُراد بالعوالي الرماح.

قال ابن الأثير في النهاية: العالية ما يلي السنان من الرمح والجمع العوالي، أو المُراد منه السيوف، كما يظهر من ابن أبي الحديد.

فيحتمل أن يكون من علا يعلو إذا ارتفع، أي السيوف التي تعلو فوق الرؤوس أو من علوته بالسيف إذا ضربته به، ويؤيده قَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ».

قوله عليه السلام: **تبلى الأخبار**: بالباء الموحدة، أي تختبر الأفعال والأسرار كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[1].

وفي بعض النسخ بالياء المثناة التحتانية، أي تمتاز الأخيار من الأشرار.

قوله عليه السلام: إلى لقائهم أي الأعداء لقتالهم، والفض التفريق.

وأبسلت فلاناً أسلمته إلى الهلكة.

قوله عليه السلام: **طعن دِراك**: أي متتابع يتلو بعضه بعضاً، ويخرج منه النسيم أي لسعته.

وروي النسم أي طعن يخرق الجوف بحيث يتنفس المطعون من الطعنة.

وروي القشم بالقاف، والشين المعجمة وهو اللحم والشحم،

---

(١) سورة محَمَّد: ٣١.

والفلق الشق، وطاح الشيء سقط أو هلك، أو تاه في الأرض، وأطاحه غيره وأندره أسقطه.

قال ابن أبي الحديد: يمكن أن يفسّر النواحر بأمر آخر، وهو أن يُراد به أقاصي أرضهم من قولهم لآخر ليلة من الشهر ناحرة.

❋ ❋ ❋

روى المسعودي في مروج الذهب ج٢ ص٤١٥، قال: وكان سير علي من الكوفة إلى صفين، لخمس خلون من شوال، سنة ست وثلاثين، واستخلف على الكوفة: أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري، فاجتاز في مسيره المدائن، ثم أتى الأنبار، وسار حتى نزل الرقة، فعقد له هناك جسر، فعبر إلى جانب الشام قال: وقد تنوزع في مقدار ما كان معه من الجيش، فمكثر ومقلل، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً، وقال رجل من أصحاب علي، لما استقروا ممَّا يلي الشام، من أبيات كتب بها إلى معاوية، حيث يقول:

[الرجز]

أَثْبُتْ معاوي قد أتاك الحَافِلُ تسعون ألفاً كُلّهم مُقاتلُ

عمَّا قليل يضمحل الباطلُ

قال المسعودي: وسار معاوية من الشام، وقد تنوزع في مقدار من كان معه أيضاً، فمكثر ومُقلل، والمتفق عليه من الجميع خمس وثمانون ألفاً، فسبق علياً إلى صفين، وعسكر في موضع سهل أفيح، اختاره قبل قدوم عليّ، على شريعة، لم يكن على الفرات، في ذلك الموضع، أسهل منها للوارد إلى الماء، وما عداها أخراق عالية،

ومواضع إلى الماء وعرة، ووكَّل أبا الأعور السلمي بالشريعة، مع أربعين ألفاً، وكان على مقدمته، وبات علي وجيشه في البر، عطاشاً، قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء، فقال عمرو بن العاص لمعاوية:

إنَّ علياً لا يموت عطشاً، هو وتسعون ألفاً من أهل العراق، وسيوفهم على عواتقهم، ولكن دعهم يشربون ونشرب.

فقال معاوية: لا والله، أو يموتوا عطشاً، كما مات عثمان.

وخرج علي يدور في عسكره باللَّيل، فسمع قائلاً وهو يقول:

[المتقارب]

أيمنعنا القوم ماء الفرات　وفينا الرماح وفينا الجحفْ
وفينا علي له صولة　إذا خوَّفوه الردى لم يخفْ
ونحن غداة لقينا الزبير　وطلحة خضنا غمار التلفْ
فما بالنا أمس أسد العرين　وما بالنا اليوم شاء النجفْ

فقال علي للأشعث: أُخرج في أربعة آلاف من الخيل، حتى تهجم بهم في وسط عسكر معاوية فتشرب، وتستقي لأصحابك، أو تموتوا عن آخركم، وأنا مُسيِّر الأشتر في خيل ورجالة وراءك.

فسار الأشعث، في أربعة آلاف من الخيل وهو يقول مُرتجز:

لأوْرِدن خيلي الفراتا　النواصي أو يُقال ماتا

ثم دعا علي الأشتر، فسرحه في أربعة آلاف، من الخيل والرجالة، فصار يؤم الأشعث وصاحب رايته، وهو رجل من النخع، وهو يرتجز ويقول:

يا أشتر الخيرات يا خير النخع   وصاحب النصر إذا عمَّ الفزع
قد جزع القوم وعمُّوا بالفزع   إن تسقنا اليوم فما هو بالبدع

ثم سار علي رضي الله عنه وراء الأشتر بباقي الجيش، ومضى الأشعث، فما ردَّ وجهه أحد، حتى هجم على عسكر معاوية، فأزال أبا الأعور عن الشريعة، وغرق منهم بشراً وخيلاً، وأورد خيله الفرات.

وفي ذلك يقول رجل من أهل العراق:

[مجزوء الرمل]

كشف الأشعث عنَّا   كربة الموت عيانا
بعدما طارت طلاقاً   طيْرة مست لهانا
فله المن علينا   وبه دارت رحانا

وارتحل معاوية عن الموضع، وورد الأشتر، وقد كشف الأشعث القوم عن الماء، وأزالهم عن مواضعهم، وورد علي، فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية، فقال معاوية لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، ما ظنّك بالرجل، أتراه يمنعنا الماء لمنعنا إيَّاه؟

وقد كان انحاز بأهل الشام، إلى ناحية في البر، نائية عن الماء، فقال له عمرو: لا، إنَّ الرجل جاء لغير هذا، وإنَّه لا يرضى حتى تدخل في طاعته، أو يقطع حبل عاتقك، فأرسل إليه معاوية، يستأذنه في ورود مشرعته، واستقاء الناس من طريقه، ودخول رسله في عسكره، فأباحه علي كل ما سأل وطلب منه.

ولمَّا كان أوَّل يوم من ذي الحجَّة، بعد نزول عليّ على هذا

الموضع بيومين، بعث إلى معاوية، يدعوه إلى اتحاد الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرَّم، من سنة سبع وثلاثين، ولم يتم علي ومعاوية صلح، على غير ما اتفقا عليه، من الموادعة في المحرَّم، وعزم القوم على الحرب، بعد انقضاء المحرَّم، ففي ذلك يقول حابس بن سعد الطائي، صاحب راية معاوية:

[الوافر]

فما دون المنايا غير سبْعٍ ... بقين من المحرَّم أو ثمانِ

ولمَّا كان في اليوم الآخر من المحرَّم، قبل غروب الشمس، بعث علي إلى أهل الشام: إنِّي قد احتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، وإنِّي قد نبذت إليكم على سواء، إنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين.

فلم يردُّوا عليه جواباً، إلَّا السيف بيننا وبينك، أو يهلك الأعجز منَّا.

لم نزل مع المسعودي قال: وأصبح علي يوم الأربعاء، وكان أوَّل يوم من صفر، فعبأ الجيش.

وأخرج الأشتر أمام الناس، وأخرج إليه معاوية، وقد تصاف أهل الشام وأهل العراق، حبيب بن مسلمة الفهري، وكان بينهم قتال شديد، سائر يومهم، وأسْفرت عن قتلى من الفريقين جميعاً، وانصرفوا.

فلمَّا كان يوم الخميس، وهو اليوم الثاني، أخرج علي

هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزهري المرقال، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقّاص، وإنّما سُمِّي المرقال، لأنَّه كان يرقل «يسرع في الحرب»، وكان أعور، ذهبت عينه يوم اليرموك، وكان من شيعة علي، فأخرج إليه معاوية أبا الأعور السلمي، وهو سفيان بن عوف، وكان من شيعة معاوية، والمنحرفين عن عليّ.

فكانت بينهم الحرب سجالاً، وانصرفوا في آخر يومهم عن قتلى كثير.

وأخرج علي في اليوم الثالث «وهو يوم الجمعة»، أبا اليقظان عمَّار بن ياسر، في عدة البدريين، وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فيمن تسرع معهم من الناس.

وأخرج إليه معاوية عمرو بن العاص، في تنوخ وبهراء وغيرهما من أهل الشام، فكانت الحرب بينهم سجالاً إلى الظهر، ثم حمل عمَّار بن ياسر فيمن ذكرنا، فأزال عمراً عن موضعه، وألحقه بعسكر معاوية، وأسفرت عن قتلى كثيرة من أهل الشام، ودونهم من أهل العراق.

وأخرج علي في اليوم الرابع، «وهو يوم السبت»، ابنه محمد بن الحنفية في همدان وغيرها، ممَّن خف معه من الناس، فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب، في حمير، ولخم، وجذام.

وقد كان عبيد الله بن عمر، لحق بمعاوية خوفاً من عليّ أن يقده بالهرمزان، وذلك أنَّ أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قاتل

عمر، وكان في أرض العجم غلاماً للهرمزان، فلما قتل عمر، شدَّ عبيد الله على الهرمزان، فقتله وقال: لا أترك بالمدينة فارسيّاً، ولا في غيرها إلَّا قتلته بأبي، وكان الهرمزان عليلاً، في الوقت الذي قتل فيه عمر.

فلما صارت الخلافة إلى عليّ، أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان، لقتله إيَّاه ظلماً، من غير سبب استحقه، فلجأ إلى معاوية، فاقتتلوا في ذلك اليوم، وكانت على أهل الشام، ونجا ابن عمر في آخر النهار هرباً، وأخرج علي في اليوم الخامس «وهو يوم الأحد»، عبد الله بن العباس، فأخرج إليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فاقتتلوا وأكثر الوليد من سبّ بني عبد المطلب بن هاشم، فقاتله ابن عباس قتالاً شديداً، وناداه: إبرز إليَّ يا صفوان، وكان لقب الوليد، وكان الغلبة لابن عباس، وكان يوماً صعباً.

وأخرج علي في اليوم السادس «وهو يوم الاثنين»، سعيد بن قيس الهمداني، وهو سيِّد همدان يومئذٍ، فأخرج إليه معاوية ذا الكلاع، وكانت الحرب بينهما إلى آخر النهار، وأسفرت عن قتلى، وانصرف الفريقان.

وأخرج علي في اليوم السابع «وهو يوم الثلاثاء»، الأشتر في النخع وغيرهم، فأخرج إليه معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، فكانت الحرب بينهم سجالاً «مرة لهم ومرة عليهم»، وصبر كلا الفريقين، وتكافأوا وتواقفوا للموت، ثم انصرف الفريقان، وأسفرت عن قتلى منهما، والجراح في أهل الشام أعم.

قال: وخرج في اليوم الثامن «وهو يوم الأربعاء»، علي رضي الله عنه بنفسه في الصحابة من البدريين، وغيرهم من المهاجرين، والأنصار وربيعة، وهمدان.

قال ابن عباس: رأيت في هذا اليوم علياً، وعليه عمامة بيضاء، وكأنَّ عينيه سراجاً سليط «متوقد»، وهو يقف على طوائف الناس في مراتبهم، يحثّهم ويُحرِّضهم، حتى انتهى إليَّ وأنا في كثيف من الناس، فقال: يا معشر المسلمين، عموا الأصوات، وأكملوا اللّامة «الدرع»، واستشعروا الخشية، وأقلقوا السيوف في الأجفان قبل السل، والحظوا الشزر «النظر بمؤخر العين»، واطعنوا الهبر، ونافحوا بالضبا، وصلوا السيوف بالخطا، والنبال بالرماح، وطيبوا عن أنفسكم أنفساً، فإنَّكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله، عاودوا الكر، واستقبحوا الفر، فإنَّه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب، ودونكم هذا السواد الأعظم، والرواق المطنب، فاضربوا نهبه، فإنَّ الشيطان راكب صعيده، مفترش ذراعيه، قد قدم للوثبة يداً، وأخر للنكوص رجْلاً «الفرار والهرب».

فصبراً جميلاً، حتى تنجلي عن وجه الحق، وأنتم الأعلون، والله معكم، ولن يتركم أعمالكم.

وتقدَّم علي للحرب، على بغلة رسول الله ﷺ الشهباء «سواد في بياض»، وخرج معاوية في عدد أهل الشام، فانصرفوا عند المساء، وكل غير ظافر.

وخرج في اليوم التاسع «وهو يوم الخميس» عليّ، وخرج

معاوية، فاقتتلوا إلى ضحوة من النهار، وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب، في أربعة آلاف من الخضرية، معممين بشقائق الحرير الأخضر، مُتقدمين للموت، يطلبون بدم عثمان، وابن عمر يقدمهم وهو يقول:

[الرجز]

أنا عبيد اللَّه ينميني عمرْ   خير قُريش من مضى ومن غبرْ
غير نبي اللَّه والشيخ الأغر   قد أبطأتْ في نصر عثمان مُضرْ
والربعيون فلا أُسقوا المطرْ

فناداه علي: ويحك يا ابن عمر، علام تقاتلني؟ والله لو كان أبوك حيّاً ما قاتلني.

قال: أُطالب بدم عثمان.

قال: أنت تطلب بدم عثمان، والله يطلبك بدم الهرمزان.

وأمر عليّ الأشتر النخعي بالخروج إليه، فخرج الأشتر إليه، وهو يقول:

[الرجز]

إنِّي أنا الأشتر معروف السِّيْر   إنِّي أنا الأفعى العراقي الذِّكرْ
لستُ من الحيِّ ربيعٍ أو مضرْ   لكنَّني من مُذحجَ البيض الغررْ

فانصرف عنه عبيد الله ولم يبارزه، وكثرت القتلى يومئذٍ، وقال عمَّار بن ياسر: إنِّي لأرى وجوه قوم، لا يزالون يقاتلون، حتى يرتاب المبطلون، والله لو هزمونا، حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، لكنَّا على الحق، وكانوا على الباطل.

وتقدَّم عمَّار، فقاتل ثم رجع إلى موضعه فاستقى، فأتته امرأة من نساء بني شيبان من مصافهم، بعسٍ فيه لبن، فدفعته إليه فقال: الله أكبر، الله أكبر، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة، صدق الصادق، وبذلك أخبرني الناطق، وهو اليوم الذي وُعدت فيه.

ثم قال: أيُّها الناس، هل من رائح إلى الله، تحت العوالي؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنهم على تأويله، كما قاتلناهم على تنزيله، وتقدَّم وهو يقول:

[الرجز]

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضْربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويُذهلُ الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

فتوسط القومَ، واشتبكت عليه الأسنَّة، فقتله أبو العادية العاملي، وابن جون السكسكي، واختلفا في سلبه، فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال لهما: اخرجا عنِّي، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: أو قال رسول الله ﷺ، وولعت قريش بعمَّار: ما لهم ولعمَّار؟ يدعوهم إلى الجنَّة، ويدعونه إلى النار؟ وكان قتله عند المساء، وله ثلاث وتسعون سنة، وقبره بصفين، وصلَّى عليه عليّ عليه السلام، ولم يغسله، وكان يغيِّر شيبه.

وفي قتله يقول الحجاج بن عزيمة الأنصاري، أبياتاً رثاه بها:

[البسيط]

يا للرجال بعينٍ دمعها جاري قد هاج حزني أبو اليقظان عمَّارُ
أهوى إليه أبو حوَّا فوارسه يدعو السكون وللجيشين إعصارُ

فاختل صدرُ أبو اليقظان معترضاً للرّمح قد وجبت فينا له النارُ
اللَّه عن جمعهم لا شكَّ كان عفا أتتْ بذلك آياتٌ وآثارُ
من يَنْزَعَ اللَّه غلاً من صدورهم على الأسرة لم تمسهم النارُ
قال النبي له تقتلك شرذمة سيطت لحومهم بالبغي فجَّارُ
فاليوم يعرف أهل الشام أنَّهم أصحاب تلك وفيها النار والعارُ

ولمَّا صرع عمَّار، تقدَّم سعيد بن قيس الهمداني في همدان، وتقدَّم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في الأنصار، وربيعة وعدي بن حاتم في طيء، وسعيد بن قيس الهمداني في الناس، فخلطوا الجمع بالجمع، واشتد القتال، وحطمت همدان أهل الشام، حتى قذفتهم إلى معاوية، وقد كان معاوية قد صمد، فيمن كان معه لسعيد بن قيس، ومن معه من همدان، وأمر عليٌّ الأشتر، أن يتقدَّم باللواء إلى أهل حمص، وغيرهم من أهل قنسرين، فأكثر القتل في أهل حمص وقنسرين، بمن معه من القراء، وأبل المرقال يومئذٍ بمن معه، فلا يقوم له شيء، وجعل يرقل كما يرقل الفحل في قيده، وعليّ وراءه يقول له: يا أعور لا تكن جباناً تقدَّم، والمرقال يقول:

[الرجز]

قد أكثر القوم وما أقلَّا أعورٌ يبغي أهلهُ محَلَّا
قد عالج الحياة حتى ملَّا لا بُدَّ أن يفلَّ أو يُفلَّا
أشلهم بذي الكعوب شلَّا

وحمل هاشم المرقال، وحمل ذو الكلاع، ومع المرقال جماعة من أسلم، قد آلوا ألَّا يرجعوا، أو يفتحوا، أو يقتلوا،

فاجتلد الناس، فقتل هاشم المرقال، وقتل ذو الكلاع جميعاً، فتناول ابن المرقال اللواء، حين قتل أبوه في وسط المعركة، وكر في العجاج وهو يقول:

يا هاشِمَ بن عتبة بن مالكْ   أعْززْ بشيخ من قريش هالكْ
تخبطهُ الخيلاتُ بالسنابكْ   أبشرْ بحور العينِ في الأرائكْ
والرَّوح والريحان عند ذلك

ووقف عليّ رضي الله عنه عند مصرع المرقال، ومن صرع حوله من الأسلميِّين وغيرهم، فدعا لهم، وترحَّم عليهم، وقال من أبيات:

[الطويل]

جزى اللَّه خيراً عصبة أسلمية   صباح الوجوه صُرِّعوا حول هاشمِ
يزيدٌ وعبد اللَّه بشرُ بنُ معبدٍ   وسُفيان وابنا هاشم ذي المكارمِ
وعروة لا ينفد ثناهُ وذكرهُ   إذا اخترُطت يوماً خفاف الصوارمِ

ولما رأى معاوية، القتل في أهل الشام، وكلب أهل العراق عليهم، استدعى بالنعمان بن جبلة التنوخي، وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء، وقال له: لقد هممت أن أولي قومك من هو خير منك، مقدماً وأنصح منك ديناً.

فقال له النعمان: إنَّا لو كنَّا ندعوا قومنا إلى جيش مجموع، لكان في كسع الرجال بعض الأناة، فكيف ونحن ندعوهم، إلى سيوف قاطعة، ورُدينية شاجرة، وقوم ذوي بصائر نافذة، والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملكك على ديني، وتركتُ لهواك

الرشد وأنا أعرفه، وحدت عن الحق وأنا أبصره، وما وفقت لرشد، حين أُقاتل على ملكك، ابن عم رسول الله ﷺ، وأوَّل مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك، لكان أرأف بالرعية، وأجزل في العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر، ولا بُدَّ من إتمامه، كان غيّاً، أو رشداً، وحاشا أن يكون رشداً، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها، إذ حرمنا أثمار الجنَّة وأنهارها، وخرج إلى قومه، وصمد إلى الحرب.

وتوجَّه عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فحمل عليه حريت بن جابر الجعفي، فطعنه فقتله.

وقيل: إنَّ الأشتر النخعي هو الذي قتله.

وقيل: إنَّ عليّاً ضربه ضربة، فقطع ما عليه من الحديد، حتى خالط سيفه حشوة جوفه، وإنَّ عليّاً قال حين هرب فطلبه، ليقيد منه بالهرمزان: لئن فاتني في هذا اليوم، لا يفوتني في غيره.

ولما قتل عمَّار في هذا اليوم، حرَّض علي عليه السلام الناس، وقال لربيعة:

أنتم درعي ورمحي، فانتدب له ما بين عشرة آلاف، إلى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم، قد جادوا بأنفسهم لله عزَّ وجلَّ، وعلي أمامهم على البغلة الشهباء، وهو يقول:

[الرجز]

من أيَّ يوميَّ من الموت أفِر ... أيوم لم يُقدر أم يوم قدرْ

وحمل، وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام

صف إلَّا انتقض، وأهمدوا كل ما أتوا عليه، حتى أتوا إلى قبَّة معاوية، وعلي لا يمرُّ بفارس إلَّا قده، وهو يقول:

[الرجز]

أضـربـهـم ولا أرى مـعـاويـهْ   الأخزر العين العظيم الحاويهْ

تـهـوي بـه فـي الـنـار أُمّ الـهـاويـهْ

ثم نادى عليّ: يا معاوية، علام يُقتل الناس بيني وبينك؟ هلم أُحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه، استقامت له الأُمور.

فقال له عمرو: قد أنصفك الرجل.

فقال له معاوية: ما أنصفت، وإنَّك تعلم أنَّه لم يبارزه رجل قط إلَّا قتله، أو أسره.

فقال له عمرو: وما يجمل بك إلَّا مبارزته.

فقال له معاوية: طمعت فيها بعدي وحقدها عليه.

قال: وأقسم معاوية على عمرو، لما أشار عليه بهذا، أن يبرز إلى علي، فلم يجد عمرو من ذلك بُدّاً، فبرز فلما التقيا، عرفه علي، وشال السيف ليضربه به، فكشف عمرو عن عورته، وقال: مكره أخوك لا بطل.

فحوَّل عليّ وجهه عنه وقال: قُبِّحْت.

ورجع عمرو إلى مصافه، وذكروا أنَّ معاوية، قال لعمرو بعد انقضاء الحرب: هل غششتني مُنذُ نصحتني؟

قال: لا.

قال: بلى، والله يوم أشرت عليَّ بمبارزة عليّ، وأنت تعلم ما هو.

قال: دعاك إلى المبارزة، فكنت عن مبارزته على إحدى الحسنيين، إمَّا أن تقتله، فتكون قد قتلت قاتل الأقران، وتزداد شرفاً إلى شرفك، وإمَّا أن يقتلك، فتكون قد استعجلت مرافقة الشُّهداء، والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً.

فقال معاوية: يا عمرو الثانية أشد من الأولى.

وروى ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج ج٦ ص٣١٧، عن الواقدي قال: قال معاوية يوماً، بعد استقرار الخلافة له لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله لا أراك إلَّا ويغلبني الضحك.

قال: بماذا؟

قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين، فأزْريْت نفسك فرقاً من شَبَا سنانه، وكشفت سوأتك له.

فقال عمرو: أنا منك أشدُّ ضحكاً، إنِّي لأذكر يوم دعاك إلى البراز، فانتفخ سحرك، وربا لسانك في فمك، وغصصت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك.

فقال معاوية: لم يكن هذا كُلّه، وكيف يكون ودوني عك، والأشعريون.

قال: إنَّك لتعلم أنَّ الذي وصفتُ دون ما أصابك، وقد نزل

ذلك بك، ودونك عك والأشعريون، فكيف كانت حالك، لو جمعكما مأقط الحرب؟

فقال: يا أبا عبد الله، خض بنا الهزل إلى الجِدّ، إنَّ الجبن والفرار من عليّ، لا عار على أحد فيهما.

روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: (ج١، ص١٢٦)، قال: وذكروا أنَّ الناس مكثوا بصفين أربعين ليلة، يغدون إلى القتال ويروحون، فأما القتال الذي كان فيه الفناء، فثلاثة أيَّام.

فلما رأى علي كثرة القتال، والقتل في الناس، برز يوماً من الأيَّام، ومعاوية فوق التل، فنادى بأعلى صوته: يا معاوية.

فأجابه فقال: ما تشاء يا أبا الحسن؟

قال علي: علام يقتتل الناس ويذهبون؟ إبرز إليَّ، ودع الناس، فيكون الأمر لمن غلب.

قال عمرو بن العاص: أنصفك الرجل يا معاوية، فضحك معاوية وقال: طمعت فيها يا عمرو.

فقال عمرو: والله ما أراه يجمل بك، إلَّا أن تبارزه.

فقال معاوية: ما أراك إلَّا مازحاً، نلقاه بجمعنا.

قال: وذكروا أنَّ عمراً قال لمعاوية: أتجبن عن علي، وتتهمني في نصيحتي إليك؟ والله لأبارزنَّ عليّاً، ولو مت ألف موتة في أوَّل لقائه، فبارزه عمرو فطعنه علي فصرعه، فاتقاه بعورته، فانصرف عنه عليّ، وولَّى بوجهه دونه، وكان علي رضي الله عنه،

لم ينظر قط إلى عورة أحد، حياءً، وتكرماً، وتنزهاً، عمَّا لا يحلّ ولا يجمل بمثله، كرَّم الله وجهه.

ويضيف ابن قتيبة في نفس المصدر قال:

وذكروا أنَّ عبد الله بن أبي مُحجن الثقفي، قدم على معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي أتيتك من عند الغبي الجبان البخيل، ابن أبي طالب.

فقال معاوية: لله أنت، أتدري ما قلت؟

أمَّا قولك الغبي: فوالله لو أنَّ ألسُن الناس جُمعت، فجُعلت لساناً واحداً، لكفاها لسان عليّ.

وأمَّا قولك: إنَّه جبان: فثكلتك أُمّك، هل رأيت أحداً قط بارزه إلَّا قتله؟

وأمَّا قولك إنَّه بخيل: فوالله لو كان له بيتان، أحدهما من تبر، والآخر من تبن، لأنفد تبره قبل تبنه.

فقال الثقفي: فعلام تقاتله إذاً؟

قال: على دم عثمان، وعلى هذا الخاتم، الذي من جعله في يده جادت طينته، وأطعم عياله، وادَّخر لأهله، فضحك الثقفي، ثم لحق بعلي فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي يَدَيَّ بجرمي، لا دُنيا أصبت ولا آخرة، فضحك علي ثم قال: أنت منها على رأس أمرك، وإنَّما يأخذ الله العباد بأحد الأمرين.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي

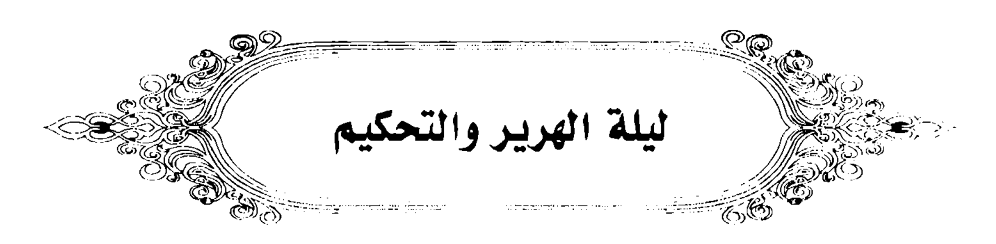
ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا * وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾[٢].



(١) سورة الفُرقان: ٢٧-٣١.

(٢) سورة الإنسَان: ٢٧.



ليلة الهرير والتحكيم

ليلة الهرير[١]، كانت قارعة، وحاقَّة، حلَّت بساحة صفين، فرمت بشررها وحممها، معاوية بن أبي سفيان وجنده، فكعمته، وذهبت بعزته وبأوه، وهو في مائة ألف سيف، تقاتل بين يديه، تقلُّ قليلاً، أو تزيد قليلاً.

لقد زلزل عليٌّ بسيفه ذلك الجيش، وهو يصول ويجول عليهم بشدَّة بأسه، وقوَّة يقينه، في فتية من بني هاشم، فيهم الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ، فكان يفتح فيه الفرجة بعد الفرجة، لتعبر خلفه فرسان جيشه الأشاوس، فتوقع وتزلزل، في صفوف عدوِّ الله، ورسوله عدوّ الإنسانية، والخلق العظيم.

وكان يقذف كتائبهم، وشجعانهم بالمحرابِ، الأشدِّ الأشْجع مالك الأشتر، فكان يزحف بالكتائب، كأنَّه إعصارٌ فيه نار، يُدمِّر كُلّ شيءٍ بإذن ربِّه.

حتى إذا استشهد صاحب رايته هاشم المرقال، فيمن قد استشهد من جنده، استشهد صاحب رسول الله ﷺ، عمّار بن ياسر وما أدراك ما عمَّار؟

---

(١) ليلة الهرير هرير الفرسان على بعضها كهرير السباع وهي تتقاتل.

لقد قتلته الفئة الباغية عن شربة اللبن.

فهاج الجيش وماج بعضه في بعض، فاشتد غضب عليّ، وغضب جيشه لقتل عمَّار، فإنَّ مقتل عمَّار يقطع الشك باليقين، ويفصل بين الحق والباطل، في صدور الذين لا يهتدون، بنور علمهم، وقوَّة بصائرهم، لقول رسول الله ﷺ: «يا عمَّار تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدُّنيا اللبن».

فزحف جيش الحق، بقيادة علي على عدوِّه، زحفة رجل واحد، حتى إذا حمي الوطيس، وأخذت السيوف من الفرسان، مآخذها، فهي تحصد الرؤوس، وتطيح بالأكف والسواعد، وعلت الرماح، فهي تبعج الصدور، بطعن دراك، يخرج منهم النسيم في زئير، لفرسان علي ترتعد له الفرائص، وتتقطع له القلوب.

وإذا بنار حرب علي، قد سرحت في جيش معاوية، تلتهم كُلَّ ما أتت عليه، فلا يقوم لها شيء، فلما رأى معاوية ما قد نزل به، وأحاط بجيشه، تزلزل قلبه، وزاغ بصره، لهول الزحف ووقعه، فالرجال تهوي، والجياد تُعقر، وضعاف النُّفوس تفرُّ، فدعا بفرسه للفرار، إذ لم يكن بينه وبين سيف الأشتر أن يحصد رأسه، ورأس عمرو بن العاص، إلَّا خطوات يسيرة قليلة، فصاح به عمرو إلى أين يا معاوية، أفأنت فارٌّ فار؟ فقال له: ألا ترى يا عمرو، فماذا نصنع يا عمرو؟

فقال له: عندي الفتنة الكبرى، يا معاوية.

قال: وما هي يا عمرو.

قال: نادِ في جيشك، **أن تُرفع المصاحف على رؤوس الرماح، وأن يدعوا عليّاً وجيشه، إلى تحكيم كتاب الله، فتلك** الفتنة الكبرى، يا معاوية فلما رُفعت المصاحف، ودعي علي وجمعه إلى التحكيم، نادى علي بأعلى صوته: يا قوم إنَّها خدعة، أرادوا بها صرفكم عنهم، وقد أشرف النصر والفتح المبين.

فعموا وصموا عن نداء قائدهم علي.

فانشقَّ جيشه فرْقيْنِ، موافق ومعارض، كُلّ فرق كالطود العظيم، فكان الخضوع لغلبة الخيانة، وكان التحكيم الجائر الجهيض، فكانت الجولة للباطل وأهله، على الحق وأهله، حتى يبلغ الكتاب أجله، ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فاقرأ المُؤرَّخ، لنرى حال الفريقين في هذا. روى الطبري في تاريخ الأُمم والملوك: (ج٤، ص٣٤)، قال:

فلما رأى عمرو بن العاص، أنَّ أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف في ذلك الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك، لا يزيدنا إلَّا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلَّا فرقة.

قال: نعم.

قال: نرفع المصاحف، ثم نقول ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها، وجدت فيهم من يقول: بلى، ينبغي أن

---

(١) سورة الأنفَال: ٤٢.

نقبل، فتكون فرقة تقع بينهم، وإن قالوا: بلى، نقبل ما فيها، رفعنا **هذا القتال عنَّا، وهذه الحرب إلى أجل، أو إلى حين، فرفعوا** المصاحف بالرماح، وقالوا: هذا كتاب الله عزَّ وجلَّ بيننا وبينكم، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق.

فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت، قالوا: نجيب إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ، ونحيب إليه.

فقال علي: عباد الله، امضوا على حقكم، وصدقكم قتال عدوِّكم، فإنَّ معاوية، وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، والضحَّاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعْرَفُ بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ أطفال، وشرّ رجال ويحكم إنَّهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم، إلَّا خديعة، ودهناً، ومكيدة.

فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ، فنأبى أن نقبله.

فقال لهم: فإنِّي إنَّما قاتلتهم، ليدينوا بحكم هذا الكتاب، فإنَّهم قد عصوا الله عزَّ وجلَّ فيما أمرهم، ونسوا عهده، ونبذوا كتابه.

فقال له مُسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي، ثم السنبسي في عصابة معهما من القرَّاء، الذين صاروا خوارج بعد

ذلك: يا عليّ، أجب إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ إذْ دعيت إليه، وإلَّا ندفعك برمتك إلى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عفَّان، إنَّه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عزَّ وجلَّ فقبلناه، والله لتفعلنها، أو لنفعلنها بك.

قال: فاحفظوا عنِّي نهي إيَّاكم، واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا، فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم.

قالوا له: أما لا، فابعث إلى الأشتر فليأتك.

قال: فأرسل عليّ إلى الأشتر، يزيد بن هانىء السبيعي، أن أتني، فأتاه، فبلَّغه، فقال: قل له ليس هذه الساعة، التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي، إنِّي قد رجوت أن يُفتح لي، فلا تعجلني، فرجع يزيد بن هانىء إلى عليّ، فأخبره، فارتفع الرهج، وعلت الأصوات من قبل الأشتر.

فقال له القوم: والله ما نراك إلَّا أمرته أن يُقاتل.

قال: من أين ينبغي أن تروا ذلك، رأيتموني ساررْته، أليس إنَّما كلمته على رؤوسكم علانية، وأنتم تسمعوني.

قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلَّا والله اعتزلناك.

قال له: ويحك يا يزيد، قل له أقبل إليَّ، فإنّ الفتنة قد وقعت، فأبلغه ذلك.

فقال له: ألرفع المصاحف.

قال: نعم.

قال: **أما والله، لقد ظننت حين رفعت، أنَّها ستوقع اختلافاً** وفرقة، إنَّها مشورة ابن العاهرة، ألا ترى ما صنع الله لنا؟ أينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم.

فقال يزيد بن هانىء له: أتحب أنَّك ظفرت ههنا، وأنَّ أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه، أو يُسْلَم.

قال: لا، والله سبحان الله.

قال فإنَّهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتينك، أو لنقتلنك، كما قتلنا ابن عفَّان.

فأقبل حتى انتهى إليهم فقال: يا أهل العراق، يا أهل الذلِّ والوهن، حين علوتم القوم ظهراً، وظنُّوا أنَّكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله عزَّ وجلَّ به فيها، وسُنَّة من أنزلت عليه صلَّى الله عليه وسلَّم، فلا تجيبوهم، أمهلوني عدْوَ الفرس، فإنِّي قد طمعت في النصر.

قالوا: إذا ندخل معك في خطيئتك.

قال: فحدثوني عنكم وقد قتل أماثلكم، وبقي أراذلكم، متى كنتم مُحقين، أحين كنتم تقاتلون، وخياركم يقتلون، فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون، أم الآن أنتم محقون، فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم، فكانوا خيراً منكم في النار، إذاً قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله عزَّ وجلَّ، وندع قتالهم لله سبحانه، إنَّا لسنا مُطيعيك ولا صاحبك، فاجتنبنا.

فقال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب، فأجبتم يا أصحاب الجباه السود، كنَّا نظنُّ صلواتكم، زهادة في الدُّنيا، وشوقاً إلى لقاء الله عزَّ وجلَّ، فلا أرى فراركم إلَّا إلى الدُّنيا، من الموت ألا قبحاً، يا أشباه النيِّب الجلالة، وما أنتم برائين، بعدها عزاً أبداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمين، فسبوه فسبهم، فضربوا وجه دابته بسياطهم، وأقبل يضرب بسوطه وجوه دوابهم، وصاح بهم علي فكفوا، وقال للناس:

قد قبلنا، أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً، فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ، فقال له: ما أرى الناس إلَّا قد رضوا، وسرَّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية، فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل.

قال: ائته إن شئت فسله.

فأتاه فقال: يا معاوية، لأيِّ شيء رفعتم هذه المصاحف.

قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عزَّ وجلَّ به في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منَّا رجلاً، ثمَّ نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبَّع ما اتفقا عليه.

فقال له الأشعث بن قيس: هذا الحق، فانصرف إلى عليّ، فأخبره بالذي قال معاوية.

فقال الناس: فإنَّا قد رضينا وقبلنا.

فقال أهل الشام: فإنَّا قد اخترنا عمرو بن العاص.

فقال الأشعث: وأولئك القوم الذين صاروا خوارج بعد، فإنَّا قد رضينا بأبي موسى الأشعري.

قال علي: فإنَّكم قد عصيتموني في أوَّل الأمر، فلا تعصوني الآن، إنِّي لا أرى أن أُولي أبا موسى.

فقال الأشعث، وزيد بن حصين الطائي، ومسعر بن فدكي: لا نرضى إلَّا به، فإنَّه ما كان يحذرنا وقعنا فيه.

قال عليّ: فإنَّه ليس لي بثقة، قد فارقني وخذَّل الناس عنِّي، ثم هرب منِّي، حتى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك.

قالوا: ما نبالي أنت كنت، أم ابن عباس، لا نريد إلَّا رجلاً هو منك، ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما، بأدنى منه إلى الآخر.

فقال علي: فإنِّي أجعل الأشتر.

فقال الأشعث: وهل سعر الأرض غير الأشتر، وهل نحن إلَّا في حكم الأشتر.

قال علي: وما حكمه.

قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف، حتى يكون ما أردت وما أراد.

قال: فقد أبيتم إلَّا أبا موسى.

قالوا: نعم.

قال: فاصنعوا ما أردتم.

فأرسلوا إليه، وكان قد اعتزل القتال، وجاء أبو موسى حتى دخل العسكر، وجاء الأشتر حتى أتى علياً، فقال: ألزَّني بعمرو بن العاص، فوالله الذي لا إله إلَّا هو، لئن ملأت عيني منه لأقتلنه.

وجاء الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّك قد رُميت بحجر الأرض، وبمن حارب الله ورسوله أنف الإسلام، وإنِّي قد عجمت هذا الرجل، وحلبت أشطره، فوجدته كليل الشفرة، قريب القعر، وإنَّه لا يصلح لهؤلاء القوم، إلَّا رجل يدنو منهم، حتى يصير في أكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني، ثانياً أو ثالثاً، فإنَّه لن يعقد عقدة إلَّا حللتها، ولن يحل عقدة أعقدها، إلَّا عقدت لك أُخرى، أحكم منها، فأبى الناس إلَّا أبا موسى، والرضى بالكتاب.

فقال الأحنف: فإن أبيتم إلَّا أبا موسى، فادفئوا ظهره بالرجال.

فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين.

فقال عمرو: أُكتب اسمه، واسم أبيه هو أميركم، فأما أميرنا فلا.

وقال له الأحنف: لا تمح اسم إمارة المؤمنين، فإنِّي أتخوف إن محوتها، ألا ترجع إليك أبداً، لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً، فأبى ذلك عليٌّ مليّاً من النهار، ثم إنَّ الأشعث بن قيس قال: امح هذا الاسم برحه الله، فمحى، وقال علي: الله أكبر،

سنة بسنة، ومثل بمثل، والله إنِّي لكاتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، يوم الحديبية، إذ قالوا: لست رسول الله، ولا نشهد لك به، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فكتبه.

فقال عمرو بن العاص: سبحان الله، ومثل هذا نشبه بالكفَّار، ونحن مؤمنون.

فقال علي: يا ابن النابغة، ومتى لم تكن للفاسقين وليّاً، وللمسلمين عدوّاً، وهل تشبه إلَّا أُمّك التي وضعت بك.

فقام فقال: لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً، بعد هذا اليوم.

فقال له عليٌّ: وإنِّي لأرجو، أن يُطهِّر الله عزَّ وجلَّ مجلسي منك، ومن أشباهك، وكتب الكتاب انتهى.

وروى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ج١ ص١٣٥ قال: وذكروا، أنَّ أهل العسكرين، باتوا بشدَّة من الألم، ونادى علي أصحابه، فأصبحوا على راياتهم، ومصافهم، فلما رآهم معاوية، وقد برزوا للقتال، قال لعمرو بن العاص: يا عمرو، ألم تزعم، أنَّك ما وقعت في أمرٍ قط، إلَّا خرجت منه؟

قال: بلى.

قال: أفلا تخرج ممَّا ترى؟

قال: والله لأدعونهم إن شئت، إلى أمر أُفرِّق به جمعهم، ويزداد جمعك إليك اجتماعاً، إن أعطوكه اختلفوا، وإن منعوكه اختلفوا.

قال معاوية: وما ذاك؟

قال عمرو: **تأمر بالمصاحف فترفع، ثم تدعوهم إلى ما فيها، فوالله لئن قبله، لتفترقن عنه جماعته، ولئن ردَّه ليكفرنه أصحابه**، فدعا معاوية بالمصحف، ثم دعا رجلاً من أصحابه، يُقال له: ابن هند، فنشره بين الصفين، ثم نادى: الله الله في دمائنا ودمائكم الباقية، بيننا وبينكم كتاب الله.

فلما سمع الناس ذلك، ثاروا إلى عليّ فقالوا: قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه، ورفع صاحب معاوية المصحف، وهو يقول: بيننا وبينكم هذا المصحف، ثم تلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

ثم نادى: من لفارس من الروم؟

فقال الأشعث: والله لا نأتي هذه أبداً، ونرضى معك، أو نقاتل معك، وتابعه أشراف أهل اليمن، وركنوا إلى الصلح، وكرهوا القتال.

روى اليعقوبي في تاريخه: (ج٢، ص٨٨)، قال: وكان مع عليّ يوم صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، وممَّن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجرين والأنصار، أربعمائة رجل، ولم يكن مع معاوية من الأنصار، إلَّا النعمان بن بشير،

---

(١) سورة آل عِمرَان: ٢٣.

ومسلمة بن مخلد، وصدقت نيَّات أصحاب عليّ في القتال، وقام عمّار بن ياسر، فصار في الناس، فاجتمع إليه خلق عظيم فقال:

والله إنَّهم لو هزمونا، حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، لعلمنا أنَّا على حق، وأنَّهم على الباطل، ثم قال: ألا هل من رائح إلى الجنَّة؟

فتبعه خلق، فضرب حول سرادق معاوية، فقاتل القوم قتالاً، وقتل عمَّار بن ياسر، واشتدَّت الحرب في تلك العشية، ونادى الناس: قتل صاحب رسول الله، وقد قال رسول الله: تقتل عمَّاراً الفئة الباغية، وزحف أصحاب عليّ، وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، حتى لصقوا به، فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه.

فقال له عمرو بن العاص: إلى أين؟

قال: قد نزل ما ترى، فما عندك؟

قال: لم يبق إلَّا حيلة واحدة، أن ترفع المصاحف، فتدعوهم إلى ما فيها، فتستكفّهم وتكسر من حدّهم، وتفتُّ في أعضادهم.

قال معاوية: فشأنك، فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم بما فيها، وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله.

فقال عليّ: إنَّها مكيدة، وليسوا بأصحاب قرآن، فاعترض الأشعث بن قيس الكندي، وقد كان معاوية استماله، وكتب إليه ودعاه إلى نفسه، فقال: قد دعا القوم إلى الحق.

فقال عليّ: إنَّهم إنَّما كادوكم، وأرادوا صرفكم عنهم.

فقال الأشعث: والله إن لم تجبهم انصرفت عنك، ومالت اليمانيةُ مع الأشعث.

فقال الأشعث: والله لتجيبنَّهم إلى ما دعوا إليه، أو لندفعنَّك إليهم برمَّتك، فتنازع الأشتر والأشعث، في هذا كلاماً عظيماً، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم، وحتى خاف عليّ أن يفترق عنه أصحابه.

فلمَّا رأى ما هو فيه، أجابهم إلى الحكومة، وقال عليّ: أرى أن أُوجِّه بعبد الله بن عباس.

فقال الأشعث: إنَّ معاوية يوجه بعمرو بن العاص، ولا يحكم فينا مُضريَّان، ولكن توجِّه أبا موسى الأشعري، فإنَّه لم يدخل في شيءٍ من الحرب.

وقال عليٌّ: إنَّ أبا موسى عدوّ، وقد خذَّل الناس عنِّي بالكوفة، ونهاهم أن يخرجوا معي.

قالوا: لا نرضى بغيره، فوجَّه علي أبا موسى على علمه بعداوته له، ومداهنته فيما بينه وبينه، ووجَّه معاوية عمرو بن العاص، وكتبوا كتابين بالقضية:

كتاباً من عليّ، بخطِّ كاتبه عبد الله بن أبي رافع، وكتاباً من معاوية، بخطِّ كاتبه عمير بن عبَّاد الكنانيّ، واختصموا في تقديم عليّ، أو تسمية علي بإمرة المؤمنين.

فقال أبو الأعور السلمي: لا نقدِّم علياً.

وقال أصحاب عليّ: ولا نُغيِّر اسمه، ولا نكتب إلَّا بإمرة المؤمنين، فتنازعوا على ذلك منازعة شديدة، حتى تضاربوا بالأيدي.

فقال الأشعث: امحوا هذا الاسم.

فقال له الأشتر: والله يا أعور، لهممت أن أملأ سيفي منك، فلقد قتلت قوماً ما هم شرٌّ منك، وإنِّي أعلم أنَّك ما تحاول إلَّا الفتنة، وما تدور إلَّا على الدُّنيا وإيثارها على الآخرة.

فلما اختلفوا، قال عليّ: الله أكبر، قد كتب رسول الله يوم الحديبية لسهيل بن عمرو:

هذا ما صالح رسول الله.

فقال سهيل: لو علمنا أنَّك رسول الله ما قاتلناك، فمحا رسولُ الله اسمه بيده، وأمرني.

فكتبت: من محمَّد بن عبد الله وقال: إنَّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوَّتي، وكذلك كتبت الأنبياء، كما كتب رسول الله إلى الآباء، وإنَّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بإمرتي، وأمرهم فكتبوا:

من علي بن أبي طالب، وكتب كتاب القضية على الفريقين، يرضون بذلك بما أوجبه كتاب الله، واشترط على الحكمين في الكتابين، أن يحكما بما في كتاب الله، من فاتحته إلى خاتمته، لا يتجاوزان ذلك، ولا يحيدان عنه إلى هوى، ولا إدهان، وأخذ

عليهما أغلظ العهود والمواثيق، فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله، من فاتحته إلى خاتمته، فلا حكم لهما.

ووجَّه عليّ بعبد الله بن عباس في أربعمائة من أصحابه، ونفَّذ معاوية أربعمائة من أصحابه، واجتمعوا بدومة الجندل[١]، في شهر ربيع الأوَّل سنة ٣٨، فخدع عمرو بن العاص أبا موسى، وذكر له معاوية فقال:

هوولِيّ ثار عثمان، وله شرفه في قريش، فلم يجد عنده ما يُحبّ.

قال: فابني عبد الله؟

قال: ليس بموضع لذلك.

قال: فعبد الله بن عمر؟

قال: إذاً يحيي سُنَّة عمر الآن حيث به.

فقال: فاخلع عليّاً، وأخلع أنا معاوية، ويختار المسلمون، وقدَّم عمرو أبا موسى إلى المنبر، فلمَّا رآه عبد الله بن عباس، قام إلى عبد الله بن قيس، فدنا منه فقال: إن كان عمرو فارقك على شيء فقدِّمه قبلك، فإنَّه غُدر.

فقال: لا قد اتفقنا على أمر، فصعد المنبر فخلع عليّاً.

ثمَّ صعد عمرو بن العاص فقال: قد ثبتُّ معاوية، كما ثبت

---

(١) دومة الجندل من أعمال المدينة سُمِّيت بدوم بن إسماعيل.

خاتمي هذا في يدي، فصاح به أبو موسى: غدرت يا منافق، إنّما مثلك مثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث.

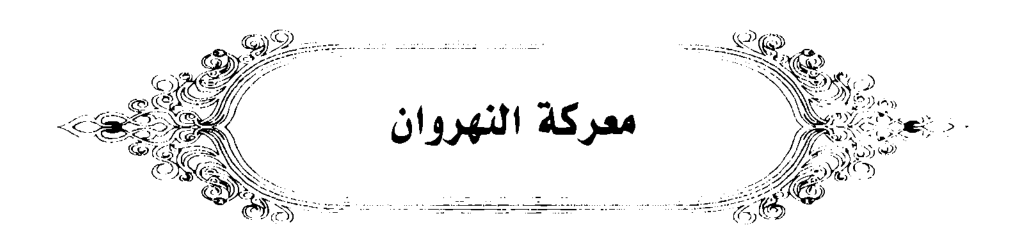
قال عمرو: إنّك مثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً.

وتنادى الناس: حكم والله الحكمان بغير ما في الكتاب، والشرط عليهما غير هذا، وتضارب القوم بالسياط، وأخذ قوم بشعور بعض، وافترق الناس، ونادت الخوارج: كفر الحكمان، لا حكم إلّا لله.

وانصرف علي إلى الكوفة، وصارت الخوارج إلى قرية يُقال لها: حروراء، بينها وبين الكوفة نصف فرسخ، وبها سمّوا الحرورية، ورئيسهم عبد الله بن وهب الراسبيّ، وابن الكوّا، وشبث بن ربعي، فجعلوا يقولون: لا حكم إلّا لله، فإذا بلغ عليّاً ذلك قال: كلمة حق أُريد بها باطل.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

(١) سورة الكهف: ٥٠.



معركة النهروان

عاد علي إلى الكوفة من صفين، منتصر السيف، محروم القرار، إذْ حُمل على الخضوع لرفع المصاحف، أن يوقف القتال فأوقفه، وقد أشرف على النصر والفتح، بعد جدال جهيد مرير، لخروج المارقة عليه، تعضدُها الزنادقة الملحدة، فهم أهل العراق، أهل الشقاق والنفاق آنذاك.

وكذلك حُجِر عليه، أن يقذف حكم الخصم، برجل يُحلُّ ويُبرْمُ، قادر عزيز، فلا يُركب ظهره، ولا يُحلب ضرعه كابن عبَّاسٍ، أو مالك الأشتر، فعصوا أمره، ورموه بأبي موسى الأشعري، لحقده على عليّ، فكانت الخيانة، والخدعة، في الحكومة والتحكيم.

عاد علي إلى الكوفة، ولم يغلق خلفه باب الحرب، لقد أخذ الله عليه الميثاق، كما أخذ على النَّبيِّين والوصيِّين من قبل، أن لا يُقارّوا على كِظَّةِ ظالم، ولا سغب مظلوم، ما شقَّ الجهاد، وما عظم كريم الاستشهاد.

فما أن لبث في الكوفة، غير بعيدٍ، بعد خيانة التحكيم، حتى قرع طبول الحرب، وفتح باب الجهاد والاستشهاد، فقام يُحرِّض

المؤمنين على القتال، فنفر إليه قليل من كثير، فعلا المنبر يعاتبهم ويُقرِّعهم، لانفراجهم عنه مُتثاقلين إلى الأرض، رغبة بأنفسهم عن الجهاد، والاستشهاد في حفظ الإسلام، ورسالة السَّماء فقال عليه السلام في نهج البلاغة: (ج١، ص١٠٥):

أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ. أَرَضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً؟ وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً. إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ، دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ[(١)]، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ، يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ[(٢)]، فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ[(٣)]، فَأَنْتُمْ لاَ تَعْقِلُونَ. مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي[(٤)]، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلاَ زَوَافِرِ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ[(٥)]. مَا أَنْتُمْ إِلاَّ كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جانِبٍ، انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ. لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ

---

(١) دوران الأعين: اضطرابها من الجزع. ومن غمرة الموت يدور بصره فإنّهم يريدون من غمرة الموت الشدة التي تنتهي إليه يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

(٢) الحوار بالفتح في الكلام. ويُرْتج: بمعنى يغلق أي لا تهتدون لفهمه فتعمهون أي تتحيرون وتترددون.

(٣) المألوسة: المخلوطة بمس الجنون.

(٤) سجيس بفتح فكسر: كلمة تقال بمعنى أبداً. وسجيس: أصله من سجس الماء بمعنى تغير وكدر. وكان أصل الإستعمال ما دامت الليالي بظلامها أي ما دام الليل ليلاً. ويقال سجيس لا وجس بفتح الجيم وضمها، وسجيس عجيس كل ذلك بمعنى أبداً أي أنّهم ليسوا بثقات عنده يركن إليهم أبداً.

(٥) الزافرة: من البناء ركنه، ومن الرجل عشيرته. وقوله: «يمال بكم» أي يمال على العدو بعزكم وقوتكم.

أَنْتُمْ[١]، تُكَادُونَ وَلاَ تَكِيدُونَ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلاَ تَمْتَعِضُونَ[٢]، لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ. غُلِبَ وَاللَّهِ الْمُتَخَاذِلُونَ، وَايْمُ[٣] اللَّهِ إِنِّي لأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ[٤]، وَاللَّهِ إِنَّ أَمْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ، يَعْرُقُ لَحْمَهُ[٥] وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ[٦]، أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ[٧] فَأَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ[٨]، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذلِكَ مَا يَشَاءُ.

---

(١) السَّعْر: أصله مصدر سعر النار من باب نفع أوقدها، أي لبئس ما توقد به الحرب أنتم. ويقال أنّ سعر جمع ساعر كشرب جمع شارب وركب جمع راكب.

(٢) امتعض: غضب.

(٣) غلب مبني للمجهول. والمتخاذلون: الذين يخذل بعضهم بعضاً ولا يتناصرون.

(٤) حمس: كفرح اشتد. والوغى: الحرب. واستحرَّ: بلغ في النفوس غاية حدته. وقوله: «انفراج الرأس» أي انفراجاً لا التئام بعده فإنَّ الرأس إذا انفرج عن البدن أو انفرج أحد شقيه عن الآخر لم يعد للإلتئام.

(٥) يأكل لحمه حتى لا يبقى منه شيء على العظم. وفراه يفريه: مزقه يمزقه.

(٦) ما ضمت عليه الجوانح هو القلب وما يتبعه من الأوعية الدموية. والجوانح: الضلوع تحت الترائب ما يلي الترقوتين من عظام الصدر أو ما بين الثديين والترقوتين. يريد ضعيف القلب.

(٧) يمكن أن يكون خطاباً عاماً لكل من يمكن عدوه من نفسه. ويُروى أنّه خطاب للأشعث بن قيس عندما قال له: «هلا فعلت فعل ا بن عفان» فأجابه بقوله: أن فعل ابن عفان لمخزاة على من لا دين له وإن امرء» الخ.

(٨) أي لا يمكن عدوه من نفسه حتى يكون دون ذلك ضرب بالمشرفية: وهي السيوف التي تنسب إلى مشارف وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف، =

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ[١]، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالْنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ.

وقال لهم في نفس المصدر من النهج:

أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ[٢]، كَلَامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلَابَ[٣]، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ، تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ، قُلْتُمْ حِيدِي حَيَادِ[٤]، مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ

= ولا يقال في النسبة إليها مشارفي. وفراش الهام: العظام الرقيقة التي تلي القحف. وتطيح السواعد: أي تسقط.

(١) الفيء الخراج وما يحويه بيت المال.

(٢) أهواؤهم: آراؤهم وما تميل إليه قلوبهم.

(٣) الصم جمع أصم: وهو من الحجارة الصلب المصمت. والصلاب: جمع صليب. والصليب: الشديد. وبابه ظريف وظراف وضعيف وضعاف. ويوهيها: يضعفها ويفتتها، يقال وهي الثوب ووهي يهي وهياً من باب ضرب وحسب، تخرق وانشق أي تقولون من الكلام ما يفلق الحجر بشدته وقوته، ثم يكون فعلكم، من الضعف والإختلال، بحيث يطمع فيكم العدو.

(٤) حيدي حياد: كلمة يقولها الهارب كأنّه يسأل الحرب أن تتنحى عنه من الحيدان وهو الميل والإنحراف عن الشيء. وحياد مبني على الكسر كما في قولهم فيحي فياح، أي اتسعي وحمى حمام للداهية: أي أنهم يقولون في المجلس سنفعل بالأعداء ما نفعل فإذا جاء القتال فروا وتقاعدوا.

مَنْ قَاسَاكُمْ[١]، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ، وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلُ، دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ[٢]، لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ، وَلَا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ.

أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ؟

وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟

الْمَغْرُورُ وَاللَّهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ، وَاللَّهِ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ[٣]، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ[٤].

---

(١) أي من دعاهم وحملهم بالترغيب على نصرته، لم تعز دعوته لتخاذلهم فإن قاساهم وقهرهم انتفضوا عليه فاتعبوه. والأعاليل: إمّا جمع أعلال جمع علل جمع علة أو جمع أعلولة كما أنّ الأضاليل جمع أضلولة والأضاليل متعلقة بالأعاليل. أي إنّكم تتعللون بالأباطيل التي لا جدوى لها.

(٢) أي إنّكم تدافعون الحرب اللازمة لكم كما يدافع المدين المطول غريمه. والمطول: الكثير المطل وهو تأخير أداء الدين بلا عذر. وقوله «لا يمنع الضيم الخ» أي أنّ الذليل الضعيف البأس الذي لا منعة له لا يمنع ضيماً وإنّما يمنع الضيم القوي العزيز.

(٣) فاز بكم من فاز بالخير إذا ظفر به أي من ظفر بكم وكنتم نصيبه فقد ظفر بالسهم الأخيب وهو من سهام البسر الذي لا حظ له.

(٤) الأفوق من السهام: مكسور الفُوْق. والفوق: موضع الوتر من السهم. والناصل: العاري عن النصل. أي من رمى بهم فكأنّما رمى بسهم لا يثبت في الوتر حتى يرمى. وإن رمى به لم يصب مقتلاً إذ لا نصل له. وهذه الخطبة خطبها أمير المؤمنين عند إغارة الضحاك بن قيس فإنّ معاوية لما بلغه فساد الجند على أمير المؤمنين دعا الضحاك بن قيس وقال له: «سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدت من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه، وإن وجدت له خيلاً أو مسْلَحة فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلدة فأمس في أخرى، ولا تقيمن لخيل بلغك أنّها قد سرحت إليك =

أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ، مَا بَالُكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ، أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَغَفْلَةٍ مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ، وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ؟

قالوا: ثم عسكر في النخيلة، وأرسل إلى من في حكمه، وتحت سيطرته، رجالاً له حاشرين، فحشروا له عشرات الآلاف من الكوفة والبصرة وغيرها، فقرت بهم عينه، في جهاد عدوِّه، وعدوّهم عدوّ الله ورسوله.

فلما أراد أن يفصل بالجنود إلى صفين، ليكرّ على معاوية وجنده، فيُطهِّر الأرض من ذلك الشخص المعكوس، والجسم المركوس، حتى تخرج المدرة من حب الحصيد، وإذا قد بلغه، أنَّ الخوارج قد قطعوا الطريق، وطفقوا يقتِّلون الصالحين البررة، من أشراف شيعته الأحرار، في غير تردُّدٍ أو حرج.

روى الطبري في تاريخه: (ج٤، ص٦٠)، قال:

إنَّ الخارجة التي أقبلت من البصرة، جاءت حتى دنت من

= لتلقاها فتقاتلها»، وسرَّحه في ثلاثة آلاف. فأقبل الضحاك فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب ثم لقي بن عمر عميس بن مسعود الذهلي، فقتله، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود، ونهب الحاج وقتل منهم، وهم على طريقهم عند القطقطانة. فساء ذلك أمير المؤمنين وأخذ يستنهض الناس إلى الدفاع عن ديارهم، وهم يتخاذلون. فوبخهم بما تراه في هذه الخطبة، ثم دعا بحجر بن عدي فسيره إلى الضحاك في أربعة آلاف فقاتله، فانهزم فاراً إلى الشام يفتخر بأنّه قتل ونهب.

إخوانها بالنهر، فخرجت عصابة منهم، فإذا هم برجل، يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه، فدعوه فتهدَّدوه، وأفزعوه وقالوا له: من أنت.

قال: أنا عبد الله بن خبَّاب صاحب رسول الله ﷺ، ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض، وكان سقط عنه لما أفزعوه، فقالوا له: أفزعناك.

قال: نعم.

قالوا له: لا روع عليك، فحدثنا عن أبيك، بحديث سمعه من النبي ﷺ، لعلَّ الله ينفعنا به.

قال: حدثني أبي، عن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم)، أنَّ فتنة تكون، يموت فيها قلب الرجل، كما يموت فيها بدنه، يُمسي فيها مؤمناً، ويُصبح فيها كافراً، ويُصبح فيها كافراً ويُمسي فيها مؤمناً.

فقالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر، وعمر، فأثنى عليهما خيراً.

قالوا: ما تقول في عثمان، في أوَّل خلافته، وفي آخرها.

قال: إنَّه كان مُحقاً في أوَّلها وفي آخرها.

قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده.

قال: إنَّه أعلم بالله منكم، وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنَّك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها، لا على أفعالها، والله لنقتلنَّك قتلة ما قتلناها أحداً، فأخذوه فكتفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حُبلى مُتمٌّ، حتى نزلوا تحت نخل مواقر، فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم، فقذف بها في فمه، فقال أحدهم: بغير حلِّها وبغير ثمن، فلفظها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه، فأخذ يمينه فمرَّ به خنزير لأهل الذمَّة، فضربه بسيفه، فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض.

فأتى صاحب الخنزير، فأرضاه من خنزيره، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، فما عليَّ منكم بأس، إنِّي لمسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثاً، ولقد آمنتموني فلم لا روع عليك.

فجاؤوا به، فأضجعوه، فذبحوه، وسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: إنِّي إنَّما أنا امرأة، ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا أُمّ سنان الصيداوية، فبلغ ذلك عليّاً ومن معه من المسلمين، من قتلهم عبد الله بن خباب، واعتراضهم الناس، فبعث إليهم الحارث بن مرة العبدي، ليأتيهم فينظر فيما بلغه عنهم، ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه، فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسائلهم، فخرج القوم إليه فقتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس.

فقام إليه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين، عَلام تدع هؤلاء وراءنا، يخلفوننا في أموالنا وعيالنا، سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا

ممَّا بيننا وبينهم، سرنا إلى عدوّنا من أهل الشام، وقام إليه الأشعث بن قيس الكندي، فكلَّمه بمثل ذلك، وكان الناس يرون، أنَّ الأشعث يرى رأيهم، لأنَّه كان يقول يوم صفين: أنصفنا قوم يدعون إلى كتاب الله.

فلما أمر علي بالمسير إليهم، علم الناس أنَّه لم يكن يرى رأيهم، فأجمع على ذلك، فنادى بالرحيل، وخرج فعبر الجسر، فصلَّى ركعتين بالقنطرة.

ثم نزل دير عبد الرحمن، ثم دير أبي موسى، ثم أخذ على قرية شاهي.

ثمَّ على دباها، ثم على شاطىء الفرات، فلقيه في مسيره ذلك منجِّم، أشار عليه بسير وقت من النهار، وقال له: إن سرت في غير ذلك الوقت، لقيت أنت وأصحابك ضرّاً شديداً، فخالفه، وسار في الوقت الذي نهاه عن السير فيه.

فلما فرغ من النهر، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم، لقال الجهَّال الذين لا يعلمون، سار في الساعة التي أمره بها المنجم فظفر انتهى.

روى الأندلسي في العقد الفريد: (ج٥، ص٩٩)، قال: قالوا: إنَّ عليّاً، لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى، وأصحاب البرانس، ونزلوا قرية يُقال لها: حروراء، وذلك بعد وقعة الجمل، فرجع إليهم علي بن أبي طالب، فقال لهم: يا هؤلاء من زعيمكم؟

قالوا: ابن الكواء.

قال: فليبرز إليَّ، فخرج إليه ابن الكواء، فقال له علي: يابن الكواء ما أخرجكم علينا، بعد رضاكم بالحكمين، ومقامكم بالكوفة.

قال: قاتلت بنا عدوّاً، لا نشك في جهاده، فزعمت أنَّ قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النار، فبينما نحن كذلك، إذ أرسلت منافقاً، وحكَّمت كافراً، وكان ممَّا شكَّك في أمر الله، أن قلت للقوم حين دعوتهم كتاب الله بيني وبينكم، فإن قضى عليَّ بايعتكم، وإن قضى عليكم بايعتموني، فلولا شكُّك لم تفعل هذا، والحق في يدك.

فقال علي: يابن الكوَّاء، إنَّما الجواب بعد الفراغ، أفرغت فأجيبك؟

قال: نعم.

قال علي: أما قتالك معي عدوّاً، لا تشكّ في جهاده فصدقت، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم.

وأمَّا قتلانا وقتلاهم، فقد قال الله في ذلك، ما يُستغنى به عن قولي.

وأمَّا إرسالي المنافق، وتحكيمي الكافر، فأنت أرسلت أبا موسى مُبرنساً، ومعاوية حكَّم عمراً، أتيت بأبي موسى مبرنساً، فقلت: لا نرضى إلَّا أبا موسى، فهلا قام إليَّ رجلٌ منكم.

فقال: يا علي لا تعطِ هذه الدنية، فإنَّها ضلالة؟

وأمَّا قولي لمعاوية: إن جرَّني إليك كتاب الله تبعتُك، وإن جرك إليَّ تبعتني، زعمت أنِّي لم أعطِ ذلك إلَّا من شكّ، فقد علمت أنَّ أوثق ما في يديك هذا الأمر، فحدثني ويحك عن اليهودي، والنصراني، ومشركي العرب، أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية، وأهل الشام؟

قال: بل معاوية وأهل الشام.

قال علي: أفرسول الله ﷺ كان أوثقَ بما في يديه من كتاب الله، أم أنا.

قال: بل رسول الله.

قال: أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١].

أما كان رسول الله، يعلم أنَّه لا يؤتى بكتاب هو أهدى ممَّا في يديه؟

قال: بلى.

قال: فلم أعطى رسول الله القوم ما أعطاهم؟

قال: إنصافاً وحجَّة.

قال: فإنِّي أعطيت القوم ما أعطاهم رسول الله.

قال ابن الكوَّاء: فإنِّي أخطأت هذه واحدة زدني.

---

(١) سورة القَصَص: ٤٩.

قال علي: فما أعظم ما نقمتم عليَّ؟

قال: تحكيمُ الحكمين نظرنا في أمرنا، فوجدنا تحكيمهما شكّاً وتبذيراً.

قال علي: فمتى سُمِّيَ أبو موسى حكماً، حين أُرْسل أو حين حكم؟

قال: حين أُرسل.

قال: أليس قد سار وهو مسلم، وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله؟

قال: نعم.

قال عليّ: فلا أرى الضلال في إرساله.

فقال ابن الكوَّاء: سمِّي حكماً حين حكم.

قال: نعم، إذاً فإرساله كان عدْلاً.

أرأيت يابن الكوَّاء، لو أنَّ رسول الله بعث مؤمناً إلى قوم مشركين، يدعوهم إلى كتاب الله، فارتدَّ على عقبيه كافراً، كان يضرُّ نبي الله شيئاً؟

قال: لا.

قال علي: فما كان ذنبي، إن كان أبو موسى ضلَّ، هل رضيت حكومته حين حكم، أو قوله إذ قال؟

قال ابن الكوَّاء: لا، ولكنَّك جعلت مسلماً وكافراً، يحكمان في كتاب الله.

قال علي: ويلك يابن الكوَّاء، هل بعث عمراً غيرُ معاوية؟

وكيف أُحكِّمه، وحكمه على ضرب عنقي؟ إنَّما رضي به

صاحبُه، كما رضيت أنت بصاحبك، وقد يجتمع المؤمنُ والكافر، يحكمان في أمر الله، أرأيت لو أنَّ رجلاً مؤمناً، تزوج يهودية، أو نصرانية، فخافا شقاقَ بينهما، ففزع الناس إلى كتاب الله، وفي كتابه: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[١].

فجاء رجل من اليهود، ورجل من النصارى، ورجل من المسلمين، الذين يجوز لهما أن يحكما في كتاب الله فحكما.

قال ابن الكوَّاء: وهذه أيضاً، أمهلنا حتى ننظر، فانصرف عنهم علي، فقال له صعصعة بن صوحان: يا أمير المؤمنين إئذن لي في كلام القوم.

قال: نعم، ما لم تبسط يداً.

قال: فنادى صعصعةُ ابن الكوَّاء، فخرج إليه فقال: أُنشدكم بالله يا معشر الخارجين، أن لا تكونوا عاراً على من يغزو لغيره، وأن لا تخرجوا بأرض، تُسمَّوْا بها بعد اليوم، ولا تستعجلوا ضلال العام، خشية ضلال عام قابل.

قال ابن الكوَّاء: إنَّ صاحبك لقينا بأمرٍ، قولك فيه صغير فأمسك.

فقال زيد بن عبد الله الراسبي، وكان من أهل حروراء يُشككهم:

شككتم ومن أرْسى ثبيراً[٢] مكانه ... ولو لم تشُكُّوا ما انثنيتم عن الحربِ
وتحكيمُكمْ عَمْراً على غير توبةٍ ... وكان لعبد اللّه خطبٌ من الخطبِ
فأنكصهُ للعقب لما خلا به ... فأصبح يهوي من ذُرَى حالقٍ صعبِ

---

(١) سورة النِّسَاء: ٣٥.

(٢) ثبيراً: اسم جبل.

وقال الرياحي:

ألم تر أنَّ اللَّه أنزل حُكمه وعمروٌ وعبد اللَّه مُختلفانِ

وقال أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي:

[البسيط]

لو كان للقوم رأياً يُعْصُمونَ بهِ عند الخطوب رموكم بابن عبَّاسِ
لكن رموكم بوغدٍ من ذوي يمنٍ لم يدرِ ما ضرب أخماس لأسْداسِ

وقال ابن أعين:

أبا موسى بُليت وأنت شيخٌ قريب العفْوِ مخزون اللِّسانِ
وما عمروٌ صفاتك يابن قيسٍ فياللَّه من شيخٍ يماني
فأمسيت العشيَّة ذا اعتذارٍ ضعيف الركنِ منكوبَ الجنانِ
تعضُّ الكفَّ من ندمٍ وماذا يردُ عليك عضّك للبنانِ

وفي نهج البلاغة: (ج١، ص٢٦٢) قال عليه السلام للخوارج، وقد خرج إلى مُعسكرهم، وهم مُقيمون على إنكار الحكومة:

أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟

فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ.

قال: فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاً بِكَلاَمِهِ.

وَنَادى النَّاسَ فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلاَمِ وَانْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.

ثم قال عليه السلام:

أَلَمْ تَقُولُوا، عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ، حِيلَةً، وَغِيلَةً، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً.

إِخْوَانُنَا، وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا، وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ. فَقُلْتُ لَكُمْ: هذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ، إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا.

وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلاَ حَمَّلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا.

وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتُهَا، إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ، وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِيَ، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ، فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآبَاءِ، وَالْأَبْنَاءِ، وَالْإِخْوَانِ، وَالْقَرَابَاتِ، فَمَا نَزْدَادُ، عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ، إِلَّا إِيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ، وَلكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلاَمِ، عَلَى مَا دَخَلَ فِيْهِ مِنَ الزَّيْغِ، وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ، وَالتَّأْوِيلِ.

فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ، يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعْثَنَا، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ، فِيمَا بَيْنَنَا رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا. انتهى.

وروى المسعودي في مروج الذهب من أمر الخوارج: (ج٢، ص٤٤٩)، قال: واجتمع الخوارج في أربعة آلاف، فبايعوا

عبد الله بن وهب الراسبي، ولحقوا بالمدائن، وقتلوا عبد الله بن خباب، عامل عليّ عليها، ذبحوه ذبحاً، وبقروا بطن امرأته وكانت حاملاً، وقتلوا غيرها من النِّساء.

وقد كان علي انفصل عن الكوفة، في خمسة وثلاثين ألفاً، وأتاه من البصرة من قِبَلِ ابن عبَّاس، (وكان عامله عليها) عشرة آلاف، فيهم الأحنف بن قيس، وحارثة بن قدامة السعدي، وذلك في سنة ثمان وثلاثين، فنزل علي الأنبار، والتأمت إليه العساكر.

فخطب الناس، وحرَّضهم على الجهاد وقال:

سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قُدُماً، فإنَّهم طالما سعوا في إطفاء نور الله، وحرَّضوا على قتال رسول الله ﷺ ومن معه، ألا إنَّ رسول الله، أمرني بقتال القاسطين، وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والمارقين ولم نلقهم بعد، فسيروا إلى القاسطين، فهم أهم علينا من الخوارج، سيروا إلى قوم يقاتلونكم، كيما يكونوا جبَّارين، يتخذهم الناس أرباباً، ويتخذون عباد الله خولاً، ومالهم دولاً.

فأبوا إلَّا أن يبدأوا بالخوارج، فسار عليّ إليهم، حتى أتى النهروان، فبعث بالحارث بن مرة العبدي رسولاً، يدعوهم إلى الرجوع فقتلوه، وبعثوا إلى عليّ:

إن تبت من حكومتك، وشهدت على نفسك بالكفر، بايعناك.

وإن أبيت، فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماماً، فإنَّا منك براء.

فبعث إليهم علي: أن ابعثوا إليَّ، بقتلة إخواني فأقتلهم، ثم أُتارككم، إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب، ولعلَّ الله يُقلِّب قلوبكم.

فبعثوا إليه: كُلُّنا قتلة أصحابك، وكُلّنا مستحلّ لدمائهم، مشتركون في قتلهم، وأخبره الرسول وكان من يهود السواد: أنَّ القوم قد عبروا نهر طبرستان، وهذا النهر عليه قنطرة، تعرف بقنطرة طبرستان، بين حلوان وبغداد من بلاد خراسان.

فقال علي: والله ما عبروه ولا يقطعونه، حتى نقتلهم بالرميلة دونه، ثم تواترت الأخبار، بقطعهم لهذ النهر، وعبورهم هذا الجسر، وهو يأبى ذلك، ويحلف أنَّهم لم يعبروه، وأنَّ مصارعهم دونه.

ثم قال: سيروا إلى القوم، فوالله لا يفلت منهم إلَّا عشرة، ولا يقتل منكم إلَّا عشرة.

فسار عليّ، فأشرف عليهم، وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة، على حسب ما قال لأصحابه.

فلما أشرف عليهم، قال: الله أكبر صدق الله ورسوله ﷺ، فتصاف القوم ووقف عليهم بنفسه، فدعاهم إلى الرجوع والتوبة فأبوا، ورموا أصحابه، فقيل له: قد رمونا.

فقال: كُفُّوا.

فكرَّروا القول عليه ثلاثاً، وهو يأمرهم بالكفّ، حتى أُتي برجل قتيل، متشحط بدمه.

فقال عليّ: الله أكبر، الآن حلَّ قتالهم، احملوا على القوم، فحمل رجل من الخوارج على أصحاب علي، فجرح فيهم، وجعل يغْشى كل ناحية، ويقول:

[الرجز]

أضربهم ولو أرى عليّاً   ألبسته أبيضَ مُشرفيَّا

فخرج إليه علي (رضي الله عنه) وهو يقول:

[الرجز]

يا أيُّهذا المبتغي عليَّا   إنِّي أراك جاهلاً شقيَّا

قد كنت عن كفاحه غنيا   هلم فابرز هاهنا إليَّا

وحمل عليه عليٌّ فقتله:

ثم خرج منهم آخر، فحمل على الناس ففتك فيهم، وجعل يكرُّ عليهم، وهو يقول:

أضربهم ولو أرَى أبا حسن   ألبستهُ بصارمي ثوب غبن

فخرج إليه علي، وهو يقول:

[الرجز]

يا أيُّهذا المبتغي أبا حسن   إليك فانظر أيُّنا يلقى الغبن

وحمل عليه عليّ، وشكَّه بالرمح، وترك الرمح فيه فانصرف عليّ وهو يقول: قد رأيت أبا حسنٍ، فرأيت ما تكره.

وحمل أبو أيُّوب الأنصاريَّ، على زيد بن حُصن فقتله، وقُتل عبد الله بن وهب الراسبي، قتله هانىء بن حاطب الأزدي، وزياد بن حفصة، وقُتل حرقوص بن زهير السعدي، وكان جملة

من قتل من أصحاب علي تسعة، ولم يفلت من الخوارج إلَّا عشرة.

قال: وأتى عليّ على القوم، وهم أربعة آلاف فيهم المُخْدج ذو الثدية، إلَّا من ذكرنا من هؤلاء العشرة، وأمر علي بطلب المُخْدج فطلبوه، فلم يقدروا عليه، فقام عليّ وعليه أثر الحزن لفقد المُخْدج، فانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض فقال: أفرجوا، ففرجوا يميناً وشمالاً، واستخرجوه.

فقال عليّ (رضي الله عنه): الله أكبر، ما كذبت على محمَّد، وإنَّه لناقص اليد، ليس فيها عظم، طرفها حلمة مثل ثدي المرأة، عليها خمس شعرات أو سبع، رؤوسها مُعقفة، ثم قال: أتوني به، فنظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة، عليه شعرات سود، إذا مُدَّت اللَّحمة امتدت، حتى تحاذي بطن يده الأُخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه، فثنى رجله، ونزل وخرَّ لله ساجداً.

ثم ركب، ومرَّ بهم وهم صرعى فقال: لقد ضرَّكم من غرَّكم.

قيل: ومن غرَّهم؟

قال: الشيطان، وأنفس السوء.

فقال أصحابه: قد قطع الله دابرهم إلى آخر الدهر.

فقال: كلَّا والذي نفسي بيده، وإنَّهم لفي أصلاب الرجال، وأرحام النِّساء، لا تخرج خارجة، إلَّا خرجت بعدها مثلها، حتى تخرج خارجة، بين الفرات ودجلة، مع رجل يُقال له: الأشمط،

يخرج إليه رجل منَّا أهل البيت، فيقتله، ولا تخرج بعدها خارجة، إلى يوم القيامة.

وجمع عليّ ما كان في عسكر الخوارج، فقسم السلاح والدواب بين المسلمين، وردَّ المتاع، والعبيد، والإماء إلى أهليهم، ثم خطب الناس فقال: إنَّ الله قد أحسن إليكم، وأعزّ نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوِّكم.

فقالوا: يا أمير المؤمنين قد كلَّت سيوفنا، ونفدت نبالنا، ونصلت أسنَّة رماحنا، فدعنا نستعد بأحسن عدتنا، وكان الذي كلَّمه بهذا: الأشعث بن قيس، فعسكر عليّ بالنُّخيلة، فجعل أصحابه يتسلَّلون، ويلحقون بأوطانهم، فلم يبق معه إلَّا نفر يسير.

وفي نهج البلاغة: (ج٢، ص٤١٠) قال عليه السلام:

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِيَ اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَالنَّكْثِ[١]، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ[٢]، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ، فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ[٣]، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ.

---

(١) نقض العهد.

(٢) القاسطون: الجائرون عن الحق. والمارقة: الذين مرقوا من الدين: أي خرجوا منه. ودوخهم: أي أضعفهم وأذلّهم.

(٣) الردهة ـ بالفتح ـ النقرة في الجبل قد يجتمع فيها الماء. وشيطانها (ذو الثدية) من رؤساء الخوارج وجد مقتولاً في ردهة. والصعقة: الغشية تصيب الإنسان من الهول. ووجبة القلب: اضطرابه وخفقانه. ورجة الصدر: اهتزازه وارتعاده

وَلَئِنْ أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ، لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ[١]، إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً!

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ[٢]، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ، وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ[٣]، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ[٤]، وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ ﷺ، مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً، أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ[٥]، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ[٦] فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي.

---

(١) لأديلن منهم: لأمحقنهم. ثم أجعل الدولة لغيرهم. وما يتشذر: أي يتفرق، أي لا يفلت مني إلاّ من يتفرق في أطراف البلاد.

(٢) الكلاكل: الصدور عبر بها عن الأكابر. والنواجم من القرون: الظاهرة الرفيعة، يريد بها أشراف القبائل. قرون مضاف وربيعة مضاف إليه.

(٣) عرفه ـ بالفتح ـ رائحته الذكية.

(٤) الخطلة: واحدة الخطل، كالفرحة واحدة الفرح. والخطل: الخطأ ينشأ عن عدم الروية.

(٥) الفصيل: ولد الناقة.

(٦) حِراء بكسر الحاء: جبل على القرب من مكة.

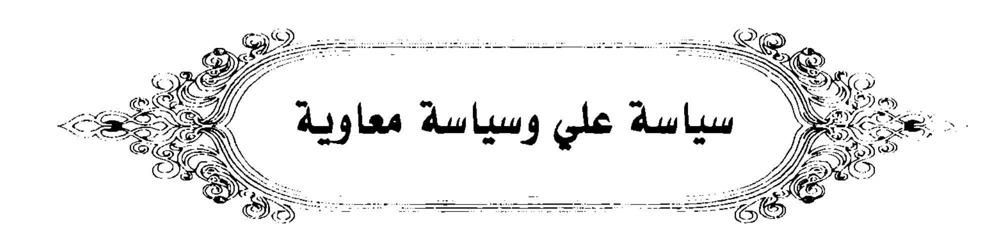
وَلَـمْ يَـجْـمَـعْ بَـيْـتٌ وَاحِـدٌ يَـوْمَـئِـذٍ فِـي الْإِسْـلَامِ غَـيْـرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَخَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ، حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟

فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ.

إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.





سياسة علي وسياسة معاوية

لا ريب فيه، فإنَّ معاوية بن أبي سفيان، إمام جورٍ وطغيانٍ، له لواء يعرف به يوم القيامة.

يُحشر تحته من نصره وآزره، ومن قال بخلافته وإمامته، وأن ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

لقد اشترى، وحزبه الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم على النار.

لقد نبذ القرآن، وسُنَّة النبي وراء ظهره، وأقبل بِكُلِّهِ على دُنيا، تغرُّ وتضرُّ وتمر، قد أهلكت من كان قبله، أشد منه قوَّة، وأكثر جمعاً.

كانوا قد استمتعوا بخلاقهم، وخاضوا باستكبارهم وطغيانهم، كما استمتع بخلاقه، وخاض باستكباره وطغيانه، فقام يتقلب بجوره ودهائه، تحت شعار التهليل والتكبير، وركوعٍ وسجودٍ، لصلاةٍ لا تأمر بالمعروف، ولا تنهى عن المنكر، بين غباء أهل الشام وولائهم له، وبين خيانة أهل العراق لعلي، وتفرُّقهم عنه في ميادين

---

(١) سورة الكهف: ٥٠.

الحرب والقتال، فكانوا مع علي، كما وصفهم علي، كثيرون في الباحات، قليلون تحت الرايات.

وفي ظلِّ هذا، فَفرْصَةٌ قد سنحت وظهرت، فمضى يتتبع أهل بيت النبي ومن اتَّبعهم، واهتدى بهديهم، ونادى بولايتهم بلسانه، ونصرهم ضرباً بسيفه، فأعقبهم بذلك قتلاً وتشريداً.

فمن لم يقدر عليه بالسيف، دسَّ له السُّم، بيدِ من اهتدى بهديه، فآثر الدُّنيا على الآخرة، لقاء درهم ودينار، أو منصب ورئاسة، تذهب لذاتها، وتبقى تبعاتها، لضحكٍ قليل، وبكاء طويل طويل.

مثال ذلك، خطبٌ عظيمٌ عظيم، فرسول الله ﷺ يقول: الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة، قاما أو قعدا.

وقال: حسينٌ منِّي، وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً، وغيره الكثير المُستفيض، ممَّا قال فيهما، وفي أبيهما وأُمّهما.

رواه عنه أنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عبَّاس، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم، ممَّا قد ملأ مصادر التاريخ المُؤرَّخة.

فإذا بمعاوية، يدسُّ السُّم لسبطه الحسن بن علي، على يد زوجته الخائنة، جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي، وقد وعدها أنَّها إن قتلته، وجَّه إليها بمائة ألف درهم، وزوَّجها من يزيد.

فلما مات الحسن ابن رسول الله، وفى لها بالمال وقال: نخاف أن تقتلي يزيد.

فتأمَّل يا أخي.

هذا، وقد كان قد فرض بدهائه، سبّ علي على أهل الشام، فكان ذلك سُنَّة، يُرتل على المنابر وفي المجالس، وبه كانت تفتتح فريضة الصلاة، وبه تختتم، وبه يُعقد قِران الزواج، وبه تُنْظم قوافي الشعر الأثيم.

هذا ورسول الله ﷺ يقول: قتال المسلم كفر، وسبابه فسوق.

رواه البخاري، ومسلم وغيرهما.

ثمَّ إنَّه عقد الولاية على الأُمَّة، لولده يزيد الفاسق، فحكم ثلاث سنين، وثمانية أشهر، فسنة قتل فيها سبط رسول الله الحسين (شهيد كربلاء)، وسنة أباح فيها مدينة النبي، ودار هجرته لجيشه، المثقف بثقافته، وثقافة أبيه، فقتل أكثر من أربعة آلاف، من رجالها وأطفالها، فيهم سبعمائة من حفظةِ القرآن، وفضح أكثر أبكارها وأعذارها.

وفي السنة الثالثة، أمر بهدم الكعبة، فنصب قائده عليها المجانيق، وباشر الهدم، فقُتل يزيد لفعله في سنِيِّه الثلاث، **لعنهُ الله العزيزُ الحكيم**.

واعلم أنَّ المجتمع في ذاك الزمن، كان يحكمه سيِّد القبيلة، فإن قال قالت، وإن صمت صمتت، فكان معاوية يستميل تلك السادة، بقطع كبيرة من بيت مال المسلمين، وكان يخصُّ بالمال ومنصب الرئاسة، أشد الناس عداوة لعلي بن أبي طالب.

قالوا: إنَّه دخل عليه المغيرة بن شعبة في بعض أيَّامه، فوجده متوسداً، يتأفف ضجراً، فقال له: ما خطبك يا أمير المؤمنين.

فقال له: أُجلس، فجلس لبعض الوقت، فأقبل عليه يقول:

لقد ولي الخلافة ابن أبي قحافة، فحكم الناس، ثم مضى لسبيله، قد يُقال حكم فلان، أو لا يُقال.

ثم تلاه ابن الخطاب، فحكم الناس، ثم مضى لسبيله، قد يُقال حكم فلان، أو لا يُقال.

ثم تلاهما ابن عفَّان، فحكم الناس، ثم مضى لسبيله قد يُقال حكم فلان، أو لا يُقال.

ولكن إيهٍ ابن أبي كبشة ما كفاه، حتى قرن اسمه مع اسم الله، يؤذن به على المنابر، في كل يوم وليلة خمس مرَّات عند كل صلاة.

فلا والله إلَّا دفناً دفناً، «أي أنَّه سيُدفن دين محمَّد ما أمكنه، ذلك: ويعني بكبشة: هو نجم يُقال أن جداً من أجداد النبي كان يتعبده، يُعيبُ به رسول الله بقوله: إيهٍ ابن أبي كبشة».

ذكروا أنَّ معاوية، كان رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل فلا يشبع، كان يُشْوى له في كل يوم، جدياً طريّاً فيأكله.

وهو القائل: فوالله ما رُفع الطعام، من بين يديَّ يوماً قطّ، إلَّا عن كَلَلٍ لإفراطه في الأكل.

وهو القائل: فلو كان بيني وبين الناس شعرة، لما انقطعت، فإن هم شدوا بها رخيت، وإن هم رخوا بها شددت.

ولكنَّه كان يلذُّ، في لعق دم الثوار الأحرار الأطهار، مثلما كان يلذُّ بأكله جديه المشوي، وقد تبيغ بالفقير فقره.

وكان يلبس ألين اللِّباس، وأريشه لإقباله على الدُّنيا، ولنسيانه الآخرة.

واعلم أنَّه قد حال بينه وبين عليّ، أن يقدّهُ بسيفه نصفين، تقرُّباً إلى الله عزَّ وجلَّ، هو أنْ غدر به ابن مُلجم، ليلة التاسع عشر خلت، من شهر رمضان الحزين، وقد كان قد جمع شتات جيشه، ليكرَّ عليه كرَّة أُخرى بصفين، بعد أن قتل الخوارج، الذين أوقفوا القتال، وفرضوا عليه التحكيم.

قال علي يصف دهاء معاوية في سياسته في نهج البلاغة: (ج٢، ص٤٣٢):

وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، (وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وَاللَّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.

بيان: قوله **بأدهى منِّي**: الدهاء بالفتح الفطنة وجودة الرأي، ويُقال: رجل داهية، وهو الذي لم يغلب عليه أحد في تدابير أمور الدنيا.

وقال ابن أبي الحديد: الغدرة بضم الفاء وفتح العين الكثير الغدر، والكفرة والفجرة، الكثير الكفر والفجور، وكل ما كان على

هذا البناء فهو الفاعل، فإن سكنت العين فهو المفعول. تقول: رجل ضحكة أي يضحك، وضحكة أي يضحك منه. ويروى غدرة وفجرة وكفرة على فعلة للمرة الواحدة.

وقال ابن ميثم: قال بعض الشارحين: وجه لزوم الكفر هنالك أنَّ الغدر على وجه استباحة ذلك واستحلاله، كما هو المشهور من حال ابن العاص ومعاوية في استباحة ما علم تحريمه ضرورة، وجحده هو الكفر، ويحتمل أن يريد كفر نعم الله، وسترها بإظهار معصيته كما هو المفهوم منه لغة.

أقول: إطلاق الكفر على ارتكاب الكبائر واجتناب الفرائض شائع في الأخبار.

قوله عليه السلام: ما أستغفل أي لا يمكن للخصم أن يجعلني غافلاً بكيده بل أعلم مقصوده، لكنِّي قد أعرض عنه للمصلحة، وأحكم بظاهر الأمر رعاية للشريعة، أو لا تجوز المكيدة عليَّ كما تجوز على ذوي الغفلة، ولا أستغمز الغمز العصر باليد والكبس أي لا ألين بالخطب الشديد بل أصبر عليه. ويروى بالراء المهملة أي لا أستجهل بشدائد المكاره.

وبلغه أنَّ عمرو بن العاص، يصفه لأهل الشام أنَّ فيه دعابة، فقال في نهج البلاغة: (ج١، ص١٧٥) يردُّ عليه:

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ: أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ، لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً.

أَمَا ـ وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ

فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ «الرَّحم»، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقِرْمَ سُبَّتَهُ.

أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ.

وَإِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً.

الدعابة: المزاح دعب الرجل بالفتح.

ورجل تلعابة: بكسر التاء كثير اللعب والتلعاب بالفتح مصدر لعب.

والمعافسة: المعالجة والمصارعة، ومنه الحديث: عافسنا النساء والممارسة نحوه. يقول عليه السلام: إنَّ عمراً يقدح فيَّ عند أهل الشام بالدعابة واللعب، وأنِّي كثير الممازحة حتى أنِّي ألاعب النِّساء وأغازلهن، فعل المترف الفارغ القلب، الذي تتقضي أوقاته بملاذ نفسه.

ويلحف: يلحّ في السؤال قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ومنه المثل ليس للملحف مثل الرد.

والإل: العهد، ولما اختلف اللفظان حسن التقسيم بهما وإن كان المعنى واحداً.

ومعنى قوله: **ما لم تأخذ السيوف مآخذها**: أي ما لم تبلغ الحرب إلى أن تخالط الرؤوس أي هو مليء بالتحريض، والإغراء قبل أن تلتحم الحرب، فإذا التحمت واشتدت فلا يمكث وفعل فعلته التي فعل.

والسبة: الأست، وسبّه يسبّه طعنه في السبة. ويجوز رفع أكبر ونصبه، فإن رفعت فهو الاسم، وإن نصبت فهو الخبر.

والأتية: العطية، والإيتاء: الإعطاء.

ورضخ له رضخاً: أعطاه عطاءً بالكثير وهي الرضيخة لما يعطى.

❁ ❁ ❁

كان يقول علي في كل موقف حرج، بينه وبين من يريد، أن يدفعه عن حقّه في الإسلام، وخلافة المسلمين: فلأُسالمن ما سلمت أُمور المسلمين، ولو لم يكن بها جور إلّا عليَّ خاصة.

كان عليٌّ كما قد عرفت، حارساً للإسلام وللمسلمين، بما قد أُوتي من علم وقوَّة، وحسن رعاية، منذ أن بلغ الحلم، إلى أن استشهد في محراب مسجد الكوفة، وهو يؤُمّ المسلمين في الصلاة، كُلُّ ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى.

ألا وهو القائل:

إليكِ عنِّي يا دُنْيَا، قَدْ أَبَنْتُكِ ثَلَاثاً، لَا رَجْعَةَ معها.

وهو القائل: **وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ، حَتَّى اسْتَحْيَتْ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟**

فَقُلْتُ: اعْزُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى.

هذا وقد سئل عن الغنى والفقر فقال: إنَّ الغنى والفقر، بعد العرض على الله يوم القيامة.

وهو القائل: في النهج:

أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ، قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ، فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً.

وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ، وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ.

وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي، إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَنْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى، وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَنْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ:

هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ.

وكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَائِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّبَاتَاتِ الْبَدَوِيَّةَ أَقْوَى وُقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً، وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَالصِّنْوِ مِنَ الصِّنْوِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ.

وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا».

وقوله عليه السلام:

وَايْمُ اللَّهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ، إِذَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً.

إلى غير ذلك من كلامه عليه السلام.

ولا شك أنَّه عليه السلام كان أزهد الناس لم يشبع من طعام قطّ وكان يلبس الخشن ويأكل جريش الشعير فإذا ائتدم فبالملح فإن ترقى فبنبات الأرض فإن ترقى فباللبن.

وروي عن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي عليه السلام فوجدته جالساً وبين يديه إناء فيه لبن أجد ريح حموضته في يده رغيف أرى قشار الشعير في وجهه وهو يكسره بيده ويطرحه فيه فقال: ادن فأصب من طعامنا. فقلت: إنِّي صائم.

فقال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من منعه الصيام من طعام يشتهيه كان حقّاً على الله تعالى أن يطعمه من طعام الجنة ويسقيه من شرابها، قال: فقلت لفضة: وهي بقرب منه قائمة ويحك يا فضة ألا تتقين الله في هذا الشيخ ألا تنخلين هذا الطعام من النخالة التي فيه؟

قالت: قد تقدم إلينا أن لا ننخل له طعاماً.

قال: ما قلت لها: فأخبرته.

فقال: بأبي وأُمِّي من ينخل له طعام ولم يشبع من خبز البر ثلاثة أيام حتى قبضه الله تعالى.

وروي عن عدي بن ثابت قال: أوتي أمير المؤمنين عليه السلام بفالوذج فأبى أن يأكل منه فقال: شيء لم يأكل منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا أحب أن آكل منه.

وكان عليه السلام: يجعل جريش الشعير في وعاء ويختم عليه فقيل له: في ذلك فقال عليه السلام: أخاف هذين الولدين أن يجعلا فيه شيئاً من زيت أو سمن.

فانظر إلى شدة زهده وقناعته فإنَّ إيراده الحديث وقوله: من

منعه الصيام من طعام يشتهيه دليل على رضاه لطعمه وكونه عنده طعاماً مشتهياً يرغب فيه من يراه.

وقد طلق الدُّنيا ثلاثاً وقال لها: غرِّي غيري لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها.

فدلَّ ذلك على أنَّه أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وإذا كان أزهد الناس كان أفضلها فدلَّ ذلك أيضاً على أنَّه هو الإمام لقبح تقديم المفضول على الفاضل.

وأما الشجاعة فإنَّه لا خلاف بين المسلمين وغيرهم أنَّ عليّاً عليه السلام كان أشجع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأكثرهم علماً وأعظمهم ابتلاءً في الحروب حتى تعجب من حملاته ملائكة السَّماء وبسبب جهاده ثبتت قواعد الإسلام وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله ضربته لعمرو بن عبد ود العامري يوم الخندق أفضل من أعمال أُمَّته إلى يوم القيامة ونزل جبرائيل عليه السلام يوم أُحُد وسمعه المسلمون كافة وهو يقول:

لا سيف إلَّا ذو الفقار ولا فتى إلَّا علي

ووقائعه مشهورة عند الخاص والعام في زمن النبي صلى الله عليه وآله وبعده في حرب الجمل وصفين والنهروان.

وروى الخوارزمي قال: كان أبطال المشركين إذا نظروا إلى علي عليه السلام في الحرب عمد بعضهم إلى بعض وبالجملة فشجاعته مشهورة عند جميع الناس حتى صارت تضرب به الأمثال.

ألا وهو القائل، وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام في صفين:

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، فَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ:

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ.

قوله عليه السلام: **وأبلغ في العذر**: أي العذر في القتال معهم، أو في إتمام الحجَّة عليهم وإبداء عذر الله تعالى في عقابهم.

وفي النهاية: **حقنت له دمه**: إذا منعت من قتله، وإراقته أي جمعته له وحبسته عليه.

ويرعوي: أي يرجع، ويكف واللهج بالشيء الولع به، وقد لهج بالكسر أغرى به.

❁ ❁ ❁

وللجاحظ ردٌّ بليغ، على مَن قال بسياسة معاوية، مُرجِّحاً لها على سياسة علي قال: كما ورد في شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي: (ج١٠، ص٢٢٨): وربَّما رأيت بعض من يظنُّ بنفسه العقل والتحصيل، والفهم والتمييز، وهو من العامة، ويظنُّ أنَّه من الخاصة، يزعم أنَّ معاوية، كان أبعد غوراً، وأصح فكراً، وأجود روية، وأبعد غاية، وأدق مسلكاً، وليس الأمر كذلك، وسأرمي

إليك بجملة، تعرف بها موضع غلطه، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قِبله.

كان عليٌّ عليه السلام، لا يستعمل في حربه إلّا الكتاب والسُّنَّة.

وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسُّنَّة، كما يستعمل الكتاب والسُّنَّة.

ويستعمل جميع المكائد حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند، إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رُتْبيل «صاحب الترك».

وعلي عليه السلام يقول: لا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مُغلقاً.

هذه سيرته في ذي الكلاع، وفي أبي الأعور السلمي، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مَسْلَمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية، والحشْوِ والأتباع، والسفلة، وأصحاب الحروب إن قدروا على البياتِ بيتوا، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين، لم يؤخروه إلى ساعة.

وإن كان الحرقُ أعجل من الغرْق، لم يقتصروا على الغرق، ولم يؤخروا الحرْقِ إلى وقت الغرْقِ، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصار، ولم يدعوا أن ينصبوا المجانيق، والعرَّاداتِ، والنقبِ، والتَّسريبِ، والدَّباباتِ، والكمين، ولم يدعوا دسَّ السموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب، وطرْح الكتب في عساكرهم

بالسعايات، وتوهم الأُمور، وإيحاش بعضٍ من بعض، وقتلهم بكل آلة وحيلة، كيف وقع القتل؟ وكيف دارت بهم الحال؟ فمن اقتصر «حفظك الله» من التدبير، على ما في الكتاب والسُّنَّة، كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير، وما لا يتناهى من المكائد، والكذب «حفظك الله» أكثر من الصدق، والحرامُ أكثر عدداً من الحلال، ولو سمَّى إنسانٌ إنساناً باسمه، لكان قد صدق وليس له اسم غيره، ولو قال: هو شيطان، أو كلب، أو حمار، أو شاة، أو بعير، أو كُلَّ ما خطر على البال، لكان كاذباً في ذلك، وكذلك الإيمان، والكفر، وكذلك الطاعة، والمعصية، وكذلك الحق والباطل، وكذلك السقم والصحة، وكذلك الخطأ والصواب.

فعليّ عليه السلام: كان مُلجماً بالورع عن جميع القول، إلَّا ما هو لله عزَّ وجلَّ رضاً، وممنوع اليدين من كُلِّ بطشٍ، إلَّا ما هو لله رضاً.

ولا يرى الرِّضا إلَّا فيما يرضاه الله ويُحبّه، ولا يرى الرِّضا إلّا فيما دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة، دون ما يعوِّل عليه أصحابُ الدهاء، والنكراء، والمكيدة، والآراء.

فلما أبصرت العوام، كثرة نوادر معاوية في المكائد، وكثرة غرائبه في الخداع، وما اتفق له، وتهيَّأ على يده، ولم يروْ ذلك من عليّ عليه السلام.

ظنّوا بقصر عقولهم، وقلَّة علومهم: أنَّ ذلك من رجحانٍ عند معاوية، ونقصانٍ عند عليّ عليه السلام.

فانظر بعد هذا كُلّه، هل يُعدُّ له من الخدع إلَّا رفع المصاحف، ثم انظر هل خدع بها، إلَّا من عصى رأي علي عليه السلام، وخالف أمره.

فإن زعمت أنَّه قال ما أراد من الاختلاف، فقد صدقت، وليس في هذا اختلفنا، ولا عن غرارة أصحاب علي عليه السلام، وعجلتهم، وتسرُّعهم، وتنازعهم دفعنا، وإنَّما كان قولُنا في التمييز بينهما، في الدهاء، والنكراء، وصحة العقل، والرأي، والبزلاء، على أنَّا لا نصف الصالحين بالدهاء، والنكراء، لا نقول: ما كان أنكر أبا بكر بن أبي قحافة، وما كان أنكر عمر بن الخطاب، ولا يقول أحدٌ عنده شيءٌ من الخير.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أدهى العرب والعجم، وأنكر قريش وأمكر كنانه، لأنَّ هذه الكلمة، إنَّما وضعت في مديح أصحاب الإرب، ومن يتعمَّق في الرأي في توكيد الدُّنيا وزبرجها، وتشديد أركانها.

فأمَّا أصحاب الآخرة، الذين يرون الناس، لا يصلحون على تدبير البشر، وإنَّما يصلُحون على تدبير خالق البشر، فإنَّ هؤلاء لا يُمدحون بالدَّهاء والنكراء، ولم يمنعوا هذا، إلَّا ليُعطوْا أفضل منه.

ألا ترى أنَّ المغيرة بن شعبة «وكان أحدَ الدهاة»، حين ردَّ على عمرو بن العاص، قوله في عمر بن الخطاب «وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضاً».

أأنت كُنتَ تفعل، أو تُوهم عمر شيئاً فيلقَّنه عنك، ما رأيت عمر مستخلياً بأحد إلَّا رحمته، كائناً من كان ذلك الرجل.

كان عمر والله، أعقل من أن يُخدع، وأفضل من أن يَخْدع، ولم يذكره بالدهاء والنكراء هذا، مع عجبه بإضافة الناس ذلك إليه، ولكنَّه قد علم، أنَّه إذا أطلق على الأئمَّة الألفاظ، التي لا تصلح في أهل الطهارة، كان ذلك غير مقبول منه، فهذا هذا.

وكذلك كان حُكْم قولِ معاوية للجميع: أخْرِجُوا إلينا قتلة عثمان، ونحن لكم سلم، فاجهد كُلّ جهدك، واستعن بمن شايعك، إلى أن تتخلَّص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله عليّ، حتى تعلم أنَّ معاوية خادع، وأنَّ علياً عليه السلام كان المخدوع.

فإن قلت: فقد بلغ ما أراد، ونال ما أحبّ، فهل رأيت كتابنا وُضع، إلَّا عَلَى أنَّ علياً كان قد امتُحن في أصحابه وفي دهره، بما لم يُمتحنْ إمام قبله، من الاختلاف والمنازعة، والتَّشاح من الرياسة، والتَّسرُّع والعجلة.

وهل أتى عليه السلام إلَّا من هذا المكان، أوَلسنا قد فرغنا من هذا الأمر، وقد علمنا أنَّ ثلاثة نفر، تواطئوا على قتْلِ ثلاثة نفر، فانفرد ابنُ مُلْجَم بالتماس ذلك من عليّ عليه السلام، وانفرد البَرْك الصَّريميّ بالتماس ذلك من عمرو بن العاص، وانفرد الآخر، وهو عمرو بن بكر التميميّ بالتماس ذلك من معاوية، فكان من الاتِّفاق، أو من الامتحان أنْ كان عليّ من بينهم هو المقتول.

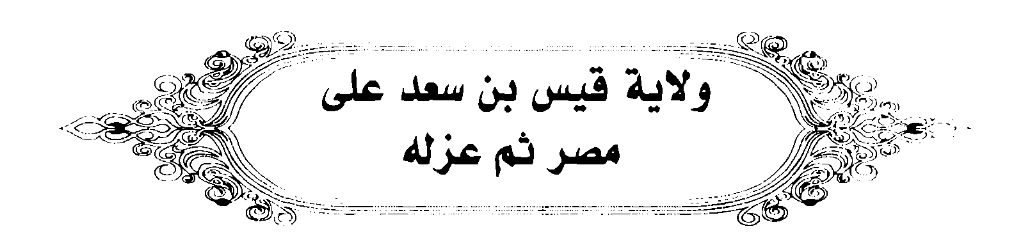
وفي قياس مذهبكم، أنْ تزْعُموا أنَّ سلامة عمرو ومعاوية، إنَّما كانت بحزم منهما، وأنَّ قتل عليّ عليه السلام إنَّما هو من تضييعٍ منه، فإذْ قد تبيَّن لكم أنَّه من الابتلاء والامتحان في نفسه، بخلاف الذي

قد شاهدتموه في عدوِّه، فكُلُّ شيءٍ سوى ذلك، فإنَّما هو تبع للنفس.

هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع، ومن تأمَّله بعين الإنصاف، ولم يتَّبع الهوى علم صحة جميع ما ذكره، وأنَّ أمير المؤمنين دُفع من اختلاف أصحابه، وسوء طاعتهم له، ولزومه سَنَنَ الشريعة، ومنهج العدل، وخروج معاوية، وعمرو بن العاص عن قاعدة الشَّرع، في استمالة الناس إليهم بالرَّغبة والرَّهبة، إلى ما لم يُدْفع إليه غيره، فلولا أنَّه عليه السلام، كان عارفاً بوجوه السِّياسة، وتدبير أمر السلطان والخلافة، حاذقاً في ذلك، لم يجتمع عليه إلَّا القليل من النَّاس، وهم أهلُ الآخرة، خاصة الذين لا ميل لهم إلى الدُّنيا، فلما وجدناه دبّر الأمر حين وليه، واجتمع عليه من العساكر والأتباع، ما يتجاوز العدّ والحصر، وقاتل بهم الذين حالهم حالهم، فظفر في أكثر حروبه، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء، وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار، علمنا أنَّه من معرفة تدبير الدول والسلطان، بمكان مكين. «كان هذا تعليق ابن أبي الحديد على رسالة الجاحظ» قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[١].

---

(١) سورة الحشر: ١٩ - ٢٠.



ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله

مصر ممر النيل، وكنانة الإسلام، منبت الرجالات، ومبدع الحضارات، شامخة لمشرقها ومغربها، بيمينها الأزهر، وبشمالها الهرم، أحبها الله، فأجرى لها نيلها، وأحبها النبي، فسمَّاها أرض الكنانة، وأحبها علي بن أبي طالب، فآثرها على نفسه بمالك بن الحارث الأشتر، وغدر بها معاوية بن أبي سفيان، فسمَّم عسلها، وأفسد أمرها، باغتيال أشترها الكبير العظيم ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1] ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾[2].

روى ابن أبي الحديد المعتزلي، في شرح نهج البلاغة: ج٦ ص٥٧، قال: وكان قيس بن سعد بن عبادة، من شيعة علي عليه السلام ومُناصحيه، فلما ولي الخلافة قال له:

سرْ إلى مصر فقد ولَّيْتكها، واخرج إلى ظاهر المدينة، واجمع ثقاتك، ومن أحببت أن يصحبك، حتى تأتي مصر ومعك جند، فإنَّ ذلك أرعبُ لعدوِّك، وأعزُّ لوليك.

---

(١) سورة الطُّور: ٢١.

(٢) سورة النِّسَاء: ٨٤.

فإذا أنت قدمتها إن شاء الله، فأحسن إلى المحسن، واشْتدَّ على المريب، وارفق بالعامة والخاصة، فالرفق يمن.

قال قيس: رحمك الله يا أمير المؤمنين، قد فهمت ما ذكرتَ.

فأمَّا الجندُ: فإنِّي أدعُهُ لك، فإذا احتجتَ إليهم كانوا قريباً منك، وإن أردت بعثهم إلى وجْهٍ من وجوهك، كان لك عُدَّة.

ولكنِّي أسيرُ إلى مصر بنفسي وأهل بيتي.

وأمَّا ما أوصيتني به من الرفق والإحسان: فالله تعالى هو المستعان على ذلك.

قال: فخرج قيس في سبعة نفر من أهله، حتى دخل مصر، فصعد المنبر، وأمر بكتاب معه يُقْرأ على الناس، فيه: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين، إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين، سلام عليكم، فإنِّي أحمد الله إليكم، الذي لا إله إلَّا هو.

أمَّا بعد: فإنَّ الله بحسن صنعه، وقدره، وتدبيره، اختار الإسلام ديناً لنفسه، وملائكته، ورسله، وبعث به أنبياءه إلى عباده، فكان ممَّا أكرم الله عزَّ وجلَّ به هذه الأُمَّة، وخصَّهم به من الفضل، أن بعث محمَّداً ﷺ إليهم، فعلَّمهم الكتاب، والحكمة، والسُّنَّة، والفرائض، وأدَّبهم لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرَّقوا، وزكَّاهم لكيما يتطهَّروا.

فلمَّا قضى من ذلك ما عليه، قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه، ورحمته، ورضوانه، ثم إنَّ المسلمين من بعده، استخلفوا

أميرين منهم صالحين، فعملا بالكتاب والسُّنَّة، وأحييا السيرة، ولم يعدوَا السُّنَّة، ثم توفيا رحمهما الله، فوليَ بعدهما، والٍ أحدث أحداثاً، فوجدت الأُمَّة عليه مقالاً.

فقالوا، ثم نقموا فغيَّروا، ثم جاؤوني فبايعوني، وأنا أستهدي الله الهدي، وأستعينه على التقوى.

ألا وإنَّ لكم علينا العمل بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، والقيام بحقِّه، والنصح لكم بالغيب، والله المستعان على ما تصفون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد بعثتُ لكم قيس بن سعد الأنصاري أميراً، فوازروه وأعينوه على الحقِّ، وقد أمرته بالإحسان إلى مُحسنكم، والشِّدَّة على مريبكم، والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممَّن أرضى هديه، وأرجو صلاحه ونصحه، نسأل الله لنا ولكم، عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً، ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتبه عبد الله بن أبي رافع، في صفر سنة ست وثلاثين.

أقول: إنَّ هذا الكتاب، لا يوافق إسلوب عليّ، وبلاغته، وفصاحته، لركاكة صداعته، ووهن بيانه واضطرابه، فإنَّ المرتوي من كلام عليٍّ، المتأدب بأسلوبه الأدبي، وما يرشح من شخصيته وشجاعته، في علوِّ همَّته، يعلم بأنَّ هذا الكتاب، وما شاكله من كلامٍ: هو منحول، فاقد لجوهر كلامه، فتدبَّر رحمك الله.

قال: فلما فرغ من قراءة الكتاب، قام قيس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

الحمد لله الذي جاء بالحقِّ، وأمات الباطل، وكبت الظالمين، أيُّها الناس، إنَّا بايعنا خير من نعلم من بعد نبيّنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسُنَّة رسوله، فإنْ نحنُ لم نعمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله، فلا بيعة لنا عليكم.

فقام الناس فبايعوا، واستقامت مصر وأعمالها لقيس، وبعث عليها عمَّاله.

إلَّا أنَّ قرية منها قد أعظم أهلها قتل عثمان، وبها رجل من بني كنانة، يُقال له: يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس:

إنَّا لا نأتيك، فابعث عُمَّالك، فالأرض أرضُك، ولكن أقرَّنا على حالنا، حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

ووثب محمَّد بن مسْلَمَة بن مخلَّد بن صامت الأنصاري، فنعى عثمان، ودعا إلى الطلب بدمه.

فأرسل إليه قيس: ويحك أعليَّ تثب، والله ما أحبَّ أنَّ لي ملك الشام ومصر وأنِّي قتلتك، فاحقن دمك.

فأرسل إليه مسلمة: إنِّي كافٌّ عنك، ما دمتَ أنت والي مصر.

وكان قيس بن سعد ذا رأي وحزم، فبعث إلى الذين اعتزلوا:

إنِّي لا أُكرهكم على البيعة، ولكنِّي أدَعُكم وأكف عنكم

فهادنهم، وهادن مسْلَمة بن مخلَّد، وجبىَ الخراج، وليس أحد يُنازعه.

قال: وخرج علي عليه السلام إلى الجمل، وقيس على مصر، ورجع من البصرة إلى الكوفة وهو بمكانه، فكان أثقل خلق الله على معاوية، لقرب مصر وأعمالها من الشام، ومخافة أن يُقبل علي بأهل العراق، ويقبل إليه قيس بأهل مصر فيقع بينهما.

فكتب معاوية إلى قيس، وعليّ يومئذٍ بالكوفة، قبل أن يسير إلى صفين: من معاوية بن أبي سُفيان، إلى قيس بن سعد، سلام عليك، فإنِّي أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلَّا هو:

أمَّا بعد: فإنَّكم إن كنتم نقمتم على عثمان، في أثرة رأيتموها، أو ضربة سوط ضربها، أو في شتمهِ رجلاً، أو تعييره واحداً، أو في استعماله الفتيان من أهله، فإنَّكم قد علمتم إن كنتم تعلمون، أنَّ دمه لم يحل لكم بذلك، فقد ركبتم عظيماً من الأمر، وجئتم شيئاً إدّاً، فتب يا قيس إلى ربِّك، إن كنت من المجلبين على عثمان، إن كانت التوبة قبل الموت تغني شيئاً.

وأمَّا صاحبك، فقد استيقنا أنَّه أغرى الناس بقتله، وحملهم على قتله حتى قتلوه، وأنَّه لم يسلم من دمه عُظْم قومك، فإن استطعتَ يا قيس، أن تكون ممَّن يطلب بدم عثمان فافعل، وتابعنا على عليّ في أمرنا هذا، ولك سلطان العِراقين، إن أنا ظفرتُ ما بقيت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز، ما دام لي

سلطان، وسلْني عن غير هذا ممَّا تُحبّ، فإنَّك لا تسألُني شيئاً إلَّا أتيتهُ، واكتب إليَّ رأيك، فيما كتبتُ إليك.

فلما جاء إليه كتابُ معاوية، أحبَّ أن يدفعه ولا يبدي له أمره، ولا يعجِّل له حربه، فكتب إليه:

أمَّا بعد: فقد وصل إليَّ كتابك، وفهمت الذي ذكرت من أمر عثمان، وذلك أمرٌ لم أُقاربه، وذكرت أنَّ صاحبي، هو الذي أغرى الناسَ بعثمان، ودسَّهم إليه حتى قتلوه، وهذا أمرٌ لم أطَّلع عليه، وذكرت لي أنَّ عُظْم عشيرتي لم تسْلم من دم عثمان، فلعمري إنَّ أولى الناس كان في أمره عشيرتي، وأما ما سألتني من مُبايعتك على الطلب بدمه، وما عرضته عليَّ فقد فهمته، وهذا أمرٌ لي نظرٌ فيه وفكر، وليس هذا ممَّا يعجل إلى مثله، وأنا كافٌّ عنك، وليس يأتيك من قبلي شيء تكرهُه، حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فلما قرأ معاوية كتابه، لم يرهُ إلّا مقارباً مباعداً، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مُخادعاً مُكايداً، فكتب إليه:

أمَّا بعد: فقد قرأتُ كتابك، فلم أرك تدنو، فأعدُّك سلماً، ولم أرك تتباعد، فأعدُّك حرباً، أراك كحبل الجرور، وليس مثلي يصانع بالخداع، ولا يخدع بالمكائد، ومعه عدد الرجال، وأعنة الخيل، فإن قبلت الذي عرضت عليك، فلك ما أعطيتك، وإن أنت لم تفعل، ملأت مصر عليك خيلاً ورجْلاً والسلام.

فلما قرأ قيس كتابه، وعلم أنَّه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة، أظهر له ما في نفسه، فكتب إليه:

من قيس بن سعد، إلى معاوية بن أبي سفيان:

أمَّا بعد: فالعجب من استسقاطك رأيي، والطمع في أن تسومني ـ لا أبا لغيرك ـ الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر، وأقولهم بالحقِّ، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله وسيلة.

وتأمرني بالدخول في طاعتك، وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم بالزور، وأضلهم سبيلاً، ولديك قوم ضالون مضلون، طواغيت من طواغيت إبليس.

وأمَّا قولك: إنَّك تملأ عليَّ مصر خيلاً ورجْلاً، فلئن لم أشغلك عن ذلك، حتى يكون منك إنَّك لذو جِدّ، والسلام.

فلما أتى معاوية كتابُ قيس، أيسَ وثقل مكانه عليه، ورأى أن يكون مكانه غيره، أحبَّ إليه لما يعلم من قوَّته، وتأبيه، ونجدته، واشتداد أمره على معاوية، فأظهر للناس أنَّ قيساً قد بايعكم، فادعوا الله له.

وقرأ عليهم كتابه، الذي لان فيه وقاربه، واختلق كتاباً، نسبه إلى قيس، فقرأه على أهل الشام:

للأمير معاوية بن أبي سفيان، من قيس بن سعد:

أمَّا بعد: إن قتْل عثمان، كان حدثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرتُ لنفسي وديني، فلم أر يسعُني، مظاهرة قوم قتلوا إمامهم،

مسلماً محرماً، برّاً، تقياً، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا، ألا وإنِّي قد أتيت إليك بالسلام، وأجبتك إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم، فاطلب منِّي ما أحببت من الأموال والرجال، أُعجله إليك إن شاء الله، والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قال: فشاع في الشام كُلّها، أنَّ قيساً صالح معاوية، وأتت عيونُ عليّ بن أبي طالب إليه بذلك، فأعظمه وأكبره، وتعجب له، ودعا ابنيه حسناً وحسيناً، وابنه محمَّداً، وعبد الله بن جعفر، فأعلمهم بذلك وقال: ما رأيكم؟

فقال عبد الله بن جعفر يا أمير المؤمنين دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك، أعزل قيساً عن مصر.

قال عليّ: والله إنِّي غير مصدِّق بهذا على قيس.

فقال عبد الله: أعزله يا أمير المؤمنين، فإن كان ما قد قيل حقّاً، فلا يعتزل لك إن عزلته.

قال: وإنَّهم لكذلك، إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد، فيه:

أمَّا بعد: فإنِّي أُخبرُ يا أمير المؤمنين، أكرمك الله وأعزك، إنَّ قِبلي رجالاً معتزلين، سألوني أن أكفَّ عنهم، وأدعهم على حالهم، حتى يستقيم أمر الناس، فترى ويرون، وقد رأيت أن أكفَّ عنهم، ولا أُعجِّل بحربهم، وأن أتألفهم فيما بين ذلك، لعلَّ الله أن يقبل بقلوبهم، ويفرِّقهم عن ضلالتهم، إن شاء الله والسلام.

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنَّك إن أطعته في تركهم واعتزالهم، استشرى الأمرُ، وتفاقمت الفتنة، وقعد عن بيعتك، كثير ممَّن تريده على الدخول فيها، ولكن مرْهُ بقتالهم فكتب إليه:

أمَّا بعد: فسرْ إلى القوم الذين ذكرت، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وإلَّا فناجزْهم، والسلام.

قال: فلما أتى هذا الكتاب قيساً، فقرأه لم يتمالك أن كتب إلى علي:

أمَّا بعد: يا أمير المؤمنين، تأمرني بقتال قوم كافين عنك، ولم يمدُّوا يداً للفتنة، ولا أرصدوا لها، فأطعني يا أمير المؤمنين، وكفّ عنهم، فإنَّ الرأي تركهم والسلام.

فلما أتاه هذا الكتاب، قال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إبعث محمَّد بن أبي بكر إلى مصر، يكفك أمرها وأعزل قيساً، فوالله لبلغني أنَّ قيساً يقول: إنَّ سلطاناً لا يتم، إلَّا بقتل مسلمة بن مخلَّد لسلطان سوء، والله ما أحبَّ أنَّ لي سلطان الشام مع سلطان مصر، وأنَّني قتلت ابن مخلَّد، وكان عبد الله بن جعفر أخا محمَّد بن أبي بكر لأُمِّه، وكان يُحبّ أن يكون له إمْرة وسلطان، فاستعمل عليّ عليه السلام، محمَّد بن أبي بكر على مصر لمحبَّةٍ له، ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه، وكتب معه كتاباً إلى أهل مصر، فسار حتى قدمها، فقال قيس: ما بال أمير المؤمنين ما غيَّره، أدخل أحدٌ بيني وبينه.

قال: لا، وهذا السلطان سلطانك، وكان بينهما نسب، كان تحت قيس قُرِيْبة بنت أبي قحافة، أُخت أبي بكر الصدِّيق، فكان قيس زوج عمته.

فقال قيس: لا والله لا أُقيم معك ساعة واحدة، وغضب حين عزله عليّ عنها، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة، ولم يمض إلى عليّ بالكوفة.



ولاية محمَّد بن أبي بكر على مصر ومقتله

محمَّد ابن أبي بكر، أُمّه أسماء بنت عميس الخثعمية، كانت تحت جعفر بن أبي طالب، فلما قتل في بعثِ رسول الله بمعركة مؤتة، تزوَّج منها أبو بكر بن أبي قحافة، فولدت له محمَّداً، فلما مات عنها أبو بكر، تزوَّجها علي بن أبي طالب، فكان محمَّد ربيب علي، فتأدَّب بخلقه، واستساغ من علمه، ما استطاع استساغته، ولما ولي مصر لِعزْلِ قيس بن سعد، كتب إلى معاوية كتاباً، يقول فيه، فيما روى المسعودي في مروج الذهب: (ج٣، ص١٣)، قال: ولما صرف علي رضي الله عنه، قيس بن سعد بن عبادة عن مصر، وجَّه مكانه محمَّد بن أبي بكر، فلما وصل إليها، كتب إلى معاوية كتاباً فيه:

من محمَّد بن أبي بكر، إلى الغاوي معاوية بن صخر.

أمَّا بعد: فإنَّ الله بعظمته وسلطانه، خلق خلقه بلا عبثٍ منه، ولا ضعفٍ في قوَّته، ولا حاجة به إلى خلقهم، ولكنَّه خلقهم عبيداً، وجعل منهم غويّاً، ورشيداً، وشقيّاً، وسعيداً.

ثمَّ اختار على علم واصطفى، وانتخب منهم محمَّداً ﷺ،

فانتخبه بعلمه، واصطفاه برسالته، وائتمنه على وحيه، وبعثه رسولاً، ومُبشراً، ونذيراً، ووكيلاً.

فكان أوَّل من أجاب، وأناب، وآمن، وصدق، وأسلم، وسلم أخوه وابن عمِّه علي بن أبي طالب.

صدَّقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه بنفسه من كل هول، وحارب حربه، وسالم سلمه، فلم يبرح مبتذلاً لنفسه، في ساعات اللَّيل والنهار، والخوف، والجوع، والخضوع، حتى برز سابقاً، لا نظير له فيمن اتبعه، ولا مُقارب له في فعله، وقد رأيتك تساميه، وأنت أنت، وهو هو، أصدق الناس نيَّة، وأفضل الناس ذرِّيَّة، وخير الناس زوجة، وأفضل الناس ابن عم، أخوه الشاري بنفسه يوم مؤتة، وعمّه سيِّد الشُّهداء يوم أُحُد، وأبوه الذَّاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن حوزته.

وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك، تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغوائل، وتجهدان في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه المال، وتؤلبان عليه القبائل، وعلى ذلك مات أبوك، وعلى ذلك خلفته، والشَّهيدُ عليك من تُدني، ويلجأ إليك من بقية الأحزاب، ورؤساء النفاق، والشاهد لعلي مع فضله المبين القديم، أنصاره الذين معه، وهم الذين ذكرهم الله بفضلهم، وأثنى عليهم، من المهاجرين والأنصار، وهم معه كتائب وعصائب، يرون الحق في اتباعه، والشقاء في خلافه.

فكيف يا لك الويل، تعدلُ نفسك بعليّ، وهو وارث

رسول الله ﷺ ووصيّه، وأبو ولده، أوّلُ الناس له اتباعاً، وأقربهم به عهداً، يخبره بسرِّه، ويطلعه على أمره، وأنت عدوِّه وابن عدوِّه.

فتمتع في دُنياك، ما استطعت بباطلك، وليمددك ابن العاص في غوايتك، فكأنَّ أجلك قد انقضى، وكيدك قد وهى، ثم يتبيَّن لك لمن تكون العاقبة العليا.

واعلم أنَّك إنَّما تُكايد ربَّك، الذي أمنت كيده، ويئست من رَوْحه، فهو لك بالمرصاد، وأنت منه في غرور، والسلام على من اتبع الهدى».

فكتب إليه معاوية:

من معاوية بن صخر، إلى الزاري على أبيه محمَّد بن أبي بكر،

أمَّا بعد: فقد أتاني كتابك، تذكر فيه ما الله أهله في عظمته، وقدرته، وسلطانه، وما اصطفى به رسول الله ﷺ، مع كلام كثير، لك فيه تضعيف، ولأبيك فيه تعنيف، وذكرت فضل ابن أبي طالب، وقديم سوابقه، وقرابته إلى رسول الله ﷺ، ومواساته إيَّاه في كل هول وخوف، فكان احتجاجك عليَّ وعيبك لي، بفضل غيرك لا بفضلك، فاحمد ربّاً صرف هذا الفضل عنك، وجعله لغيرك.

فقد كنَّا وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب، وحقّه لازماً لنا، مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيّه ﷺ ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأبلج حجَّته، وقبضه الله إليه ﷺ، فكان

أبوك وفاروقه، أوَّل من ابتزه حقَّه، وخالفه على أمره على ذلك، اتَّفقا واتَّسقا.

ثمَّ إنَّهما دعواه إلى بيعتهما، فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهمَّا به الهموم، وأرادا به العظيم، ثمَّ إنَّه بايع لهما، وسلم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرّهما، حتى قبضهما الله.

ثمَّ قام ثالثهما عثمان، فهدي بهديهما، وسار بسيرهما، فعبته أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكما فيه، حتى بلغتما فيه مُناكما.

فخذ حذرك يا ابن أبي بكر، وقس شبرك بفترك، يقصر عن أن تواري، أو تساوي من يزن الجبال بحلمه، لا يلين عن قسْرٍ قناته، ولا يُدرِكُ ذو مقال أناته، أبوك مهَّد مهاده، وبنى لملكه وسادة، فإن يك ما نحن فيه صواباً، فأبوك استبدَّ به، ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل، ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلمنا إليه، ولكنَّا رأينا أباك فعل ذلك من قبلنا، فأخذنا بمثله، فعبْ أباك بما بدا لك، أو دعْ ذلك، والسلام على من أناب».

وروى لنا الطبري في تاريخ الأُمم والملوك: (ج٤، ص٧١)، قال:

ولما قتلَ أهلُ خربتا ابن مُضاهم الكلبي، الذي وجهه إليهم محمَّد بن أبي بكر، خرج معاوية بن خُديج الكندي ثم السكوني،

فدعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه ناس آخرون، وفسدت مصر على محمَّد بن أبي بكر، فبلغ عليّاً، وثوب أهل مصر على محمَّد بن أبي بكر، واعتمادهم إيَّاه، فقال: ما لمصر، إلَّا أحد الرجلين، صاحبنا الذي عزلناه عنها، يعني قيساً، أو مالك بن الحارث يعني الأشتر.

قال: وكان عليّ حين انصرف من صفين، ردَّ الأشتر على عمله بالجزيرة، وقد كان قال لقيس بن سعد: أقم معي على شرطتي، حتى نفرغ من هذه الحكومة، ثم اخرج إلى أذربيجان، فإنَّ قيساً مقيم مع علي على شرطته، فلما انقضى أمر الحكومة، كتب عليّ إلى مالك بن الحارث الأشتر، وهو يومئذٍ بنصيبين:

أمَّا بعد: فإنَّك ممَّن استظهرته على إقامة الدِّين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأشد به الثغر المخوف، وكنت ولَّيت محمَّد بن أبي بكر، مصر، فخرجت عليه بها خوارج، وهو غلام حدث، ليس بذي تجربة للحرب، ولا بمجرب للأشياء، فاقدم عليَّ لننظر في ذلك فيما ينبغي، واستخلف على عملك، أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام.

فأقبل مالك إلى علي، حتى دخل عليه فحدثه حديث أهل مصر، وخبره خبر أهلها، وقال: ليس لها غيرك، أُخرج رحمك الله، فإنِّي إن لم أُوصك اكتفيت برأيك، واسْتعن بالله على ما أهمك، فاخلط الشِّدَّة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم بالشدَّة، حين لا يغني عنك إلَّا الشِّدَّة.

قال: فخرج الأشتر من عند عليّ، فأتى رحله، فتهيَّأ للخروج إلى مصر، وأتت معاوية عيونه، فأخبروه بولاية عليّ الأشتر، فعظم ذلك عليه، وقد كان طمع في مصر، فعلم أنَّ الأشتر إن قدمها، كان أشد عليه من محمَّد بن أبي بكر، فبعث معاوية إلى الجايستار، (رجل من أهل الخراج)، فقال له: إنَّ الأشتر قد ولي مصر، فإن أنت كفيتنيه، لم آخذ منك خراجاً ما بقيت، فاحتل له بما قدرت عليه، فخرج الجايستار حتى أتى القلزم وأقام به، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم، استقبله الجايستار، فقال: هذا منزل، وهذا طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج، فنزل به الأشتر، فأتاه الدهقان بعلف وطعام، حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل، قد جعل فيها سُماً، فسقاه إيَّاه، فلما شربها مات، وأقبل معاوية يقول لأهل الشام: أنَّ عليّاً وجَّه الأشتر إلى مصر، فادعوا الله أن يكفيكموه.

قال: فكانوا كل يوم يدعون الله على الأشتر، وأقبل الذي سقاه إلى معاوية، فأخبره بمهلك الأشتر، فقام معاوية في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

أمَّا بعد: فإنَّه كانت لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان، قطعت إحداهما يوم صفين، يعني عمَّار بن ياسر، وقطعت الأُخرى اليوم يعني الأشتر.

يضيف الطبري: أنَّه لما هلك الأشتر، وُجد في ثقله رسالة عليّ إلى أهل مصر: «بسم الله الرحمن الرحيم».

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين، إلى أُمَّة الإسلام، الذين غضبوا لله حين عُصي في الأرض، وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر، فلا حق يُستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه.

سلام عليكم، فإنِّي أحمد الله إليكم، الذي لا إله إلَّا هو:

أمَّا بعد: فقد بعثت إليكم، عبداً من عبيد الله، لا ينام أيَّام الخوف، ولا ينكل عن الأعادي، حذار الدوائر، أشد على الكفَّار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث، أخو مُذحج، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنَّه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة، ولا كليل الحد، فإن أمركم أن تقدموا فأقدموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، فإنَّه لا يقدم ولا يحجم إلَّا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي، لنصحه لكم، وشدَّة شكيمته على عدوّكم، عصمكم الله بالهدى، وثبتكم على اليقين والسلام.

قال: ولما بلغ محمَّد بن أبي بكر، أنَّ عليّاً قد بعث الأشتر شقَّ عليه، فكتب علي إلى محمَّد بن أبي بكر، عند مهلك الأشتر، وذلك حين بلغه موجدة محمَّد بن أبي بكر، لقدوم الأشتر عليه.

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى محمَّد بن أبي بكر، سلام عليك.

أمَّا بعد: فقد بلغني موجدتك، من تسريحي الأشتر إلى عملك، وإنِّي لم أفعل ذلك، استبطاءً لك في الجهاد، ولا ازدياداً

منِّي لك في الجِدّ، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك، لوليتك ما هو أيسر عليك في المؤنة، وأعجب إليك ولاية منه.

إنَّ الرجل الذي كُنتُ ولَّيته مصر، كان لنا نصيحاً، وعلى عدوِّنا شديداً، وقد استكمل أيامه، ولاقى حمامه، ونحن عنه راضون، فرضي الله عنه، وضاعف له الثواب، وأحسن له المآب، اصبر لعدوِّك، وشمِّر للحرب، وادع إلى سبيل ربِّك بالحكمة، والموعظة الحسنة، وأكثر ذكر الله، والاستعانة به، والخوف منه، يكفيك ما أهمك، ويعنك على ما ولاك، أعاننا الله وإيَّاك، على ما لا ينال إلَّا برحمته، والسلام عليك.

فكتب إليه محمَّد بن أبي بكر جواب كتابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

لعبد الله علي أمير المؤمنين، من محمَّد بن أبي بكر، سلام عليك فإنِّي أحمد الله إليك، الذي لا إله غيره:

أمَّا بعد: فإنِّي قد انتهى إليَّ كتاب أمير المؤمنين، ففهمته وعرفت ما فيه، وليس أحد من الناس، بأرضى منِّي برأي أمير المؤمنين، ولا أجهد على عدوِّه، ولا أرأف بوليّه منِّي، وقد خرجت فعسكرت، وآمنت الناس، إلَّا من نصب لنا حرباً، وأظهر لنا خلافاً، وأنا متبع أمر أمير المؤمنين، وحافظه، وملتجىء إليه، وقائم به، والله المستعان على كُلِّ حال، والسلام عليك.

وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج ج٦ ص٧٩، قال: إنَّ

أهل الشام، لما انصرفوا عن صفِّين، كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان، فلما انصرفا وتفرَّقا، وبايع أهلُ الشام معاوية بالخلافة، لم يزدد معاوية إلَّا قوَّة.

واختلف أهل العراق على عليّ بن أبي طالب، فلم يكن همَّ معاوية إلَّا مصر، وقد كان لأهلها هائباً لقربهم منه، وشدّتهم على من كان على رأي عثمان، وقد كان علم أنَّ بها قوماً، قد ساءهم قتلُ عثمان، وخالفوا عليّاً، مع أنَّه كان يرجو، أن يكون له فيها مُعاونة، إذا ظهر عليها على حرب عليّ، لوفور خراجها.

فدعا عليَ من كان معه من قريش، وهم عمرو بن العاص السهميّ، وحبيب بن مسلمة الفهريّ، وبُسْر بن أبي أرطأة العامريّ، والضحَّاك بن قيس الفهريّ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي.

ودعا من غير قريش، شرحبيل بن السِّمط الحميريّ، وأبي الأعور السلميّ، وحمزة بن مالك الهمدانيّ، فقال: أتدرون لماذا دعوتكم؟

قالوا: لا.

قال: فإنِّي دعوتكم لأمر هو لي مُهم، وأرجو أن يكون الله عزَّ وجلَّ قد أعان عليه.

فقال له القوم: إنَّ الله لم يطلع على غيبه أحداً، ولسنا ندري ما تريد.

فقال عمرو بن العاص: أرى والله أنَّ أمْرَ هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها، وعدد أهلها، قد أهمك فدعوتنا، تسألنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت لذلك دعوتنا وله جمعتنا، فاعزم واصرم، ونعم الرأي ما رأيت، إنَّ في افتتاحها عزّك، وعزّ أصحابك، وذُلّ عدوِّك، وكبت أهل الخلاف عليك.

قال معاوية: أهمك ما أهمك يابن العاص، وذلك أنَّ عمْراً كان بايع معاوية على قتال عليّ، وأنَّ مصر له طُعْمة ما بقي.

فأقبل معاوية على أصحابه وقال: إنَّ هذا، يعني ابن العاص، قد ظنَّ وحقَّق ظنَّه.

قالوا: ولكنَّا لا ندري، ولعلَّ أبا عبد الله قد أصاب.

فقال عمرو: وأنا أبو عبد الله، إنَّ أفضل الظُّنون ما شابه اليقين.

ثمَّ إنَّ معاوية حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أمَّا بعد: فقد رأيتم، كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوِّكم، ولقد جاؤوكم وهم لا يشكون، أنَّهم يستأصلون بيضتكم، ويجوزون بلادكم، ما كانوا يرون إلَّا أنَّكم في أيديهم، فردَّهم الله بغيظهم، لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكفاكم مؤنتهم، وحاكمتموهم إلى الله، فحكم لكم عليهم ثم جمع كلمتنا، وأصلح ذات بيننا، وجعلهم أعداء مُتفرقين، يشهد بعضهم على بعض بالكفر، ويسفكُ بعضهم دم بعض، والله إنِّي لأرجو، أن يتم الله لنا هذا الأمر، وقد رأيت أن أُحاول حرب مصر، فماذا ترون؟

قال عمرو: فإنِّي مشير عليك بما تصنع، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً، عليهم رجلٌ صارم، تأمُنه وتثق به، فيأتي مصر فيدخلها، فإنّه سيأتينا من كان على مِثْلِ رأينا من أهلها، فنظاهره على من كان من عدوّنا، فإن اجتمع بها جندك، ومن كان بها من شيعتك، على من بها من أهل حربك، رجوتُ الله أن يُعزّ نصرك، ويظهر فلجك.

فقال معاوية: هل عندك شيء غير هذا، نعمله فيما بيننا وبينهم قبل هذا؟

قال: ما أعلمه.

قال معاوية: فإنَّ رأيي غيرُ هذا، أرى أن نكاتب من كان بها من شيعتنا، ومن كان بها من عدوّنا.

فأمَّا شيعتنا: فنأمرهم بالثبات على أمرهم، ونمنيهم قدومنا عليهم.

وأمَّا من كان بها من عدوّنا: فندعوهم إلى صلحنا، ونُمنيهم شكرنا، ونخوفهم حربنا، فإن صلح لنا ما قِبلهم، من غير حرب ولا قتال، فذلك ما أحببنا، وإلَّا فحربهم من وراء ذلك.

إنَّك يابن العاص، لامُرؤٌ بورك لك في العجلة، وبورك لي في التؤدة.

قال عمرو: فأعمل بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرك، وأمرهم يصير إلَّا إلى الحرب.

قال: فكتب معاوية عند ذلك، إلى مسْلمة بن مُخلَّد الأنصاريّ، وإلى معاوية بن خُديج الكنديّ، وكانا قد خالفا عليّاً:

أمَّا بعد: فإنَّ الله قد ابتعثكما لأمر عظيم، أعظم به أجركما، ورفع درجتكما، ومرتبتكما في المسلمين، طلبتما بدم الخليفة المظلوم، وغضبتما لله إذ تُرِك حكم الكتاب، وجاهدتما أهل الظلم والعدوان، فأبشرا برضوان الله، وعاجلاً نصرة أولياء الله، والمواساة لكما في دار الدُّنيا وسلطاننا، حتى ينتهي ذلك إلى ما يرضيكما، ويؤدِّي به حقّكما، فالزما أمركما، وجاهدا عدوّكما، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما، فكأنَّ الجيش قد أظلَّ عليكما، فاندفع كُلُّ ما تكرهان، ودام كُلُّ ما تهويان، والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته.

وبعث بالكتاب مع مولى له، يُقال له: سُبيع، فخرج بكتابه، حتى قدم به عليهما بمصر، ومحمَّد بن أبي بكر يومئذٍ أميرها، قد ناصبه هؤلاء النفر الحرب، وهم هائبون الإقدام عليه، فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مُخلَّد، فقرأه فقال: ألقَ به معاوية بن خُديج، ثم القني به حتى أُجيب عنِّي وعنه، فانطلق الرسول بكتاب معاوية، فأقرأه إيَّاه، ثم قال له: إنَّ مسلمة قد أمرني أن أردَّ الكتاب إليه، لكي يجيبَ عنك وعنه.

قال: قل له فليفعل، فأتى مسلمة بالكتاب، فكتب الجواب عنه، وعن معاوية بن خُديج:

أمَّا بعد: فإنَّ هذا الأمر الذي ندبنا له أنفسنا، وابتُغيا الله به

على عدوّنا، أمرٌ نرجو به ثواب ربّنا، والنصر على من خالفنا، وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا، وطأطأ الرَّكض في مهادنا، ونحن بهذه الأرض، قد نفينا من كان بها من أهل البغْي، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل، وقد ذكرت موازرتك في سلطانك، وذات يدك، وبالله إنَّه لا من أجلِ مالٍ نهضنا، ولا إيَّاه أردنا، فإن يجمع الله لنا ما نريد ونطلب، أو يريبنا ما تمنينا، فإنَّ الدُّنيا والآخرة لله ربّ العالمين، وقد يثوبهما الله جميعاً، عالماً من خلقه، كما قال في كتابه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١] عجِّل لنا بخيلك ورَجْلك فإنَّ عدوّنا قد كان علينا جريئاً، وكنَّا فيهم قليلاً، وقد أصبحوا لنا هائبين، وأصبحنا لهم منابذين، فإن يأتنا مددٌ من قِبلك، يفتح الله عليك، ولا قوَّة إلَّا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال: فجاء هذا الكتاب معاوية، وهو يومئذٍ بفلسطين، فدعا النفر الذين سمَّيناهم من قريش وغيرهم، وأقرأهم الكتاب، وقال لهم: ماذا ترون؟

قالوا: نرى أن تبعثَ إليهم جيشاً من قِبَلِك، فأنت مُفتتحها إن شاء الله.

قال معاوية: فتجهَّزْ إليها يا أبا عبد الله، (يعني عمرو بن العاص)، فبعثه في ستة آلاف، فخرج يسير، وخرج معه معاوية يودِّعه، فقال له معاوية عند وداعه إيَّاه: أُوصيك بتقوى الله يا

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٨.

عمرو، وبالرفق فإنَّه يُمنٌ، وبالتؤدة فإنَّ العجلة من الشيطان، وبأن تقْبل من أقبل، وتعفُوَ عمَّن أدبر، أنظْرهُ فإن تاب وأناب قبلت منه، وإن أبى فإنَّ السطوة بعد المعرفة، أبلغ في الحجَّة، وأحسن في العاقبة، وادعُ الناس إلى الصلح والجماعة، فإن أنت ظفرت، فليكن أنصارك أبرّ الناس عندك، وكُلَّ الناس فأوْلِ حُسْناً.

قال: فسار عمرو في الجيش، حتى دنا من مصر، فاجتمعت إليه العثمانية، فأقام وكتب إلى محمَّد بن أبي بكر:

أمَّا بعد: فتنحَّ عنِّي بدمك يابن أبي بكر، فإنِّي لا أُحبّ أن يصيبك منِّي ظُفر، وإنَّ الناس بهذه البلاد، قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، وهم مسلموك، لو قد التقت حلقتا البطان، فاخرج منها، فإنِّي لك من الناصحين، والسلام.

قال: وبعث عمرو إلى محمَّد مع هذا الكتاب، كتاب معاوية إليه، وهو:

أمَّا بعد: فإن غبَّ الظلم والبغي عظيم الوبال، وإنَّ سفك الدم الحرام، لا يسلم صاحبه من النقمة في الدُّنيا، والتبعة الموبقة في الآخرة، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً، ولا أسوأ له عيباً، ولا أشد عليه خلافاً منك، سعيت عليه في الساعين، وساعدت عليه مع المساعدين، وسفكت دمه مع السافكين، ثم تظن أنِّي نائم عنك، فتأتي بلدة فتأمنُ فيها، وجُلَّ أهلها أنصاري، يرون رأيي، ويرفضون قولك، ويستصرخونني عليك.

وقد بعثتُ إليك قوماً حِناقاً عليك، يسفكون دمك، ويتقربون إلى الله عزَّ وجلَّ بجهادك، وقد أعطوا الله عهداً ليقتُلنَّك، ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا، لقتلك الله بأيديهم، أو بأيدي غيرهم من أوليائه، وأنا أُحذرك وأُنذرك، فإنَّ الله مُقيدٌ منك، ومقتصٌ لوليه وخليفته بظلمك له، وبغيك عليه، ووقيعتك فيه، وعداوتك يوم الدار عليه، تطعن بمشاقصك، فيما بين أحشائه وأوداجه، ومع هذا فإنِّي أكره قتلك، ولا أُحبُّ أن أتولى ذلك منك، ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبداً، فتنحَّ وانجُ بنفسك والسلام.

قال: فطوى محمد بن أبي بكر كتابيهما، وبعث بهما إلى عليَّ عليه السلام، وكتب إليه:

أمَّا بعد: يا أمير المؤمنين فإنَّ العاصي ابن العاص، نزل أداني مصر، واجتمع إليه من أهل البلد، من كان يرى رأيهم، وهو في جيش جرَّار، وقد رأيتُ ممَّن قِبلي بعض الفشل، فإن كان لك في أرض مصر حاجة، فامددني بالأموال والرجال، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

(قال: فكتب إليه عليّ):

أمَّا بعد: فقد أتاني رسولك بكتابك، تذكر أنَّ ابن العاص، قد نزل في جيش جرَّار، وأنَّ مَنْ كان على مثل رأيه قد خرج إليه، وخروجُ من كان يرى رأيه خيرٌ لك من إقامته عندك، وذكرت أنَّك قد رأيت، ممَّن قِبلك فشلاً، فلا تفشل وإن فشلوا، حصِّن قريتك، واضمم إليك شيعتك، وأذْكِ الحرس في عسكرك، وأندب إلى

القوم كنانة بن بشر، المعروف بالنصيحة، والتجربة، والبأس، وأنا نادبٌ إليك الناس، على الصَّعْبِ والذلول، فاصبر لعدوِّك، وامضِ على بصيرتك، وقاتلهم على نيَّتك، وجاهدهم مُحتسباً لله سبحانه.

وإن كانت فئتك أقل الفئتين، فإنَّ الله تعالى يُعينُ القليل، ويخذُل الكثير، وقد قرأت كتابيْ، الفاجرين المتحابين على المعصية، والمتلائميْنِ على الضَّلالة، والمرتشييْنِ على الحكومة، والمتكبريْنِ على أهل الدِّين، الذين استمتعوا بخلاقهم، كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، فلا يضرنَّك إرعادهما، وإبراقهما، وأجبهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله، فإنَّك تجد مقالاً ما شئت والسلام.

قال: فأقبل عمرو بن العاص، يقصُد قصْد مصر، فقام محمد بن أبي بكر في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أمَّا بعد: يا معشر المؤمنين، فإنَّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة، ويغشون الضلالة، ويستطيلون بالجبرية، قد نصبوا لكم العداوة، وساروا إليكم بالجنود، فمن أراد الجنَّة والمغفرة، فليخرجْ إلى هؤلاء القوم، فليجاهدهم في الله، انتدبوا رحمكم الله مع كنانة بن بشر، ثم ندب معه نحو ألفْي رجل، وتخلَّف محمَّد في ألفين، واستقبل عمرو بن العاص كنانة، وهو على مقدِّمة محمد، فلما دنا عمرو من كنانة، سرَّح إليه الكتائب، كتيبة بعد كتيبة، فلم تأته من كتائب الشام كتيبة، إلَّا شدَّ عليها بمن معه، فيضربها حتى يُلحقها بعمرو، ففعل ذلك مراراً.

فلما رأى عمرو ذلك، بعث إلى معاوية بن خُديج الكندي، فأتاه في مثل الدهم «عدد كثير»، فلما رأى كنانة ذلك الجيش، نزل عن فرسه، ونزل معه أصحابه، فضاربهم بسيفه وهو يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[1] فلم يزل يضاربهم بالسيف، حتى استشهد رحمه الله.

قال: أنَّ عمرو بن العاص، لما قتل كنانة، أقبل نحو محمد بن أبي بكر، وقد تفرَّق عنه أصحابه، فخرج محمد مُتمهلاً، فمضى في طريقه، حتى انتهى إلى خربة فآوى إليها، وجاء عمرو بن العاص، حتى دخل الفسطاط، وخرج معاوية بن خُديج في طلب محمَّد، حتى انتهى إلى علوج على قارعة الطريق، فسألهم هل مرَّ بهم أحد ينكرونه؟

قالوا: لا.

قال أحدهم: إنِّي دخلت تلك الخربة، فإذا أنا برجل جالس.

قال ابن خُديج: هو هو وربِّ الكعبة، فانطلقوا يركضون، حتى دخلوا على محمد فاستخرجوه، وقد كاد يموت عطشاً، فأقبلوا به نحو الفسطاط.

قال: ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده فقال: لا والله لا يُقتل أخي صبراً، إبعث إلى معاوية بن خُديج فانهه، فأرسل عمرو بن العاص: أن ائتني بمحمد.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٥.

فقال معاوية: أقتلتم كنانة بن بشر ابن عمِّي، وأُخلِّي عن محمد هيهات.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾[1] فقال محمد: اسقوني قطرة من الماء.

فقال له معاوية بن خُديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، إنَّكم منعتم عثمان أن يشرب الماء، حتى قتلتموه صائماً محرماً، فسقاه الله من الرحيق المختوم، والله لأقتلنَّك يا ابن أبي بكر وأنت ظمآن، ويسقيك الله من الحميم والغسلين.

فقال له محمد: يابن اليهودية النسَّاجة، ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان، إنَّما ذلك إلى الله، يسقي أولياءه، ويظمىء أعداءه، وهم أنت وقُرناؤك، ومن تولَّاك وتوليته، والله لو كان سيفي في يدي، ما بلغتم منِّي ما بلغتم.

فقال له معاوية بن خُديج: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك جوف هذا الحمار الميِّت، ثم أحرقه عليك بالنار.

قال: إن فعلتم ذلك بي، فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله، وأيم الله، إنِّي لأرجو أن يجعل الله هذه النار، التي تخوفني بها برداً وسلاماً، كما جعلها الله على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإنِّي لأرجو أن

---

(١) سورة القمر: ٤٣.

يحرقك الله، وإمامك معاوية، وهذا، وأشار إلى عمرو بن العاص، بنار تلظَّى، كُلَّما خبتْ زادها الله سعيراً.

فقال له معاوية بن خُديج: إنِّي لا أقتلك ظلماً، إنَّما أقتلك بعثمان بن عفَّان.

قال محمد: وما أنت وعثمان، رجل عمل بالجور، وبدل حكم الله والقرآن، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1] ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2] ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[3] فنقمنا عليه أشياء عملها، فأردنا أن يُخْلع من الخلافة عَلَناً فلم يفعل، فقتله من قتله من الناس.

فغضب معاوية بن خُديج، فقدَّمه فضرب عنقه، ثم ألقاه في جوف حمار وأحرقه بالنار، فلما بلغ ذلك عائشة، جزعت عليه جزعاً شديداً، وقنتتْ في دبر كل صلاة، تدعو على معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن خُديج.

قال: وكان ابن خُديج ملعوناً خبيثاً، يسبّ علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال: دخل معاوية بن خُديج، على الحسن بن عليّ في مسجد المدينة، فقال له الحسن: ويلك يا معاوية، أنت الذي تسبّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام.

---

(١) سورة المائدة: ٤٤.
(٢) سورة المائدة: ٤٥.
(٣) سورة المائدة: ٤٧.

أما والله، لئن رأيته يوم القيامة، وما أظنّك تراه، لترينَّهُ كاشفاً عن ساق، يضرب وجوه أمثالك عن الحوض، ضرب غرائب الإبل.

قال: ولما بلغ أسماء بنت عميس، مقتل ابنها محمد، وما صُنع به، قامت إلى مسجدها، وكظمت غيظها، حتى تشخَّبت دماً.

ويضيف المعتزلي، راوياً عن حبيب بن عبد الله، أنَّه قال: والله إنِّي لعند علي جالسٌ، إذ جاءه عبد الله بن مُعين، وكعب بن عبد الله، مِنْ قِبَلِ محمد بن أبي بكر يستصرخانه قبل الواقعة، فقام عليٌّ فنادى في الناس الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال:

أمَّا بعدُ: فهذا صريخ محمد بن أبي بكر، وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابنُ النابغة عدوّ الله، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم، والركون إلى سبيل الطاغوت، أشد اجتماعاً على باطلهم وضلالتهم، منكم على حقّكم، فكأنَّكم بهم، وقد بدؤكم وإخوانكم بالغزو، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر، عباد الله إنَّ مصر أعظم من الشام، وخيرٌ أهلاً، فلا تُغلبوا على مصر، فإنَّ بقاء مصر في أيديكم عزٌّ لكم، وكبت لعدوّكم، اخرجوا إلى الجزعة «بين الحيرة والكوفة»، لنتوافى هناك كُلّنا غداً إن شاء الله.

قال: فلما كان الغد، خرج يمشي فنزلها بُكْرة، فأقام بها حتى انتصف النهار، فلم يوافهِ مائة رجل فرجع.

فلما كان العشيّ، بعث إلى الأشراف فجمعهم، فدخلوا عليه وهو كئيب حزين فقال:

الحمد لله على ما قضى من أمر، وقدَّر من فعل، وابتلاني بكم أيّتها الفرقة، التي لا تطيع إذا أمرتها، ولا تجيب إذا دعوتها، لا أباً لغيركم، ماذا تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقّكم، الموت خيرٌ من الذُّلّ في هذه الدُّنيا لغير الحقّ، والله إن جاءني الموت وليأتينِّي، لتجدُنني لصحبتكم جِدَّ قالٍ، ألا دين يجمعكم، ألا حمية تغضبكم، ألا تسمعون بعدوِّكم، ينتقص بلادكم، ويشنّ الغارة عليكم، أوليس عجباً، أنَّ معاوية، يدعو الجفاة الطُّغام الظلمة، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة، ويجيبونه في السنة المرة، والمرتين، والثلاث، إلى أيِّ وجه شاء، ثم أنا أدعوكم، وأنتم أولوا النُّهى وبقية الناس، تختلفون وتفترقون عنِّي وتعصونني، وتخالفون عليَّ.

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبيّ، فقال: يا أمير المؤمنين اندب الناس معي، فإنَّه لا عطر بعد عروس، وإنَّ الأجْر لا يأتي إلَّا بالكرهْ.

ثم التفت إلى الناس وقال: اتقوا الله، وأجيبوا دعوة إمامكم، وانصروا دعوته، واقتلوا عدوّكم، إنَّا نسير إليهم يا أمير المؤمنين.

فأمر عليٌّ سعداً مولاه أن يُنادي: ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر، وكان وجهاً مكروهاً، فلم يجتمعوا إليه شهراً، فلما اجتمع له منهم ما اجتمع، خرج بهم مالك بن كعب، فعسكر بظاهر الكوفة، وخرج معه علي، فنظر فإذا جميع من خرج نحو من ألفين.

فقال عليّ: سيروا والله ما أنتم، ما أخالكم تدركون القوم، حتى ينقضي أمرهم، فخرج مالك بهم، وسار خمس ليال، وقدم الحجاج بن غزيَّة الأنصاريّ على عليّ، وقدم عليه عبد الرحمن بن المسيّب الفزاريّ من الشام.

فأمَّا الفزاريّ: فكان عيناً لعلي عليه السلام لا ينام.

وأمَّا الأنصاريّ: فكان مع محمد بن أبي بكر، فحدثهُ الأنصاري بما عاين وشاهد، وأخبره بهلاك محمد، وأخبره الفزاري أنَّه لم يخرج من الشام، حتى قدمت البشرى من قبل عمرو بن العاص، يتبع بعضها بعضاً، بفتح مصر، وقتل محمد بن أبي بكر، وحتى أذَّن معاوية بقتله على المنبر.

وقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت يوماً قط سروراً، مثل سرورٍ رأيته بالشام، حين أتاهم قتل محمَّد بن أبي بكر.

فقال علي: أما إنَّ حزننا على قتله، على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافاً.

قال: فسرَّح عليٌّ عبد الرحمن بن شريح، إلى مالك بن كعب، فردَّه من الطريق قال: وحزن عليّ على محمد بن أبي بكر، حتى رُأي ذلك فيه، وتبيَّن في وجهه، وقام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا وإنَّ مصر، قد افتتحها الفجرة، أولياء الجور والظلم، الذين صدّوا عن سبيل الله، وبغوا الإسلام عوجاً، ألا وإنَّ محمد بن أبي بكر قد استُشهد رحمة الله عليه، وعند الله نحتسبه.

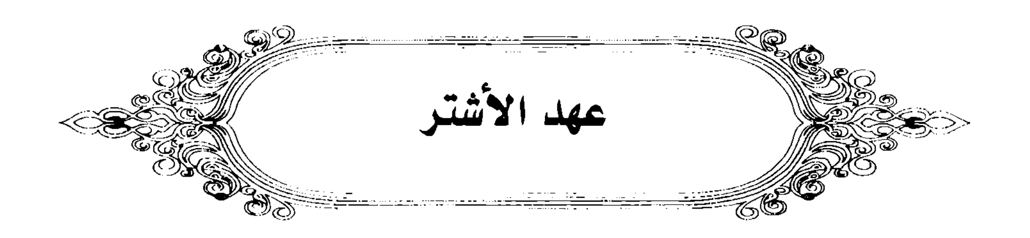
أما والله، لقد كان ما علمت، ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحب سمت المؤمن، إنِّي والله لا ألوم نفسي، على تقصير ولا عجز، وإنِّي بمقاساة الحرب لجدٌّ بصير، إنِّي لأقدم على الحرب، وأعرف وجه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرخكم مُعلناً، وأُناديكم مُستغيثاً، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تصير الأُمور إلى عواقب المساءة، وأنتم القوم لا يُدرك بكم الثأر، ولا تنقص بكم الأوتار.

دعوتكم إلى غياث إخوانكم، منذ بضع وخمسين ليلة فجرجرتم، عَليَّ جرجرة الجمل الأسرّ وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نيَّة له في الجهاد، ولا رأي له في الاكتساب للأجر.

ثمَّ خرج إليَّ منكم جُنيد متذائب ضعيف، كأنَّما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون، فأُفٍ لكم، ثم نزل فدخل رحله.

وكان استشهاد الأشتر ومحمد سنة ثمان وثلاثين هجري.





عهد الأشتر

عهد الأشتر، مكينٌ متين، فهو فيض من علم علي وعدله، خطَّه بيمينه المباركة، سياسةً مؤدَّبَةً مُؤدِّبةً، واعية تسوس الحكم والحاكم في كُلِّ عصر ومصر، منزَّهة عن الخطأ، معصومة فاضلة، تحمل للناس كرائم القوانين وأقدسها، الجامعة لطبقاتهم وأجناسهم، الشاملة لمشاربهم وألوانهم، المنظمة لحركاتهم وسكناتهم، مرفقة بوجوه الفن، زاخرة بزخائر الكرم، مسوقة بأفصح المنطق، وأبلغ الكَّلم، مُثقلة بأصدق الحكمة وغور الفلسفة، ظاهرة على رونق البيان ورشاقته، زعيمةٌ.

أن لو طبقت تلك القوانين، في حكم الدول على الأُمم والشعوب، حاكماً ومحكوماً، رئيساً ومرؤوساً، لأكل الناس من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، في رغدٍ من العيش، آمنين مُطمئنين، وقد جمعت لهم سعادة الدُّنيا والآخرة، فهم في نعيم ربّهم ورضوانه خالدون، وبعد:

ذكروا أنَّه لما قتل الأشتر بِسُمِّ معاوية، على يدِ الجايستار في مصر، وجدوا في رحْلهِ ذلك العهد، فأبرقوا به إلى معاوية بن هند، فأخذه بقوَّة، وقام عليه ليله ونهاره ينظر فيه،

ويشرب من سلسبيله، وهو يخفض إليه برأسه ويرفعه، ويتمايل له ذات اليمين وذات الشمال، وقد التفّ به رجال دولته، فراعهم إعجابه بكلام عليّ، وإطالة النظر فيه والعكوف عليه، في صمت وسرور، فقال قائل منهم: إحرقه يا أمير المؤمنين، إنَّه كلام أبي تراب.

فقال له معاوية: قبَّحك الله من جاهلٍ، أمثل هذا الكلام يحرق، لا ولكنَّني سأحكم به الناس، ما بقيت في الناس ليلي ونهاري، هذا، وبقي عهد الأشتر في خزانة الدولة الأموية، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فردَّه وفدكاً على أبناء فاطمة، ورفع السبّ عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَإِتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا، وَلاَ يَشْقَى إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَدِهِ، وَلِسَانِهِ، فَإِنَّهُ ـ جَلَّ اسْمُهُ ـ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ(١)، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ اللَّهُ.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ: إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَكَ(٢)، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ: الإِنْصَافُ مِنْهَا فِي مَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ، وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ(٣)، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ(٤)، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي

---

(١) ويزعها: أي يكفها عن مطامعها إذا جمحت عليه فلم تنقد لقائد العقل الصحيح، والشرع الصريح.

(٢) شحّ: أبخل بنفسك عن الوقوع في غير الحل، فليس الحرص على النفس إيفاءها كل ما تحب، بل من الحرص عليها أن تحمل على ما تكره إن كان ذلك في الحق، فربّ محبوب يعقب هلاكاً ومكروه يحمد عاقبة.

(٣) يفرط: يسبق. والزلل: الخطأ.

(٤) يؤتى مبني للمجهول نائب فاعله على أيديهم. وأصله تأتي السيئات على أيديهم الخ.

تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ[١] وَابْتَلاَكَ بِهِمْ، وَلاَ تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ[٢]، فَإِنَّهُ لاَ يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلاَ غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَلاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلاَ تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ[٣]، وَلاَ تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلاَ تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ[٤]، فَإِنَّ ذلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ، وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ، مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ، أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً[٥]، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ[٦]، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ.

---

(١) استكفاك: طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم.

(٢) أراد بحرب الله مخالفة شريعته بالظلم والجور، ولا يدي لك بنقمته أي ليس لك يد أن تدفع نقمته، أي لا طاقة لك بها.

(٣) بجح به: كفرح لفظاً ومعنى. والبادرة: ما يبدر من الحدة عند الغضب في قول أو فعل. والمندوحة: المتسع أي المخلص.

(٤) مؤمر: كمعظم أي مسلط. والإدغال: إدخال الفساد. ومنهكة: مضعفة، نهكه: أضعفه. والغير ـ بكسر ففتح ـ : حادثات الدهر بتبدل الدول. والإغترار بالسلطة تقرب منها أي تعرض للوقوع فيها.

(٥) الأبهة ـ بضم الهمزة وتشديد الباء مفتوحة ـ : العظمة والكبرياء. والمخيلة ـ بفتح فكسر ـ : الخيلاء والعجب.

(٦) الطماح ـ ككتاب ـ : النشوز والجماح. ويطامن أي يخفض منه. والغرب ـ بفتح فسكون ـ الحدة. ويفيء: يرجع إليك بما عزب أي غاب من عقلك.

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ[١] وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

أَنْصِفِ اللَّهَ، وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ[٢]، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ[٣] وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَتَعْجِيلِ نَقْمَتِهِ، مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطَهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمَّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعَهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ[٤]، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ[٥]، وَأَقَلَّ شُكْراً، عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ

(١) المساماة: المباراة في السمو أي العلو.
(٢) من لك فيه هوى أي لك إليه ميل خاص.
(٣) أدحض: أبطل. وحرباً أي محارباً. وينزع ـ كيضرب ـ أي يقلع عن ظلمه.
(٤) يجحف أي يذهب برضى الخاصة فلا ينفع الثاني معه، أمّا لو سخط الخاصة ورضي العامة فلا أثر لسخط الخاصة فهو مغتفر.
(٥) الإلحاف: الإلحاح والشدّة في السؤال.

صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ[١]، وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ[٢]، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأُهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ[٣]، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا[٤]، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ، يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ[٥]، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغابَ عَنْ كُلِّ مَا لاَ يَصِحُّ لَكَ، وَلاَ تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ[٦]،

---

(١) من أهل الخاصة متعلق بأثقل وما بعده من أفعال التفضيل.

(٢) جماع الشيء ـ بالكسر ـ : **جمعه** أي جماعة الإسلام. والعامة خبر عماد وما بعده.

(٣) أشنئوهم: أبغضهم. والأطلب للمعائب: الأشدّ طلباً لها.

(٤) ستر فعل ماض صلة من، أي أحقّ الساترين لها بالستر.

(٥) أي أحلل عقد الأحقاد من قلوب الناس بحسن السيرة معهم. واقطع عنك أسباب الأوتار أي العداوات بترك الإساءة إلى الرعية. والوتر ـ بالكسر ـ : العداوة. وتغاب: أي تغافل. والساعي: هو النمام بمعائب الناس.

(٦) الفضل هنا: الإحسان بالبذل. ويعدك: يخوفك من الفقر لو بذلت. والشره ـ بالتحريك ـ : أشدّ الحرص.

وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلاَ جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ، وَالْجُبْنَ، وَالْحِرْصَ، غَرَائِزُ شَتَّى[١]، يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً[٢]، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ[٣]، مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ[٤]، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلاَ آثِماً عَلَى إِثْمِهِ، أُولئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً[٥]، فَاتَّخِذْ أُولئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ[٦]، وَأَقَلُّهُمْ مُسَاعَدَةً فِي مَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ[٧]، وَالْصَقْ بِأَهْلِ

---

(١) غرائز: طبائع متفرقة تجتمع في سوء الظن بكرم الله وفضله.

(٢) بطانة الرجل ـ بالكسر ـ: خاصته، وهو من بطانة الثوب خلاف ظهارته. والأثمة: جمع آثم، فاعل الإثم أي الذنب. والظلمة: جمع ظالم.

(٣) منهم متعلق بالخلف أو متعلق بواجد، ومن مستعملة في المعنى الأسمى بمعنى بدل.

(٤) الآصار: جمع أصر بالكسر وهو الذنب والإثم وكذلك الأوزار.

(٥) الألف ـ بالكسر ـ: الإلفة والمحبة.

(٦) ليكن أفضلهم لديك أكثرهم قولاً بالحق المر. ومرارة الحق: صعوبته على نفس الوالي.

(٧) واقعاً حال مما كره الله، أي لا يساعدك على ما كره الله حال كونه نازلاً من ميلك إليه أي منزلة، أي وإن كان من أشدّ مرغوباتك.

الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَنْ لاَ يُطْرُوكَ[١]، وَلاَ يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

وَلاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ[٢].

وَاعْلَمْ: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ[٣]، وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ قِبَلَهُمْ[٤]، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً[٥]، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ[٦].

---

(١) رضّهم، أي عودهم على أن لا يطروك أي يزيدوا في مدحك، ولا يبجحوك أي يفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك ولم تكن فعلته. والزهو ـ بالفتح ـ : العجب. وتدني: أي تقرّب من العزة أي الكبر.

(٢) فإنّ المسيء ألزم نفسه استحقاق العقاب، والمحسن ألزمها استحقاق الكرامة.

(٣) إذا أحسن الوالي إلى رعيته وثق من قلوبهم بالطاعة له، فإنّ الإحسان قياد الإنسان فيحسن ظنّه بهم، بخلاف ما لو أساء إليهم فإنّ الإساءة تحدث العداوة في نفوسهم فينتهزون الفرصة لعصيانه فيسوء ظنّه بهم.

(٤) قبلهم ـ بكسر ففتح ـ أي عندهم.

(٥) النصب ـ بالتحريك ـ : التعب.

(٦) البلاء هنا: الصنع مطلقاً حسناً أو مسيئاً، وتفسير العبارة واضح مما قدمنا.

وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَافَثَةَ الْحُكَمَاءِ[١]، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

وَاعْلَمْ: إِنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ: لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاَ غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ[٢]، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلاً قَدْ سَمَّى اللَّهُ سَهْمَهُ[٣]، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَتَهُ فِي كِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ: بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاَةِ، وَعِزُّ

---

(١) المنافثة: المحادثة.

(٢) كتاب ـ كرمان ـ: جمع كاتب. والكتبة منهم عاملون للعامة كالمحاسبين والمحررين في المعتاد من شؤون العامة، كالخراج والمظالم، ومنهم مختصون بالحاكم يفضي إليهم بأسراره ويوليهم النظر فيما يكتب لأوليائه وأعدائه وما يقرر في شؤون حربه وسلمه مثلاً.

(٣) سهمه: نصيبه من الحق.

الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ، ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ: الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي مَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ[(١)]، ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِهذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ: لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ[(٢)]، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا، وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ: فِي مَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ[(٣)]، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لاَ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ: الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ[(٤)].

وَفِي اللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا

---

(١) أي يكون محيطاً بجميع حاجاتهم دافعاً لها.

(٢) هو وما بعده نشر على ترتيب اللف. والمعاقد: العقود في البيع والشراء وما شابهها ممّا هو من شأن القضاة. وجمع المنافع من حفظ الأمن وجباية الخراج وتصريف الناس في منافعهم العامة ذلك شأن العمال. والمؤتمنون: هم الكتاب.

(٣) الضمير للتجار وذوي الصناعات، أي أنّهم قوام لمن قبلهم بسبب المرافق، أي المنافع التي يجتمعون لأجلها، ولها يقيمون الأسواق ويكفون سائر الطبقات من الترفق أي التكسب بأيديهم ما لا يبلغه كسب غيرهم من سائر الطبقات.

(٤) رفدهم: مساعدتهم وصلتهم.

يُصْلِحُهُ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذلِكَ إِلاَّ بِالاهْتِمَامِ وَالاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِي مَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ، فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً[١]، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً مِمَّنْ يُبْطِيءُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الأَقْوِيَاءِ[٢]، وَمِمَّنْ لاَ يُثِيرُهُ الْعُنْفُ وَلاَ يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ أَلْصِقْ بِذَوِي الأَحْسَابِ[٣]، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ، وَالسَّمَاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ، ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلاَ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ[٤]، وَلاَ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ[٥]، وَإِنْ قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ، وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ

---

(١) جيب القميص: طوقه، ويقال نقي الجيب أي طاهر الصدر والقلب. والحلم: العقل.

(٢) ينبو: يشتد ويعلو عليهم ليكف أيديهم عن ظلم الضعفاء.

(٣) ثم ألصق الخ تبيين للقبيل الذي يؤخذ منه الجند ويكون منه رؤساؤه وشرح لأوصافهم. وجماع من الكرم: مجموع منه. وشعب ـ بضم ففتح ـ: جمع شعبة. والعرف: المعروف.

(٤) تفاقم الأمر: عظم أي لا تعدّ شيئاً قويتهم به غاية في العظم زائداً عمّا يستحقون، فكل شيء قويتهم به واجب عليك إتيانه وهم مستحقون لنيله.

(٥) أي لا تعدّ شيئاً من تلطفك معهم حقيراً فتتركه لحقارته، بل كل تلطف وإن قلّ فله موقع من قلوبهم.

لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ[١] مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ، وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ، مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ[٢] يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاَةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلاَدِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ، وَإِنَّهُ لاَ تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ، وَلاَ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاَّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلاَةِ أُمُورِهِمْ[٣]، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلاَءِ مِنْهُمْ[٤]، فَإِنَّ كَثْرَةَ

---

(١) آثر: أي أفضل وأعلى منزلة، فليكن أفضل رؤساء الجند من **واسى** الجند أي ساعدهم بمعونته لهم. وأفضل عليهم أي أفاض وجاد من جدته. والجدة ـ بكسر ففتح ـ : الغنى، والمراد ما بيده من أرزاق الجند وما سلم إليه من وظائف المجاهدين لا يقتر عليهم في الفرض ولا ينقصهم شيئاً مما فرض لهم، بل يجعل العطاء شاملاً لمن تركوهم في الديار. من **خلوف** الأهلين: جمع خلف ـ بفتح فسكون ـ من يبقى في الحي من النساء والعجزة بعد سفر الرجال.

(٢) عليهم أي على الرؤساء.

(٣) حيطة ـ بكسر الحاء ـ : من مصادر حاطه بمعنى حفظه وصانه، أي بمحافظتهم على ولاة أمورهم وحرصهم على بقائهم، وأن لا يستثقلوا دولتهم ولا يستبطئوا انقطاع مدتهم، بل يعدون زمنهم قصيراً يطلبون طوله.

(٤) ما صنع أهل الأعمال العظيمة منهم، فتعديد ذلك. يهز الشجاع: أي يحركه للإقدام، ويحرض الناكل أي المتأخر القاعد.

الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللَّه، ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلاَ تُضِيفَنَّ بَلاَءَ امْرِىءٍ إِلَى غَيْرِهِ[١]، وَلاَ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلائِهِ، وَلاَ يَدْعُونَّكَ شَرَفُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلاَ ضَعَةُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ عَظِيماً.

وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ[٢]، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٣].

فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ: الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ[٤]، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ[٥].

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ: أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ[٦] فِي نَفْسِكَ،

---

(١) لا تنسبن عمل امرىء إلى غيره، ولا تقصر به في الجزاء دون ما يبلغ منتهى عمله الجميل.
(٢) ضلع فلاناً ـ كمنع ـ : ضربه في ضلعه. والمراد ما يشكل عليك.
(٣) سورة النِّساء: ٥٩.
(٤) محكم الكتاب: نصّه الصريح.
(٥) سنّة الرسول كلّها جامعة ولكن رويت عنه سنن افترقت بها الآراء، فإذا أخذت فخذ بما أجمع عليه مما لا يختلف في نسبته إليه.
(٦) ثم اختر الخ انتقال من الكلام في الجند إلى الكلام في القضاة.

مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلاَ تُمْحِكُهُ الْخُصُومُ[١]، وَلاَ يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ وَلاَ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ[٢]، وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ[٣]، وَلاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ[٤]، وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ[٥]، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ[٦]، وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولئِكَ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ[٧]، وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ[٨]، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ،

---

(١) أمحكه جعله محكان: أي عسر الخلق، أو أغضبه أي لا تحمله مخاصمة الخصوم على اللجاج والإصرار على رأيه. والزلّة ـ بالفتح ـ : السقطة في الخطأ.

(٢) حصر ـ كفرح ـ : ضاق صدره، أي لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق.

(٣) الإشراف على الشيء: الاطّلاع عليه من فوق. فالطمع من سافلات الأمور، من نظر إليه، وهو في أعلى منزلة النزاهة، لحقته وصمة النقيصة، فما ظنّك بمن هبط إليه وتناوله!.

(٤) لا يكتفي في الحكم بما يبدو له بأول فهم، وأقرّ به، دون أن يأتي على أقصى الفهم بعد التأمل.

(٥) هذا وما بعده اتّباع لأفضل رعيتك. والشبهات: ما لا يتضح الحكم فيها بالنص، فينبغي الوقوف على القضاء حتى يرد الحادثة إلى أصل صحيح. **والتبرم**: الملل والضجر. وأصرمهم: أقطعهم للخصومة.

(٦) لا يزدهيه: لا يستخفه زيادة الثناء عليه.

(٧) تعاهده: تتبعه بالاستكشاف والتعرّف وضمير قضائه لأفضل الرعية الموصوف بالأوصاف السابقة.

(٨) البذل: العطاء أي أوسع له حتى يكون ما يأخذه. كافياً لمعيشة مثله وحفظ منزلته.

وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ، مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ[١]، لِيَأْمَنَ بِذلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ، فَانْظُرْ فِي ذلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ: فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَاراً[٢]، وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلاَمِ[٣] الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاَقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً، ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ[٤] فَإِنَّ ذلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ[٥]، ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ[٦]،

---

(١) إذا رفعت منزلته عندك هابته الخاصة كما تهابه العامة فلا يجرؤ أحد على الوشاية به عندك، خوفاً منك، وإجلالاً لمن أجللته.

(٢) ولّهم الأعمال بالامتحان لا محاباة أي اختصاصاً وميلاً منك لمعاونتهم. وأثرة ـ بالتحريك ـ أي استبداداً بلا مشورة، فإنّهما ـ أي المحاباة والأثرة ـ يجمعان الجور والخيانة.

(٣) توخ: أي اطلب وتحر أهل التجربة الخ. والقدم ـ بالتحريك ـ: واحدة الأقدام، أي الخطوة السابقة. وأهلها هم الأولون.

(٤) أسبغ عليه الرزق: أكمله وأوسع له فيه.

(٥) نقضوا في أدائها أو خانوا.

(٦) العيون: الرقباء.

فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لأُمُورِهِمْ، حَدْوَةٌ لَهُمْ[١] عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ، اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ[٢]، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ: بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاَحِهِ وَصَلاَحِهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلاَ صَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ، لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلاَبِ الْخَرَاجِ، لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ: وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً، فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً[٣]، أَوْ عِلَّةً، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ، أَوْ بَالَّةٍ، أَوْ إِحَالَةَ

---

(١) حدوة: أي سوق لهم وحثّ.

(٢) اجتمعت الخ أي اتفقت عليها أخبار الرقباء.

(٣) إذا شكوا ثقل المضروب من مال الخراج، أو نزول علّة سماوية بزرعهم أضرت بثمراته، أو انقطاع شِرب بالكسر: أي ماء في بلاد تُسقى بالأنهار، أو انقطاع بالة أي ما يَبل الأرض من ندى ومطر فيما يُسقى بالمطر، أو إحالة أرض بكسر وهمزة إحالة أي تحويلها البذر إلى فساد بالتعفن، لما اغتمرها أي عمّها من الغرق فصارت غمقة ـ كفرحة ـ أي غلب عليها الندى والرطوبة حتى صار البذر فيها غمقاً ـ ككتف ـ أي له رائحة خمة وفساد، ونقصت لذلك غلاتهم. أو أجحف العطش أي ذهب بمادة الغذاء من الأرض فلم تنبت، فعليك عند الشكوى أن تخفف عنهم.

أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلاَ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلاَدِكَ، وَتَزْيِينِ وِلاَيَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ(١)، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ(٢)، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ. فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ، مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ، احْتَمَلُوهُ طِيبَةَ أَنْفُسِهِمْ بِهِ(٣)، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاَةِ عَلَى الْجَمْعِ(٤)، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ(٥): فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ، بِأَجْمَعِهِمْ

---

(١) التبجح: السرور بما يرى من حُسن عمله في العدل.

(٢) أي متخذاً زيادة قوتهم عماداً لك تستند إليه عند الحاجة، وأنّهم يكونون سنداً بما ذخرت عندهم من إجمامك أي إراحتك لهم. والثقة منصوب بالعطف على فضل.

(٣) طيبة ـ بكسر الطاء ـ مصدر طاب وهو علّة لاحتملوه أي لطيب أنفسهم باحتماله، فإنّ العمران ما دام قائماً ونامياً فكل ما حملت أهله سهل عليهم أن يحتملوا، والإعواز الفقر والحاجة.

(٤) لتطلع أنفسهم إلى جمع المال إدخاراً لما بعد زمن الولاية إذا عزلوا.

(٥) ثم انظر الخ انتقال من الكلام في أهل الخراج إلى الكلام في الكتاب جمع كاتب.

لِوُجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلاَقِ[١]، مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِىءَ بِهَا عَلَيْكَ، فِي خِلاَفٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلأٍ، وَلاَ تَقْصُرْ بِهِ الْغَفْلَةُ[٢] عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلاَ يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلاَ يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ[٣]، وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ، ثُمَّ لاَ يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ[٤] وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ، وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ[٥]، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ وَلكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وَلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ

---

(١) بأجمعهم متعلق باخصص، أي ما يكون من رسائلك حاوياً لشيء من المكائد للأعداء وما يشبه ذلك من أسرارك فاخصصه بمن فاق غيره في جميع الأخلاق الصالحة. ولا تبطره أي لا تطغيه الكرامة فيجرؤ على مخالفتك في حضور ملأ وجماعة من الناس فيضرّ ذلك بمنزلتك منهم.

(٢) لا تكون غفلته موجبة لتقصيره في اطّلاعك على ما يرد من أعمالك، ولا في إصدار الأجوبة عنه على وجه الصواب، بل يكون من النباهة والحذق بحيث لا يفوته شيء من ذلك.

(٣) أي يكون خبيراً بطرق المعاملات بحيث إذا عقد لك عقداً في أي نوع منها لا يكون ضعيفاً، بل يكون محكماً جزيل الفائدة لك، وإذا وقعت مع أحد في عقد كان ضرره عليك لا يعجز عن حلّ ذلك العقد.

(٤) الفراسة ـ بالكسر ـ: قوة الظن وحسن النظر في الأمور: والاستنامة: السكون والثقة، أي لا يكون انتخاب الكتاب تابعاً لميلك الخاص.

(٥) يتعرفون للفراسات أي يتوسلون إليها لتعرفهم.

وَلِمَنْ وَلِيتَ أَمْرَهُ، وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ[١]، لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلاَ يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ[٢].

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ[٣]: وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً: الْمُقِيمِ مِنْهُمْ، وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ[٤]، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَجُلاَّبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لاَ يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا[٥]، وَلاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاَ تُخَافُ بَائِقَتُهُ[٦]، وَصُلْحٌ لاَ تُخْشَى غَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلاَدِكَ، وَاعْلَمْ مَعَ ذلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً[٧]، وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي

---

(١) أي اجعل لرئاسة كل دائرة من دوائر الأعمال رئيساً من الكتاب مقتدراً على ضبطها، لا يقهره عظيم تلك الأعمال ولا يخرج عن ضبطه كثيرها.
(٢) إذا تغابيت: أي تغافلت عن عيب في كتابك كان ذلك العيب لاصقاً بك.
(٣) ثم استوص، انتقال من الكلام في الكتاب إلى الكلام في التجار والصنّاع.
(٤) المتردد بأمواله بين البلدان. والمترفق: المكتسب. والمرافق تقدم تفسيرها بالمنافع وحقيقتها ـ وهي المراد هنا ـ: ما به يتم الانتفاع كالآنية والأدوات وما يشبه ذلك.
(٥) أي ويجلبونها من أمكنة بحيث لا يمكن التئام الناس واجتماعهم في مواضع تلك المرافق من تلك الأمكنة.
(٦) فإنّهم: علّة لاستوص وأوص. والبائقة: الداهية. والتجار والصنّاع مسالمون لا تخشى منهم داهية العصيان.
(٧) الضيق: عسر المعاملة. والشحّ: البخل. والاحتكار: حبس المطعوم ونحوه عن الناس لا يسمحون به إلَّا بأثمان فاحشة.

الْبِيَاعَاتِ، وَذلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاَةِ، فَامْنَعْ مِنَ الْإِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنَعَ مِنْهُ، وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً، بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لاَ تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ[١]، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً، بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ[٢]، فَنَكِّلْ بِهِ، وَعَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ. ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى: مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ، وَالْمَسَاكِينِ، وَالْمُحْتَاجِينَ، وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى[٣]، فَإِنَّ فِي هذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً[٤]، وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي الْإِسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ[٥]، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ، فَلاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ[٦]، فَإِنَّكَ لاَ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ[٧] لِإِحْكَامِكَ، الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ، فَلاَ

---

(١) المبتاع: المشتري.

(٢) قارف أي خالط. والحكرة ـ بالضم ـ: الاحتكار، فمن أتى عمل الاحتكار بعد النهي عنه فنكل به، أي أوقع به النكال والعذاب عقوبة له لكن من غير إسراف في العقوبة ولا تجاوز عن حدّ العدل فيها.

(٣) البؤسى ـ بضم أوله ـ: شدّة الفقر. والزمنى ـ بفتح أوله: جمع زمن وهو المصاب بالزمانة بفتح الزاي أي العاهة، يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب.

(٤) القانع: السائل من قنع كمنع أي سأل وخضع وذل. وقد تبدل القاف كافاً فيُقال كنع. والمعتر ـ بتشديد الراء ـ: المتعرض للعطاء بلا سؤال. واستحفظك: طلب منك حفظه.

(٥) صوافي الإسلام: جمع صافية وهي أرض الغنيمة. وغلاتها: ثمراتها.

(٦) طغيان بالنعمة.

(٧) التافه: القليل لا تعذر بتضييعه إذا أحكمت وأتقنت الكثير المهم.

تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ[١]، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ[٢]، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لأُولئِكَ ثِقَتَكَ[٣]، مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ[٤]، فَإِنَّ هؤُلاَءِ مِنْ بَينِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ، وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ[٥] وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لاَ حِيلَةَ لَهُ، وَلاَ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ.

وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً[٦] تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ[٧]، مِنْ أَحْرَاسِكَ

---

(١) لا تشخص: أي لا تصرف همك أي اهتمامك عن ملاحظة شؤونهم. وصعّر خدّه: أماله إعجاباً وكبراً.

(٢) تقتحمه العين: تكره أن تنظر إليه احتقاراً.

(٣) فرغ أي اجعل للبحث عنهم أشخاصاً يتفرغون لمعرفة أحوالهم يكونون ممن تثق بهم، يخافون الله ويتواضعون لعظمته، لا يأنفون من تعرف حال الفقراء ليرفعوها إليك.

(٤) بالإعذار إلى الله أي بما يقدم لك عذراً عنده.

(٥) الأيتام. وذوو الرقة في السن: المتقدمون فيه.

(٦) لذوي الحاجات أي المتظلمين تفرغ لهم فيه بشخصك للنظر في مظالمهم.

(٧) تأمر بأن يقعد عنهم ولا يتعرض لهم جندك الخ. والأحراس: جمع حرس ـ بالتحريك ـ من يحرس الحاكم من وصول المكروه. والشرط ـ بضم ففتح ـ: طائفة من أعوان الحاكم، وهم المعروفون الآن بالضابطة، واحدة شرطة بضم فسكون.

وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ[١]، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ[٢]: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ[٣] لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ». ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ[٤]، وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَالأَنَفَ[٥]، يَبْسُطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً[٦]، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ، ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا، مِنْهَا: إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ[٧]، وَمِنْهَا: إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ[٨]، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِي مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ

---

(١) التعتعة في الكلام: التردد فيه من عجز أو عي، والمراد غير خائف، تعبيراً باللازم.
(٢) أي في مواطن كثيرة.
(٣) التقديس: التطهير أي لا يطهر الله أمة الخ.
(٤) الخرق ـ بالضم ـ: العنف ضد الرفق. والعي ـ بالكسر ـ: العجز عن النطق، أي لا تضجر من هذا ولا تغضب لذاك.
(٥) الضيق: ضيق الصدر بسوء الخلق. والأنف ـ محركة ـ: الاستنكاف والاستكبار. وأكناف الرحمة: أطرافها.
(٦) سهلاً لا تخشنه باستكثاره والمنّ به، وإذا منعت فامنع بلطف وتقديم عذر.
(٧) يعيا: يعجز.
(٨) حرج يحرج ـ من باب تعب ـ: ضاق. والأعوان تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات ويحبون المماطلة في قضائها استجلاباً للمنفعة أو إظهاراً للجبروت.

الْأَقْسَامِ[١]، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ: الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذلِكَ، كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ، وَلاَ مَنْقُوصٍ[٢]، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ، وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلاَ مُضَيِّعاً[٣]، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ فَقَالَ: «صلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً».

وَأَمَّا بَعْدُ فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ، وَالْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ،

---

(١) أجزلها: أعظمها.

(٢) غير مثلوم: أي غير مخدوش بشيء من التقصير ولا مخروق بالرياء. وبالغاً حال بعد الأحوال السابقة، أي وإن بلغ من إتعاب بدنك أي مبلغ.

(٣) التنفير بالتطويل، والتضييع بالنقص في الأركان، والمطلوب التوسط.

وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ[١] تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ[٢] مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلَىً بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ[٣]، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لاَ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ[٤]، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ[٥]، وَلاَ تَقْطَعَنَّ لأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً[٦]، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا

(١) سمات: جمع سمة ـ بكسر ففتح ـ العلامة، أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميز بها الصدق من الكذب، وإنّما يعرف ذلك بالامتحان، ولا يكون إلّا بالمحافظة.

(٢) فلأي سبب تحتجب عن الناس في أداء حقّهم أو في عمل تمنحه إيّاهم.

(٣) البذل: العطاء، فإن قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا إلى البُعد عنك فلا حاجة للاحتجاب.

(٤) شكاة ـبالفتح ـ: شكاية.

(٥) فاحسم: أي إقطع مادة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعديهم، وإنّما يكون بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرّف في شؤون العامة.

(٦) الإقطاع: المنحة من الأرض. والقطيعة الممنوح منها. والحامة ـ كالطامة ـ: الخاصة والقرابة. والاعتقاد: الامتلاك والعقدة ـ بالضم ـ: الضيعة. واعتقاد الضيعة: اقتناؤها. وإذا اقتنوا ضيعة فربما أضرّوا بمن يليها أي يقرب منها من الناس في شِرب بالكسر: وهو النصيب في الماء.

مِنَ النَّاسِ فِي شِرْبٍ، أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ[١]، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ[٢].

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَأَعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ[٣]، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَلِلَّهِ فِيهِ رِضىً، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ[٤]، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْناً لِبِلاَدِكَ، وَلكِنَّ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ[٥]، فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ فِي ذلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ،

---

(١) مهنؤه: منفعته الهنيئة.

(٢) المغبة ـ كمحبة ـ: العاقبة. وإلزام الحق لمن لزمهم وإن ثقل على الوالي وعليهم فهو محمود العاقبة بحفظ الدولة في الدنيا ونيل السعادة في الآخرة.

(٣) وإن فعلت فعلاً ظننت الرعية أنَّ فيه حيفاً أي ظلماً فأصحر أي أبرز لهم وبين عذرك فيه. وعدل عنه كذا: نحاه عنه. والإصحار: الظهور، من أصحر إذا برز في الصحراء. ورياضة: تعويداً لنفسك على العدل. والإعذار: تقديم العذر أو إبداؤه.

(٤) الدعة ـ محركة ـ: الراحة.

(٥) قارب: أي تقرّب منك بالصلح ليلقي عليك غفلة عنه فيغدرك فيها.

وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً[١] فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ[٢] فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ، النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً، مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ[٣]، وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ[٤] لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ[٥]، فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلاَ تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ[٦]، وَلاَ تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِىءُ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً، أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ[٧]، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ،

---

(١) أصل معنى الذمة وجدان مودع في جبلة الإنسان ينبهه لرعاية حق ذوي الحقوق عليه، ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها، ثم أطلقت على معنى العهد. وجعل العهد لباساً لمشابهته له في الوقاية من الضرر. وحاطه: حفظه.

(٢) الجُنَّة ـ بالضم ـ: الوقاية أي حافظ على ما أعطيت من العهد بروحك.

(٣) الناس مبتدأ وأشدّ من اجتماعهم على تعظيم الوفاء بالعهود مع تفرّق أهوائهم وتشتت آرائهم، حتى إنَّ المشركين التزموا الوفاء فيما بينهم فأولى أن يلتزمه المسلمون.

(٤) أي حال كونهم دون المسلمين في الأخلاق والعقائد.

(٥) لأنّهم وجدوا عواقب الغدر وبيلة أي مهلكة، وما والفعل بعدها في تأويل مصدر، أي استيبالهم.

(٦) خاس بعهده: خانه ونقضه. والختل: الخداع.

(٧) الأمن: الأمان. وأفضاه هنا بمعنى أفشاه، وأصله المزيد، من فضا فضواً من باب قعد أي اتّسع، فالرباعي بمعنى وسعه، والسعة مجازية يُراد بها الإفشاء والانتشار. والحريم ما حرّم عليك أن تمسّه. والمنعة ـ بالتحريك ـ: ما تمتنع به من القوة.

وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ(١)، فَلاَ إِدْغَالَ، وَلاَ مُدَالَسَةَ(٢)، وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ، وَلاَ تَعْقِدْ عَقْداً تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلُ(٣)، وَلاَ تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ، وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ فِيهِ طِلْبَةٌ(٤)، فَلاَ تَسْتَقْبِلَ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ.

إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ، وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمةٍ، وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي مَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ

---

(١) يستفيضون أي يفزعون إليه بسرعة.

(٢) الإدغال: الإفساد. والمدالسة: الخيانة.

(٣) العلل: جمع علّة وهي في العقد والكلام بمعنى ما يصرفه عن وجهه، ويحوله إلى غير المراد، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته، ولحن القول ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض، فإذا تعلل بهذا المعاقد لك وطلب شيئاً لا يوافق ما أكدته، وأخذت عليه الميثاق فلا تعول عليه، وكذلك لو رأيت ثقلاً من التزام العهد فلا تركن إلى لحن القول لتتملص منه، فخذ بأصرح الوجوه لك وعليك.

(٤) وأن تحيط: عطف على تبعة، أي وتخاف أن تتوجه عليك من الله مطالبة بحقه في الوفاء الذي غدرته، ويأخذ الطلب بجميع أطرافك، فلا يمكنك التخلّص منه، ويصعب عليك أن تسأل الله أن يقيلك من هذه المطالبة بعفو عنك في دنيا أو آخرة بعدما تجرّأت على عهده بالنقض.

سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوْهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلاَ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ لأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ[١]، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ[٢]، أَوْ سَيْفُكَ، أَوْ يَدُكَ، بِعُقُوبَةٍ فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ[٣]، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِي مَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ[٤] أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ

---

(١) القود ـ بالتحريك ـ: القصاص. وإضافته للبدن لأنّه يقع عليه.

(٢) أفرط عليك: عجل بما لم تكن تريده. أردت تأديباً فأعقب قتلاً. وقوله فإنّ في الوكزة تعليل لأفرط. والوكزة ـ بفتح فسكون ـ: الضربة بجمع الكف ـ بضم الجيم ـ أي قبضته، وهي المعروفة باللكمة. وقوله فلا تطمحن: أي لا يترفعن بك كبرياء السلطان عن تأدية الدية إليهم في القتل الخطأ: جواب الشرط.

(٣) الإطراء: المبالغة في الثناء. والفرصة ـ بالضم ـ: حادث يمكنك لو سعيت من الوصول لمقصدك. والعجب في الإنسان من أشدّ الفرص لتمكين الشيطان من قصده، وهو محق الإحسان بما يتبعه من الغرور والتعالي بالفعل على مَن وصل إليه أثره.

(٤) التزيد ـ كالتقيد ـ: إظهار الزيادة في الأعمال عن الواقع منها في معرض الافتخار.

الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ[١]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢].

وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا[٣]، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ[٤]، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإِيَّاكَ وَالْإِسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ[٥]، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ، أَمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ[٦]، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ[٧]، وَتَأْخِيرِ

---

(١) المقت: البغض والسخط.

(٢) سورة الصَّف: ٣.

(٣) التسقّط: من قولهم تسقّط في الخبر يتسقّط إذا أخذه قليلاً قليلاً، يريد به هنا التهاون. وفي نسخة التساقط ـ بمد السين ـ من ساقط الفرس في عدوه إذا جاء مسترخياً.

(٤) تنكرت لم يعرف وجه الصواب فيها. واللجاجة: الإصرار على منازعة الأمر ليتم على عسر فيه. والوهن: الضعف.

(٥) إحذر أن تخصّ نفسك بشيء تزيد به عن الناس وهو مما تجب فيه المساواة من الحقوق العامة. والتغابي: التغافل. وما يعني به مبني للمجهول أي يهتم به.

(٦) يُقال فلان حي الأنف إذا كان أبياً يأنف الضيم، أي أُملُكْ نفسك عند الغضب. والسَّورة ـ بفتح السين وسكون الواو ـ: الحدة والحد ـ بالفتح ـ: البأس، والغرب ـ بفتح فسكون ـ: الحد، تشبيهاً له بحدّ السيف ونحوه.

(٧) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب من سباب ونحوه. وإطلاق اللسان يزيد الغضب اتّقاداً والسكوت يطفيء من لهبه.

السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الْإِخْتِيَارَ، وَلَنْ تُحْكِمَ ذلِكَ مِنْ نَفْسِكَ، حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكومَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَهُ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا[١]، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هذَا وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ[٢]، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ[٣]، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلاَدِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ[٤]، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً، وَالسَّلاَمُ[٥].

---

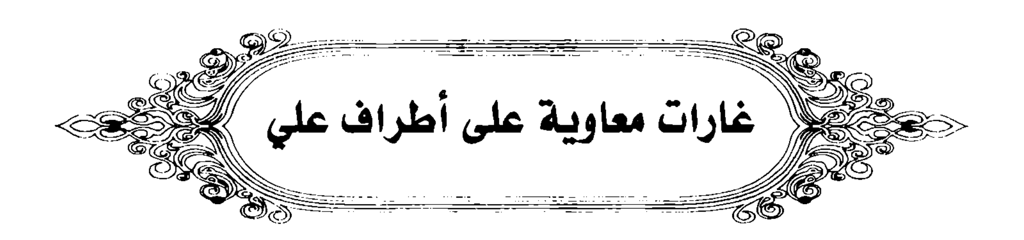
(١) ضمير فيها يعود إلى جميع ما تقدم، أي تذكر كل ذلك واعمل فيه مثل ما رأيتنا نعمل، واحذر التأويل حسب الهوى.

(٢) على متعلقة بقدرة.

(٣) يريد من العذر الواضح العدل، فإنّه عذر لك عند من قضيت عليه، وعذر عند الله فيمن أجريت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة.

(٤) أي زيادة الكرامة أضعافاً.

(٥) نهج البلاغة، ج٣، ص٥٧١.



غارات معاوية على أطراف علي

وتفرَّق العراقيون عن علي، وفرّوا عن لواء النَّبي، فرار الخفافيش من ضوء النهار، فُرارٌ غير كُرار، رغبة بأنفسهم عن نفسه، مُنهزمين مُعذِّرين، كرهوا الجهاد والاستشهاد، وخلدوا إلى الراحة والدعة، فأغمدوا سيوفهم ورماحهم، وأقفلوا على سهامهم وخناجرهم، فأخمدوا نار ثورتهم، وأطفأوا مصابيح جهادهم، وقد كفروا بها، وكفرت بهم، وتنكروا لها، وتنكرت لهم، فقامت تهتف بقومٍ آخرين، لهم قلوب غير قلوبهم، وقبضات غير قبضاتهم، وجهاد غير جهادهم، يُشد بهم أزر علي، في جهاد أئمَّة الكفر، ودعاة البغي، الذين لا يقيمون لله وزناً، ولا يرجون لله وقاراً.

وكُلَّما قام ولي الله، يُحرِّضهم على القتال، ويُحذِّرهم غزو عدوّهم، وانتقاص أطرافهم، ويُذكِّرهم بأصالة العرب النجداء، المجداء من أهل الكفاح والنضال، بذلة الأنفس والمهج، ذوداً عن القيم والوطن، وحفظاً للمال والولد، وصوناً للأرض والعرضِ، رموه بأبصارهم، ولووا رؤوسهم، ووضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم لمكر السيىء، وقالوا:

قلوبنا في أكنةٍ من دعائك، وفي آذاننا وقرٌ عن ندائك، ومن

بيننا وبينك حجاب، فاذهب إلى حرب عدوّك وحدك، إنَّنا هاهنا قاعدون، وسواء علينا أوعظت، أم لم تكن من الواعظين.

ذلك ومضوا في نفاقهم وشقاقهم، يتقلبون على شناشنهم وديادنهم، جفاة طغام، معارضين معاندين، مكابدين مكايدين.

هذا ومنهم من يتسلَّل، لواذاً إلى معاوية بن أبي سفيان، هرباً من عدل عليّ، تحت جناح الخيانة والعهر، فإذا بهم قد شحنوا صدر علي غيظاً، وملأوا قلبه الكبير قيحاً، وجرَّعوه الجرض والغصص، فأفسدوا عليه رأيه، بعصيانهم وخذلانهم، ولم يرعوا الله ورسوله في طاعته ونصرته.

وعاود عليهم علي: فقام يُنهضهم فلا ينهضون، ويغضبهم فلا يغضبون، ويستصرخهم فلا يُصْرِخون، فقال لهم، وهو لسان الأنبياء والمرسلين، الذين تواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر: أُفٍ لكم، ما لي أُداويكم وأنتم دائي، فمرَّة أُناجيكم ومرَّة أُناديكم، أُداريكم كما تُدارى الثياب المتهتكة، كُلَّما حيصت من جانب، تهتكت من جانب.

لقد مللت خطابكم، وسئمت عتابكم، أي دار بعد داركم تمنعون، ومع أيِّ إمام بعدي تقاتلون، المغرور والله من غررتموه، وددت أنَّ لي بكم، بكُلِّ ثمانية رجلاً من أهل الشام.

اللَّهمَّ مُث قلوبهم، مثلما يُماث الملح في الماء.

وعلم معاوية وأيقن بخلافهم على عليّ، وبقعودهم عن جهاد عدوّه، ففرق جيوشه على أطراف عليّ، فكان أفجر وأشرس قادته

بسر بن أبي أرطأة لعنه الله، لقد اجتاح أصل الإسلام ومبعثه المدينة المنورة، دار هجرة النبي ومرقده، ومكَّة المكرَّمة مربض البيت والحرم، مقام إبراهيم، ومولد محمَّد صلى الله عليه وآله، ثم اليمن، فأباح الحرمات، وسفك الدماء، وسلب الأموال، وذبَّح الأطفال، كُلُّ ذلك في طاعة معاوية، إطفاءً لنائرته، وإشباعاً لغريزته، رادّاً على الله قوله لنبيّه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1].

وأُنبىء علي خبر بسر، فغضب لله ولحرمة المسلمين، ونادى بالصلاة في الناس جامعة، فحشر إليه الناس، فقام على المنبر، يخطبهم أمر بسر، وما قد فعله بسر، وندبهم لحربه، فسكتوا مليّاً، فقال عليه السلام: **مَا بَالُكُمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟**

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ.

فَقَالَ عليه السلام: **مَا بَالُكُمْ لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ، وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ، أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟**

وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا، رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ، وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ، وَالْمِصْرَ، وَبَيْتَ الْمَالِ، وَجِبَايَةَ الْخَرَاجِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ، وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ، اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا.

هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوءُ.

وَاللَّهِ لَوْلَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ، لَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ، لَقَرَّبْتُ رِكَابِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ، مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ. طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ. إِنَّهُ لَا غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ[١].

قال ابن أبي الحديد: وهذا كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام، في بعض غارات أهل الشام على أطراف العراق، عند انقضاء أمر صفّين والنّهروان.

قوله: «مليّاً» أي ساعة طويلة.

وقوله عليه السلام: «لا سددتم» بالتخفيف والتشديد دعاء عليهم بعدم السداد والاستقامة لما فيه رشدهم وصلاحهم.

والقصد من الأمور المعتدل الذي لا يميل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط.

والشّجعاء جمع شجيع.

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص٢٥٨.

وفي بعض النسخ «شجعانكم» وهو بالضمّ والكسر جمع شجاع.

والبأس الشجاعة.

والكتيبة القطعة العظيمة من الجيش.

والتقلقل التحرّك.

والقدح بالكسر السهم.

والجفير الكنانة.

وقيل: وعاء السهام أوسع من الكنانة.

والغرض من هذا التشبيه، في اضطراب الحال والانفصال عن الجنود والأعوان، بالقدح الذي لا يكون حوله قداح تمنعه من التقلقل ولا يستقرّ في مكانه.

«واستحار مدارها» أي اضطرب.

والمدار هنا مصدر. كذا ذكره ابن أبي الحديد.

وقال الجوهري المستحير سحاب ثقيل متردِّد ليس له ريح تسوقه.

فالأنسب أن يكون كلامه عليه السلام كناية عن الوقوف عن الحركة.

والثفال الجلد الذي يوضع عليه الرحى ليسقط عليه الدقيق ويسمّى الحجر الأسفل من حجري الرحى أيضاً ثفالاً، ولعلّه أنسب.

قوله عليه السلام: **«لو قد حمّ لي»** على بناء المجهول أي قضي وقدّر. والركاب الإبل التي يسار عليها.

وشخوص المسافر خروجه.

والاختلاف التردُّد. ويحتمل أيضاً المخالفة.

والغناء بالفتح والمدّ النفع.

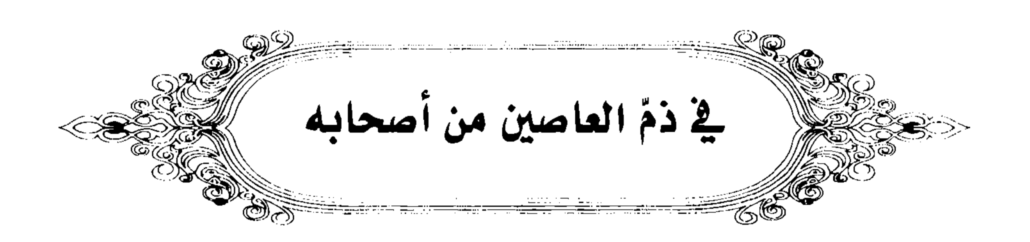
قوله عليه السلام: «لا يهلك عليها» أي كائناً عليها أو سببها.

والطريق يذكّر ويؤنّث.

وقوله: «من استقام» أي اعتزل ولزم الطريق الواضح.

«ومن زلّ» أي زلق وعدل عن الطريق.





في ذمّ العاصين من أصحابه

وقال عليه السلام: في نهج البلاغة: (ج٢، ص٣٦١):

أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ، إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ.

وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ.

لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَومِي - وَلَيَأْتِيَنِّي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ، فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضًى فَتَرْضَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ

عَلَيْهِ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ، وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ.

توضيح قوله عليه السلام: «**على ما قضى من أمر**» قيل: الأمر أعمّ من أن يكون فعلاً، ولمّا كان القدر هو تفصيل القضاء وإيجاد الأشياء على وفقه، قال: «وقدّر من فعل».

والابتلاء الامتحان.

وأمهله أي رفق به وأخّره.

وفي بعض النسخ: «إن أهملتم» أي تركتم.

«خضتم» أي في الضلالة والأهواء الباطلة.

و«خرتم» بالخاء من الخور بمعنى الضّعف. أو من خوار الثّور بمعنى الصياح.

ويروى: «جرتم» بالجيم، أي عدلتم عن الحقّ أو عن الحرب فراراً.

قوله عليه السلام: «أجئتم» قال ابن أبي الحديد: بالهمزة الساكنة بعد الجيم المكسورة، أي ألجئتم، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾.

وفي بعض النسخ: «أجبتم» على بناء المعلوم بالباء.

والمشاقّة المقاطعة والمصارمة.

والنكوص الرجوع إلى ما وراء. قوله عليه السلام: «لا أباً لغيركم».

قال ابن ميثم: أصله لا أب والألف مزيدة، إمّا لاستثقال

توالي أربع حركات، أو لأنّهم قصدوا الإضافة وأتوا باللّام للتأكيد.

وفي الدعاء: بالذلّ لغيرهم نوع تلطّف لهم.

قوله عليه السلام: «الموت أو الذّلّ» في أكثر النّسخ برفعهما، وفي بعضها بالنصب.

قال ابن أبي الحديد: وهذا دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين، كأنّه شرع داعياً عليهم بالفناء الكلّي وهو الموت، ثمّ استدرك فقال: أو الذلّ لأنّه نظير الموت، ولقد أجيب دعاؤه بالدعوة الثّانية، فإنّ شيعته ذلّوا بعده في الأيّام الأموية.

أقول: هذا على الرفع ظاهر، وأمّا على النّصب فيحتمل الدعاء أيضاً بتقدير أرجو أو أطلب، ويحتمل الاستفهام، أي أتنتظرون الموت.

وقيل في قوله عليه السلام: «وليأتينّي» حشوة لطيفة بين الكلام لأنّ لفظة «إن» أكثر ما تستعمل لما لا يعلم حصوله، فأتى بعدها بما يردّ ما تقتضيه من الشكّ في إتيان الموت، وأشعر بأنّ الموضع موضع «إذا».

والقالي المبغض.

قوله عليه السلام: «غير كثير» أي لستم سبب كثرة أعواني.

وقوله عليه السلام: «للّه أنتم» من قبيل لله أبوك.

ولعلّه هنا للتعجّب على سبيل الذمّ، ويحتمل المدح تلطّفاً.

وارتفاع قوله: «دين» بفعل مقدّر يفسّرها الفعل المذكور بعده.

وشحذت النصل حدَّدته.

والطغام أراذل الناس الواحد والجمع سواء.

ومعونة الجند شيء يسير من المال يعطيهم الوالي لترميم أسلحتهم وإصلاح دوابّهم سوى العطاء المفروض في كلّ شهر كما قيل.

ومنشأ تعجبه عليه السلام! أمور:

أحدها: أنّ الداعي لهم معاوية، ولهؤلاء أمير المؤمنين، وكيف يساوي عاقل بينهما.

وثانيها: أنّ المدعوّ هناك، الجفاة الطغام مع خلوّهم غالباً عن الحميّة والمروءة، وهاهنا أصحابه الذين هم تريكة الإسلام.

وثالثها: أنّ أصحاب معاوية يتّبعونه على غير معونة ولا عطاء، وأصحابه عليه السلام لا يجيبونه إلى المعونة والعطاء، فإنّ معاوية إنّما كان يعطي رؤساء القبائل الأموال الجليلة، ولا يعطي الجند على وجه العطاء والمعونة شيئاً، وهم كانوا يطيعون الرؤساء للحميّة أو العطايا من هؤلاء لهم. والتريكة بيضة النعامة تتركها في مجثمها، أي أنتم خلف الإسلام وبقيّته، كالبيضة التي تتركها النّعامة.

وقوله عليه السلام: «إلى المعونة» متعلّق بـ قوله: «أدعوكم»..

قوله عليه السلام: «لا يخرج إليكم» أي إنّكم لا تقبلون ممّا أقول لكم شيئاً، سواء كان ممّا يرضيكم أو ممّا يسخطكم. «وإلى» متعلّق بقوله: «أحبّ».

ودرس الكتاب كنصر وضرب أي قرأ فقوله: «دارستكم الكتاب» أي قرأته عليكم للتعليم، وقرأتم عليّ للتعلّم.

قوله عليه السلام: «وفاتحتكم» أي حاكمتكم بالمحاجّة والمجادلة.

وساغ الشّراب في الحلق أي دخل بسهولة.

ومججته من فمي أي رميت به أي بينت لكم الأمور الدينيّة ما كنتم تنكرونه بآرائكم، وأعطيتكم من العطايا ما كنتم محرومين منها.

وكلمة «لو» في قوله عليه السلام: «لو كان» للتمنّي أو الجزاء محذوف.

وقوله عليه السلام: «وأقرب بقوم» بصيغة التعجّب، أي ما أقربهم إلى الجهل.

وقوله عليه السلام: «قائدهم معاوية» صفة لقوم، فصل بين الصفة والموصوف بالجار والمجرور، وهو مجوّز. وورد مثله في الكلام المجيد.

❁ ❁ ❁

ولنذكر لك تفريق مناسر، وكتائب جيش معاوية، على شيعة علي في بلدانهم وأوطانهم، ممَّا قاله المؤرخون.

روى اليعقوبي في تاريخه: (ج٢، ص٩٦)، قال: ووجَّه معاويةُ النعمان بن بشير، فأغار على مالك بن كعب الأرحبيّ، وكان عامل عليّ على مسلحة عين التمر، فندب عليّ فقال:

يا أهل الكوفة، انتدبوا إلى أخيكم مالك بن كعب، فإنَّ النعمان بن بشير، قد نزل به في جمع ليس بكثير، لعلَّ الله أن يقطع

من الظالمين طرفاً، فأبطأوا ولم يخرجوا، فصعد عليّ المنبر، فتكلَّم كلاماً خفيّاً لا يُسمع، فظنَّ الناس أنَّه يدعو الله، ثم رفع صوته فقال:

أمَّا بعد: يا أهل الكوفة، أكُلَّما أقبل منسر[1] من مناسر أهل الشام، أغلق كُلّ امرئٍ بابه، وانجحر في بيته، انجحار الضبِّ، والضبع الذليل في وجاره.

أُفٍ لكم! لقد لقيت منكم يوماً أُناجيكم، ويوماً أُناديكم، فلا إخوان عند النجاء، ولا أحرار عند النداء.

فلما دخل بيته، قام عديّ بن حاتم فقال: هذا والله الخذلان القبيح، ثم دخل إليه فقال: يا أمير المؤمنين، معي ألف رجل من طيء لا يعصونني، وإن شئت أن أسير بهم سرت؟

فقال عليّ: جزاك الله خيراً يا أبا طريف، ما كنت لأعرض قبيلة واحدة لحدِّ أهل الشام، ولكن اخرج إلى النخيلة[2]، فخرج واتبعه الناس، فسار عديّ على شاطىء الفرات، فأغار على أدنى الشام.

وأغار الضحَّاك بن قيس على القُطْقُطانية، فبلغ عليّاً إقباله، وأنَّه قد قتل ابن عميش، فقام عليّ خطيباً فقال:

يا أهل الكوفة، اخرجوا إلى جيش لكم، قد أُصيب منه

(١) قطعة صغيرة من الجيش.
(٢) قرب الكوفة على طريق الشام.

طرف، وإلى الرجل الصالح ابن عُميش، فامنعوا حريمكم، وقاتلوا عدوّكم، فردّوا ردّاً ضعيفاً.

فقال: يا أهل العراق، وددت أنَّ لي بكم، بكُلّ ثمانية منكم رجلاً من أهل الشام، وويل لهم، قاتلوا مع تصبُّرهم على جورٍ، ويحكم اخرجوا معي، ثم فرُّوا عنِّي إن بدا لكم، فوالله إنِّي لأرجو شهادة، وإنَّها لتدور على رأسي، مع ما لي من الرُّوح العظيم في ترك مداراتكم، كما تُدارى البكار الغمرة، أو الثياب المتهتِّكة، كُلَّما حيصت من جانب تهتكت من جانب.

فقام إليه حجر بن عديّ الكنديّ فقال: يا أمير المؤمنين، لا قرَّب الله منِّي إلى الجنَّة، من لا يُحبّ قربك عليك بعادة الله عندك، فإنَّ الحق منصور، والشهادة أفضل الرياحين، اندب معي الناس المناصحين، وكن لي فئة بكفايتك، والله فئة الإنسان وأهله، إنَّ الشيطان لا يُفارق قلوب أكثر الناس، حتى تُفارق أرواحهم أبدانهم فتهلَّل، وأثنى على حجر جميلاً، وقال: لا حرمك الله الشهادة، فإنِّي أعلم أنَّك من رجالها.

وجلس عليّ في المسجد، فندب الناس، وانتدب أربعة آلاف، فسار بهم في طلب القوم، وأغذَّ المسير حتى لقيهم بتدمر من عمل حمص، فقاتلهم فهزمهم حتى انتهوا إلى الضحَّاك، وحجز بينهم اللَّيل، فأدلج الضحَّاك على وجهه منصرفاً، وشنّ حجر بن عديّ، ومن معه الغارة، في تلك البلاد يومين وليلتين.

ثمَّ أغار سفيان بن عوف على الأنبار، فقتل أشرس بن حسَّان

البكري، فأتبعه عليّ سعيد بن قيس، فلمَّا أحسَّ به انصرف مولياً، وتبعه سعيد إلى عانات فلم يلحقه.

وبعث معاوية عبد الله بن مسعدة بن حذيفة بن بدر الفزاريّ في جريدة خيل، وأمره أن يقصد المدينة ومكَّة، فسار في ألف وسبعمائة، فلمَّا أتى علياً الخبر، وجَّه المسيَّب بن نجبة الفزاريّ، فقال له: يا مسيَّب، إنَّك ممَّن أثق بصلاحه، وبأسه، ونصيحته، فتوجَّه إلى هؤلاء القوم وأثِّر فيهم، وإن كانوا قومك.

فقال له المسيَّب: يا أمير المؤمنين، إنَّ سعادتي أنْ كنت من ثقاتك، فخرج في ألفي رجل من همدان وطيء وغيرهم، وأغذّ السير، وقدَّم مُقدِّمته، فلقوا عبد الله بن مسعدة فقاتلوه، فلحقهم المسيَّب فقاتلهم، حتى أمكنه أخذ ابن مسعدة، فجعل يتحاماه، وانهزم ابن مسعدة، فتحصَّن بتيماء، وأحاط المسيَّب بالحصن، فحصر ابن مسعدة وأصحابه ثلاثاً فناداه:

يا مسيَّب إنَّمانحن قومك، فليمسك الرَّحم، فخلَّى لابن مسعدة وأصحابه الطريق، ونجا من الحصن.

فلمَّا جنَّهم اللَّيل، خرجوا من تحت ليلتهم، حتى لحقوا بالشام، وصبَّح المسيَّب الحصن، فلم يجد أحداً.

فقال عبد الرحمن بن شبيب: داهنت والله يا مسيَّب في أمرهم، وغششت أمير المؤمنين، وقدم على عليّ، فقال له عليّ: يا مسيَّب كنت من نُصَّاحي، ثم فعلت ما فعلت، فحبسه أيَّاماً ثم أطلقه.

ووجَّه معاوية بسر بن أبي أرطأة، وقيل: ابن أرطأة العامري، من بني عامر بن لؤيّ، في ثلاثة آلاف رجل، فقال له: سر حتى تمرُّ بالمدينة فاطرد أهلها، وأخف من مررت به، وانهب مال كل من أصبت له مالاً، ممَّن لم يكن دخل في طاعتنا، وأوهم أهل المدينة أنَّك تريد أنفسهم، وأنَّه لا براءة لهم عندك ولا عذر، وسرْ حتى تدخل مكَّة، ولا تعرض فيها لأحد، وأرهب الناس، فيما بين مكَّة والمدينة، واجعلهم شرادات، ثمَّ امضِ حتى تأتي صنعاء، فإنَّ لنا بها شيعة، وقد جاءني كتابهم، فخرج بسر، فجعل لا يمرَّ بحيّ من أحياء العرب، إلَّا فعل ما أمره معاوية، حتى قدم المدينة، وعليها أبو أيُّوب الأنصاريّ، فتنحَّى عن المدينة، ودخل بسر فصعد المنبر ثم قال:

يا أهل المدينة مثل السوء لكم ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[١].

ألا، وإنَّ الله قد أوقع بكم هذا المثل، وجعلكم أهله، شاهت الوجوه.

ثم ما زال يشتمهم حتى نزل.

قال: فانطلق جابر بن عبد الله الأنصاري إلى أُمّ سلمة زوج النبي فقال: إنِّي قد خشيت أن أُقتل، وهذه بيعة ضلال.

---

(١) سورة النحل: ١١٢.

قالت: إذاً فبايع، فإنَّ التقية حملت أصحاب الكهف على أن كانوا يلبسون الصلب، ويحضرون الأعياد مع قومهم.

وهدم بسر دوراً بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكَّة، ثم مضى حتى أتى اليمن، وكان على اليمن عبيد الله بن عباس عامل عليّ، وبلغ عليّاً الخبر، فقام خطيباً فقال:

أيُّها الناس إنَّ أول نقصكم، ذهاب أولي النُّهى والرأي منكم، الذين يُحدِّثون فيصدقون، ويقولون فيفعلون، وإنِّي قد دعوتكم عوداً، وبدأً، وسرّاً، وجهراً، وليلاً، ونهاراً، فما يزيدكم دعائي إلَّا فراراً، ما ينفعكم الموعظة ولا الدُّعاء إلى الهدى والحكمة، أما والله إنِّي لعالم بما يصلحكم، ولكن في ذلك فسادي، أمهلوني قليلاً، فوالله لقد جاءني من يحزنكم، ويُعذِّبكم، ويُعذِّبه الله بكم، إنَّ من ذُلِّ الإسلام وهلاك الدِّين، أنَّ ابن أبي سفيان، يدعو الأراذل والأشرار فيجيبون، وأدعوكم وأنتم لا تصلحون فتُراعون.

هذا بسر قد صار إلى اليمن، وقبلها إلى مكَّة والمدينة.

فقام جارية بن قدامة السعديّ فقال: يا أمير المؤمنين لا عدمنا الله قربك، ولا أرانا فراقك، فنعم الأدب أدبك، ونعم الإمام، والله أنت أنَا لهؤلاء القوم فسرِّحْني إليهم قال: تجهَّز، فإنَّك ما علمتك رجل في الشِّدَّة والرخاء المبارك الميمون النقيبة، ثمَّ قام وهب بن مسعود الخثعميّ فقال: أنا أنتدب يا أمير المؤمنين.

قال: انتدب بارك الله عليك.

فخرج جارية في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين، وأمرهما

عليّ أن يطلبا بسراً حيث كان حتى يلحقاه، فإذا اجتمعا، فرأس الناس جارية، فخرج جارية من البصرة، ووهب من مكّة، حتى التقيا بأرض الحجاز، ونفذ بسر من الطائف، حتى قدم اليمن، وقد تنحّى عبيد الله بن عباس عن اليمن، واستخلف بها عبد الله بن عبد المُدان الحارثي.

فأتاه بسر فقتله، وقتل ابنه مالك بن عبد الله، وقد كان عبيد الله خلّف ابنيه عبد الرحمن، وقثم عند جويرية ابنة قارظ الكنانيّة وهي أُمّهما، وخلّف معها رجلاً من كنانة.

فلما انتهى بسر إليها، دعا ابني عبيد الله ليقتلهما، فقام الكنانيّ فانتضى سيفه وقال: والله لأُقتلنَّ دونهما، فألاقي عذراً لي عند الله والناس، فضارب بسيفه حتى قُتل، وخرجت نسوة من بني كنانة، فقلن: يا بسر الرجال يقتلون، فما بال الولدان، والله ما كانت الجاهلية تقتلهم، والله إنَّ سلطاناً لا يشتدّ إلّا بقتل الصبيان، ورفع الرحمة لسلطان سوء.

فقال بسر: والله لقد هممتُ أن أضعَ فيكنَّ السيف، وقدَّمَ الطفلين فذبحهما.

فقالت أُمّهما ترثيهما، فتقول:

[البسيط]

ها منْ أحسَّ بُنيَّ اللّذيْنِ هُما ... سمعي وقلْبي فقلبي اليوم مُختطفُ

ها من أحسَّ بُنيَّيَّ اللّذيْنِ هما ... مُخُّ العظام فمخي اليوم مُزدهفُ

هامن أحسَّ بُنيَّيَّ اللّذيْن هُما ... كالدرتين تشظّى عنهما لصَّدفُ

نُبِّئت بسراً وما صدَّقْتُ ما زعموا من قولهم ومن الإفك الذي وصفوا
أنحى على وَدَجَيْ ابنيَّ مُرهفةً مشحوذةً وكذلك الإثم يُقترف
مِنْ دَلَّ والهةً حرَّى وثاكلةً على صبيّيْن ضلّا إذْ غد السَّلفُ

ثم جمع بسر أهل نجران فقال: يا إخوان النصارى، أما والذي لا إله غيره، لئن بلغني عنكم أمراً أكرهه، لأُكثرن قتلاكم، ثم سار نحو جيشان[1]، وهم شيعةٌ لعليّ، فقاتلهم فهزمهم، وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، ثم رجع إلى صنعاء.

وسار جارية بن قدامة السّعدي حتى أتى نجران، وطلب بسراً فهرب منه في الأرض ولم يقم له، وقتل من أصحابه خلقاً، وأتبعهم بقتل وأسر، حتى بلغ مكّة، ومرَّ بسر حتى دخل الحجاز لا يلوي على شيء، فأخذ جارية بن قدامة أهل مكّة بالبيعة:

«فهذا إسلام معاوية وفعله بأُمَّة محمَّد، وهذا ما قد أسست له السقيفة وفعلها.

ومن كلام لعلي في أصحابه قال عليه السلام: نهج البلاغة: (ج١، ص٢١٥):

«وَلَئِنْ أَمْهَلَ اللَّهُ الظَّالِمَ، فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَى مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ.

أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ

---

(١) مدينة.

لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي، وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ! أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ، فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَأً، تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ.

أَيُّهَا الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ.

صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ، لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ.

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ بِكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ

عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ! تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُم: أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَحَمِيَ الضِّرَابُ، وَقَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا. وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً.

انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا.

وَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا.

قوله عليه السلام: «فلن يفوت» المفعول محذوف أي فلن يفوته.

والأخذ التّناول والعقوبة.

والمرصاد الطريق يرصد بها.

والشّجى ما ينشب في الحلق من عظم وغيره، وموضع الشجى هو الحلق.

ومساغ ريقه موضع إساغته.

وساغ الشراب سهل مدخله في الحلق.

وسغت الشراب يتعدّى ولا يتعدّى.

وهذا الكلام منه عليه السلام: إمّا تهديد لأهل الشام أو لأصحابه،

كما سيأتي من نسبة الظلم إليهم. وظهر عليه غلبه وراعي القوم من ولي عليهم.

والاستنفار الاستنجاد.

والاستنصار أو طلب النفور والإسراع إلى القتال.

قوله عليه السلام: «وعبيد كأرباب» أي أخلاقكم أخلاق العبيد من الخلاف والنفاق ودناءة الأنفس، وفيكم مع ذلك كبر السّادات وتيههم وعدم إطاعتهم، أو حكمكم حكم العبيد في وجوب الإطاعة وتأبون عنها كالسّادة. وهذا أنسب بالفقرة السابقة.

و«أيادي سبا» مثل يضرب للمتفرّقين، وأصله قوله تعالى عن أهل سبإ: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، وسبأ مهموز يصرف ولا يصرف، ويمدّ ولا يمدّ، وهو بلدة «بلقيس» ولقب ابن يشجب بن يعرب يُقال: ذهبوا أيدي سبأ وأيادي سبأ الياء ساكنة وكذلك الألف هكذا نقل المثل أي متفرّقين، وهما اسمان جعلا واحداً، مثل معد يكرب ضرب المثل بهم لأنّهم لمّا غرق مكانهم وذهبت جنّاتهم تبدّدوا في البلاد، ولهم قصّة غريبة مذكورة في كتب الأمثال.

قوله عليه السلام: «وتتخادعون» المخادعة هي الاستغفال عن المصلحة، أي إذا رجعتم عن مجلس الوعظ أخذ كلّ منكم يستغفل صاحبه ويشغله بالأحاديث، وإن لم يكن عن قصد خداع بل يقع منهم صورة المخادعة. كذا ذكره ابن ميثم.

وقال ابن أبي الحديد: تتخادعون عن مواعظكم أي تمسكون

عن الاتّعاظ من قولهم: كان فلان يعطي ثمّ خدع أي أمسك وأقلع.

ويجوز أن يريد تتلوّنون وتختلفون في قبول الوعظ من قولهم: خلق فلان خلق خادع أي متلوّن.

وسوق خادعة أي متلوّنة مختلفة. ولا يجوز أن يُراد المعنى المشهور منها، لأنّه إنّما يُقال: فلان يتخادع فلاناً إذا كان يريد أن ينخدع له وليس بمنخدع في الحقيقة، وهذا لا يناسب المقام.

والحنيّة على فعلية القوس، أي ترجعون إليّ معوجّاً كاعوجاج ظهر القوس وأعضل وأشكل، وكأنّ غيبة عقولهم كناية عن تركهم العمل بما تقتضيه، أو عن ذهابها.

قوله عليه السلام: «منيت» أي ابتليت.

وإنّما لم يجمع الخمس لكون الثلاث من جنس، والاثنتين من جنس آخر أو لأنّ الثلاث إيجابيّة دون الاثنتين.

والحرّ خلاف العبد والخيار من كلّ شيء.

واللقاء ملاقات الأحباب أو العدوّ.

وقوله عليه السلام: «تربت أيديكم» كلمة يدعى على الإنسان بها أي لا أصبتم خيراً.

وأصل «ترب» أصابه التراب، فكأنّه يدعى عليه بأن يفتقر.

وقال ابن الأثير في مادة: «ترب» من كتاب النهاية: هذه

الكلمة جارية على ألسنة العرب لا يريدون بها الدُّعاء على المخاطب، ولا وقوع الأمر بها، كما يقولون: قاتله الله.

وقيل: معنى لله درّك.

قال: وكثيراً ترد للعرب ألفاظ ظاهرها الذمّ وإنّما يريدون بها المدح، كقولهم لا أب لك، ولا أمّ لك. وهوت أمّه. ولا أرض لك. ونحو ذلك.

وقال المطرّزي: في قولهم: «كأنّي بك تنحط» الأصل كأنّي أبصرك تنحط ثمّ حذف الفعل وزيدت الباء.

ويحتمل أن يكون الباء متعلّقاً بملتصق ونحوه، نحو «به داء» أو بمعنى في.

وخال الشيء يخاله أي ظنّه.

وتقول: خلت إخال بالكسر وبالفتح، لغة بني أسد كما في النسخ، و«ما» مصدريّة، أي في ظنّي.

وحمس كفرح أي اشتدّ.

وحمي كرضي اشتدّ حرّه.

وانفرجتم تفرّقتم.

قال ابن ميثم: شبّه انفراجهم عنه بانفراج المرأة عن قبلها ليرجعوا إلى الأنفة، وتسليم المرأة قبلها وانفراجها عنه إمّا وقت الولادة، أو وقت الطّعان.

قوله عليه السلام: «ألقطه» كأنّه إشارة إلى أنّ الضّلال غالب على الهدى، فيحتاج السالك إلى التقاط طريق الهدى من بين طرق الضّلالة.

وفي بعض النسخ «ألفظه لفظا» أي أبيّنه بياناً.

والسمت الجهة والطريق وهيئة أهل الخير.

«فإن لبدوا» أي قعدوا عن طلب الخلافة والجهاد ولزموا البيوت فتابعوهم، وإن قاموا بها فانصروهم.

يُقال: لبد الشيء بالأرض كنصر أي التصق بها.

وقوله عليه السلام: «ولا تسبقوهم» أي ما لم يأمروكم به.

«ولا تتأخّروا عنهم» أي لا تخالفوهم فيما يأمرونكم به.

❋ ❋ ❋

وذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج: (ج٢، ص١٧)، قال: اجتمع عبيد الله بن عباس وبُسر بن أرطأة يوماً عند معاوية، بعد صلح الحسن عليه السلام، فقال له ابن عباس: أنت أمرت اللعين السيِّىء الفدم، أن يقتل ابنيَّ؟

فقال: ما أمرته بذلك، ولوددتُ أنَّه لم يكن قتلهما، فغضب بُسر ونزع سيفه فألقاه، وقال لمعاوية: اقبض سيفك قلدتنيه، وأمرتني أن أخبط به الناس ففعلت، حتى إذا بلغت ما أردت قلت: لم أهو ولم آمر.

فقال: خذ سيفك إليك، فلعمري إنَّك ضعيف مائق، حين

تُلقي السيف بين يدي رجل من بني عبد مناف، قد قتلت أمس ابنيه.

فقال له عبيد الله: أتحسبُني يا معاوية قاتلاً بسراً بأحد ابنيَّ، هو أحقر وألأم من ذلك، ولكنِّي والله لا أرى لي مقنعاً، ولا أدرك ثأراً إلَّا أن أُصيب بهما يزيد وعبد الله، فتبسَّم معاوية وقال: وما ذنب معاوية وابنيْ معاوية، والله ما علمتُ، ولا أمرت، ولا رضيت، ولا هويت، واحتملها منه لشرفه وسؤدده.

قال: ودعا عليٌّ على بُسْرٍ فقال:

اللَّهمَّ إنَّ بسراً باع دينه بالدُّنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعة مخلوقٍ فاجرٍ، آثر عنده بما عندك، اللَّهمَّ فلا تمته حتى تسلبه عقله، ولا توجب له رحمتك، ولا ساعة من نهار، اللَّهمَّ إلعن بسراً وعَمْراً، ومعاوية، وليُحل عليهم غضبك، ولتُنْزل بهم نقمتك، وليصبهُم بأسك ورجزك، الذي لا ترده عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بُسر بعد ذلك إلَّا يسيراً حتى وسوس، وذهب عقله، فكان يهذي بالسيف ويقول: أعطوني سيفاً أقتل به لا يزال يُردِّد ذلك، حتى اتخذ له سيفاً من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

أقول: كان مسلم بن عُقْبة ليزيد، وما عمل بالمدينة في وقعة الحرة، كما كان بُسر لمعاوية، وما عمل في الحجاز واليمن، ومن أشبه أباه فما ظلم.

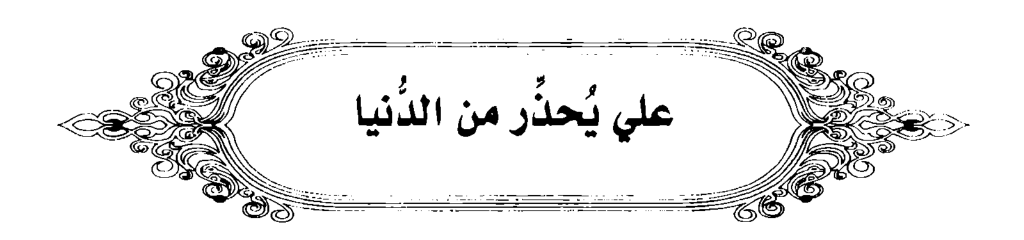
نبْني كما كانت أوائلنا تبني ونفعلُ مثْل ما فعلوا

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[١].

اللَّهمَّ إنِّي أُشهدك، وأُشهد من برأت وخلقت، أنِّي على هَذْي محمَّد، وآلِ محمَّد علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، سيِّدي شباب أهل الجنَّة، والأئمَّة التسعة المعصومين من صلب الحسين، وهم علي بن الحسين، ومحمَّد بن علي، وجعفر بن محمَّد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمَّد بن علي، وعلي بن محمَّد، والحسن بن علي ومحمَّد بن الحسن، والحمد لله ربّ العالمين.



(١) سورة البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧.



علي يُحذِّر من الدُّنيا

عليٌّ يدعو الناس إلى طاعة الله وجنَّته، ويُحذِّرهم من الوقوع في فخِّ الدُّنيا، وهم غافلون في طلب شهواتهم لذائذاً، خرجت بهم عن مستقيم صراط الله الحقّ، فأوردتهم جهنَّم ولبئس المهاد.

فلا تتوهم أنَّ عليّاً، يُزهِّد الناس في الدُّنيا، فيحملهم على القعود عن العمل، والنشاط، والغرس، والزراعة، والصناعة، والتجارة، حيث المكاسب، والمرابح، والنعم، والازدهار الغني، الذي فيه قوام حياتهم، وسعادتهم في هذه الدُّنيا، الأُمّ.

ألا وإنَّ عليّاً هو صاحب القول، الذي أخذ بطرفيْ الفصاحة، والبلاغة، والحكمة، والعمل، الذي جمع فيه للإنسان، سعادة الدُّنيا والآخرة.

قال عليه السلام: إعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً.

وقبل الدخول في قوله في الدُّنيا والآخرة، وإنسان الدارين، أخطُّ هنا حديثه عن القلب الآدمي، في فلسفة تشريحه الفصيح البليغ، قال عليه السلام:

لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاط هذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ[١]: وَذلِكَ الْقَلْبُ. وَذلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلاَفِهَا، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ[٢] أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْحِرْصُ، وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسَفُ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَى نَسِيَ التَّحَفُّظَ[٣]، وَإِنْ نَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ، وَإِنِ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْرُ اسْتَلَبَتْهُ الْغِرَّةُ[٤]، وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ الْغِنَى، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ الْجَزَعُ، وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلاَءُ، وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ الْبِطْنَةُ[٥]، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ.

وقال عليه السلام: وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ:

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ[٦] وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ! يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ. يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ يَا أَهْلَ

---

(١) النياط ـ ككتاب ـ: عرق معلق به القلب.

(٢) سنح له: بدا وظهر.

(٣) التحفظ: هو التوقي والتحرز من المضرّات.

(٤) الغِرَّة بالكسر: الغفلة. واستلبته: أي سلبته وذهبت به عن رشده. وأفاد المال: استفاده. الفاقة: الفقر.

(٥) كظته أي كربته وآلمته. والبِطنة ـ بالكسر ـ: امتلاء البطن حتى يضيق النفس: التخمة.

(٦) الموحشة: الموجبة للوحشة ضد الأنس. والمحال: جمع محل أي الأماكن المقفرة من أقفر المكان إذا لم يكن به ساكن ولا نابت.

الْوَحْشَةِ! أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ[١]، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لاَحِقٌ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ[٢]، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ، وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ، هذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ؟ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلاَمِ لأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ ﴿خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣].

وقال عليه السلام: وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً يَذُمُّ الدُّنْيَا:

أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا، أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيا ثُمَّ تَذُمُّهَا؟ أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا[٤] أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ؟ مَتَى اسْتَهْوَتْكَ[٥] أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ؟ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى[٦]؟ أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى؟ كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ[٧]؟ وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ؟ تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ[٨] وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ، غَدَاةَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُك، وَلا

---

(١) الفرط ـ بالتحريك ـ : المتقدم إلى الماء للواحد والجمع. والكلام هنا على الإطلاق أي المتقدمون. والتبع ـ بالتحريك ـ أيضاً التابع.

(٢) أي أنَّ دياركم سكنها غيركم، ونساؤكم تزوجت، وأموالكم قسمت، فهذه أخبارنا إليكم.

(٣) سورة البَقَرَة: ١٩٧.

(٤) تجرم عليه: ادعى عليه الجرم بالضم أي الذنب.

(٥) استهواه: ذهب بعقله وأذله فحيره.

(٦) البلى ـ بكسر الباء ـ : الفناء بالتحلل. والمصرع: مكان الانصراع أي السقوط أي أماكن سقوط آبائك من الفناء. والثرى: التراب.

(٧) علّل المريض: خدمه في علّته. كمرضه: خدمه في مرضه.

(٨) الضمير في لهم يعود على الكثير المفهوم من كم. واستوصف الطبيب: طلب منه وصف الدواء بعد تشخيص الداء.

يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ، وَلَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ[١]، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ بِقُوَّتِكَ، قَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ[٢] وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ.

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا[٣]، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ، وَمُصَلَّى مَلائِكَةِ اللَّهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللَّهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا[٤]، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا، وَأَهْلَهَا، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلائِهَا الْبَلاءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ، رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ[٥]، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ[٦]، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

---

(١) إشفاقك: خوفك. والطِلبة ـ بالكسر ـ: المطلوب. وأسعفه بمطلوبه: أعطاه إيّاه على ضرورة إليه.

(٢) أي أنَّ الدنيا جعلت الهالك قبلك مثالاً لنفسك تقيسها عليه.

(٣) أي أخذ منها زاده للآخرة.

(٤) آذنت ـ بمد الهمزة ـ أي أعلمت أهلها ببينها: أي ببعدها وزوالها عنهم. ونعاه إذا أخبر بفقده. والدنيا أخبرت بفنائها وفناء أهلها بما ظهر من أحوالها.

(٥) راح إليه: وافاه وقت العشي، أي أنّها تمشي بعافية وتبتكر أي تصبح بفجيعة أي بمصيبة فاجعة.

(٦) أي ذموها عندما أصبحوا نادمين على ما فرطوا فيها أمّا الذين حمدوها فهم =

وقال عليه السلام: **إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا! فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ[(١)]، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ، أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ[(٢)]؟ أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ؟ هَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ، وَاللَّهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِياً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالأَمَانِي، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلاَءِ، إِذْ لاَ وِرْدَ وَلاَ صَدَرَ[(٣)]، هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِىءَ دَحْضَكِ زَلِقَ[(٤)]، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ[(٥)]، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لاَ يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلاَخُهُ[(٦)].**

= الذين عملوا فجنوا ثمرة أعمالهم ذكرتهم بحوادثها فانتبهوا لما يجب عليهم. وكأنّها بتقلبها تحدّثهم بما فيه العبرة وتحكي لهم ما به العظة.

(١) إليك عنّي: إذهبي عني. والغارب: الكاهل وما بين السنام والعنق. والجملة تمثيل لتسريحها تذهب حيث شاءت. وانسل من مخالبها: لم يعلق به شيء من شهواتها. والحبائل: جمع حبالة. شبكة الصياد. وأفلت منها: خلص. والمداحض: المساقط.

(٢) والمداعب: جمع مدعبة ـ من الدعابة ـ وهي المزاح والتّاءات والكافات كلها بالكسر خطاباً للدنيا.

(٣) الورد ـ بكسر الواو ـ: ورود الماء. والصدر ـ بالتحريك ـ: الصدور عنه بعد الشرب.

(٤) مكان دحض ـ بفتح فسكون ـ: أي زلق لا تثبت فيه الأرجل.

(٥) أزور أي مال وتنكب.

(٦) حان: حضر. وانسلاخه: زواله.

اعْزُبِي عَنِّي[١]! فَوَاللَّهِ لاَ أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلاَ أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي، وَايْمُ اللَّهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ لأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ[٢]، إِذَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا[٣]، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا! أَتَمْتَلِيءُ السَّائِمَةُ مِنْ رَعْيِهَا فَتَبْرُكَ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ[٤]، وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ[٥]؟! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ[٦]، إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ، بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ[٧]، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ.

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا[٨]، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا[٩]، حَتَّى غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا، افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ

---

(١) عزب يعزب أي بعد. ولا أسلس: أي لا أنقاد.
(٢) تهش: أي تنبسط إلى الرغيف وتفرح به من شدّة ما حرمها، ومطعوماً حال عن القرص كما أنَّ مأدوماً حال من الملح: أي مأدوماً به الطعام.
(٣) أي لأتركن مقلتي أي عيني وهي كعين ماء نضب أي غار معينها ـ بفتح فكسر ـ أي ماؤها الجاري، أي أبكي حتى لا يبقى دمع.
(٤) الربيضة: الغنم مع رعاتها إذا كانت في مرابضها. والربوض للغنم كالبروك للإبل.
(٥) يهجع أي يسكن كما سكنت الحيوانات بعد طعامها.
(٦) دعاء على نفسه ببرود العين أي جمودها من فقد الحياة تعبير باللازم.
(٧) الهاملة: المسترسلة. والهمل من الغنم: ترعى نهاراً بلا راع.
(٨) البؤس: الضر. وعركه بالجنب: الصبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه. ويُقال فلان يعرك بجنبه الأذى إذا كان صابراً عليه.
(٩) والغمض ـ بالضم ـ: النوم. والكرى ـ بالفتح ـ: كذلك.

خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ[١]، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وقال عليه السلام: أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عليه السلام، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ.

فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ؟ أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا الأُلُوفَ، وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ؟

الرياش اللباس، وأسبغ أوسع، وإنَّما ضرب المثل

(١) الهمهمة: الصوت يردد في الصدر وأراد منه الأعم. وتقشع الغمام: انجلى.
(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

بسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنَّه كان ملك الإنس والجن، ولم يحصل لغيره، ذلك ومن الناس من أنكر هذا لأنَّ اليهود والنصارى يقولون: إنَّه لم يتعد ملكه حدود الشام بل بعض الشام وينكرون حديث الجن والطير والريح ويحملون ما ورد من ذلك على وجوه وتأويلات عقلية معنوية ليس هذا موضع ذكرها.

والزلفة القرب والطعمة بضم الطاء المأكلة، يقال: قد جعلت هذه الضيعة طعمة لزيد.

والقسي جمع قوس وأصلها قووس على فعول كضرب وضروب إلَّا أنَّهم قدموا اللام فقالوا: قسو على فلوع ثم قلبت الواو ياء وكسروا القاف كما كسروا عين عصي فصارت قسي.

نسب العمالقة: والعمالقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام. ومنهم طسم بن لاوذ أخوه.

ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم فلما ملكهم عملاق بن طسم بغى وأكثر الفساد في الأرض حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بعلها وإن كانت بكراً افتضها قبل وصولها إلى البعل ففعل ذلك بامرأة من جديس يُقال لها: غفيرة بنت غفار فخرجت إلى قومها وهي تقول:

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته فصنع، الأسود طعاماً ودعا عملاق

الملك إليه ثم وثب به وبطسم فأتى على رؤسائهم ونجا منهم رياح بن مر، فصار إلى ذي جيشان بن تبع الحميري ملك اليمن فاستغاث به واستنجده على جديس فسار ذو جيشان في حمير فأتى بلاد جو وهي قصبة اليمامة فاستأصل جديسا كلها، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلَّا اليسير منهم.

ثم ملك بعد طسم وجديس وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم فسار بولده وأهله فنزل بأرض وبار وهي المعروفة الآن برمل عالج فبغوا في الأرض حينا حتى أفناهم اللهثم ملك الأرض، بعد وبار عبد ضخم بن أثيف بن لاوذ فنزلوا بالطائف حيناً ثم بادوا.

نسب عاد وثمود: وممَّن يعد مع العمالقة عاد وثمود فأما عاد فهو عادبن عويص بن إرم بن سام بن نوح كان يعبد القمر.

ويُقال: إنَّه رأى من صلبه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف وإنَّه نكح ألف جارية وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن وهي من شحر عمان إلى حضرموت ومن أولاده شداد بن عاد صاحب المدينة المذكورة.

وأما ثمود فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وكانت دياره بين الشام والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة.

نسب الفراعنة قوله عليه السلام: أين الفراعنة وأبناء الفراعنة جمع فرعون وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن الريان فرعون يوسف ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى، ومنهم فرعون بن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخرب بيت المقدس.

نسب أصحاب الرس: قوله عليه السلام: أين أصحاب مدائن الرس قيل: إنَّهم أصحاب شعيب النبي عليه السلام وكانوا عبدة أصنام ولهم مواش وآبار يسقون منها.

والرس بئر عظيمة جداً انخسفت بهم وهم حولها فهلكوا وخسفت بأرضهم كلها وديارهم.

وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة كان بها قوم من بقايا ثمود بغوا فأهلكوا.

وقيل: قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز وكانت العنقاء تختطف صبيانهم فتقتلهم فدعوا الله أن ينقذهم منها فبعث إليهم حنظلة بن صفوان فدعاهم إلى الدِّين على أن يقتل العنقاء فشارطوه على ذلك فدعا عليها فأصابتها الصاعقة فلم يفوا له وقتلوه فأهلكوا.

وقيل: هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود وقيل: الرس أرض بأنطاكية قتل فيها حبيب النجار.

وقيل: بل كذب أهلها نبيّهم ورسوه في بئر أي رموه فيها.

وقيل: إنَّ الرس نهر في إقليم الباب والأبواب مبدؤه من مدينة طراز وينتهي إلى نهر الكر فيختلط به حتى يصب في بحر الخزر كان هناك ملوك أولو بأس وقدرة فأهلكهم الله ببغيهم.

❋ ❋ ❋

وقال عليه السلام في ذكر ملك الموت وتوفية النفس:

هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؟ أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا[١]؟ أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ.

وذلك أنَّ سائلاً كان قد سأله أن يصف له الله حتى كأنَّه يراه عياناً، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقال عليه السلام في النهج: (ج١، ص١٣٤):

فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ.

وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ. وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: «اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ» لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ. وَإِنَّ قَادِماً يَقْدَمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ. فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا، مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً.

---

(١) يلج: يدخل.

فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، حَتَّى إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا.

فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ! نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ.

بادروا آجالكم بأعمالكم أي سابقوها وعاجلوها البدار العجلة وابتاعوا الآخرة الباقية بالدُّنيا الفانية الزائلة.

وقوله: فقد جُدَّ بكم أي حثثتم على الرحيل يُقال: جد الرحيل وقد جد بفلان إذا أزعج وحث على الرحيل.

واستعدُّوا للموت يمكن أن يكون بمعنى أعدّوا فقد جاء استفعل بمعنى أفعل كقولهم: استجاب له أي أجابه.

ويمكن أن يكون بمعنى الطلب كما تقول: استطعم أي طلب الطعام فيكون بالاعتبار الأوَّل كأنَّه قال: أعدّوا للموت عدَّة وبمعنى الاعتبار الثاني كأنَّه قال: اطلبوا للموت عدَّة.

وأظلّكم قرب منكم كأنَّه ألقى عليهم ظلّه وهذا من باب الاستعارة.

والعبث اللعب أو ما لا غرض فيه أو ما لا غرض صحيح فيه.

وقوله: ولم يترككم سدًى أي مهملين.

وقوله: أن ينزل به موضعه رفع لأنَّه بدل من الموت والغائب المشار إليه هو الموت.

ويحدوه الجديدان يسوقه اللَّيل والنَّهار.

وقيل: الغائب هنا هو الإنسان يسوقه الجديدان إلى الدار التي هي داره الحقيقية وهي الآخرة وهو في الدُّنيا غائب على الحقيقة عن داره التي خلق لها والأوَّل أظهر.

وقوله: فتزودوا في الدُّنيا من الدُّنيا كلام فصيح لأن الأمر الذي به يتمكن المكلف من إحراز نفسه في الآخرة إنَّما هو يكتسبه في الدُّنيا منها وهو التقوى والإخلاص والإيمان.

والفاء في قوله: فاتقى عبد ربّه لبيان ماهية الأمر الذي يحرز الإنسان به نفسه ولتفصيل أقسامه وأنواعه كما تقول: فعل اليوم فلان أفعالاً جميلة فأعطى فلاناً وصفح عن فلان وفعل كذا.

وقد روي: اتقى عبد ربّه بلا فاء بتقدير هلا ومعناه التحضيض.

ويجوز أن يعنى به ليسوف التوبة كأنَّه جعلها مخاطبة يقول لها: سوف أوقعك والتسويف أن يقول في نفسه: سوف أفعل، وأكثر ما يستعمل للوعد الذي لا نجاز له ومن روى: بفتح الواو

جعله فعل ما لم يُسمِّ فاعله وتقديره ويمنيه الشيطان التوبة أي يجعلها في أمنيته ليكون مسوفاً إيَّاها أي يعد من المسوفين المخدوعين.

وقوله: فيا لها حسرة يجوز أن يكون نادى الحسرة وفتحة اللام على أصل نداء المدعو كقولك: يا للرجال، ويكون المعنى هذا وقتك أيتها الحسرة فاحضري، ويجوز أن يكون المدعو غير الحسرة كأنَّه قال: يا للرجال للحسرة فتكون لامها مكسورة نحو الأصل لأنَّها المدعو إليه إلَّا أنَّها لمَّا كانت للضمير فتحت أي أدعوكم أيُّها الرجال لتقضوا العجب من هذه الحسرة.

❁ ❁ ❁

قال عليه السلام في النهج: (ج٢، ص٤٧٠)، يصف الدُّنيا وغدرها بأهلها، وإفنائها لهم:

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا، أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ فِيْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَعْمَرَ دِيَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً، أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً،

فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ، وَالْقُبُورَ اللاَّطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ بِالْخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ. وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى! وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[1].

بالبلاء محفوفة قد أحاط بها من كُلِّ جانب.

وتارات جمع تارة وهي المرة الواحدة ومتصرفة منتقلة متحولة.

ومستهدفة ـ بكسر الدال ـ منتصبة مهيأة للرمي وروي: مستهدفة بفتح الدال على المفعولية كأنَّها قد استهدفها غيرها أي جعلها أهدافاً.

ورياحهم راكدة ساكنة وآثارهم عافية مندرسة.

---

(١) سورة يونس: ٣٠.

والقصور المشيَّدة العالية ومن روى: المشيدة بالتخفيف وكسر الشين فمعناه المعمولة بالشيد وهو الجص.

والنمارق الوسائد.

والقبور الملحدة ذوات اللحود.

وروي: والأحجار المسندة بالتشديد.

قوله عليه السلام: قد بني على الخراب فناؤها: أي بنيت لا لتسكن الأحياء فيها كما تبنى منازل أهل الدُّنيا.

والكلكل الصدر وهو هاهنا استعارة.

والجنادل الحجارة وبعثرت القبور أثيرت.

وتبلو كل نفس ما أسلفت تخبر وتعلم جزاء أعمالها وفيه حذف مضاف ومن قرأ تتلو بالتاء بنقطتين أي تقرأ كلُّ نفس كتابها وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون بطل عنهم ما كانوا يدعونه ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنَّهم شفعاء.

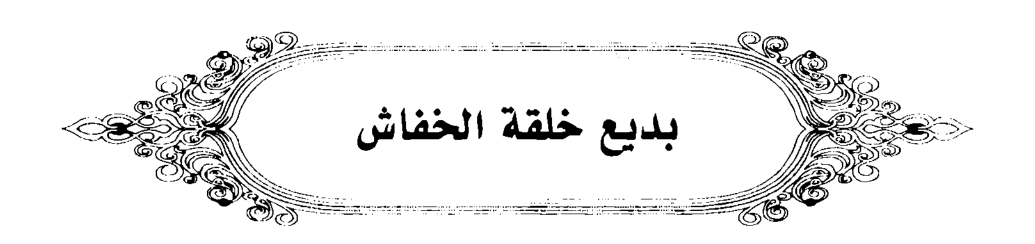
قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾[2].

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

(٢) سورة مريم: ٩٨.



بديع خلقة الخفاش

علي يصف الخفَّاش، نهج البلاغة: (ج٢، ص٣٠٩):

قال عليه السلام: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ. هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ.**

لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً، خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلاَ مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلاَ مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا، وَرَدَعَهَا بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بَلَجِ ائْتِلاَقِهَا، فَهِيَ مُسْدِلَةُ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى

أَحْدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلاَ تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ، فَإِذَا الْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبابِ فِي وِجَارِهَا، أَطْبقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْ مِنْ فَيْءِ ظُلَمِ لَيَالِيهَا، فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً، وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا، تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً، لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلا، تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا، لاَجِىءٌ إِلَيْهَا يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ، فَسُبْحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ.

بيان: الخفَّاش كرمان معروف وحسر حسوراً كقعد كل لطول مدى ونحوه وحسرته أنا يتعدى ولا يتعدى.

وانحسرت: أي كلت وأعيت.

وكنه الشيء: حقيقته ونهايته.

وردعت كمنعت لفظاً ومعناً.

والمساغ المسلك والملكوت العز والسلطان، والحق المتحقق.

وجوده أو الموجود حقيقة، وأبين أي أوضح وكونه سبحانه أحق وأبين ممَّا ترى العيون، لأنَّ العلم بوجوده سبحانه عقلي يقيني، لا يتطرق إليه ما يتطرق إلى المحسوسات من اللَّغط.

والحد في اللغة المنع، الحاجز بين الشيئين ونهاية الشيء وطرفه، وفي عرف المنطقيين التعريف بالذاتي، والمُراد بالتحديد هنا إما إثبات النهاية، والطرف المستلزم للمشابهة بالأجسام، أو التحديد المنطقي.

والأول أنسب بعرفهم والتقدير إثبات المقدار، وكأنَّ المُراد بالتمثيل إيجاد الخلق على حذو ما قد خلقه غيره، أو أنَّه لم يجعل لخلقه مثالاً قبل الإيجاد، كما يفعله البناء تصويراً، لما يريد بناءه.

والمشورة مفعلة من أشار إليه، بكذا أي أمره به.

والمشورة بضم الشين كما في بعض النسخ، والشورى بمعناه.

والمعونة الاسم من أعانه وعونه.

فتم خلقه أي بلغ كل مخلوق إلى كماله الذي أراده الله سبحانه منه أو خرج جميع ما أراده من العدم إلى الوجود بمجرد أمره.

وأذعن أي خضع وأقر وأسرع في الطاعة وانقاد والجملتان كالتفسير للإذعان، ولعلَّ المُراد بالإذعان دخوله تحت القدرة الإلهيَّة وعدم الاستطاعة للامتناع.

وقوله عليه السلام: لم يدافع.

بيان للإجابة كما أن لم ينازع بيان للانقياد وإلَّا لكان العكس

أنسب ويحتمل أن يكون إشارة إلى تسبيحهم بلسان الحال كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1].

واللطائف جمع لطيفة، وهي ما صغر ودق، والعجائب جمع عجيبة وعجيب قيل: يجمع على عجائب كأفيل وأفائل.

وقيل: لا يجمع عجيب ولا عجب.

والغامض خلاف الواضح وكل شيء خفي مأخذه.

وقال بعضهم: حاصل الكلام التعجب من مخالفتها لجميع الحيوانات في الانقباض عن الضوء، والإشارة إلى خفاء العلة في ذلك.

والمُراد بالانقباض انقباض أعينها في الضوء، ويكون ذلك عن إفراط التحلل في الرُّوح النوري لحر النهار، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيعود الأبصار.

وقيل: الأظهر أنَّه ليس لمجرد الحر وإلَّا لزم أن لا يعرضه الانقباض في الشتاء، إلَّا إذا ظهرت الحرارة في الهواء، وفي الصيف أيضاً في أوائل النهار، بل ذلك لضعف في قوَّتها الباصرة، ونوع من التضاد والتنافر بينها وبين النور، كالعجز العارض لسائر القوى المبصرة عن النظر إلى جرم الشمس.

وأما أن علَّة التنافر ما ذا، ففيه خفاء وهو منشأ التعجب الذي يشير إليه الكلام، ويمكن أن يعود الضمير إليها من غير تقدير

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

مضاف، ويكون المُراد بانقباضها ما هو منشأ اختفائها نهاراً، وإن كان ذلك ناشئاً من جهة الأبصار.

والعشى بالفتح مقصوراً سوء البصر بالنهار أو بالليل والنهار أو العمى.

والمعنى كيف عجزت وعميت، عن أن تستمد أي تستعين وتتقوى.

تقول: أمددته بمدد إذا أعنته وقويته ومذاهبها طرق معاشها ومسالكها في سيرها وانتفاعها وتصل بالنصب عطفاً على تستمد.

وفي بعض النسخ: بالرفع عطفاً على تهتدي، وفي بعضها وتتصل والاتصال إلى الشيء الوصول إليه.

والبرهان الدليل ومعارفها ما تعرفه من طرق انتفاعها وردعها، أي كفها وردها.

وتلألأ البرق: أي لمع.

والسبحات بضمتين جمع سبحة بالضم، وهي النور.

و قيل: سبحات الوجه محاسنه لأنَّك إذا رأيت الوجه الحسن قلت سبحان الله.

وقيل: سبحان الله تنزيه له أي سبحان وجهه.

والكن بالكسر الستر وأكنه ستره واستكن استتر وكمن كنصر ومنع أي استخفى والمكمن الموضع.

والبلج بالتحريك مصدر بلج كتعب أي ظهر ووضح.

وصبح أبلج بين البلج أي مشرق ومضيء ذكره الجوهري.

وقيل: البلج جمع بلجة بالضم وهو أوّل ضوء الصبح.

والائتلاق اللمعان.

يُقال: ائتلق وتألق إذا التمع وسدل ثوبه يسدله وأسدله أي أرسله وأرخاه.

والجفن بالفتح غطاء العين من أعلاها وأسفلها والجمع أجفان وجفون وأجفن والحدقة محركة سواد العين وتجمع على حداق كما في بعض النسخ، وعلى أحداق كما في بعضها وإسدال جفونها لانقباضها وتأثر حاستها عن الضياء.

وقيل: لأنَّ تحلل الروح الحامل للقوَّة الباصرة سبب للنوم أيضاً، فيكون ذلك الإسدال ضرباً من النوم والالتماس الطلب وأسدف الليل أي أظلم.

وفي بعض النسخ: أسداف بفتح الهمزة جمع سدف بالتحريك كجمل وإجمال وهو الظلمة والإضافة للمبالغة، والضمير في فيه راجع إلى اللَّيل والغسق بالتحريك ظلمة أوَّل اللَّيل والدجنة بضم الدال المهملة والجيم وتشديد النون، كحزقة والدجن كعتل الظلمة.

وحاصل الكلام التعجّب من كون حالها في الإبصار والتماس الرزق على عكس سائر الحيوانات.

وقناع الشمس كناية عن الظلمة أو ما يحجبها من الآفاق.

وإلقاء القناع طلوعها، والوضح بالتحريك البياض من كل شيء وبياض الصبح والقمر.

وفي بعض النسخ: دخل من إشراق نورها أي دخل الشيء من إشراق نورها.

والضباب بالكسر جمع الضب الدابة المعروفة ووجارها بالكسر جحرها الذي تأوي إليه، ومن عادتها الخروج من وجارها عند طلوع الشمس لمواجهة النُّور على عكس الخفافيش.

ومأقيها بفتح الميم وسكون الهمزة وكسر القاف وسكون الياء كما في أكثر النسخ لغة في المؤق بضم الميم وسكون الهمزة، أي طرف عينها مما يلي الأنف وهو مجرى الدمع من العين.

وقيل: مؤخرها.

وقال الأزهري: أجمع أهل اللغة أنَّ المؤق والمأق بالضم والفتح طرف العين الذي يلي الأنف وأنَّ الذي يلي الصدغ يُقال له: اللحاظ والمأقي لغة فيه.

وقال ابن القطاع: مأقي العين فعلي وقد غلط فيه جماعة من العلماء فقالوا: هو مفعل وليس كذلك بل الياء في آخره للإلحاق.

قال الجوهري: وليس هو مفعل لأنَّ الميم أصلية وإنَّما زيدت في آخره الياء للإلحاق ولما كان فعلي بكسر اللام نادراً لا أخت لها ألحق بمفعل ولهذا جمع على مآق على التوهم.

وفي بعض النسخ: مآقيها على صيغة الجمع وتبلغ بكذا أي اكتفى.

والمعاش ما يُعاش به وما يعاش فيه ومصدر بمعنى الحياة والمناسب هاهنا الأوَّل وفيما سيجيء الثاني.

وفي بعض النسخ: ليلها موضع لياليها والسكن بالتحريك ما تسكن إليه النفس وتطمئن وقر الشيء كفر أي استقر بالمكان والاسم القرار بالفتح.

وقيل: هو اسم مصدر والشظية الفلقة من الشيء فعيلة من قولك تشظت العصا إذا صارت فلقاً والجمع شظايا والقصب الذي في أسفل الريش للطيور.

والأعلام جمع علم بالتحريك وهو طراز الثوب ورسم الشيء ورقمه وأعلاماً في المعنى كالتأكيد لبينة وكلمة لها غير موجودة.

في بعض النسخ فيكون قوله: جناحان خبر مبتدإ محذوف أي جناحاه لم يجعلا رقيقين بالغين في الرقة ولا في الغلظ حذراً من الانشقاق والثقل المانع من الطيران.

ولجأ إلى الشيء أي لاذ واعتصم به ووقوع الطير ضد ارتفاعه وأركان كل شيء جوانبه التي يستند إليها ويقوم بها.

والنهوض التحرك بالقيام ونهض الطائر إذا بسط جناحه ليطير والعيش الحياة.

ومصالح الشيء ما فيه صلاحه ضد الفساد والبارىء الخالق.

ومثال الشيء شبهه وخلا أي مضى وسبق أي لم يخلق الأشياء على حذو خالق سبقه بل ابتدعها على مقتضى الحكمة والمصلحة.

قال الدميري: الخفاش بضم الخاء وتشديد الفاء واحد الخفافيش التي تطير في الليل وهو غريب الشكل والوصف والخفش صغر العين وضيق البصر والأخفش صغير العين ضعيف البصر.

وقيل: هو عكس الأعشى.

وقيل: هو من يبصر في الغيم دون الصحو.

وقال الجوهري: هو نوعان فالأعشى من يبصر نهاراً لا ليلاً

والعمش ضعف الرؤية مع سيلان الدمع غالب الأوقات والعور معروف.

قال البطليوسي: الخفاش له أربعة أسماء خفاش وخشاف وخطاف ووطواط وتسميته خفاشاً يحتمل أن يكون مأخوذاً من الخفش والأخفش.

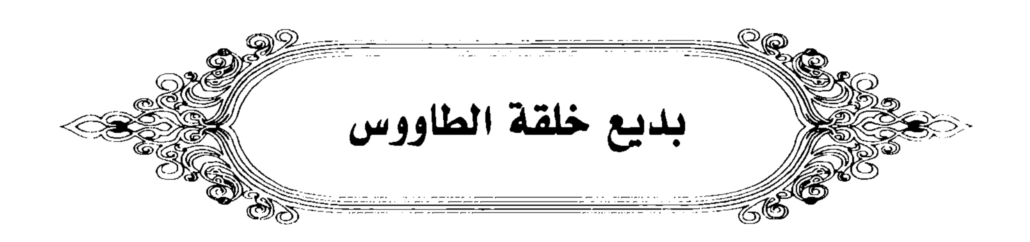
في اللغة نوعان: ضعيف البصر خلقة.

والثاني: لعلَّة حدثت وهو الذي يبصر باللَّيل دون النهار وفي يوم الغيم دون الصحو.

وما ذكره من أنَّ الخفاش هو الخطاف فيه نظر والحق أنهَّ صنفان.

وقال قوم: الخفاش الصغير والوطواط الكبير وهو لا يبصر في ضوء القمر ولا في ضوء النهار ولما كان لا يبصر نهاراً، التمس الوقت الذي لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء وهو قريب غروب الشمس، لأنَّه وقت هيجان البعوض، فإنَّ البعوض يخرج ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان والخفاش يطلب الطعم فيقع طالب رزق على طالب رزق.

والخفاش ليس هو من الطير في شيء لأنه ذو أذنين وأسنان وخصيتين، ويحيض، ويطهر ويضحك كما يضحك الإنسان، ويبول كما تبول ذوات الأربع ويُرضع ولده ولا ريش له.



بديع خلقة الطاووس

الإمام عليّ يصف عجيب خلقة الطاووس، نهج البلاغة: (ج٢، ص٣٣٢)، قال عليه السلام:

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوانٍ وَمَواتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ، فَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلاَئِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ(١)، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ(٢) الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا، وَرَوَاسِيَ أَعْلاَمِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ(٣) وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ، كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ

---

(١) نعقت من نعق بغنمه ـ كمنع ـ صاح.

(٢) ذرأ: خلق. والأخاديد ـ جمع أخدود الشق في الأرض والخروق جمع خرق ـ: الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح. والفجاج ـ جمع فج ـ الطريق الواسع وقد يستعمل في متسع الفلا. والأعلام جمع علم بالتحريك: وهو الجبل.

(٣) يصرفها الله في أطوار مختلفة تنتقل فيها بزمام تسخيره، واستخدامه لها فيما خلقها لأجله. ومرفرفة: من رفرف الطائر بسط جناحيه. والمخارق ـ جمع مخرق ـ الفلاة. وشبه الجو بالفلاة للسعة فيهما.

صُورٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ[١]، ومَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدُفُّ دَفِيفاً، وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلاَفِهَا فِي الأَصَابِيغِ[٢] بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ، فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ[٣] لَوْنٍ لاَ يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلاَفِ مَا صُبِغَ بِهِ.

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ[٤]، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ، إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وَسَمَا بِهِ مُطِلاًّ عَلَى رَأْسِهِ[٥] كَأَنَّهُ قِلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ، يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ،

---

(١) الحقاق ـ ككتاب ـ : جمع حُق بالضم ـ مجتمع المفصلين. واحتجاب المفاصل: استتارها باللحم والجلد والعبالة: الضخامة. ويسمو: يرتفع. وخفوفاً: سرعة وخفة. ودفيف الطائر: مروره فويق الأرض، أو أن يحرك جناحيه ورجلاه في الأرض. ويدف بضم الدال.

(٢) نسقها: رتبها. والأصابيغ: جمع أصباغ ـ بفتح الهمزة ـ جمع صبغ بالكسر وهو اللون أو ما يصبغ به.

(٣) القالب: مثال تفرغ فيه الجواهر لتأتي على قدره. والطائر ذو اللون الواحد كأنّما أفرغ في قالب من اللون. وقوله قد طوق أي جميع بدنه بلون واحد إلاّ لون عنقه فإنّه يخالف سائر بدنه كأنّه طوق صيغ لحليته.

(٤) التنضيد: النظم والترتيب. وقوله أشرج قصبه: أي داخل بين آحاده ونظمها على اختلافها في الطول والقصر وإذا مشى إلى أنثاه ليسافدها نشر ذلك الذنب بعد طيه.

(٥) سما به: أي ارتفع به، أي رفعه مطلا على رأسه، أي مشرفاً عليه كأنّه يظلله. والقِلْع ـ بكسر فسكون ـ شراع السفينة. وعنجه: جذبه فرفعه، من عنجت البعير إذا جذبته بخطامه فرددته على رجليه. ويختال: يعجب. ويميس: يتبختر بزيفان ذنبه. وأصل الزيفان التبختر أيضاً ويريد به هنا حركة ذنب الطاووس يميناً وشمالاً.

وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ، يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ بِمُلاَقَحَةٍ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ[١] لِلضِّرَابِ، أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ[٢]، لاَ كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ، وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ[٣]، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ، لاَ مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ، سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ، لما كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِن مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ[٤]، تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ، خَالِصَ الْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ[٥].

---

(١) يفضي: أي يسافد أنثاه كما تسافد الديكة جمع ديك. ويؤر ـ كيشد ـ أي يأتي أنثاه. بملاقحة أي مسافدة يفرز فيها مادة تناسلية من عضو التناسل يدفعها في رحم قابل. والمغتلمة: على صيغة إسم الفاعل، من اغتلم إذا غلب للشهوة. والضراب: لقاح الفحل لأنثاه.

(٢) أي إن لم يكفك الخبر فإنّي أحولك عنه إلى المعاينة فاذهب وعاين تجد صدق ما أقول.

(٣) تسفحها: أي ترسلها أوعية الدمع. وضفة الجفن: استعارة من ضفتي النهر بمعنى جانبيه. وتطعم ذلك ـ كتعلم ـ أي تذوقه كأنّها ترشفه. ولقاح الفحل ـ كسحاب ـ ماء التناسل يلقح به الأنثى. والمنبجس: النابع من العين.

(٤) لما كان ذلك بأعجب أي لو صحّ ذلك الزعم في الطاووس لكان له نظير فيما زعموا في مطاعمة الغراب وتلقيحه لأنثاه حيث قالوا: إنّ مطاعمة الغراب بانتقال جزء من الماء المستقر في قانصة الذكر إلى الأنثى تتناوله من منقاره. والمماثلة بين الزعمين في عدم الصحة. ومنشأ الزعم في الغراب إخفاؤه لسفاده حتى ضرب المثل بقولهم: أخفى من سفاد الغراب.

(٥) القصب ـ جمع قصبة ـ هي عمود الريش. والمداري ـ جمع مدرى بكسر الميم ـ قال إبن الأثير: «المدرى والمدراة مصنوع من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر المتلبد ويستعمله من لا مشط له». والدارات: هالات القمر. والعقيان: الذهب الخالص أو ما ينمو منه في =

فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ(1)، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ(2)، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ، وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ(3)، يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ(4)، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ فَيُقَهْقِهُ، ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ(5)، فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيَّةِ(6) وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَّةٌ خَفِيَّةٌ(7).

= معدنه. وفِلذ ـ كعنب ـ جمع فلذة بمعنى القطعة. وما أنبت معطوف على قصبه. والتشبيه في بياض القصب والصفرة والخضرة في الريش.

(1) جَنِيّ: أي مجتنى جمع كل زهر لأنّه جمع كل لون.

(2) الموشى: المنقوش المنمنم على صيغة اسم الفاعل. والعصب ـ بالفتح ـ ضرب من البرود منقوش.

(3) جعل اللجين ـ وهو الفضة ـ منطقة لها. والمكلل: المزين بالجواهر. فكما تمنطقت الفصوص باللجين كذلك زين اللجين بها.

(4) المرح ـ ككتف ـ المعجب والمختال الزاهي بحسنه.

(5) السربال: اللباس مطلقاً أو هو الدرع خاصة والوشاح نظامان من لؤلؤ وجوهر يخالف بينهما ويعطف أحدهما على الآخر بعد عقد طرفه به حتى يكونا كدائرتين إحداهما داخل الأخرى كل جزء من الواحدة يقابل جزءاً من قرينتها ثم تلبسه المرأة على هيئة حمالة السيف، وأديم عريض مرصع بالجواهر يلبس كذلك ما بين العاتق والكشح.

(6) زقا يزقو: صاح، وأعول فهو معول رفع صوته بالبكاء يكاد يبين أي يفصح عن استغاثته من كراهة قوائمه أي ساقيه. حمش ـ جمع أحمش ـ أي دقيق. والديك الخِلاسي ـ بكسر الخاء ـ هو المتولد بين دجاجتين هندية وفارسية.

(7) وقد نجمت أي نبتت من ظُنبوب ساقه. أي من حرف عظمه الأسفل. صيصية: وهي شوكة تكون في رجل الديك. والظنبوب ـ بالضم ـ كعرقوب عظم حرف الساق.

وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ[١]، وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ، وَمَغْرَزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ[٢]، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْءَاةً ذَاتَ صِقَالٍ[٣]، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ[٤]، إِلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الأُقْحُوَانِ[٥]، أَبْيَضُ يَقِقٌ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ[٦].

وَقَلَّ صِبْغٌ إِلاَّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ[٧]، وَعَلاَهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ، وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ[٨]، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ[٩]

---

(١) القنزعة ـ بضم القاف والزاي ـ بينهما سكون ـ الخصلة من الشعر تترك على رأس الصبي. وموشاة: منقوشة.
(٢) مغرزها: الموضع الذي غرز فيه العنق منتهياً إلى مكان البطن لونه كلون الوسمة وهي نبات يخضب به، أو هي نبات النيل الذي منه صبغ النيلج المعروف بالنيلة.
(٣) الصقال: الجلاء.
(٤) المعجر ـ كمنبر ـ: ثوب تعتجر به المرأة فتضع طرفه على رأسها ثم تمر الطرف الآخر من تحت ذقنها حتى ترده إلى الطرف الأول فيغطي رأسها وعنقها وعاتقها وبعض صدرها وهو معنى التلفع ههنا. والأسحم الأسود.
(٥) الأقحوان: البابونج. واليقق ـ محركاً ـ شديد البياض.
(٦) يلمع.
(٧) نصيب.
(٨) علاه: أي فاق اللون الذي أخذ نصيباً منه بكثرة جلائه. والبصيص: اللمعان. والرونق: الحسن.
(٩) الأزاهير: جمع أزهار جمع زهر.

لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ[١] وَلاَ شُمُوسُ قَيْظٍ. وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ[٢]، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ[٣]، ثُمَّ يَتَلاَحَق نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لاَ يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلاَ يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ، وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ، أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً[٤].

فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هذا عَمَائِقُ الْفِطَنِ[٥] أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ، وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدرِكَهُ، وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ.

فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ[٦] عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ، وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ[٧] وَالْهَمَجَةِ، إِلَى مَا فَوْقَهُما مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ

---

(١) لم تُرَبّها، فعل من التربية. والقيظ: الحر.

(٢) ينحسر هو من حسره أي كشفه، أي وقد يتكشف من ريشه. وتترى أي شيئاً بعد شيء.

(٣) ينحت: يسقط وينقشر.

(٤) ذهبية.

(٥) عمائق: جمع عميقة.

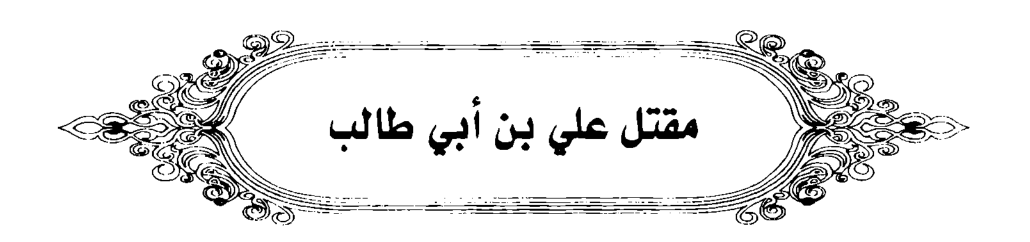
(٦) بهر العقول: قهرها فردها. وجلاه ـ كحلاه ـ كشفه.

(٧) الذرة: واحدة الذرّ: صغار النمل. والهمجة ـ محركة ـ واحدة الهمج: ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم. وقوائمها: أرجلها. وأدمجها: أودعها فيها.

وَالْفِيَلَةِ. وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لاَ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلاَّ وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ[١].



(١) وَأَى: وَعَدَ. والحِمام: الموت.



مقتل علي بن أبي طالب

خُذ من السقيفة بالتسلسل، ظلماً وجوراً على أهل بيت النبي خاصة، وعلى الأُمَّة عامة، مُنذ يومها الأوَّل إلى يوم الناس، هذا واضرب الأرقام بالأرقام، لذلك الظلم والجور، من قتل وتشريد، وهدم وحرمان لوجوه الحياة، ورغد العيش، وسعادة الإنسان واطمئنانه، لعلَّك تُفلح إن ظفرت، يُصدِّقه ويوقّع عليه المفكِّر الخلاء، من عمى العصبية والتمذهب، الباحث الدقيق في سيرة رسول الله، وما تلاها من وقائع، وأحداث جسام شداد.

وقد حصحص الحقّ، وانجلى له عامود اليقين، أنَّ سيف ابن مُلجم المُرادي لعنه الله، قد صنعته وسمَّمته يَدُ السقيفة، وما حاد عن رأس الوصي علي بن أبي طالب.

وكذلك مقتل الحسن والحسين، سبطي رسول الله، وسيِّدي شباب أهل الجنَّة.

فأمَّا الحسن: فقد قُتل بالسُّم، على يد زوجته جعدة، بتدبير من معاوية بن أبي سفيان، وقد مرَّ عليك في هذا الكتاب.

وأمَّا الحسين: فقد قُتل بسيف جيش ولده يزيد في كربلاء، دفاعاً عن دين جدّه محمَّد، وحُمل رأسه في رؤوس أهل بيته

وأنصاره، تزحف خلفه بنات رسول الله، وأطفاله تحت السياط، على رمال الصحراء، سبايا من العراق إلى الشام، ليشفى غيظ يزيد، بثأره من رسول الله، وسيف علي في بدر.

فهذا الذي كان في أُمَّة محمَّد، وما يعقبه من هلاكٍ ودمار، وفرقة وتمزُّق في صفوف المسلمين، معلولاً ليوم السقيفة فلا ريب فيه.

هذا ورسول الله يقول، فيما رواه البخاري ومسلم: قتال المسلم للمسلم كفر، وسبابه فسوق.

والله تعالى يقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[1].

اللَّهمَّ وحِّد بين المسلمين من أُمَّةِ محمَّد، وانصرهم على أعداء الله ورسوله يا ربّ العالمين.

روى أبو حنيفة القاضي النعمان بن محمَّد التميمي المغربي، في كتابه شرح الأخبار في مقتل علي بن أبي طالب ج٢ ص٤٣٧، قال:

كان من خبر ابن مُلجم لعنهُ اللَّهُ وأصحابه، أنَّ عبد الرحمن بن مُلجم، والحارث بن عبيد الله، وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا في جماعة من الخوارج بمكَّة، فذكروا أمر الناس، فأعابوا الولاة، ثم ذكروا أهل النهروان وأصحابهم، فترحموا عليهم وقالوا:

والله ما في البقاء بعدهم خير، فقد كانوا دعاة المسلمين إلى عبادة ربِّهم، وكانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا من الله عزَّ وجلَّ، وأتينا أئمة الضلال فالتمسنا قتلهم، وأرحنا منهم البلاد، وأدركنا ثأر إخواننا.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

فقال ابن مُلجم لعنهُ اللَّهُ: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وكان من أهل المصر[١].

وقال الحارث: أنا أكفيكم معاوية.

وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا، أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه، حتى يقتله أو يموت دونه، وأخذوا أُهبتهم، وأخذوا أسيافهم فسمّوها، واتعدوا لتسع عشر ليلة، يمضين من شهر رمضان، ثبت كل واحد منهم على صاحبه يقتله، أو يموت دونه.

وتوجَّه كلٌّ واحد منهم إلى صاحبه، وصار عبد الرحمن بن ملجم إلى الكوفة، ولقي بها من بقي من أصحابه فكاتمهم أمره، كراهة أن يظهروا شيئاً منه، إلى أن رأى ذات يوم أصحاباً له من تيم الرباب، وكان أمير المؤمنين عليه السلام، قد قتل منهم يوم النهروان عدَّة، فذكروا قتلاهم، ورأى يومئذٍ معهم امرأة من تيم الرباب، يُقال لها: قطام، قد كان أمير المؤمنين عليه السلام، قتل أباها، وكانت فائقة الجمال، فلمَّا رآها علقها قلبه وخطبها، فقالت: لا أتزوجك حتى تشفي قلبي.

قال لها: وما يشفي قلبك؟

قالت: قتل علي بن أبي طالب.

قال: ما قلتِ هذا، وأنت تريدينني.

---

(١) من سكنة الكوفة.

قالت: بلى إن قتلته وسلمت، تزوَّجتك وانتفعت بي، وإن هلكت فلك عند الله ما هو خير منِّي.

قال لها: والله ما جئت إلى هذا الموضع، إلَّا لألتمس قتله، فإذا قلت ما قلت، فهل عندك من معونة؟

قالت نعم آخذ لك من يشدُّ ظهرك، ويساعدك على ذلك.

قال: افعلي.

فأتت رجلاً من قومها يُقال له: وردان، فأخبرته بالخبر، وكلَّمته في ذلك، وذكرته مصاب من أُصيب من قومه، فأجابها إلى ذلك.

واجتمع مع عبد الرحمن بن مُلجم لعنه الله، ولقي ابن ملجم أيضاً رجلاً من النخع، يُقال له: شبيب، وكان يثق به، فأطلعه على أمره، ورغبه في معونته ومؤازرته، على قتل علي عليه السلام، إذْ قد علم عدوّ الله شدته، وجلده وخافه على نفسه، وجبن من الإقدام عليه وحده، وأخبر شبيباً بخبر وردان، بأنَّه قد أجابه إلى ذلك، وعاهده عليه وبما كان من قصة قطام، فتعاظم ذلك شبيب وقال: يا عبد الرحمن، ويحك قد علمت سوابق علي عليه السلام في الإسلام، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله، وشدته وشجاعته.

قال له: أفما تعلم من قتل من إخواننا، ونحن فإنَّما نحتال في أن نفتك به، ولسنا نبارزه، ولا ننازله، ولم يزل به حتى أجابه، فاجتمعوا ثلاثتهم، وعرَّفهما عبد الرحمن بن ملجم لعنهُ اللَّهُ الليلة، التي واعد فيها أصحابه، وقال: انظرا كيف يكون الرأي والعمل فيه، وأتوا بها إلى قطام، وكانت لها جزالة، ورأي، وحزم، وتقشُّف، وكانت تلزم المسجد مع النِّساء، وتعتكف فيه، فأخبروها

بما اجتمع أمرهم عليه، وقالوا لها: هل عندك من حيلة الوصول إليه في منزله.

قالت: لا، ولكن أمكن من ذلك، وقت خروجه إلى صلاة الفجر، فإنَّه يغلس بالخروج، فتكمنون له عند باب المسجد، فإذا دخل وثبتم عليه، وضربتموه ضربة رجل واحد، وخرجتم وافترقتم في الغلس، فتعاقدوا على ذلك، واشتمل كُلٌّ واحد منهم على سيفه، وأتوا المسجد ليلاً، فباتوا فيه مع من يبيت من الناس، مقابل سدة الباب، التي يخرج منها علي عليه السلام.

فلما خرج، شدَّ عليه شبيب فضربه بالسيف، فوقع سيفه في عضادة الباب، وضربه ابن مُلجم لعنهُ الله على أُمِّ رأسه، وخرج وردان، فهرب خوفاً من أن يدركه الناس، وصرخ بهم الناس.

فأمَّا وردان: فهرب حتى دخل عليه بعض من رآه، فقتله في منزله.

وأمَّا شبيب: فخرج نحو باب كندة في الغلس، وتصارخ الناس به، فلحقه رجل من حضرموت، وشبيب بيده السيف فرماه به، فأخذه الحضرمي، فلما رأى الناس قد لحقوه، خاف أن يظنوا أنَّه في القتلة، فرمى السيف ونجا شبيب في غمار الناس.

وشدوا على ابن مُلجم، فأخذوه، بعد أن ضربه رجل من همدان على رجله فصرعه.

وحضر وقت الصلاة، فدفع عليّ عليه السلام في ظهر جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فصلَّى بالناس الغداة، واحتمل علي عليه السلام إلى القصر، وأُدخل عليه عدوّ الله ابن مُلجم، فقال له عليّ عليه السلام: أي عدوّ الله، ألم أُحسن إليك؟

قال: نعم.

قال: فما حملك على ما صنعت؟ فأطرق.

فقال له عليّ عليه السلام: لا أراك إلَّا مقتولاً، وصائراً إلى النار، ومن شرِّ خلق الله.

قال: ولما ضُرب علي في المسجد قال: «فزت وربُّ الكعبة».

ويضيف عن الواقدي أنَّه قال: قتل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ليلة الجمعة، لتسع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، سنة أربعين، وغسَّله الحسن والحسين عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر، وكفن في ثلاثة أثواب، ليس فيها قميص، وصلَّى عليه الحسن عليه السلام، وكبَّر عليه سبع تكبيرات.

قال: ودفن بالكوفة ليلاً، وعُمِّي قبره.

روى اليعقوبي في تاريخه: (ج٢، ص١١٨)، قال:

وقدم عبد الرحمن بن ملجم المرادي الكوفة، لعشر بقين من شعبان، سنة ٤٠، فلمَّا بلغ عليّاً قدومه قال: وقد وافى؟ أما إنَّه ما بقي عليّ غيره هذا أوانه، فنزل على الأشعث بن قيس الكندي، فأقام عنده شهراً، يستحد سيفه، وكانوا ثلاثة نفر توجَّهوا، فواحد منهم إلى معاوية بالشام، وآخر إلى عمرو بن العاص بمصر، والآخر إلى علي، وهو ابن ملجم.

فأمَّا صاحب معاوية: فضربه، فوقعت الضربة على إليته، وبادر فدخل داره.

وأمَّا صاحب عمرو بن العاص: فإنَّه ضرب خارجة بن حذافة، خليفة عمرو في الصبح، وكان عمرو تخلف لعلَّة.

فقال الخارجي: أردتُ عمراً، وأراد الله خارجة.

وأمَّا عبد الرحمن بن ملجم: فإنَّه وقف له عند المسجد، وخرج عليّ في الغلس، فتبعه إوزّ كُنَّ في الدار، فتعلقن بثوبه فقال: صوائح تتبعها نوائح، وأدخل رأسه من خوخة المسجد، وضربه على رأسه، فسقط وصاح: خذوه، فابتدره الناس، فجعل لا يقرب منه أحد إلَّا نفحه بسيفه، فبادر إليه قُثم بن العباس، فاحتمله وضرب به الأرض فصاح: يا عليّ نحِّ عنِّي كلبك، وأتى به إلى عليّ فقال: ابن مُلجم؟

قال: نعم.

فقال: يا حسن شأنك بخصمك، فاشبع بطنه، واشدد وثاقه، فإن مُتُّ فألحقه بي أُخاصمه عند ربِّي، وإن عشت فعفو أو قصاص، وأقام يومين، ومات ليلة الجمعة، أوَّل ليلة من العشر الأواخر من شهر رمضان، سنة أربعين، ومن شهور العجم، في كانون الآخر، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وغسَّله الحسن بيده، وصلَّى عليه، وكبَّر عليه سبعاً وقال: أما إنَّه لا يكبَّر على أحد بعده، ودفن بالكوفة في موضع يُقال له: الغريّ، وكانت خلافته أربع سنين وعشرة أشهر.

وكان له من الذكور، أربعة عشر ذكراً:

الحسن، والحسين، ومحسن مات صغيراً، أُمّهم فاطمة بنت رسول الله، ومحمَّد الأكبر أُمّه خولة بنت جعفر الحنفيَّة، وعبيد الله، وأبو بكر لا عقب لهما، أُمّهما ليلى بنت مسعود الحنظلية، من بني تميم.

والعبَّاس، وجعفر قتلا بالطَّفّ[1] وعثمان، وعبد الله أُمّهما أُمّ البنين بنت حزام الكلابية، وعمرو، أُمّه أُمّ حبيب بنت ربيعة البكرية، ومحمَّد الأصغر لا عقب له، أُمّه أُمامة بنت أبي العاص، وعثمان الأصغر، ويحيى وأُمّهما أسماء بنت عُميس الخثعمية.

وكان له من البنات: ثماني عشرة ابنة، منهنَّ من فاطمة ثلاث، والباقيات لعدَّة نسوة، وأُمَّهات أولاد شتَّى، وكان على شرطه معقل بن قيس الرياحي، وحاجبه قنبر مولاه.

ولما مات قام الحسن خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النَّبي ثم قال:

ألا إنَّه قد مضى في هذه الليلة رجل، لم يدركه الأولون، ولن يرى مثله الآخرون، من كان يقاتل وجبريل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، والله لقد توفي في الليلة التي قُبض فيها موسى بن عمران، ورفع فيها عيسى بن مريم، وأُنزل فيها القرآن، ألا وإنَّه ما خلف صفراً ولا بيضاً، إلَّا سبعمائة درهم فضلت عن عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله.

واجتمع الناس فبايعوا الحسن بن عليّ، وخرج الحسن بن عليّ إلى المسجد الجامع، فخطب خطبة له طويلة، ودعا بعبد الرحمن بن مُلجم، فقال عبد الرحمن: ما الذي أمرك به أبوك؟

قال: أمرني أن لا أقتل غير قاتله، وأن أشبع بطنك، وأُنْعِم وطاءك، فإن عاش اقتصَّ أو عفى، وإن مات ألحْقتكَ به.

---

(١) مع الحسين في كربلاء.

فقال ابن مُلجم: إن كان أبوك ليقول الحق، ويقضي به في حال الغضب والرِّضى، فضربه الحسن بالسيف، فاتَّقاه بيده فندرت، وقتله انتهى.

هذا، وقد خرجت تلك الضربة من ابن مُلجم المرادي، من القوَّة إلى الفعل، فخضبت لحية علي بدم رأسه المقدَّس، وهي معلومة لله ولرسوله ولعلي، وقد سمعها جمع من صحابة رسول الله، قال له: يا علي أتدري من أشقى الأولين.

قال علي: عاقر ناقة صالح قدار.

قال النبي: أتدرى من أشقى الآخرين.

قال علي: الله ورسوله أعلم.

قال: يا علي أشقى الآخرين، هو الذي يخضب هذه، وأشار بيده إلى لحية علي من هذا، وأشار بيده إلى رأس علي.

نعم لقد وعده بها رسول الله، الذي لا ينطق عن الهوى، وكان قد وعد عمَّار بن ياسر قال: يا عمَّار تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدُّنيا نضح من اللبن، كذلك خرج بها من القوَّة إلى الفعل في حرب صفِّين، كما مرَّ عليك، فما مِن حركة في الحياة، أو ساكنةٍ، إلَّا وهي في علم الله تعالى، في كتابٍ من قبل أن يبرأها الله.

وهذا البحث خارج وجهة هذا الكتاب، فهو في مباحث الجبر والتفويض، والقدر والمقدور فمن أراده فإلى هناك بحفظ الله تعالى.

وذكر المسعودي في مروجه قال: إنَّه قدخرج إلى المسجد،

وقد عسر عليه فتح باب داره، وكان من جذوع النخل فاقتلعه وجعله ناحية، وانحلَّ إزاره فشدَّه، وجعل ينشد هذين البيتين:

[الهزج]

اشددْ حيازيمك للموتِ فإنَّ الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموتِ إذا حلَّ بواديكا

وفي نهج البلاغة: (ج١، ص١٤٤)، أنَّه قال في سُحْرة اليوم الذي ضُرب فيه:

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ؟

فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ». فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْراً لِي مِنْهُمْ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي.

قال السيّد الرضيّ رضي اللّه عنه: يعني عليه السلام بـ«الأود» الاعوجاج، وبـ«اللدد» الخصام.

ومن وصية له للحسن والحسين عليهما السلام، لما ضربه ابن مُلجم لعنه الله، في نهج البلاغة: (ج٣، ص٥٦٥)، قال:

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَنْ لَا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا بِالْحَقِّ. وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ. وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وُلْدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى

اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا ﷺ يَقُولُ: «صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

اللَّهَ اللَّهَ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ.

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي جِيرَانِكُمْ. فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ.

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ.

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ.

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَا تُخْلُوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا.

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ.

لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ» أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي.

انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ».

وذكر المسعودي، أنَّ عبد الرحمن بن مُلجم، لما خطب قطام قالت: لا أتزوَّج حتى تُسمِّي لي.

قال: لا تسأليني شيئاً إلَّا أعطيته.

فقالت: ثلاثة آلافٍ، وعبداً وقينة، وقتل عليّ.

فقال: ما سألتِ هو لكِ مهر، إلَّا قتل علي، فلا أراك تدركينه، وخرج من عندها وهو يقول:

[الطويل]

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ ... وقتلُ عليٍّ بالحُسام المصمَّمِ

فلا مهْر أغلى من عليٍّ وإنْ غلا ... ولا فتك إلَّا دون فتك ابن مُلجمِ

وفيه يقول عمران بن حطان الرقاشي يحمده قال:

[الطويل]

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها ... إلَّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إنِّي لأذكره يوماً فأحسُبهُ ... أوفى البريَّة عند اللَّه ميزانا

فأجابه القاضي أبو الطيِّب، طاهر بن عبد الله الشافعي فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

[البسيط]

إنِّي لأبرأ ممَّا أنت قائلهُ ... عن ابن مُجلم الملعون بهتانا

يا ضربةً من شقيٍّ ما أراد بها ... إلَّا ليهدم للإسلام أركانا

إنِّي لأذكرهُ يوماً فألعنُهُ ... دنياً وألعنُ عمراناً وحطَّانا

عليه ثمَّ عليه الدَّهر مُتَّصلاً   لعائن اللَّه إسراراً وإعلانا
فأنتما من كلاب النَّار جاء به   نصّ الشريعةِ برهاناً وتبيانا
عليكما لعنة الجبَّار ما طلعت   شمسٌ وما أوقدوا في الكون نيرانا

ورحم الله تعالى بكر بن حمَّاد التاهرتي حيث يقول:

[البسيط]

قل لابن مُلجم والأقدارُ غالبة   هدمت ويلك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم   وأوّل الناس إسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثمَّ بما   سنَّ الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولانا وناصره   أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له   مكان هارون من موسى ابن عمران
وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكراً   ليثاً إذا ما لقي الأقرانَ أقرانا
ذكرت قاتله والدَّمعُ مُنحدرٌ   فقلت سبحان ربِّ النَّاسِ سبحانا
إنِّي لأحسبه ما كان من بشرٍ   يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقى مرادٍ إذا عُدَّت قبائلها   وأخسر النَّاس عند اللَّه ميزانا
كعاقر الناقة الأُولى التي جلبت   على ثمودٍ بأرض الحجر خسرانا
قد كان يخبرهم أنَّ سوف يُخضِّبُها   قبل المنية أزماناً فأزمانا
فلا عفا اللَّه عنهُ ما تحمله   ولا سقى قبر عمران ابن حطَّانا
لقوله في شقيٍّ ظلَّ مجترماً   ونال ما نالهُ ظُلماً وعدوانا
يا ضربة من تقي ما أراد بها   إلَّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوي أورثته لظىً   مُخلَّداً قد أتى الرَّحمٰن غضبانا
كأنَّه لم يرد قصداً بضربته   إلَّا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

ورثاه أبو الأسود الدؤلي فقال: (من الوافر):

ألا أبلغ معاوية ابن حرْبٍ   فلا قرَّتْ عيونُ الشامتينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير النَّاسِ طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... وذلَّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثاني والمبينا
إذا استقبلت وجه أبي حسينٍ ... رأيت النُّور فوق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنَّك خيرهم حسباً ودينا

وعن نوف البكالي في نهج البلاغة: (ج٢، ص٣٦٩)، أنَّ علياً قال: وقد جمع الناس وخطبهم يريد الجهاد، فممَّا قاله:

مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ ـ وَهُمْ بِصِفِّينَ ـ أَنْ لَا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ ـ وَاللَّهِ ـ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ؟

قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّريفة فَأَطَالَ الْبُكَاءَ، ثُمَّ قَالَ عليه السلام:

أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ.

ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَومِي هَذَا، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ.

قَالَ نَوْفٌ: وَعَقَدَ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام فِي عَشَرَةِ آلافٍ، وَلِقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ فِي عَشَرَةِ آلافٍ، وَلِأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فِي عَشَرَةِ آلافٍ، وَلِغَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخَرَ، وَهُوَ يُرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى صِفِّينَ، فَمَا دَارَتِ الْجُمُعَةُ حَتَّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابْنُ مُلْجَم، لَعَنَهُ اللَّهُ، فَتَرَاجَعَتِ الْعَسَاكِرُ، فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَقَدَتْ رَاعِيَهَا، تَخْتَطِفُهَا الذِّئَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

تبيان: «ما ضرّ» نافية، ويحتمل الاستفهام أيضاً على الإنكار. والفاعل هو قوله: «أن لا يكونوا».

وإساغة الغصص هنا كناية عن كثرة الآلام ومشاهدة المنكرات، بحيث صار تجرّع الغصص عادة لهم، أو عن الرضا بقضاء اللّه.

والغصّة ما يعترض في الحلق.

والرنق بالفتح والتحريك الكدر من الماء.

وعمَّار هو ابن ياسر المعروف وقد مرّ فضله.

وابن التّيّهان بالياء المنقوطة باثنتين تحتها، المشدّدة المكسورة، وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، ذكره ابن أبي الحديد وجوّز فتح الياء أيضاً. والمضبوط في أكثر النسخ بالياء الساكنة وفتح التاء وكسرها معاً.

وفي القاموس وتيهان وتيّهان مشدّدة الياء ويكسر، وهو أبو الهيثم واسمه مالك.

وقال ابن أبي الحديد: الصحيح أنّه أدرك صفّين وشهدها مع عليّ عليه السلام . . .

وذو الشهادتين هو خزيمة بن ثابت وقصته مشهورة، يكنّى أبا عمارة، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وشهد صفين مع علي عليه السلام، فلما قتل عمّار قاتل حتّى قتل.

قوله عليه السلام: «تعاقدوا» أي جعلوا الموت بينهم عقداً. أو تابعوا على الموت.

وروي: «تعاهدوا». «وأبرد برؤوسهم» مأخوذ من البريد أي أرسل للبشارة بها.

و«الفجرة» أمراء عسكر الشام.

و«أوه» ساكنة الواو مكسورة الهاء كلمة شكوى وتوجّع، وربَّما قلبوا الواو ألفاً، فقالوا: آهِ من كذا، وآه على كذا. وربَّما شدّد الواو وكسروها وسكنوا الهاء، فقالوا: أوّه من كذا. وربَّما حذفوا الهاء مع التشديد وكسروا الواو، فقالوا: أو من كذا بلا مدّ. وقد يقولون آوّه بالمدّ والتشديد وفتح الواو وسكون الهاء، لتطويل الصوت بالشكاية. وربَّما أدخلوا فيه التاء تارة يمدّونه، وتارة لا يمدّونه، فيقولون أوتاه وآوتاه، والاسم منه الآهة بالمدّ. ذكره الجوهري وابن أبي الحديد.

وإحكامه أي القرآن تلاوته كما ينبغي مع رعاية المحسنّات، والتدبّر في معانيه والعمل بمقتضاه. وأراد عليه السلام بالقائد نفسه.

والرواح إلى اللّه الذهاب إلى الفوز برضوانه، أو إلى لقائه بالشهادة.

وقيس هو من أصحاب رسول الله ﷺ، كان شجاعاً جواداً من كبار شيعة علي عليه السلام، شهد حروبه كلّها. وأبوه سعد بن عبادة، كان رئيس الخزرج، ولم يبايع أبا بكر، ومات على عدم البيعة.

والمشهور أنّهم قتلوه لذلك، وأحالوا قتله على الجنّ، وافتروا شعراً من قبل الجنّ.

وأبو أيوب هو خالد بن سعد بن كعب الخزرجيّ من بني النّجار، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد، وعليه نزل رسول اللّه ﷺ حين قدم المدينة، وشهد مع أمير المؤمنين عليه السلام مشاهده كلّها، وكان على مقدّمته يوم النهروان.

والاختطاف أخذك الشيء بسرعة.

والمُراد هنا إمّا الأخذ بالنهب والقتل والإذلال، أو الإغواء والإضلال.

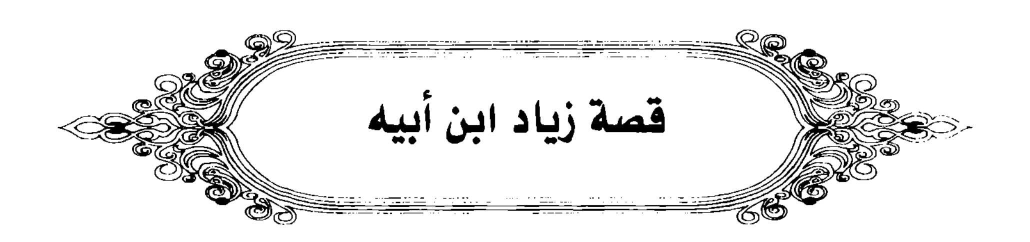
قال الله العزيز الحكيم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[2].

---

(١) سورة القمر: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٨ ـ ٣٠.



قصة زياد ابن أبيه

زياد ابن أبيه، كان رجلاً ذكياً، حازماً، حاسماً في مواطن الشِّدَّة والبأس، وكان ليِّناً منبسطاً، عند الدَّعةِ والرَّخاء.

بيد أنَّه هدم ذكره عن شرفه، في طلب الدنوِّ من الحكم والسلطان، فرضي في الإقرار، على أُمِّهِ بالزِّنى مع أبي سفيان صخر بن حرب، ليكون أخاً لمعاوية بن هند، فنال شرفاً دنيئاً، دمِناً بشرفه على آذان النَّاس، بشهادة الشهود في مسجد الشام.

سعى بذلك الإدعاء لأبيه معاوية، ليكون له أخاً ووالياً، يُدير له الحكم، وقد ولَّاه مصراً من الأمصار.

فكان هذا الإدعاء، من معاوية وزياد، رغماً عن أنف رسول الله، حيث يقول ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

هذا: وكان علي قد حذَّر زياداً، وقد بلغه أنَّ معاوية كتب إليه، يُريدُ خديعته باستلحاقه فكتب إليه عليه السلام:

وقد عرفتُ أنَّ معاوية كتب إليك، يستزلُّ لُبَّك، ويستفلَّ غربك فاحذره، فإنَّما هو الشيطان، يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته، ويستلب غرته.

وقد كان من أبي سُفيان في زمن عُمر، فلتة من حديث النفس، ونزغة من نزغات الشيطان، لا يثبُتُ بها نسب، ولا يُستحقُّ بها إرث.

والمتعلِّقُ بها كالواغل المدفَّع، والنوط المذبذب.

فلمَّا قرأ زياد الكتاب قال:

شهد بها وربِّ الكعبة، ولم تزل في نفسه حتى ادعاه معاوية.

قال المسعودي في مروج الذهب: (ج٣، ص٧): ولما همَّ معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان أبيه، وذلك في سنة أربع وأربعين، شهد عنده زياد بن أسماء الحُرمازي، ومالك بن ربيعة السلولي، والمنذر بن الزبير بن العوام: أنَّ أبا سفيان أخبر أنَّه ابنه، وأنَّ أبا سفيان قال لعليّ عليه السلام، حين ذُكر زياد عند عمر بن الخطاب:

[الوافر]

أما واللَّه لولا خوفُ شخصٍ ... يراني يا عليُّ من الأعادي
لبيَّنَ أمره صخرُ بن حربٍ ... ولم يكن المجمجم عن زيادِ
ولكنِّي أخاف صروف كفٍّ ... لها نقمٌ ونفيٌ عن بلادي
فقد طالت محاولتي ثقيفاً ... وتركي فيهمُ ثمر الفؤادِ

* * *

ثم زاده يقيناً إلى ذلك، شهادة أبي مريم السلولي، وكان أخبر النَّاس ببدء الأمر، وذلك أنَّه جمع بين أبي سفيان وسمية أُمّ زياد في الجاهلية على زنا، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف، تؤدِّي الضريبة إلى الحارث بن كلدة، وكانت تنزل بالموضع الذي

تنزل فيه البغايا بالطائف، خارجاً عن الحضر، في محلة يُقال لها: حارة البغايا.

وكان سبب ادعاء معاوية له، أنَّ عليّاً كان ولَّاه فارس، حين أخرج منها سهل بن حنيف، فضرب زياد بعضهم بعضاً، حتى غلب عليها، وما زال يتنقل في كورها، حتى صلح أمر فارس.

ثمَّ ولَّاه على أصْطُخر، وكان معاوية يتهدَّده، ثم أخذ بُسر بن أرطأة عبيد الله وسالماً ولديه، وكتب إليه يُقسمُ ليقتلنَّهما إن لم يراجع، ويدخل في طاعة معاوية، وكتب معاوية إلى بسر، ألَّا يعرض بابني زياد، وكتب إلى زياد أن يدخل في طاعته، ويردّه إلى عمله، فقدم زياد على معاوية، فصالحه على مالٍ وحُليّ، ودعاه معاوية إلى أن يستخلفه، فأبى زياد ذلك.

وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد، قبل قدومه على معاوية: إرْم بالغرض الأقصى، ودع عنك الفضول، فإنَّ هذا الأمر لا يمدّ إليهِ أحد يداً إلَّا الحسن بن عليّ، وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك قبل التوطين.

فقال زياد: فأشر عليَّ.

قال: أرى أن تنقل أصلك إلى أصله، وتصل حبلك بحبله، وأن تُعير النَّاس منك أُذناً صمَّاء.

فقال زياد: يابن شعبة، أأغرس عوداً في غير منبته، ولا مدرة فتحييه، ولا عرق فيسقيه.

ثمَّ إنَّ زياداً، عزم على قبول الدعوة، وأخذ برأي ابن شعبة، وأرسلت جويرية بنت أبي سفيان، عن أمر أخيها معاوية، فأتاها فأذنت له، وكشفت عن شعرها بين يديه، وقالت: أنت أخي، أخبرني بذلك أبو مريم.

ثمَّ أخرجه معاوية إلى المسجد، وجمع النَّاس، فقام أبو مريم السلولي فقال: أشهد أنَّ أبا سفيان، قدم علينا بالطائف، وأنا خمَّارٌ في الجاهلية.

فقال: أبغني بغياً، فأتيته وقلت له: لم أجد إلَّا جارية الحارث بن كلدة سمَّية.

فقال: اتني بها على ذفرها وقذرها.

فقال له زياد: مهلاً يا أبا مريم، إنَّما بُعثتَ شاهداً، ولم تبعث شاتماً.

فقال أبو مريم: لو كُنتُم أعفيتموني، لكان أحبّ إليَّ، وإنَّما شهدت بما عاينتُ، ورأيت والله لقد أخذ بُكمِّ درْعها، وأغلقتُ الباب عليهما، وقعدتُ دهشاً، فلم ألبث أن خرج عليَّ، يمسح جبينه، فقلت: مه يا أبا سفيان.

فقال: ما أصبت مثلها يا أبا مريم، لولا استرخاء من ثديها، وذفر مِن فيها.

فقام زياد فقال: أيُّها النَّاس هذا الشاهد، قد ذكر ما سمعتم، ولستُ أدري حقّ ذلك من باطله، وإنَّما كان عُبيد ربيباً مبروراً، أو شكوراً، والشهود أعلم بما قالوا.

فقام يونس بن عبيد، أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفي، وكانت صفية مولاة سمَّية، فقال: يا معاوية، قضى رسول الله ﷺ: «**أنَّ الولد للفراش وللعاهر الحجر**»، وقضيت أنت، أنَّ الولد للعاهر، وأنَّ الحجر للفراش، مُخالفةً لكتاب الله تعالى، وانصرافاً عن سُنَّة رسول الله ﷺ، بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان.

فقال معاوية: والله يا يونس، لتنتهينَّ، أو لأطيرنَّ بك طيرةً بطيئاً وقوعها.

قال يونس: هل إلَّا إلى الله ثم أقع؟

قال: نعم، وأستغفر الله.

فقال يزيد بن مُفرغ الحميري:

[الوافر]

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ ... مُغلغلةً عن الرَّجل اليماني

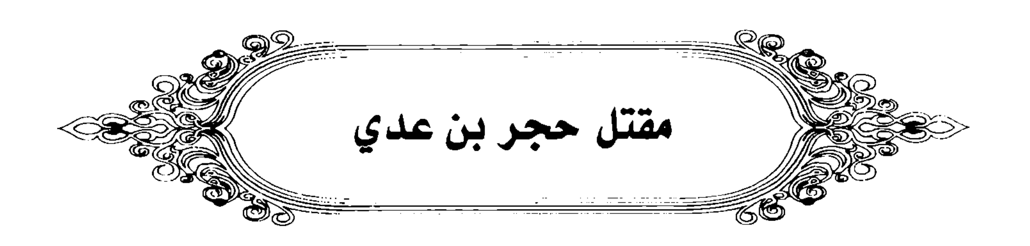
أتغضب أن يُقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يُقال أبوك زاني

فأشهد أن رِحْمكَ من زيادٍ ... كرِحم الفيل من ولد الأتانِ

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1].

(١) سورة الإسراء: ٣٢.



مقتل حجر بن عدي

رحم الله حجر بن عدي، الصحابي الجليل، والفارس الشجاع، كان ثاقب البصيرة، تقيّاً نقيّاً، جاهد في الله حقَّ جهاده، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، آثر طاعة الله ورسوله، على طاعة السلطان، بقلبه، ولسانه، ويده، مُحتسباً صابراً، حتى أتاه اليقين، ولم يخشى أحداً في جهاده، إلَّا الله عزَّ وجلَّ.

وفد الصحابي الجليل على رسول الله في المدينة، فأسلم إسلاماً صحيحاً، وحضر حرب القادسية، ثم كان في ركب علي، فتخلَّق بأخلاقه، وخاض معه حربهُ المُحق، يعرف ما عرف علي، وينكر ما أنكر علي، على هدى وبصيرة من الله تعالى.

حتى إذا استشهد علي، وتمزَّق الناس، حكم معاوية بن أبي سفيان، فأمر بسبِّ علي في العراق، كما في الشام وغيرها، تحت حكمه وسلطانه، فقام حجر ينكر عليه سبَّ الوصي علي بن أبي طالب، على لسان المغيرة بن شعبة، وزياد بن أبي سفيان على منبر الكوفة.

وفي مقتله، نقُصُّ عليك ما عَلِق من أمره بالحقّ، فاقْرأ معي.

قال علي عليه السلام في نهج البلاغة: (ج١، ص١٣٠):

أَمَا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُوم، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ! أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ، وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَتَبَرَّأُوا مِنِّي، فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ.

مندحق البطن بارزها، والدحوق من النوق التي يخرج رحمها عند الولادة وسيظهر سيغلب ورحب البلعوم واسعه.

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عنى زياداً وكثير منهم يقول: إنَّه عنى الحجَّاج.

وقال قوم: إنَّه عنى المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي أنَّه عنى معاوية لأنَّه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه، وكان معاوية جواداً بالمال والصلات وبخيلاً على الطعام.

يُقال: إنَّه مازح أعرابياً على طعامه وقد قدم بين يديه خروف فأمعن الأعرابي في أكله فقال له: ما ذنبه إليك أنطحك أبوه.

فقال الأعرابي: وما حنوك عليه أأرضعتك أمه.

وقال لأعرابي: يأكل بين يديه وقد استعظم أكله ألا أبغيك سكيناً فقال: كل امرىء سكينه في رأسه فقال: ما اسمك قال: لقيم قال: منها أتيت.

كان معاوية يأكل فيكثر ثم يقول: ارفعوا فوالله ما شبعت ولكن مللت وتعبت.

تظاهرت الأخبار أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعا على معاوية لما بعث إليه يستدعيه فوجده يأكل ثم بعث فوجده يأكل فقال: اللَّهمَّ لا تشبع بطنه.

قال الشاعر:

وصاحب لي بطنه كالهاوية   كأنَّ في أحشائه معاوية

وفي هذا الفصل مسائل الأولى في تفسير قوله عليه السلام: فاقتلوه ولن تقتلوه فنقول: إنَّه لا تنافي بين الأمر بالشيء.

والإخبار عن أنَّه لا يقع كما أخبر الحكيم سبحانه عن أنَّ أبا لهب لا يؤمن وأمره بالإيمان وكما قال تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ وأكثر التكليفات على هذا المنهاج.

وقال عليه السلام في نهج البلاغة في ظلم بني أُميَّة من بعده:

وَاللَّهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدَعُوا لِلَّهِ مُحَرَّماً إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رِعَتِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ، بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللَّهِ ظَنّاً، فَإِنْ

أَتَاكُمُ اللَّهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

تقدير الكلام لا يزالون ظالمين، فحذف الخبر وهو مُراد وسدت حتى وما بعدها مسد الخبر، ولا يصح ما ذهب إليه بعض المفسرين، من أن زال بمعنى تحرك، وانتقل فلا تكون محتاجة إلى خبر بل تكون تامة في نفسها، لأنَّ تلك مستقبلها يزول بالواو وهاهنا بالألف لا يزالون، فهي الناقصة التي لم تأت تامة قط، ومثلها في أنَّها لا تزال ناقصة ظلَّ وما فتى وليس.

والمحرم ما لا يحل انتهاكه وكذلك المحرمة بفتح الراء وضمها.

وبيوت المدر هي البيوت المبنية في القرى وبيوت الوبر ما يتخذ في البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن وكالشعر للمعز.

وقد وبر البعير بالكسر فهو وبر وأوبر إذا كثر وبره ونبا به منزله إذا ضرَّه ولم يوافقه.

وكذلك نبا به فراشه فالفعل لازم فإذا أردت تعديته بالهمزة، قلت: قد أنبى فلان على منزلي أي جعله نابياً وإن عديته بحرف الجر قلت: قد نبا بمنزلي فلان أي أنباه علي وهو في هذا الموضع معدى بحرف الجر.

وسوء رعتهم أي سوء ورعهم أي تقواهم والورع بكسر الراء الرجل التقي ورع يرع بالكسر فيهما ورعاً ورعة.

ويروى: سوء رعيهم أي سوء سياستهم وإمرتهم ونصرة أحدكم من أحدهم أي انتصاره منه وانتقامه فهو مصدر مضاف إلى الفاعل.

وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول، وكذلك نصرة العبد وتقدير الكلام حتى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيِّد العبد السيِّىء الطريقة إيَّاه، ومن في الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره من جانب أحدهم ومن جانب سيِّده، وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله: إذا شهد أطاعه وهو الكلام الذي إذا استمر المعنى جعل حالاً من العبد بقوله من سيِّده.

والضمير في قوله: فيها يرجع إلى غير مذكور لفظاً ولكنَّه كالمذكور يعني الفتنة أي حتى يكون أعظمكم في الفتنة غناءً.

ويروى: برفع أعظمكم ونصب أحسنكم والأول أليق وهذا الكلام كلّه إشارة إلى بني أُميَّة.

❁ ❁ ❁

وبعد، فمُلخَّص ما ذكره أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، في مقتل حجر بن عدي، في كتابه تاريخ الأُمم والملوك ج٤، قال: إنَّ معاوية بن أبي سفيان، لما ولَّى المغيرة بن شعبة الكوفة، في جمادى سنة ٤١هـ، دعاه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أمَّا بعد:

فإنَّ لِذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا، وقد قال المُتلمِّس:

لِذِي الحِلْمِ قبل اليوم ما تقرع العصا وما عُلِّم الإنسانُ إلَّا ليعْلَما

وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعلُّم، وقد أردتُ إيصاءك

بأشياءٍ كثيرة، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك، بما يرضيني، ويسعد سلطاني، ويصلح به رعيتي، ولست تاركاً إيصاءك، بخصلة لا تَتَحَمَّ عن شتم عليٍّ وذمّه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب عليّ والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه، والإدْناء لهم، والاستماع منهم، فقال المغيرة:

قد جرَّبْتُ وجُرِّبتُ، وعملتُ قبلك لغيرك، فلم يُذْممْ بي دفع، ولا رفع، ولا وضع، فستبلوا فتحمد، أو تذم، ثم قال: بل نُحمد إنْ شاء الله.

ثم انصرف المغيرة والياً على الكوفة، فقام على المنبر في الناس، بما قد أمره به معاوية يشتم عليّاً ومن والاه، ويقصي شيعة علي، ويمنع عنهم العطاء، فقام حجر بن عدي في نفر معه، يرد على المغيرة، وينهاه عن سبِّ عليّ، ويطالبه بما منعهم من عطائهم، الذي قسم الله لهم.

فيقول له المغيرة: يا حجر ويحك، اتَّقِ السلطان، اتَّقِ غضبهُ وسطوتهُ، فإنَّ غضْبة السلطان أحياناً، ممَّا يُهلك أمثالك كثيراً، ثم يكف عنه ويصفح، فلم يزل، حتى كان في آخر إمارته، قام المغيرة فترحم على عثمان وشتم عليّاً، فقام حجر بن عدي، فنعر نعرة بالمغيرة، سمعها كُلّ من كان في المسجد وخارجاً منه، وقال: إنَّك لا تدري بمن تولَّعُ من هرمك أيُّها الإنسان، مُر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فإنَّك قد حبستها عنَّا، وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع

في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مُولعاً بذمِّ أمير المؤمنين، وتقريظ المجرمين.

قال: فقام معه أكثر من ثُلثي الناس، يقولون: صدق والله حجر وبرَّ، مُرْ لنا بأرزاقنا وأُعطياتنا، فإنَّا لا ننتفع بقولك هذا، ولا يجدي علينا شيئاً، وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه.

قال: فولي المغيرة الكوفة سنة ٤١ في جمادى، وهلك سنة ٥١، فجُمعت الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سفيان، فأقبل زياد حتى دخل القصر بالكوفة.

قال: فخطب زياد يوماً في الجمعة، فأطال الخطبة، وأخَّر الصلاة، فقال له حجر بن عدي: الصلاة، فمضى في خطبته، ثم قال: الصلاة فمضى في خطبته، فلما خشي حجر فوت الصلاة، ضرب بيده إلى كفٍّ من الحصا، وثار إلى الصلاة، وثار الناس معه.

فلما رأى ذلك زياد، نزل فصلَّى بالناس، فلما فرغ من صلاته، كتب إلى معاوية في أمره، وكثَّر عليه.

فكتب إليه معاوية: أن شدَّه في الحديد، ثم احملْهُ إليَّ، فلما أن جاء كتاب معاوية، شُدَّ في الحديد، ثم حُمل إلى معاوية، فلما أُدخل عليه، قال: أخرجوه فاضربوا عنقه، فأُخرج من عنده.

فقال حجر للذين يلون أمره: دعوني حتى أُصلِّي ركعتين.

فقالوا: صله، فصلَّى ركعتين خفَّف فيهما، ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أنا عليه، لأحببت أن تكونا أطول ممَّا كانتا،

ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة، خير فما في هاتين خير، ثم قال لمن حضره من أهله: لا تطلقوا عنِّي حديداً، ولا تغسلوا عنِّي دماً، فإنِّي أُلاقي معاوية غداً على الجادة، ثم قُدِّم فضربت عنقه.

قال: فلما حضرته الوفاة، جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل.

روى المسعودي في مروجه: (ج٣، ص٣)، قال: وفي سنة ثلاث وخمسين، قتل معاويةُ حجر بن عدي الكندي، وهو أوَّل من قُتل صبراً في الإسلام.

حمله زياد من الكوفة، ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة، وأربعة من غيرها، فلما صار على أميال من الكوفة يُراد به دمشق، أنشأت ابنته تقول، ولا عقب له من غيرها:

[الوافر]

ترفع أيُّها القمر المنيرُ لعلَّك أن ترى حجراً يسيرُ
يسير إلى معاوية بن حربٍ ليقتلهُ كذا زعم الأميرُ
ويصلبه على باب دمشقٍ وتأكل من محاسنه النسورُ
تخيَّرت الخبائر بعد حجرٍ وطاب لها الخورْنقُ والسَّديرُ
ألا يا حجر حجر بني عَدِيٍّ تلقَّتك السلامة والسرورُ
أخاف عليك ما أرْدى عليّاً وشيخاً في دمشقٍ له زئيرُ
ألا يا ليت حجراً مات موتاً ولم ينحر كما نُحِر البعيرُ
فإن تهلك فكُلُّ عميد قومٍ إلى هلكٍ من الدُّنيا يصيرُ

❁ ❁ ❁

ولما صار إلى مرج عذراء، على اثني عشر ميلاً من دمشق، تقدَّم البريد بأخبارهم إلى معاوية، فبعث برجل أعور، فلما أشرف على حجر وأصحابه، قال رجل منهم:

إن صدق الرجل، فإنَّه سيُقتل منَّا النصف، وينجو الباقون.

فقيل له: وكيف ذلك؟

قال: أما ترون الرجل المقبل مُصاباً بإحدى عينيه.

فلما وصل إليهم، قال لحجر: إنَّ أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك، يا رأس الضلال، ومعدن الكفر والطغيان، والمتولي لأبي تراب وقتل أصحابك، إلَّا أن ترجعوا عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم، وتتبرأوا منه.

فقال حجر وجماعة ممَّن كان معه: إنَّ الصبر على حدِّ السيف، لأيسر علينا ممَّا تدعونا إليه، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيّه، أحبُّ إلينا من دخول النار.

وأجاب نصف من كان معه، إلى البراءة من عليّ.

فلما قُدِّم حجر ليقتل قال: دعوني أُصلِّي ركعتين، فجعل يطول في صلاته، فقيل له: أجزعاً من الموت؟

فقال: لا، ولكنِّي ما تطهَّرت للصلاة قطّ، إلَّا صليت، وما صليت قطّ، أخف من هذه، وكيف لا أجزع، وإنِّي لأرى قبراً محفوراً، وسيفاً مشهوراً، وكفناً منشوراً، ثم تقدَّم فنُحر، وأُلحق به من وافقه على قوله من أصحابه.

وقيل: إنَّ قتلهم كان في سنة خمسين.

قال: وبويع معاوية في شوال سنة إحدى وأربعين ببيت المقدس، فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وتوفي في رجب سنة إحدى وستين، وله ثمانون سنة، ودُفن بدمشق بباب الصغير، وقبره يُزار.

هذا، ووقف الشاعر السوري محمد المجذوب على قبر معاوية، فقال يُناديه ويقرعه:

أين القصور أبا يزيد ولهوها ... والصافنات وزهوها والسؤددُ
أين الدهاءُ نحرت عزتهُ على ... أعتاب دنياً سحرها لا ينفدُ
آثرْت فانيها على الحقّ الذي ... هو لو علمتَ على الزمان مُخلدُ
تلك البهارج قد مضت لسبيلها ... وبقيت وحدك عبرة تتجدَّدُ
هذا ضريحك لو بصُرت ببؤسه ... لأسال مدمعك المصير الأسودُ
كتلٌ من التُّراب المهين بخربةٍ ... سكر الذباب بها فراح يعربدُ
خفيتْ معالمها على زوَّارها ... فكأنَّها في مجْهلٍ لا يُقصدُ
ومشى بها ركب البلى فجدارها ... عارٍ يكاد من الضراعة يسجدُ
والقبة الشماء نكَّس طرفها ... فبكل جزءٍ للفناء بها يدُ
تَهمي السحائب من خلال شقوقها ... والريح في جنباتها تتردَّدُ
حتى المصلَّى مظلم فكأنَّه ... مُذ كان لم يجْتز به متعبِّدُ
أأبا يزيد لتلك حكمة خالقٍ ... تجلى على قلب الحكيم فيرشدُ
أرأيت عاقبة الجموح ونزوةٍ ... أودى بلُبِّك غيُّها المتردِّدُ
أغرتك بالدُّنيا فرُحْت تشنّها ... حرباً على الحقِّ الصراح وتُوقدُ
أأبا يزيد وساء ذلك عترة ... ماذا أقول وباب سمعك مُوصدُ

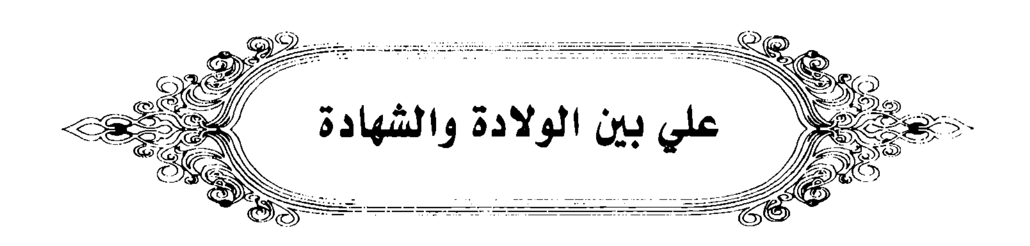
قم وارمق النجف الشريف بنظرةٍ يرتدّ طرفك وهو باكٍ أرمدُ
تلك العظام أعزَّ ربّك قدرها فتكاد لولا خوف ربِّك تُعبدُ
أبداً تباكرها الوفود يحثّها من كُلِّ صوب شوقها المتوقِّدُ
نازعْتها الدُّنيا ففزت بوردها ثم انطوى كالحلم ذاك الموردُ
وسعت إلى الأُخرى فأصبح ذكرها في الخالدين وعطف ربّك أخلدُ

أقول: حجر ومن كان على نور حجر، فجاهد وقُتل، كما جاهد وقُتل حجر، وكذلك من قد سلك طريقهم، فجاهد وقُتل على ما قد قتلوا عليه، فأُولئك بحقٍّ، قد أرادتهم الدُّنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، فكانوا مُقتَّلين مُشردين، حتى قدموا على ربّهم بجهادهم، فاختصموا مع ظالمهم بين يديه، فاقتص لهم من عدوِّه وعدوّهم، فجعلهم بحكمه، وعدله فريقين، فريقاً في الجنَّة، وفريقاً في السعير، وقد خاب من افترى والعاقبة للمتقين، صبروا أيَّاماً قصيرة، فأعقبتهم راحة طويلة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[(١)].

---

(١) سورة طه: ٧٤ ـ ٧٦.



علي بين الولادة والشهادة

لقد وهب الله لعبده علي بن أبي طالب، علوي الرُّوح، وشجاعة القلب، وصفاء النفس، وعريق الأصل، وطهارة المنبت والمشكاة، فجُمعت في شخصه المقدَّس العلوي، صفات الأنبياء والمرسلين، ليكون لهم لسان صدقٍ عليّاً.

وكفله النَّبي، عن عمِّه أبي طالب، يوم كان وليداً، يمضغ الشيء فيلقمه، ويرفع له في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمره بالاقتداء به، فكان يتبعهُ اتِّباع الفصيل أثر أُمِّه، وكان النَّبي يضمَّه إلى صدره في فراشه، ويمسَّهُ جسده، ويشمه عرفه، وكان يُجاوِرُ معه في كل سنةٍ بحرَّاء، يراه ولا يراه غيره، يرى نور الوحي والرِّسالة، ويشم ريح النُّبوَّة.

ولما بلغ أشده، آتاه الله ورسوله العلم والحكمة، وفصل الخطاب، فكان رسول الله ﷺ مدينة العلم وعليٌّ بابها، وبلغ عليٌّ بنور إيمانه، وكمال يقينه بربِّه، أن قال: «**والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً**».

وقال في إخلاص عبادته لربِّه، على مستقيم صراطه: «إلهي، هبني صبرت على حرِّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك».

كيف لا وهو سيِّد العرفان، وإمام المتقين، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقام عليٌّ بروحه العلوي، ونفسه المقدَّسة، بما أُوتي من قوَّةٍ، وشجاعة القلب، شاكراً لله ولرسوله، بالقول والعمل، في حفظ الدِّين والرِّسالة، لصدق ولادته في الكعبة قبلة المسلمين، ومحجهم ومطافهم، لا يلوي ولا يسكن، عن جهاد أئمَّة الشِّرك والكفر، ودعاة الفسق والفجور، والعبث والإفساد، في ما شرع الله ورسوله للناس، ليحقّ بذلك الحق، ويبطل الباطل، بكلمات الله وسُنَّة رسوله، في تأسُّدٍ وتنمُّرٍ، لا تأخذه في الله لومة لائم، وإن قلَّ الأزير والنصير، حتى استشهد في محراب الصلاة، بسيف أشقى الأوَّلين والآخرين، عبد الرحمن بن ملجم المُرادي (لعنه الله).

السَّلَام عليكَ يا أمير المؤمنين عليّ: يا وليد الكعبة، وشهيد محراب الصلاة، وعلى أبيك أبي طالب، وعلى أُمّك فاطمة بنت الأسد.

السَّلَامُ علَيكَ يا عليّ: يوم بت في فراش النَّبي، تقيه بنفسك، ويوم ردذْت الودائع في مكَّة، ويوم هاجرت بالفواطم، إلى الله ورسوله في دار هجرته.

السَّلَامُ علَيْكَ يا عليّ: بدرٍ في بدر.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا عَلِيّ: أُحُدٍ في أُحد.

السَّلَامُ علَيْكَ يا عليّ: عمرو بن عبد ودّ، في الخندق، والأحزاب.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: مرحب، وحصون خيبر في خيبر.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: يوم فتح مكَّة، وإذلال الطلقاء.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: حنين في حنين، يوم ضاقت الأرض على المسلمين بما رحبت، وقد ولوا مدبرين.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: يوم قاتلت الناكثين في الجمل.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: يوم دوخت المارقين في النهروان.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: يوم جاهدت القاسطين في صفِّين.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: مضْمَضَةِ نوْمِك في ليل تهجدك لربِّك، وفي ليل حربك.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ على منبرك: يوم قلت: اسألوني قبل أن تفقدوني، فإنِّي بطرق السَّماوات، أعلم منِّي بطرق الأرض.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: يا قسيم الجنَّة والنَّار، وحامل لواء الحمد يوم القيامة.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: يا أخا رسول الله، وابن عمِّه، وصهره، ووصيِّه، وحامل لوائه في مواطن حربه.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يا عليّ: وعلى زوجتك فاطمة بنت رسول الله، سيِّدة نساء أهل الجنَّة، وعلى ولديك الحسن والحسين، سبطي رسول الله، وسيِّدي شباب أهل الجنَّة، وعلى الأئمَّة التسعة المعصومين، لصلب ولدك الحسين، شهيد كربلاء.

السَّلَامُ عَلَيْكُم يا أصحاب الكساء، وآية التطهير، والمباهلة، محمَّد، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، ورحمة الله وبركاته.

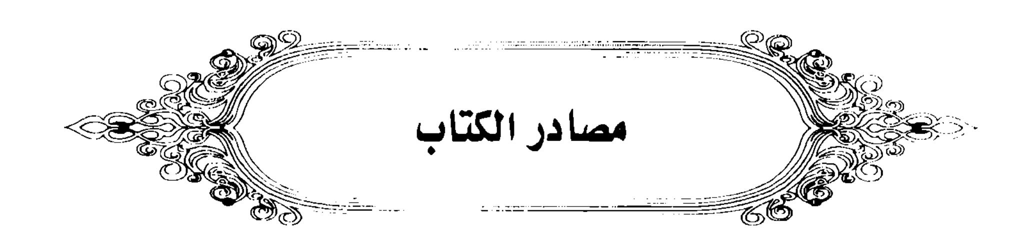
قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[1].

الشفاعة الشفاعة ياعليّ، والحمد لله ربّ العالمين.

الأربعاء ١٢/ ٢/ ٢٠١٤م
١٢ ربيع آخر/ ١٤٣٥هـ
حسين أحمد مسلماني
(أبو جابر)

---

(١) سورة النجم: ٣٩ ـ ٤٢.



مصادر الكتاب

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **نهج البلاغة** ـ للإمام علي عليه السلام

* * *

٣ ـ **الاحتجاج** ـ للطبرسي ـ من أعلام القرن السادس.

٤ ـ **الإرشاد** ـ للمفيد ـ ٤١٣هـ.

٥ ـ **الاستيعاب** ـ ابن عبد البر.

٦ ـ **أسد الغابة** ـ ابن الأثير ـ ٦٣٠هـ.

٧ ـ **الإمامة والسياسة** ـ لابن قتيبة ـ ٢٨٦هـ.

٨ ـ **بحار الأنوار** ـ للمجلسي ـ ١١١٠هـ.

٩ ـ **البداية والنهاية** ـ لابن كثير ـ ٧٧٤هـ.

١٠ ـ **تاريخ الأمم والملوك** ـ للطبري ـ ٣١٠هـ.

١١ ـ **تاريخ اليعقوبي** ـ اليعقوبي ـ ٢٨٨هـ.

١٢ ـ **تفسير البرهان** ـ السيد هاشم البحراني ـ ١١٠٩هـ.

١٣ ـ **تفسير الثعلبي** ـ الثعلبي.

١٤ ـ **تفسير الكبير** ـ للفخر الرازي ـ ٦٠٦هـ.

١٥ ـ **تفسير الميزان** ـ للطباطبائي.

١٦ ـ **تفسير مجمع البيان** ـ للطبرسي ـ ٥٤٨هـ.

١٧ ـ **الخصائص الكبرى** ـ للسيوطي ـ ٩١١هـ.
١٨ ـ **ذخائر العقبى** ـ محب الدين بن أحمد الطبري ـ ٦٩٤هـ.
١٩ ـ **روضة الواعظين** ـ الفتال النيسابوري ـ ٥٠٨هـ.
٢٠ ـ **السيرة** ـ لابن هشام ـ ٢١٨هـ.
٢١ ـ **السيرة الحلبية** ـ علي بن برهان الدين الحلبي ـ ١٠٤٤هـ.
٢٢ ـ **شرح الأخبار** ـ للقاضي النعمان التميمي ـ ٣٦٣هـ.
٢٣ ـ **شرح نهج البلاغة** ـ لابن أبي الحديد المعتزلي ـ ٦٥٦هـ.
٢٤ ـ **صحيح البخاري** ـ البخاري ـ ٢٥٦هـ.
٢٥ ـ **صحيح مسلم** ـ مسلم ـ ٢٦١هـ.
٢٦ ـ **الطبقات الكبرى** ـ ابن سعد ـ ٢٠٣هـ.
٢٧ ـ **العقد الفريد** ـ للأندلسي ـ ٣٢٨هـ.
٢٨ ـ **كنز العمال** ـ للمتقي ـ ٩٧٥هـ
٢٩ ـ **المجالس السنية** ـ للأمين.
٣٠ ـ **مروج الذهب** ـ للمسعودي ـ ٣٤٦هـ.
٣١ ـ **المستدرك على الصحيحين** ـ للحاكم النيسابوري ـ ٤٠٥هـ.
٣٢ ـ **مقتل الحسين** ـ للخوارزمي ٥٦٨هـ.
٣٣ ـ **شرح النهج** ـ للشيخ محمد عبده.
٣٤ ـ **الرسائل** ـ للجاحظ، ٢٥٥هـ.
٣٥ ـ **الفنوح** ـ لابن الأعثم ـ ٣١٤هـ.
٣٦ ـ **مقاتل الطالبيين** ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ٣٥٦هـ
٣٧ ـ **الدُّر المنثور في التفسير المأثور** ـ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي ـ ٩١١هـ.



نبذة عن المؤلف

ـ ولد المؤلف سنة ١٩٥٥ في قريته الشعيتية قضاء صور لبنان الجنوبي.

صدر له:

١ ـ مرور (كتاب أدبي).

٢ ـ رسول الشمس (سيرة الرسول ﷺ).

٣ ـ غُرْفَةٌ مِنْ بَحْر عَلِيّ عليه السلام وهو الكتاب الذي بين يديك.

٤ ـ ضحكة وجمال (كتاب أدبي) قيد الطباعة.

